

رواية

# أفريقي طرح

تأليف الفيكونت دوشاتو بريان الكاتب الفرنسي الشهير  
ويليها

## خِلاصَتَاكَ فِي الْإِنْدَالُسِ

الى سقوط غرناطة

مترجم الرواية ومؤلف الكتاب  
اشهر كتاب العرب ، في التاريخ والسياسة والادب ، الامير  
شكيب ارسلان

ويليها

كتاب أخبار العصر ، في انقضاء دولة بني نصر  
لمؤلف شهد وقائع سقوط الاندلس بنفسه  
واثارة تاريخية رسمية ، في أربعة كتب سلطانية أندلسية

طبع في

طبعة الميادين

سنة ١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ م

## فهرس رواية اخربني سراج

صفحة	صفحة
٣٩	٢
٣٩	٤
٤٠	٤
٤٦	٨
٤٨	٩
٥٢	١٣
٥٣	١٦
٥٤	١٧
٥٦	١٨
٥٧	١٩
٥٨	٢٢
	٢٣
	٢٤
	٢٧
	٣١
	٣١
	٣٢
	٣٤
	٣٦

فهرس ملخص تاريخ الاندلس

صفحة	صفحة
١٢٠	٦٠
ما قاله ضياء باشا كبير أدباء الترك عن الاندلس	قصود التواريخ العربية عن الوفاء بشرح كائنة الاندلس الاخيرة
١٢٥	٦٣
استصراخ بنى الاحمر السلطان يعقوب ابن عبدالحق المريني	وانقراض ملك الاسلام منها ذكر بنى سراج
١٢٦	٦٩
مواقف هذا السلطان في الجهاد	ذكر مملكة غرناطة
١٣٦	٧٢
واقفاه ابنه السلطان أبي يعقوب أثره	ذكر أجل قواعد الاندلس
١٤١	٧٧
مواقف السلطان أبي الحسن المريني في الجهاد	ذكر فتح الاندلس
١٤٢	٧٨
ظهور رأساطيل الاسلام على أساطيل الافرنج	عبدالرحمن الداخل وبنو أمية
١٤٢	٧٨
تحريض المساميين في واقعة طريف	المنصور بن أبي عامر
١٤٣	٨٢
انكسار الاسطول الاسلامي في بحر الزقاق	بنو حمود الحسنيون
١٤٦	٨٣
أيام محمد الخامس واسطة عقد بنى الاحمر ونكبه والتجأؤه إلى السلطان أبي سالم المريني	بنو عباد اللخميون وبنو ذي النون
١٤٨	٨٦
خير لسان الدين بن الخطيب و زير غرناطة ورأس الادباء في عصره	بنو هودو بنو الافطس وبنو صمادح
١٥٦	٩٢
ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ	واقعة الزلاقة الشهيرة
١٦٦	٩٥
اضطهاد الاسبان نيول لمسلمي اسبانية ولبهم ودها	استيلاء يوسف بن تاشفين على الاندلس ونكبة المعتمد بن عباد
١٦٧	٩٦
خير المدجنين اي المسلمين الذين تحت حكم ملوك الاسبان نيول	ظهور الموحدين
١٧٥	٩٩
خير دول اسبانية المعاصرة لبني الاحمر	واقعة الارك الشهيرة والسلطان يعقوب من بنى عبدالمؤمن الذي استجاشه
١٨٤	١٠١
السيد انريق بطل رواية كورنايل	صلاح الدين الايوبي على الافرنج
١٩٤	١٠١
فرديناند ملك اراغون وايزابلا ملكة قشتالة	واقعة العقاب الشهيرة التي محص بها المسلمون ودولة بنى مرين
٢١٨	١٠٣
ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الاسلام والنصرانية	ملوك غرناطة بنو نصر الذين يقال لهم بنو الاحمر من الخزرج
	١٠٤
	اصهارم بنو اشقيلولة
	١٠٥
	استشعار المسلمين قرب سقوط الاندلس
	١٠٨ - ١١٩
	قصائد الاستفانة
	١٠٨
	سينية ابن الابار الفضاى
	١١٦
	نونية أبي البقاء الرندي

صفحة	صفحة
٢٥٤	٢٢٠
الحرب الاهلية في وسط غرناطة	ذكر عامر بن ادريس والاعياص من
٢٥٥	بني مرين
وقائع رنذة والصخرة	٢٢١ عثمان بن ابي العلاء شيخ الغزاة
٢٥٧	٢٢٥ ترسل اسان الدين بن الخطيب
نزول السلطان ابي الحسن عن الملك	٢٣٤ رهبانيات النصرى المرصدة
لاخيه الزغل	لمجاهدة المسلمين
٢٥٨	٢٣٦ الحروب التي انتهت بسقوط غرناطة
فرار السلطان ابي عبد الله ان اخيه	السلطان ابو الحسن علي بن الاحمر
ان ملوك الاسبان نيول مستغيثا	والحرب بينه وبين فرديناند وايزابلا
٢٥٩	٢٣٨ سلطنة غرناطة نحو ٣٠ مصرأ و ٨٠
انتصار الزغل على الاسبان نيول	مدينة صغيرة
٢٦٠	٢٣٨ مسلمو الاندلس يومئذ اربعة ملايين
انتصار ر بضع البيازين من غرناطة	٢٤٠ زوجتا السلطان ابي الحسن ابنة عمه
لاني عبد الله بن اخي الزغل	عائشة الحرة وثريا الاسبانولية
٢٦٤	ومنافستهما وهي من عوامل السقوط
الحرب بين العم وابن اخيه	٢٤١ نكبة الحامة
٢٦٧	٢٤٤ الحرب على لوشة
وصول خبر الاندلس الى المشرق	٢٤٧ انتفاض ابي عبد الله محمد على ابيه
٢٦٧	السلطان ابي الحسن ومبايعة غرناطة
مهادنة السلطان بايزيد العثماني	له وتحويل السلطان الى مالقة
اصحاب مصر وانفاقهما على اغائة	٢٤٨ غزوات ابي الحسن في طريف
الاندلس	٢٤٩ الامير ابو عبد الله الزغل أخو
٢٦٧	السلطان ابي الحسن ووقائعه
خيف فرديناند وايزابلا من مجيء	٢٥٠ هزيمة مركيز قانس والكونت
اساطيل اسلامية لنجدة مسلمي	دوسية نتاز ورفاقهما
الاندلس ومراقبتها للسواحل	٢٥٢ وقوع السلطان ابي عبد الله بن السلطان
٢٦٧	ابى الحسن اسيراً ورجوع والده الى
حصار مالقة	غرناطة
٢٦٩	٢٥٤ اعادة ملوك الاسبان نيول السلطان
سقوط بلش	ابا عبد الله الى غرناطة لتأريث الفتنة
٢٧٩	بينه وبين ابيه
سقوط مالقة بعد وقائع شديدة	
٢٨١	
ككرة ابي عبد الله الزغل	
٢٨٢	
ككرة أهالي المرية وطبرنة و برشنة	
٢٨٣	
وعارات المسلمين في بلاد الاسبان نيول	
حصار فرديناند لبسطة	
٢٨٤	
تضييق فرديناند على بسطة وعجز	
الزغل عن امدادها خوفاً من زحف	
ابن أخيه ابي عبد الله من غرناطة عليه	
٢٩٢	
حضور راهبين من بيت المقدس	
بأمر من سلطان مصر ومعها كتب	
منه الى ملوك الاسبان نيول وكتب من	
البابا ومن ملك نابولي بشأن الافراج	

صفحة	صفحة
٣٢٧	٢٩٥
بناء معسكر من الحجر صار مدينة	عن مسلمي الاندلس لثلاثيؤدي هذا
اسمها «صنتافي» اي الايمان المقدس	التادي في قهرهم الى الانتقام من
٣٢٨	مسيحي الشرق
اشتداد الجوع بأهل غرناطة وخيبة	ارسال فرديناند وايزابلا انورخ
آمالهم بوصول مدد من جهة ملوك	بطرهمارتير بسفار الى سلطان مصر
الاسلام وعقد ابي عبد الله مجلسا	واعمال الخيلة في صرف الدولة
حضره اعيان البلد واجماعهم على	المصرية عن الاهتمام بأمر الاندلس
التسليم بسبب الجوع وخذلان	٣٠٠
المسلمين لهم	تسليم اسطة بعد حصار ٦ أشهر ٢ يوما
٣٢٨	٣٠٣
ياس الغراطيين الاموسى بن ابي	تنصر سيدي يحيى قائد بسطة سراً
الغيسان	ودخوله في خدمة الطاغية واقناعه
٣٢٩	السلطان ابا عبد الله الزغا بالدخول
ارسال نوزير ابي العاسم عبد المالك	في طاعة ملوك الاسبانول
الى فرديناند وايرا الا يطلب الصلح	٣٠٥
شروط الصلح وما فيها من الاعتدال	دخول الزغل في طاعة الطاغية
في اول الامر خذاع المسلمين	وتسليمه ما كان بيده من البلاد
٣٢٩	٣٠٦
امهال الاسبانول أهل غرناطة	فرح ابن أخيه السلطان ابي عبد الله
سبعين يوما على أن يسلموا ان لم يرد	الملقب بالشقيتو بنخر تسليم عمه
لهم في خلالها مدد من وراء البحر	٣٠٦
٣٣١	ارسال فرديناند الى الشقيتو النذير
ما يقال عن نهاية امر موسى بن أبي	بوجوب تسليم غرناطة
الغيسان بعد ان يش من حمل	٣٠٨
الغراطيين على متابعة الجهاد	نشوب الحرب بين غرناطة والطاغية
٣٣٧	٣٠٩
بش الطاغية جميع أساطيله وجيوشه	موسى بن ابي الغيسان روح الجهاد
على السواحل منعا لوصول أي مدد	٣١٢
٣٣٨	استيلاء السلطان ابي عبد الله على
قيام مرابط اسمه حامد بن زاره	حصن همدان وحصن مارشنة
بانتفاخ اهل غرناطة للدفاع حتى	٣١٣
تأتيهم الامداد من جبال البشرات	حصار ابي عبد الله لمدينة شلو بامية
ومن بر العدو	٣١٥
٣٣٨	اخراج الطاغية اهالي وادي آش
ثورة عشر بن الغانم اهل غرناطة	وبسطة والمرية من مساكنهم وجلاء
للدفاع وروز السلطان ابي عبد الله	اكثرهم الى افر يقية
للملا واقباعه اياهم بالتسليم لمشيئة الله	٣١٦
٣٣٨	زحف الطاغية على غرناطة وتخريب
امضاء المعاهدات في ٢٥ كانون	وعبته في مروجها الحصيبة
الأول وفق ٢٢ المحرم سنة ٨٩٧	٣١٨
	وقائم بطل الابطال الامير موسى بن
	ابي الغيسان وهي من انظم العبر
	٣٢٤
	احتراق معسكر الاسبانول

صفحة	صفحة
الامبراطور شرلكان	٣٣٩ خروج ابي عبد الله وحرمة وحواشيه
الثور النازية في جبال البشرات وقيام	من الحمراء واعترافه بذنوبه
٣٥٣ هرناندو دوفلور من سلائل خلفاء	٣٤٠ تلاقية مع فرديناند وايزابلا في
قرطبة تحت اسم محمد بن امية سنة	الطريق وتسليمه مفاتيح البلاد اليها
١٥٦٨	٣٤١ الذروة المسماة بآخر حشرات المغربي
قتل محمد بن امية وقيام عبد الله بن	التي منها نظر ابو عبد الله الى غرناطة
٣٥٣ ابوه خلفاه وانتهاء الثورة سنة ١٥٧٠	نظرة الأخيرة
الجللاء الاخير الذي لم يبق بعده مسلم	٣٤١ اجهاشه بالبكاء عند ماسمع دوي
واحد بالاندلس سنة ١٦١٠	المدافع ورأى دخان البارود ايدانا
٣٥٤ شدة الحروب بين الموريسك اي	يدخول الطاغية الى الحمراء وكلمة امه له
المسلمين المنصرين كرها و بين	٣٤٢ تحويل مسجد غرناطة الأعظم الى
الجيوش الاسبانية	كنيسة واستقرار فرديناند وامرأه في
٣٥٤ قمع الثورة بأقصى الشدة واجلاء قسم	في الحمراء ورؤيتها اياها فوق ما كانا
كبير من المسلمين	يتصوران
٣٥٨ انشاء ديوان جديد لتفتيش ومماقره	٢٤٧ اقامة ابي عبد الله باقطاعه في وداي
طرد اليهود من اسبانية وسلب اموالهم	برشانة ومحاولة فرديناند وايزابلا
واكمال شرلكان متمصد فرديناند	بكل وسيلة حمله على النصرانية
باكره المسلمين على التنصر	٣٤٨ مداخلة الطاغية يوسف بن كاشة
٣٥٩ كلام المقرئ في نهاية الاندلس	وزيرا ابي عبد الله في حمله على الرحيل
٣٦١ الاعتذار بالفدر والاستسلام له	الى بر المدوة وشراؤه اراضيه
( خاتمة الكتاب ) في حضارة العرب	٣٤٩ اجازة ابي عبد الله ونزوله بعلمية واقامته
وأثارهم بالاندلس	بناس حيث توفي سنة ٩٤٠
﴿ فهرس كتاب اخبار مصر ﴾	٣٥٠ نفص الاسبان بول معاهدة غرناطة
٣٧١ استواء الامير ابي الحسن علي بن سعد	عروة عريه واكرامهم المسلمين على
على الاندلس وحسن سيرته اولا	التنصرا والجللاء
٣٧٢ عرضه الجيش في مدينة الحمراء بظمة	٣٥١ الثورة في جبال البشرات وهزيمة
نادرة ومعرض اثناثة من السيل	الدون الونزو اغيلار البطل التهمير
الحارف الذي خرب غرناطة	٣٥٢ اكرام المسلمين على التزني
٣٧٣ انتكاس ملكه واتهامه من ذلك	بالزى الاسبانيولي ومنهم من
التاريخ بانها كة في الشهوات وفساده	التكلم بالمعنى وهدمهم الحمايت
امرا الجند ووضعه المغارم والمظالم على	لمنهم من الفسل سنة ١٥٢٦ بأمر

صفحة	صفحة
٤٠٢	الناس ومساعدة وزيره على ذلك
٤٠٣	٣٧٤ طمع النصارى في مكة وشر وعهم في فتح البلاد وأخذ الحصون
٤٠٤	٣٧٨ مركة عظيمة نصر فيها المسلمون رد الكرة لانسارى عليهم
٤٠٥	٣٧٩ ظهور المسلمين عليهم كرة أخرى
٤٠٨	٣٨٢ استمرارهم على اخذ الحصون عنوة وصالحا لاجل الاحاطة بقرناطة
٤٠٩	٤٠٠ ضعف قرناطة وقلة الطعام والرجال فيها شتاء سنة (٩٨٧) وشكوى الامالى لامرعم محمد بن علي ذلك مع انقطاع المدد عنهم ورغبتهم في الملح وهو ما كان يتمناه ويحاوله
٤١٠	٤٠١ مخاطبته لملك الروم بالصالح والعدل هذا الجميع شر وطهم الحسنة خذوا
٤١٤	التعريف بكتاب اخبار العصر وبالمراسيم الاربعة التي تليه

## جدول اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	٩	سجرا	سجرا	٦٨	٦	بم	بم
٧	٩	لامثيل له	لامثيل له	٦٨	٧	به	به
١٠	١١	إن	أن	٧٦	٢٠	بواسل	بواسل (او) بسلا
١٨	٤	بسيدة	بسيد	٨٥	١٢	مغلاة	مقلات
٣٣	٤	حول	نحو	٨٦	١٣	الافسط	الافطس
٤١	١	لحاء	لحاء	٩٨	٢٠	فقل الى	خصوصا لما
٤٥	١٢	للتفتيش على	للتفتيش عن			المغرب	بلغه من
٥٥	٧	قوم	آخر قوم			خصوصا لما	ثورة ابن
٥٥	٩	نجدى	نجرى			بلغه من ثورة	غانية الذي
٦٨	٤	القاسم	القاسم			ابن غانية الذي	كان واليا في

الخطأ والصواب

ز

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
		إصالة	أصالة	٣٣٠	١٦	ميورقة	كان واليا في
		دريا	دربا	٢٤٠	٢١	فقتغل الى	ميورقة فلم
		إمامم	أمامم	٢٤٥	١٨	المغرب فلم	تكداخ
		الكز	الكر والقر	٢٤٩	٥	تككد الخ	
١٠٨	١٩	وجال	ووصل	٢٥٣	٧	وحوال	
١٠٨	٢٠	الدبا	اخيز	٢٥٥	٥	الذي	
١٠٩	١٨	لائبيه	فتازوا	٢٥٦	١	لائبته	
١٢٣	٢١	من	الآخرة	٢٥٦	٤	الى	
١٢٥	١٣	عزائمم	الزغل	٢٥٧	١٦	عزائمم	
١٢٥	»»	جمته	وتحصين	٢٦٤	٣	جميته	
١٣٤	١١	ونقل	اعداء	٢٦٨	١٨	ونقل	
١٤٥	»»	وتقى مع	آخر	٢٧٦	٢	وبقى امر	
١٤٨	١٥	الرجا	ابا	٢٧٩	١	الرجال	
١٥١	٥	والاصفاق	رعد	٢٨٣	١٦	والاصفاق	
»»	٨	بيتما	اختطاط	٢٩٦	١٥	مبيتنا	
١٦٠	١٠	طيطلة	الملاك	»»»	١٨	طيطايه	
١٨٣	١	الى	يتسلمها	٣٠١	٧	الى فرد ياتد	
»»	٩	النصرانية	من الحمراء	٣٠٦	١٨	تمالك	
»»	١٢	البحر مملكة	وحدثهم	٣٠٩	٨	النصرانية	
٢٠١	٣	آلى	فاعةم	٣١٠	٥	مملكة	
٢٠٥	١٦	وتفجه	لسيدي	٣١٤	١٢	آلا	
٢٠٧	٢٠	فقد	استصفى	٣١٦	١٣	ونفجه	
٢١١	٢	نهاره	نحار	٣١٨	٢	فقد	
٢١٢	٢	نهاره	حتى ولا	٣٢٧	١	نهاه	
٢١٦	١٧	فاستلم	المصر	»»»	٤	فقدتم	
٢٢٢	١٤	ايه	غرناطة ذلك	»»»	٤	ابنه	
٢٢٢	١٦	الارضى البطل	وفتهائه	٣٢٨	٨	البطل	
٢٢٦	٩	الارضى	فلم	٣٢٩	٩	الارضى	
٢٢٦	٤	ويستنب	فن العيزان	٣٣١	١٧	ويستنب	
٢٢٩	١٩	جامع	تموت جبانا			غير جامع	



صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
»»»	١٨	محل	من محل	٣٧٣	١٧	يسع	يسمع
٣٣٢	١	لها	له	٣٧٤	٣	المذكور	المذكور
٣٤٠	٥	واستلم	واتسلم	»»»	١٩	نقل من نقد	قتل من نقد
٣٤١	١	التي	والتي	٣٧٨	٨	يردون	يريدون
٣٤٢	١٣	كان	كانا	٣٧٨	١٨	اللغة	ألفه
٣٥٢	٧	ويعاونونهم	ويعاونونهم	٣٧٩	١٣	هلاك	في هلاك
٣٩٤	١٨	وما بعد أن و	وما بعد الفاء و	٣٨٠	١١	غيره: ال من	من غير قتال
٣٧٥	١٩	الرم	الروم	٣٨٥	٢	اغرباطه	غرناطة
٣٧٢	٥	العد»	العد	٣٨٧	١٩	بلش	مدينة بلش
٣٧٣	١٣	الرافير	المرافير				

( وليمعلم ان في كتاب أخبار مصر والمراسيم التي تليه اغلاطا بعضها من الاصل و بعضها من الطبعة الاولى ركت على حالها )

### تنبیه

إنه لما كان هذا الكتاب قد انطبع بمطبعة المثار بمصر ، وكنا نحن بمكان والمطبعة بمكان ، رجونا حضرة الاستاذ العلامة صاحب المثار أن يشرف على طبع الكتاب وية لي تصحيح مسوداته — وهل يفتى ومالك في المدينة — فعلق الاستاذ أثناء تصحيح المسردات بعض ملاحظات عننت له ، ومنها ما هو شبه اعتراض على المتن ولم ين بعض هذه الملاحظات غير معلم عليها بامضائه فحشية ان يختلط الحال بالنابل وحب التنبیه على الحواشي التي علقها الاستاذ فهي الواردة في صفحات ٨ و ٢٧ و ٦٣ و ٦٥ و ١١٣ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٩٠ و ٣٤٧ والحاشية الثانية من ص ٣٧٠ الاولى من ص ٣٧٥ وسائر حواشيد معز وة الى مصصح الطبع وما بقي من الحواشي فهو من قلم مؤلف الكتاب شكيب ارسلان

اعذاركم انتم بمسرد الاعتراض بما ذكر على امير البيان بل جري به القلم كما دته لزيد المائدة كطابع سينية ابي تمام ذكرنا بص الديوان المطبوع ولا نجزم أنه الصواب لكثرة غلط الديوان وكلاستدرالذي في مسألة الجوهرى والبرامكة في المتن لا ينافيه وكذلك حاشية القدر في ص ٣٦١ وأما حاشية ص ٣٦٧ ففيها حمل كلام المتن على اصل بليغ مع مخالفة ظاهره ولو ردا حديث

رواية

# أفريقي سراج

( تأليف )

الفيكونت دو شاتوبريان الكاتب الفرنسي الشهير

مترجمة ومذيبة بملخصة من تاريخ الاندلس

الى سقوط غرناطة

بقلم صاحب السعادة الامير شكيب أرسلان

( الكاتب المتفنن والمؤرخ الشهير )

طبعت اولاً بمطبعة الاهرام بالاسكندرية سنة ١٨٩٧

الطبعة الثانية في

مطبعة المياريبصر

سنة ١٣٤٣ هـ — سنة ١٩٢٤ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه قصة لطيفة من نوع القصص المعروف ، على أسلوب الوضع المؤلف ، ألفها ( الفيكونت دو شاتوبريان ) الكاتب الفرنسي الشهير وسماها ( وقائم آخر بني سراج ) وأدارها على سباحة شاب تام الرجولية ، باهر الفروسية ، من بقايا آل سراج الفرناطيين ، من أكرم بيوتات العرب الباقين ، كانوا بالاندلس لعمد خلوها من الاسلام ، ونبوها عن حجر الاعلام ، هب من تونس حيث كان جالية الاندلس قد نزل اكثرهم سائحا الى وطنه القديم ، متعللا بالعظام الرميم ، طائعا هوى النفس في الذهاب اين ساقه التذكار والحنين ، هائما على وجهه في تلك الارض التي عمرها آباؤه مئين من السنين ، وبينما هو يجول في شوارع غرناطة مسكن أهله قبل الجلاء الاخير ، وثمالة ما كان بقي في يد الاسلام من ذلك النعيم والملك الكبير ، كانت منه لفتة وقع فيها بصره على فتاة من سريات الاسبانياول فعاقت بقلبه ، ووقع نظره منها على مثله فتعاشقا وتوزعت القصة بين حبها وحبه ، وحال دون اقترانهما اعجاب كل بدينه واخلاصه لربه ، ثم ما تبين لابن سراج بعد طول العشرة من كون معشوقته سلالة من آل بينار الفاتكين لدن الجلاء بأبائه ، فرأى اختلاط دم القتاتل بدم المقتول غير خليق بأبائه ، ولا ممتزج بشيمة وفاته ، بل

مضي كل من المتعاشقين بحبيبه صبا ، قد اختلطت مهجتاهما حبا ، ولم  
يفرق بينهما الا الدين والا المودة في القربى  
أصبت هذه القصة في بعض المظان فاخترت نقلها الى اللسان  
العربي المبين ، للطف معناها ، وشرف مغزاها ، وما تضمنته من  
آداب المحبين ، وايتارآلها فيها من مكارم الاخلاق ، ومزايا الاشراف من  
الفرسان ، واظلالها على كثير من الصفات الملوكية متزحزحة عن افق  
الملا العلوي الى عالم الانسان ، استدلالا على بديع صنع الله حين يجمع  
بين الحسن والاحسان ، ثم تعريفنا بحال الفروسية إذ ذاك ، وما انطوى  
من مكارم الاخلاق بين الالجام والاسراج ، وتلذذا بذكرى السلف ،  
واستقراء لآثار العرب ، على نحو الغرض الذي حدا بقية بني سراج ،  
ووصلتها بنديل من أخبار الاندلس اللازمة للقصة الزائدة في طلاوتها ،  
المساعدة في فهمها وتسوغ حلاوتها ، فجاء فيها من لطف الحقيقة ما لا يقصر  
عن لطف الخيال ، وأعيد بها كثير من صدى الاندلس قبل تأذن الله بالزيار ،  
والله سبحانه يرشدنا الى طريق الخير وهو المسئول بحسن المآل ،  
آمين



( القصة )

لما اضطرَّ السلطان ابو عبد الله صاحب غرناطة آخر ملوك الاسلام بالاندلس الى مهاجرة ملك اجداده ، والجلاء عن بلاده ، وقف يبكي على الاحبة والمنازل من ذروة جبل (بادول) المشرف على البحر ، اذ كان هذا الملك المشؤوم الطالع يروم الاجازة الى بر العدو ، وكانت تبدو من هناك غرناطة ومرجها ( الفيحة ) ونهرها ( الشنيل ) على ضفتيه مضروبة قباب ( فرديناند ) طاغية الاسبانيول وقرينته الملكة ( ايزابلا ) فلما تأمل ابو عبد الله رونق ذلك المظر ، وسرَّح جواد الطرف في مسارح تلك اللحاحات ، وشاهد أشجار السرو والباسنة فوق مقابر المسلمين - أجهش بالبكاء والمويل ، واستعبر اذا اعتبر ذهاب ذلك الملك العريض الطويل ، فقالت له أمه عائشة ، التي كانت في صحبته مع كبار الحاشية « ابك الآن بكاء النساء ، الملك الذي لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال » ثم هبطوا الساحل وغابت غرناطة عن أعينهم غيبة انقطاع

وأما مغاربة اسبانية الذين أصابهم ما أصاب ملكهم أبا عبد الله من فقد الملك ، وانتثار السلك ، فقد تفرقوا شامطيط في أقطار افريقية ، فنزل منهم بنو ( الزغري ) غمارة بأراضي فاس التي يقال إن أصلهم منها . أما البنغاز والعباس فانتشروا بسيف البحر من وهران الى الجزائر ، وأما بنو سراج فأقاموا بربض تونس واستعمروا هناك حيال دمن قرطاجنة محلة يمتاز أهلها عن سائر أهل المغرب بجمال الشارة ولطف الخلق

وقد احتملت هذه العشائر الى وطنها الجديد ذكرى وطنها القديم  
ملء القلوب ، ولم تزل جنة ( غرناطة ) مصورة أبدا في مخيلاتهم ،  
فالامهات يلقن اسمها أطفالهن مع الرضاع ، ويهزُن بهم الاسرة بقصص  
نبي الزغري وبنو سراج ، وهم في كل خمسة أيام يقيمون في المسجد الصلاة  
والدعاء برجوع غرناطة الى يد الاسلام ، ويضرعون الى الله أن يعيد الى  
جزبه أرض السعادة وفر دوس الدنيا ، لا يسليهم عنها من تونس الخضراء  
خضرة خمائل ، ولا نضرة جداول ، ولا يانع تمار ، ولا عذب نمير ،  
ولا شمس هجير ، بل لم يكن عندهم خارجا عن أبراج الحمراء تمار طيبة ؛  
ولا عيون صافية ، ولا روض ولا غير ، ولا أقاح ولا أزاهير ، ولا شمس  
تستحق أن يلتفت اليها أبداً ، ولا بلدة تؤتي أكهار غدا ، فاذا أطلع  
احد واحداً من جالية الاندلس على مرصع ( بفرادة ) مثلاهز راسه ،  
وصعد أنفاسه ، وهتف « غرناطة »

وكان بنو سراج على الخصوص يحفظون لوطنهم أرق وأمتن  
تذكار ، ويحنون اليه ولا حنين الطير الى الاوكار ، فانهم كانوا فارقوا ميدان  
ذلك الجهاد ، فراق الارواح للاجساد ، وختت منهم تلك الارجاء التي  
طلما تجاوزت أصداؤها بأصوات الشهامة والحب ، واذ لم يبق في إمكانهم  
هزّ عوالي المران في الصحراء ، ولا التقنع بالخوذ بين جالية من الاندلس  
متكسبين ، وغرباء في ارتياد الرزق منتشرين ، عكفوا على درس العقاقير ،  
مهنة معتبرة عند العرب تضاهي عندهم مهنة عمل السلاح ، وهكذا هذه  
السلالة الباسلة التي كان أفرادها فيما مضى من الدهر ينكأون الجروح ،  
ويفرجون الموم ، أصبحوا في تاليه يدملون القروح ، ويبرثون الجسوم

وفي هذا أيضا لم تزل على شيء من شأنها الاول لان الفرسان كانوا بأنفسهم يضمدون جراحات الاقران، بعد ان يصرعوهم في ساحة النزال وبعد ان كان لهذا البيت الكريم السراجي القصور الشاهقة الى العنان ، والصروح البالغة في تطاول البنيان، صار ياوي الى كوخ منفرد لم يكن في وسط قرية المهاجرين بسفح جبل ( مامليف ) بل كان قائما وسط أطلال ( قرطاجنة ) بسيف البحر في المكان الذي هلك فيه ( مار لويس ) ضجيم الرماد ، وفيه الآن قترة ناسك من عباد المسلمين ، وكان معلقا على حيطان الكوخ درقات من جلد أسد مصور عليها في رقعة زرقاء شكل وحشين مفترسين أمامهما دبوس قد سخرا به مدينة وبجانب هذه الصورة مكتوب هكذا « متاع قليل » وهذه كانت أسلحة سمة بني سراج — وكان مصفوقا بجانب تلك التروس بين البواتر اللامعة والخناجر البراقة ، اسنة معلة بإشارات بيض وزرق ، وبرانس محررة من الاطلس الخالص ، وهناك أيضا كفوف حديدية ، ولجم محلاة مرصعة بالجواهر ، وركب ضخمة مفضضة ، وسيوف طوال الشفار ، موشيات الغلف بأنامل بنات الامراء ، ومهاميز من ذهب قد اصطنعت في الغابر برسم خول الفرسان ، وعلى مواثد منصوبة بجانب هذه الآثار الدالة على مجد عريق ، وحسب أصيل ، أدوات حضرية ، وآثار عيشة هادئة ، منها حشائش مقطعة من أعراف جبال الاطلس ، ومنها مقتاتة من الصحراء ، ومنها ما هو مجلوب من مرج غرناطة ، بعضها يناسب آلام البدن ، وبعضها ذو خواص تتناول تفريج هموم الانفس . وكان المعتمد عليه والمتنافس فيه عند بني سراج ما كان منها ذا مسكة في

تسكين الاشجان ، وتيسير السلوان ، والاخذ بالخواطر عن شديد  
التخيلات ، وكاذب الاماني التي تحيي الرجاء ولا تحققه ، الا انه لسوء  
البخت كانت تتلاقى في هذه الاعشاب خواص متناقضة ، فانه كثيرا ما  
كان عرف نبات عرفوه في وطنهم القديم أشد على هؤلاء المهاجرين  
الاشراف ، من السم الزعاف

وكان قد مضى على استخلاص غرناطة من يد المسلمين اربعة  
وعشرون عاما هلك في أمثائها من بني سراج اربعة عشر سريا من تأثير  
الاقليم الجديد في امزجتهم ، وتقلب احوال المهاجرة بهم ، ولا سيما شدة  
الحزن الذي لامثيل له في هده القوى الانسانية الباطنة ، ولم يبق من هذا  
البيت الاثيل ، سوى فرع واحد كان رجاء آله الوحيد ، وسند قومه  
الوطيد ، واسمه ( ابن حامد ) وهذا هو ابن السراجي الذي رماه بنو  
الزغري بمغازلة الملكة فهيمة ، كان جامعا في نفسه الجمال الزاهر ، والاقدام  
الباهر ، والادب الغض ، الى كرم العنصر وشرف المنزاع ، مع الرقة في  
الابهة ، والتواضع في الجلال ، تلوح على معارفه ملامح الحزن اللاتمة  
على من نجمل واعتزم في احتمال غدرات الزمان ، لم يكن له من العمر  
عند وفاة ابيه سوى اثنين وعشرين ربيعا ، فنوى السفر لزيارة بلاد  
آبائه قضاء لحاجة في نفس يعقوب ، واتماما ل امر اعتنى بكتامانه عن والده ،  
فأبحر من جون تونس ، وجرت الفلك به بريح طيبة حتى قرطاجنة الاندلس ،  
وهناك وطىء البر وشمرا قاصدا غرناطة ، وكان يعرف نفسه بانه نبأني مغربي  
جاء لانتجاع مساقط الغيث ، وارتياح التعاشيب التي بين صخور شلير  
وغيره من جبال الاندلس ، وكان ممتطيا بغلة هادئة تسير به الهوينيا حيث



كان آباؤه السراجيون يطرون على جياذ مطهمة ، وجر دمسومة ، وكان احد  
الادلاء يسير امامه بينغلين من فاره الحيوان ، عليهما الجلاجل وغزل من  
الصوف مختلف الالوان ، فجاز ابن حامد في مسيره غابات النخيل المشتبك  
في اراضي مرسية وثأمل في قدم تلك الاشجار ، حاسبا انها غرس آباءه ،  
فاستشعر فؤاده الحزن وهاجت خواطره بلابل الاشجان ، ثم لم ينشب ان  
أبصر برجا عاليا كان يسهر فيه الحراس أيام حروب المغاربة والنصارى ،  
وآثار أبنية تدل صنعة بنائها على كونها عربية ، وهي أيضا محل آخر لشجن  
ابن سراج الذي ما زالت تلك المناظر تولمه وتشجيه ، حتى اضطر أن  
يترجل عن بغلته ، وأن يتوارى ساعة وراء تلك الرسوم ، بحجة التنقيح  
عن الاعشاب ليفسح مجال الجرى المدمع السجوم ، متمثلا بقول حبيب :  
ما في وقوفك ساعة من باس تبكي رسوم الاربع الادراس \*  
ثم استأنف السير وهو مستغرق في التمل والادكار ، يطوي البلاد  
على صليل الجلاجل ، وتغني دليله المستمر على وتيرة واحدة ، لا ينقطع  
حداؤه الا لث البغال بأن يناديها تارة يا جيدة يا سريعة ، ويزجرها طور  
بقوله : عدس

وكانت على احد جانبي الطريق قطمان من الضأن يُسيمها راع في بقاع  
صفراء جرداء ، وقد عرض في اثناء الطريق بعض عابري السبيل ، وكأني  
بهذا الطريق قد ازداد لهم وحشة ووحدة ، بدلا من ان يزداد بهم حركة  
وانساء ، وكان كل واحد من هؤلاء المسافرين متقلداً سيفاً ومثلفاً في عباءة ،  
وعلى رأسه قبعة مسترخية تقنع نحو النصف من وجهه ، وكانوا في اثناء  
\* ( كذا في الاصل ، وفي الديوان المطبوع : تقضي ذمام الأربيع الأدراس

مرورهم يلقون السلام على ابن حامد رمزاً وهمساً بحيث لم يميز من سلامهم سوى لفظ الجلالة وكلمتي سيد وفارس . وعند المساء عرسوا في أحد الفنادق فجلس ابن سراج بينهم غربا بدون أن يتكاد قلة احتفالهم به وتظلمهم الى زيه ، وكونهم لم يسألوه عن شيء ولا شافوه بشيء ، وان عمامته وغنبازه ( ١ ) وشكته لم تكن لتحرك منهم ساكنا ، فحيث جرى قضاء الله بأن لا تبقى تلك المملكة الفيحاء للمسلمين لم يعد في وسع ابن حامد إلا أن يعتبر ما يراه من رصانة فأحياها ويمجب بما عليهم من السكنينة والوقار

على أن غاية انفعالات الفارس السراجي لم تكن هناك بل كانت تنظره عند خاتمة مطافه ، وإلقاء عصا تسياره على باب غرناطة . وغرناطة الحمراء مبنية في سفح جبل ( سيار نيفادة ) الشارات ( ٢ ) على رابعتين مسترسلتين صعداً يفصل بينهما واد عميق والابنية ممتدة على الصبب من الجانبين وآخذة برقاب السفوح الى قعر الوادي على شكل يمطي البلدة للناظر هيئة الرمانه — ومنها اشتق اسمها اذ معنى لفظه غرناطة رمانه

وقد أحاط بالمدينة نهران أحدهما يسمى الشنيل والآخر الدورو ( او حدره ) وتحدرا الاول عن مثل سبائك المسجد ، وتصيب الثاني على مثل رمال اللجين ، وبعد أن تطهرت بياهما سفوح الآكام اجتمعوا وتماثقا ، ثم انفصلا وتفارقا ، وتكون كل منهما واديا يلتوي بجانبها التواء الشجاع ، وتطرد منه عيون واقنية يسقى بها مرج غرناطة الافيج ويطيب حفافها الانتجاع ، وهذا المرج الذي تشرف عليه غرناطة كاس من ملتف

( ١ ) لباس لاهل المغرب ( ٢ ) وجبل غرناطة هو شليز من سلسلة الشارات

الدوح، وفي ناني السرح، وأشجار الكرم والرمان، والتين والتوت والليمون،  
حلة خضراء سندسية وقد حفت به جبال مدهشة المنظر، شائقة الملمح،  
فاذا مر السائح من هناك قلب طرفه في صحو تلك السماء، وصفاء ذلك  
الماء، وتبسم ذاك الافق واعتلال ذلك الهواء، لم يتمالك أن يستشعر قلبه  
الأنحلال ونفسه الالتياث، بل يحس أن عواطف الرقة في هذه البلاد  
تغلب على حفاظ الشجاعة، وأن مناخها يحل عقود العزائم، وينكت  
مفتول الشكائم، لولا ان من لوازم العشق لكي يتحقق بوجهه أن يكون  
دائما بصحبة المجد وأن تكون الظبي خفراً لظباء الخفر، وتقوم شفا  
الاجفان، سياجادون شفار الاجفان

ولما شاهد ابن حامد عن بعد اعالي ابراج غرناطة بلغ خفقان قلبه  
واضطراب اعضائه أن التزم الوقوف ببغلقه ثم رديديه نحو زوره وشخص  
بصره نحو المدينة المقدسة والبلدة الطيبة وبهت حائرا صامتا، فوقف  
الدليل لوقوفه. واذا كان الاسبانيول يستشِفون بسهولة العواطف العالية،  
والخواطر السامية، لاح عليه أثر الانفعال وفهم أن المغربي قد قامت قيامته  
عند مارأى وطنه القديم، فالتفت نحوه ابن سراج وشرع في الحديث  
قائلا سعديك أيها الدليل واصدقني المقال فلا ريب عندي لقد كان ميمونا  
يوم ميلادك : سكنت فيه العواصف، ودخل البدر في تمامه، قل لي رعاك  
الله ماهذه الابراج التي تسفر كل نجوم في سماء تلك الروضة الغناء؟ فأجابه  
الدليل هي الحمراء، قل ابن حامد وما هو ذلك القصر الاخر؟ قال  
الاسباني هو قصر الجنراليف (١) الذي فيه غيضة الريحان التي زعموا

(١) جنة العريف حرفها الاسبانيول فقالوا الجنراليف

أن ابن سراج فوجيء فيها مع الملكة فهيمة ، ثم هنالك محلة البيازين ومن  
الجهة الثانية الابراج الحمر

فكانت كل كلمة من كلمات الدليل سهما نافذا في فؤاد ابن حامد،  
وما أشد على المرء من الالتجاء الى الاجنبي في الاستعلام عن منازل آباءه،  
وأخذ صحاح الاطاديت عن سلفه ، ثم وقف الدليل بابن حامد عن  
زيادة الاستعبار والتأمل ، وهتف قائلا له هيا بنا أيها السيد المغربي هيا  
بنا ، هكذا قضى الله فاربط جأشك ، واستثر عزمك ، ألا ترى الى  
فرنسيس ملك فرانسة أسيرا اليوم في مادريد ( مجريط ) عاصمتنا ؟  
بذلك جرى حكم الله الذي لا معقب لحكمه ، ثم رفع قبعته ورسم اشارة  
الصليب على صدره وزجر بغاله ومضى ، وعندها حثت السراجي أيضا  
مطيته قائلا « مكتوب » وانحدرا صوب غرناطة

وفي الطرق مرّا حذاء شجرة لسان الطير الشهيرة بالواقعة التي جرت  
تحتها بين موسى وبين صاحب كالاتراغا ( ١ ) في الكائنة الاخيرة عند  
خروج المسلمين من غرناطة ودارا حول البلدة متزهين ثم دخلها من  
باب البيرة ( ٢ ) وصعدا الرملة ووصلا الى مكان تكتنفه من كل جهة  
ابنية عربية ، وكان هناك خان مفتوح لاجل نزول مغاربة افريقية الذين  
كانت تجارة الحرير في مرج غرناطة يحدوهم الى هناك زرافات فذهب  
الدليل بابن حامد الى ذلك الخان

وكان ابن سراج سابحا في لجة الهواجس سبحا طويلا وقد أقضت  
ذكرى الاوطان مضجعه ، وزادت رؤية الاطلال توجهه وتفجعه ، فلم

يندق طعم راحة في نزله الجديد ، ولا اكتحل طرفه بأمد الكرى بل أتخذ  
مألفه التسهيد ؛ وعند ما عجز عن مقاومة نفسه ، ورائت على عينه يقظة  
حسه ، خرج في أواسط الليل هائما على وجهه في شوارع غرناطة ، وحاول  
أن يعرف بالمشاهدة أو باللامسة بعض الابنية التي كان مشايخه وصفوها  
له ، لعل ذلك البناء الشامخ الذي لم تكن نختى عليه جدرانها مع اشتداد  
الحلك كان في الغابر منزل بني سراج ، أو لعل ذلك المكان الممتزل كان  
معقدا لتلك الحافل التي تباغت باخبارها التواريخ ، وسمعت بمجد غرناطة  
الى المريح ، أو أن من هناك كانت تطالع كواكب الفرسان عليهم الخلل  
المطرزة ، ومن هذا الشاطيء نتقدم الاجزان بالاسلحة والرايات ، فيها  
المقاتلة تقذف بالحراقات ، الى غير ذلك من تخيلات الخيلاء ، والتهيه والمرح  
ولكن والأسفاه ! لم يكن حول ابن حامد إلا السكوت التام بدلا من  
قرع الطبول ، كأن لم يبق بعد العرب عامر ، ولم يسمر بمكة سامر ، بل  
بدات تلك المدينة البكماء غير اهلبا ، وجلس الغالب مكان المغلوب خلي  
البال ، لا بيت بأوجال ، لذلك قال النقي المغربي لنفسه استفهام انكار :  
أفنيام إذا هزلأء الاسبانيول الطفاة تحت السقوف التي طردوا من تحتها  
اجدادني ، وأنا ابن سراج آرق غريبا ذليلا ، وحيدا مجهولا ، على ابواب  
قصور آبائي واجدادني ؛ ان ذلك لخطاب عظيم

ثم أخذ ابن حامد يتأمل في مصاير الامور البشرية وعثرات الجدود  
وسقوط الممالك وتصاريف الاحوال وفي شأن غرناطة هذه التي دهمها  
الاعداء أعظم ما كانت منعمة ، وارفع عيشا ، وبدلها باكيل زهرها اصفاداً  
من حديد ، فامثل امام عينيها أهلها مهاجرين أو طائهم بأثواب الاحتفال

كالمدعوين الى عرس حافل شبت في محفله نار فازدحموا للخروج وأفانتوا  
وهم يتعثرون بأذيال زينتهم

فكانت أشباه هذه الاشباح تزدحم في مخيلة ابن حامد ولم يكن له  
همٌ لما كان بالغاً به من الوجد والبث سوى اتمام المقصد الذي ساقه الى  
زيارة غرناطة. وبينما هو على هذه الحال اذ راعه فراق الصبح وهو يتعسف  
الجواد وقد بعد عن الخان وصار الى ربض متراخ عن المدينة ، والسكل  
رعود ، والابواب والمنافذ مغلقات ، ولا يحس في الشوارع ركز ، ولا  
تسمع نبأ الا صياح الديك ، فقد صار يرتفع من بعض بيوت الفقراء  
منبهاً الناس لمعاودة الكد والشغل

وبعد ان هام ابن حامد طويلاً لايهتدي الى الطريق ، ولا يأتس برقيق  
سمع حركة باب ينفتح ، واذا بغادة حسناء رائحة الشباب ، ناعمة الاهداب ،  
اشبه في ثيابها ببينات ملوك القوط المنقوشة صورهن على جدران اديرتنا القديمة  
لها منظرٌ قيد النواظر لم يزل يروح وينعد في خفارته الحب  
متوشحة بصدارة من الخمل الفاحم قد شدت به رشيق قوامها ،  
وقصر سراويلها الضيق الخالي من اثنايا يكشف نعمة الساق ولطافة القدم ،  
وكان على رأسها عصابة تمسكها باليد اليسرى سوداء ملتفة دائرة الى  
ماتحت الذقن بحيث لم يكن يرى من وجهها كاه سوى احداقها النجيل  
وثغرها الالى ، وكانت معها مهذبته و تابع يحمل بين يديها كتاباً دينياً ،  
ووراءها اثنان من الوصفاء يتبعانها عن بعد ، وهي ذاهبة الى ضللة  
الصبح في دير قريب ابتداء قرع ناقوسه

بأبي من همت فيه سحراً يتهادى كندسيم السحر

اقبس الصبح ضياء ساطعاً فأضأ والفجر لم ينفجر  
واسنمار الروض منه نفحة بينها بين الصبا والزهر  
ايها الطالع بدرأ نيراً لاحلت الدهر الا بصري

فلما وقعت عليها عين ابن حامد خيل اليه انها الملك اسرافيل ، او  
حوراء من قاصرات الطرف غفل عنها رضوان ، فقرت من الجنان ، وقد  
حركها منه ما حركه منها ، ورأى بعينها ورات بعينه ، واخذت ترنو الى  
ابن سراج وعمامة وطيلسانه واسلحته تزيد صباحة وجهه وبهاء طلته  
رونقا وجلالا ، ثم ثابت من دهشها الذي اصابها لاول وهلة فأشارت  
الى ذلك الغريب الديار ان يدنو منها وقالت له بلطافة وهشاشة تمازجها  
نساء تلك الاحياء : ايها السيد المغربي يظهر لي انك قادم جديداً الى  
غرناطة وربما كنت اضمت الطريق

فأجابها ابن حامد ايه يامليكة الجمال وملك الجنان ونعيم العميون والنصرانية  
الحسنة التي فاقت عذارى الكرج لقد اصبت فاني غريب بهذه البلدة قد  
ضلت الطريق ما بين هذه القصور فلم اهتد الى خان المغاربة اسأل الله بحرمة  
محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ان يستعطف قلبك ويجزيك عن كلامك خيرا  
اجابت الاسبانية ان المغاربة موصوفون بالكياسة والادب ، فأنا  
لمت مليكة الجمال ولا حسنة اتبعني ايها الفارس فاني ذاهبة بك الى  
خان المغاربة. ثم تقدمته ومشيت الى ان وصلت به الى باب الخان ودلته عليه  
باليد ثم رجعت من وراء مصنع هناك وتوارت عن العين

انتقلنا من الم الى الم آخر ولا راحة في الدنيا وانما هي سلسلة آلام.  
الآن ليس الوطن وحده هو الشاغل قلب ابن حامد ، وغرناطة لم تعد

في عينيه كما كانت قفرة مهجورة عاطلة مهملة فهي الآن احب ما كانت  
الى قلبه ولكن قد ازدادت عند حسننا جديداً تحات به آثارها ، وامتزج  
الآن بذكرى الآباء جاذب جديد من حب الحسان ، وكان ابن حامد  
قد اكتشف المقبرة التي فيها عظام بني سراج وقرأ وتوسل وانتحب ،  
وارسل الادمع كالسحب ، ولكن مع هذا كله خيل ان الاسبانية الحسناء  
لا بد ان تكون قد مرت بمض الاحيان بتلك المقبرة ، فان بقايا آباءه  
ليست من الشقاء بالمكان الذي كان يظنها فيه . وقد انثى عزمه بأجمعه عن  
حصر رحلته في زيارة مراقداً بآئه ، والبحث على ضفاف الشنيل والحدرة  
عن الاعشاب والنباتات منذ طلوع الشمس الى ان تتوارى بالحجاب ، بل  
أصبحت الزهرة الوحيدة التي يسعى في التفتيش عنها هي النصرانية  
الحسناء ، وكم جداً وذهب نعبه سدى في معرفة قصرها ، وكم مرة عاد  
أدراجه على الطرق التي هداه فيها ذلك الدليل النوراني ، وكم مرة خيل  
له سماع صوت الجرس وصياح الديك الذي كان سماعه صباح يوم مصادفته  
لها حتى كان ينمطف بمنة ويسرة ويركض الى هنا والى هناك وجنة الحور  
العين لا يفتح له طريقها ، وكثيرا ما لاحت له بارقة الامل عند رؤية  
الغواني اللابسات مثلها ، اذ كل النصرانيات على بعد يتشابهن مع مالكة  
فزاده ، ولكن ليس منهم من لها عن قرب باهر جمالها ، ولا ساحر  
لطفها ، ولم يري لقد طوف ابن حامد في الكنائس للظفر بمحبوبته وما  
زال يستقصي حتى وصل الى قبر ( فرديناندوايزابلا ) وهو أعظم ما تجشمه  
الى ذلك الوقت من مشاق الحب  
ومن عجب اني احن اليهم واسأل شوقا عنهم وهم معي



وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي  
ففي ذات يوم كان يفتش عن الاعشاب في وادي حدره وكان  
قصر الحمراء وقصر الجنراليف الى جهة الجنوب على تلك الحزون الاريضة  
وعلى أكمة لجهة الشمال محلة البيازين برياضها النضيرة ، وكهوفها التي  
كانت في الماضي معمورة، وعلى الطرف الغربي من الوادي قباب نواقيس  
غرناطة قائمة بين أدواح السرو والسنديان، ونحو الطرف الآخر الى جهة  
الشرق تسرح العين في مشاهد مختلفة من رؤس صخور وأديرة ومناسك  
واخربة من بقايا البيرة القديمة . وعلى مسافة بعيدة من قنن جبل شلير  
تم النهر المتسلسل عليه الطواحين والاشلة الثرارة ، وحنايا قناة رومانية  
دارسة وبقايا قنطرة من ايام العرب

وكان ابن حامد قد اصبح وسطا في حالته ، فلا هي شدة ولا هو  
رخاء ، ولا هي سعادة ولا هو شقاء ، فلم يكن ممن يلتذ حينئذ بالانفراد  
فكان يتنزه على تلك الضفاف المربعة مرخبا للنفس عنانها في ميدان  
الخط ، وبينما هو يهيم بين الغياض تبع صفا من الاشجار ممتدا على  
رهوة ( البيازين ) واذا بببيت في البرية احتفت به غيضة نارنج قد عرض  
له في قرب منه حتى سمع صوت غناء وضرب آلة ، ولا يخفى ان بين  
اصوات الغيد وبين حركاتهن تناسبا لا يخفى على احد دلته الغرام ،  
ففي الحال قال ابن حامد : هذه غادتي الحوراء ، ثم ألقى السمع والقاب  
مضطرب فسمع اسم « ابن سراج » مكرراً فازداد خفقان قلبه ، وكانت  
تلك الناعمة تغني زجلا قشتالياي تاريخ بني سراج وبني الزغرى فعندها  
استرخى ابن حامد وغاب عليه الدهش ثم وثب فوق سياج من الريحان

فوقم على سرب من ظباء الانس قد راعهن بدخوله فجأة فنفرن من كل جهة وقد ارتفعت اصراهن ، إلا الغادة التي كانت تزد وفي يدها آلة الطرب فمرفته « وهل يخفى القمر » وقالت : هذا هو الشريف المغربي ودعت صاحباتها وسكنت روعهن وانقلب الذعر انسا

فقال لها ابن حامد : يا حبيبة الانس والجن لقد كنت افتش عنك كما يطلب البدوي في الصحراء ندير الماء ، واتروقب طلعتك رقبة الساري قر السماء في الليلة الظلماء ، والآن استتمت نعمة عودك وانت نشدين وقائع ابطال قومي فمرفتك برخامة الصوت وجئت واضعا بين يديك بل تحت قدميك قلب متيمك ابن حامد .

فقال له الدواة بلانكه ( ادماء ) وكان هذا اسمها : وانا ايضا كنت انشد غناء بني سراج بذكرك إذ اني منذ شاهدتك تصورت ان أولئك الفرسان المغاربة كانوا اشبه بك . وعند هذه الكلمة توردت عراض ادماء ، وجال الخمر في الماء ، وتمشى السكر في معاطف ابن حامد فكاد يرنح عليه ويقع على اقدام الفتاة الاسبانية . مترفا لها انه هو ابن سراج ، لكنه ملك نفسه ، ولم يعزب عنه ادراكه ، ولم يتسلط حبه على حلمه ، بل كان ارق من الصباية ، وامتن من المهابة ، وانه ليعرف ان هذا الاسم الشهير في غرناطة يقلق فكر الوالي ولم تكن حرب الموريسك (١) ببعيدة العهد وقدم مثل ابن سراج في ذلك الوقت خليق بأن يحدث عند الاسبانيول ظنة . ولم يكن ابن حامد ممن يتقي

---

( ١ ) المغاربة الذين فضلوا التنصر ظاهرا على ترك بلادهم ( راجع الذيل )

غائلة او يداري خطر الموت لكنه كان يرشم فرقا من الفراق، وتستهل  
دوعه اذا تذكر البعد عن سبللة (الدون لذريق)

للمحبين من حذار الفراق عبرات تجول بين المآقي  
وكانت (الدونا ادماء) سلاله بيت يتصل نسبه بسيدته (بيفار)  
وامراته (شمانه) ابنة الكونت (غو ماز دو غور ماس) وكانت سلاله  
فأتم (بلنسية) الغناء بما كوفئت به من الاعراض والغمط ونسيان الجليل  
من دار مملكة (فشتالة) قد وصلت الى حد الفقر، بل قد مسها الضر،  
حتى اخفتى اثرها، وكدرس ذكرها، فظن انها انقطعت من شدة اهلها  
في زوايا الخمول. لكن اعهد فتوح غرناطة نال أحد حنطة آل بيفار  
يهو جد ادماء شهرة معظمها مكسوب غير منسوب، وأكثرها ثمرة  
جده، لا بركة آجده، فالملك (فرديناند) بعد إجلاء المسلمين أوسع له  
في الاقطاع من أملاك البيوت المغربية واقبه (بدوز صنتافي) فتمكن  
الدوق الجديد في غرناطة وتوفي في ريمان الشباب خلفا ولدًا وحيدًا  
وهو والد بلانكا أو ادماء

وكان هذا الولد الوحيد يسمى (لذريق) وقد تزوج بالدونة  
(تيريزه دو كسپرس) فولدت له غلاما دعي (لذريق) أيضا لكن لقبوه  
(بكارلوس) تميزا له عن أبيه، وتعرض (الدون كارلوس) منذ حداثة  
سنه لشهود الحوادث الكبار، وممارسة الخطوب الجلائل، وركوب  
أباج الاخطار، فازدادت عنده بذلك رصانة طبع وصعوبة قياد مر كوزتان  
في أصل الفطرة، فلم يكن تجاوز الرابعة عشرة من العمر حينما صحب  
(كورتيز) الى غزاة المكسيك وهناك اقتعد جميع النوارب، وحمل نفسه

على جميع المصاعب ، وشهد فخرم تلك الغزاة التي تشيب من هولها  
الولدان ، وحضر انقراض تلك المملكة التي هي آخر ممالك ذلك العالم  
المجهول . وبعد تلك البطشة الكبرى بثلاث سنين شهد في اوربا وقعة  
( بافيا ) كأنه لم يحضرها إلا ليرى الشهامة والاقدام صريمين في الميدان  
امام القضاء والقدر ، وكان مشهد عالم جديد واختراق بحار لم تكن مطروقة  
بعد ومقارعة الاهوان وتصاريف الحدثان قد اثرت في مخيلة الدون كارلوس  
الدينية ، وحالته العصبية ، فاندمج في نظام فرسان قلعة رباح وعدل عن  
الزواج رغم اعن إلحاح الدون لدرىق والده وتخلي عن جميع ثروته لشقيقته ادماء  
وكانت ادماء البينارية شقيقة الدون كارلوس الوحيدة ، احدث  
منه سنا بمدة مديدة ، وكان والدها مفتونا بها ووالدها قد توفيت وكانت  
دخلت في الثامنة عشرة من العمر لعهد قدوم ابن حامد الى غرناطة ، وكانت  
تلك الفتاة كلها فتنة وسحراً ، وطرباوسكراً ، ذات صوت يندمى الارواح ،  
ويزيد برفته على البابل الصداح ، واذا رقصت فضحت الغصون اذا يلتها  
نسمات الصباح . كانت تارة تنزوم عجلة كأنها ارميد (١) وطوراً تسابق  
الريح على متن صافن من جياذ الاندلس كأنها جنية أوساحرة فلوظهرت في  
أثينا لظنوها (سبازيا) أوفي باريز لنشرت ديانة دوبرواتيه (١) من قبرها ، جامعة  
بين الاضداد من رقة الفرنسيات ، الى شدة الاسبانيات ، ممزوجة الدعابة  
بالوقار ، والخلاعة بالحشمة ، والطرب بالادب ، فلا يتغلب هيام على قوة ارادتها

---

(١) اسم بطلة من بطلات « أورشليم المستنقذة » يجعلها الافرنج رمزاً للجمال  
المقرون بالشجاعة (٢) اسم سيدة شهيرة في فرنسا ولدت في سنة ١٢٩٩ وأبوها  
جان دوبرواتيه وتزوجت وهي بنت ثلاث عشرة سنة من لويس دوبريزه وكان  
منها قهرمانه عظيمة لعبت دوراً في السياسة وكانت تلعب بهنري الثاني ملك فرنسا

ولما ذعر الفتيات الاسبانيات بمفاجأة ابن حامد لهن في الغيضة  
النارنجية لدى سماع الاخوان الشجبة لسرع الدون لذريق اليهن فقالت له  
ادماء يا أبتِ ما هو ذا الشريف المغربي الذي حدثك عنه لقد سمع صوتي  
فعرفه ودخل الروضة يشكرني على ارشادي ليا الى طريقه ذلك اليوم  
فلقي (دون صديقي) ابن سراج لواء قومه الاسبانيول بما اعتادوه من  
الرصانة في السذاجة، فانه لا يوجد عندها القبيل شيء من أطوار التذلل  
ولا يسمع من أحد منهم كلام يدل على إسفاف الهمة وتسفل النفس ،  
بل اسان الصعلوك المسكين منهم أشبه بلسان السيد الشريف ، والهمام  
الغطريف ، والسلام واحد والعادات والاصطلاحات واحدة ، وعلى قدر  
ما عندهم من الامانة وحسن العهد وكرم الاخلاق والبر بالغريب ، تجرد  
عندهم من حدة الانتقام ولاخذ بالترات والجزاء على الاساءة والخيانة ،  
قوم مهأولو بأس شديد ، وقلوب من حديد ، لا ينكسرون أمام البغت ،  
ولا يولون الادبار ، اذا لم تسانف الاقدار ، فلمهم الصدر أو القبر ،  
لا يتصفون بفرط الدهاء ، لكن أهواءهم الشديدة وقلوبهم المشيمة ،  
تقوم لديهم مقام الافكار الثمانية ، والآراء الصائبة ، فتغنيهم نار الحمية ،  
عن نور الاملية ، وقد يكون الاسباني قضي سحابة يومه لم يكلم النسي  
ولا رأى بشراً ولا مال الى الاطلاع ولا الى الاستماع ولا قرأ ولا تبحر  
ولا قاييس ولا استنبط ولكنه يجد في علوهتمته وسمو مقاصده وإبعاد  
مراميه المؤونة اللازمة لاستقبال طوارق الدهر  
وكان ذلك في اليوم الموافق يوم ولادة الدون لذريق حيث احتفلت  
ادماء بعيد مختصر في ذلك المجلس الانيس بين الظل الممدود والماء العذب

والنشيم العليل، فدعا الدوق ابن حامد للجلوس بين اولئك الغيد اللاتي  
كنّ متمجبات من مرأى الغريب وعمامته وجبته، ثم جيء بطنافس حريرية  
يجلس السراجي عليها على عادة المغاربة، فأخذن يسألنه عن بلاده وعن  
رحلته وهو يجيبهن بهشاشة وبداهة، وكان يتكلم باللغة القشتالية الحرة  
حتى يظن انه أسباني لولا وضه الكاف موضع خطاب الجمع وكان لفظه  
يتلك الكاف من اللطافة والعذوبة بحيث كانت ادماء لا تتمالك من غير  
خفية ان خاطب بها احدي صواحبها

ثم جاء طائفة من الحشم يحملون معجون القهوة بالسكر مع مربى  
الفاكهة وخبز السكر المائي، الناصع البياض كالثايج، اللطيف الرخص  
كالاسفنج. وبعد الطعام دعيت ادماء الى رقصة كانت تنوق فيها الجميع  
فأطاعت بحكم الضرورة اجابة لالتماس حبايبها فلزم ابن حامد السكوت  
لكن عينيه تكامتا عن فمه فاخترت ادماء رقصة ذات رمز أخذها  
الاسبانيول عن المغاربة وشرعت احدي الغواني تضرب على العود لحن  
تلك الرقصة الغريبة فعند ذلك حسرت ادماء نقابها تماما واسدلت داجي  
شعرها على ناصع عنقها وعلقت بأنامها البيض فقاعات من خشب  
الآبنوس تدق بمضها ببيض، هذا وثغرها وعيناها متساوية في الاتسام،  
ومنظرها بحرارة فؤادها. شرق القسام، فاندفعت تنشد الغناء المخصوص  
بتلك الزينة محاكية بصوتها لنعمة العود وموافقة بين لغماتها واناء، رمضت  
على ذلك مدة، فثله ما أرشق حرركاتها، وألطف سكناتها، تارة ترفم  
يديها بسرعة وطورا تخفضهما على مهل، وأحيانا تثب وثوب النشوان  
بخمرة السراء، ثم تنثني الى الوراء انثناء من رده العياء، ثم تلفت رأسها

وتلوح كمن أرادت نداء غائب، ثم تميل بجيد الغزال الاعفر دانية بنجدها  
الوردي الى أن يخال امكان تقبيله ، ثم تنهزم وقد صبغها الحياء بعندم ،  
وتعود ساطعة الوجه فتمشي مشية راسخ، وتتقدم كالجندي الباسل ، ثم  
تطير على ذلك المرج النضير وهي تناسب بين حركاتها وغنائها وأصوات  
العود ، وتجود بكل نعمة يترنم لها الجلود ، زد على هذا الموسيقى  
الاسبانية في طبيعتها بما اشتملت عليه من الايقاع المهيج ، والانشاد المحزن،  
والغناء المتقطع ، تجمع الاضداد من فرح وشجن ، وتقرن ورقاء ايك الى  
هزار فن ، فكان في هذا العزف والرقص ما فيه كفاية لتوطين نفس  
ابن سراج على الغرام ، بل ربما أثرت تلك العشرة في أربط منه جاشاً،  
وأقل انتعاشاً ، وهوى ذلك الهوى بأثبت عزماء ، وأوفر حلماً ، وقد قيل :

أنا ان لم أهو غزلان النقا أي فرق بين قلبي والجماد

وعند الاصيل عادوا الى غرناطة من طريق وادي حدره وقد فتن  
(الدون لذريق) من آداب ابن حامد وكياسته ورجاحته ما زاد تعلقه به  
وملازمته له ، حتى كان يرتاح جدا الى مجالسته لادماء ومسامرته لها  
في أحوال المشرق ( وكل بلاد الاسلام عند الاوروبيين مشرق ) وكان  
السري المغربي أحب شيء اليه اجابة دعوة الدوق ، بل ثابى يوم ذلك  
المجلس توجه الى الصرح ، الذي فيه ادماء أضوا في عينيه من الصبح  
واذا بادماء قد أخذ منها الهوى مأخذا شديدا مع ما كانت تظن من  
استحالة بلوغ الحب عندها الى هذا الحد ، فلقد كان يظهر لها ، ان الكاف  
برجل مسلم غريب الوطن مجهول الاصل من البعد عن الامكان ، بحيث  
لم تقا له بشيء من أسنة التوقي ولم تقم دونه شيئا من استحكامات الاحتياط

فما راعها والا والحب جار مجرى الدم في مفاصلها ، فاذا أحست بسرياته  
في عروقها وامتزاجه بأجزاء روحها تحملت تحمل الاسباني الصابر ، وما  
قدرت وقوعه من الاوصاب والمصائب لم يقف بها على شفير الملك ، ولا  
طالت مشاحته لقابها ، بل قالت لنفسها « ليكن ابن حامد مسيحيا وليحبني  
ولو صرت في برك الغماد » \* عاقت معالقتها وصرّ الجندب \*

كذلك السيد ابن حامد كان يشعر بقوة الهوى الذي تنشب في قلبه ،  
والصبوة التي ترجحت طواحتها بحمله ، فلم يحاول مدافعة تياره فاستسلم  
له ، وأصبحت حياته كلها فداء لادماء ، وذهب عنه ما لاجله قصد غرناطة ،  
نعم زادت عنده سهولة الاطلاع على ما قطع المراحل وأنقى الرواحل  
من أجله ، لكن كل هم غير حب ادماء عاد لديه تافها ، بل صار يحذر  
الوقوع على علوم ربما كان من شأنها أن تغير في حالة فؤاده التي يود أن  
لا تتغير ، فلم يكن يطعم في مطمح ولا يطمح نظره الى أمنية ، وكان  
يناجي نفسه « لتكن ادماء مسلبة ولتجني وأنا أقوم بخدمة لها الى آخر  
نفس من حياتي »

وكان كل من العاشقين بما هو عليه من العزم المعقود والاستعداد  
المتين يتوقم خاسة يبيع فيها ما في نفسه للآخر ، وكان الفصل ربيما فقالت  
ابنة الدوق لابن سراج أخالك الى الآن لم تنزهه في الحمراء ، ويفهم من  
بعض الكلمات التي بدرت منك أن أصل عشيرتك من غرناطة فلامرية  
انك عظيم الاشتياق الى مشاهدة قصور ملوكك الاولين ، وها أنا ذا  
عصر اليوم أكون لك اليها دليلة

فأقسم ابن حامد بنبيه أنه لا يمكن أن تكون لديه فسحة أنزه من



هذه ولا ندحة أعز عليه منها.

وعند مجيء ساعة سيرهما الى الحمراء امتطت ابنة لذريق رمكة مطيعة  
سريعة عودتها تسلق الهضاب وماس الجنادل اعتياد المعز وصحبها ابن حامد  
على جواد أندلسي مطهم مسروج ومزين على نمط الاتراك، وبينما كان  
يركض جواده كانت جيبته الحمراء تنتشر ورائه، وسيفه الاحدب يصلصل  
على صهوته السامية، والهواء يعبث بمذبة عمامته، والناس يقولون عند مروره  
بهم هذا أمير من أمراء المسلمين تريد الدوقة بلانكة أن تهديه الى النصرانية  
وأخذ بشارع طويل منسوب الى أحد البيوتات المغربية الشهيرة  
ينتهي الى سور الحمراء الخارجي فاخرقا غابة من ملتف الشجر وانتهيا  
الى عين ثم وصلا الى السور الداخلي قصر أبي عبد الله، واذا بجدار عليه  
أبراج وله شرفات ينفتح منه باب اسمه باب الحساب، فولجا هذا الباب،  
وتقدما في طريق ضيق يلتوي بين جدران عالية، وأطلال بالية، ومن  
هناك أشرفا على دار الجب الذي مرّده (شراكان) بجانبها صرحا، ومن  
تمة انعطفا نحو الشمال ووقفوا في ميدان أخلى من جوف العير حذاء حائط  
بسيط الصنعة أخنى على نضارته قدم الايام، فقفز ابن حامد على الارض  
ومد ساعده الى ادماء يمينها على النزول عن رمكته ثم قرع الخادم بابا  
عتيقا قد اعشوشبت عتبه فافتح الباب وظهرت في الحال سائر الحمراء،  
وانبسطت دخائل ذلك البناء

ففاض قلب ابن حامد حنيناً وتذكراً، وتذهبت عواطف الجنسية  
مع الحب، ووقف صامتا ساكتا يدير لحاظه في ذلك المكان الجني، فحيل  
له أنه نقل الى مدخل أحد القصور الواردة أوصافها في أقاصيص العرب

من رواقات لطيفة، وأقنية رخام بديمة، منقوش عليها زهر النارنج والاترج،  
وسوح متفرقة تعرض من كل جهة للنظر، وعقود أبواب مستطيلة الشكل  
ودهايز ذات لطافة ورونق يقصر القلم عن وصفها، وقد كانت زرقة  
لا زوردية تظهر خلال الاساطين المعقودة فوقها القناطر والجدران المزخرفة  
أشبه ما يكون بالحلل الشرقية التي تطرزها الحرم، وبالأجمال فكانت  
تتأق على تلك الاماكن السحرية، مسحة دينية، ممتزجة بهيئة عسكرية،  
وجلوة(?) غرامية أشبه بخلوة عشق ومنتبذ مناجاة كان ملوك المغاربة ينغمسون  
بها في اللذات، ويسترسلون الى النعيم قبل أن خلت منهم الديار، وأجلوا  
الى ما وراء البحار

قصور خلت من ساكنيها فما بها سوى الادم تمشى حول واقفة الدمى  
نجيب بها الهامُ الصدى ولطالما أجاب القيان الطائر المترنما  
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى بها الوفد جما والخيس عرمرما  
فبعد هنيئة قضيا فيها العجب ولازما الصمت دخل العاشقان مركز  
تلك الدولة الماضية، والسعادة الخالية، فطافا أولاً في بهو « المسوكار »،  
بين عرف أزاهر، وخرير نوافر

قصر لو أنك قد كحلت بنوره أعمى لعماد الى المقام بصيراً  
واشتق من معنى الجنان نسيمه فيكاد يحدث بالعظام نشوراً  
لو أن بالايوان توبل حسنه ما كان شيئاً عنده مذكوراً  
أعيت مصانعه على الفرس الاولى رفعوا البناء وأحكموا التدبيراً  
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ملوكهم شبيها له ونظيراً  
تجري الخواطر مطلقات أعنة فيه فتكبر عن مداه قصوراً

بمخيم الساحات تحسب أنه فرش المها وتوشح الكافورا  
ومحصب بالدر تحسب تربه مسكا تضيع نشره وعبيراً  
تستخلف الابصار منه اذا أتى صبحاً على غسق الظلام منيرا

ثم دخلا قاعة الأُسود الشهيرة وكانت رعشة ابن حامد تزداد كلما  
توغل في الدخول فقال لادماء: لو لم تكن سمادتي تامة بك لم يكن  
حزني يوصف عند اضطراري اسؤالك أنت أيتها الاسبانية عن تاريخ  
هذه الاماكن — أما كن بنيت لاجل النزهة ورياضة النفس وأنا...

ثم أبصر ابن حامد اسم أبي عبد الله مرصعاً بالفسيفساء فصاح يامولاي  
ما ذا أصابك؟ كيف أجدك في حرائك وهي خاوية على عروشها؟ ثم  
انحدرت على خده دموع الوفاء والامانة والشهامة. فقالت له ادماء:  
إن سلاطينكم الاولين أو ملوك آباؤكم كانوا كافرين بالنعيم قال: لا فرق  
فقد كانوا عاثرى الجدود

وعند هذه الكلمات أخذته ادماء الى غرفة يظن أنها كانت هيكل  
الحب وهي خلوة لا تمثل في اللدافة والنيقة، مستفهام مدهون باللازوردومومو.  
بالذهب ومزخرف بالنقوش العربية المقطعة النافذة الى الخارج بحيث كان  
النور داخلاً منها كأنه من خلا نسيج من الزهر. وكان في وسط البناء حوض  
يتدفق ويتسلسل ومياهه تتساقط كالطل الشاشل في ودعة جوفاء من الرخام  
فقالت ابنة الدوق لابن حامد: نظر الى هذا الحوض فقد سقطت فيه رؤوس  
بني سراج وانك ترى الى الآن على الرخام نقط دم المساكين (١) الذين  
أخذهم أبو عبد الله بمجرد الظلم والظاهر أنه هكذا يما لمون عندكم الرجال الذين

ينازلون السذج من النساء. فلم يصغ ابن حامد الى قولها وجثا على ركبتيه  
ولهم بمخشوع أثر دم آباؤه، ثم قام وصاح : يا ادماء ودم هؤلاء الابطال  
لا حبتك حب ابن سراج في ثباته ووفائه وحرارة فؤاده. قالت له :  
تجني اذن ؟ ثم ضمت إحدى كفيها الى الاخرى ونظرت الى السماء  
وقالت : أما إنه لا بد أن تتأمل انك رجل مغربي مسلم عدوه وأنا مسيحية  
اسبانية، قال ابن حامد : أيها النبي الكريم كن شهيداً علي فقطعت عليه  
ادماء الكلام وقالت له : أي ثقة لي في عيني من يعذب الهى (!) هلم تعلم  
ان كنت أحك فن ذا الذي أعطاك الامان أن تخاطبني بكلام كهذا ؟  
فوجم ابن حامد ثم قال لها : حقاً ما أنا الا عبدك وأنت لم تختاريني  
فارساً لك . قالت : أيها المغربي خفف عنك فانما الحيلة في ترك الحيل  
وأنت قد قرأت فوق لحاظي سورة حبك وفهمت أن جنوني بك فوق  
كل حد، ألا فكن مسيحياً وأي مانع من أكون لك ؟ اكن اعلم أنه  
ان كانت كريمة (دوق صنتافي) تخاطبك بطلاقة كهذه فهي أيضاً اذا  
أرادت تمكنت من قمع شهوتها ولم تدع الهوى يتسلط على عقلها ودينها :  
ألا انه لن يمكن عدو المسيحيين أن ينال منها شيئاً. فعندها أخذ ابن حامد  
بيدها وقد استطار الحب ليه ووضعها أولاً على عمامته ثم على قلبه قائلاً :  
ان الله على كل شيء عاقد و ابن حامد سعيد. ثم قال : عرف أيها الرسول  
هذه النصرانية دينك القيم ونور قلبها بنورك ولا شيء يمكنه (١) . . .

(١) هذا الكلام من مؤلف القصة الفرنسي ميني على ما يظن بالمسلمين من انهم  
يطلبون من النبي (ص) ما يطلب النصراني من المسيح عليهما السلام او من الفديسين.  
والحق ان المسلمين لا يطلبون الهداية لانفسهم ولا لغيرهم الا من الله تعالى القائل  
في كتابه لنبيه ( ليس عليك هدايم ولكن الله يهدي من يشاء \* انك لانهدي من  
احببت ولكن الله يهدي من يشاء )

فقطعت عليه ادماء وقالت له : لنخرج من هنا  
ثم اتكأت على ذراع المغربي وتقدمت نحو حوض الاثني عشر  
أسداً المنسوب اليه أحد ابهاء الحمراء

وضراغم سكنت عرين رئاسة	تركت خرير الماء فيه زئيراً
فكأنما غشي النضار جسومها	وأذاب في أفواهاها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما	أقمت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها	ناراً وألسنها اللواحس نوراً
فكأنما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعمان غديرا
وكأنما نسج النسيم لمامه	درعا فقدّر سردها تقديرا
ومصفح الابواب تبرأ نظروا	بالنقش فوق شكوله تنظيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه	ابصرت روضاني السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي	حامت لتبني في ذراع وكورا
وكأنما للشمس فيه ليقة	مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما اللازورد فيه محزم	بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملامة	تركوا مكان وشاحها مقصورا

ثم قالت له أيها الغريب مارأيت ثوبك وعمتك وشككتك وخطر  
في بالي الحب الذي بيننا الا وخيل لي ذلك السراجي الغيسان في هذه  
الخلوة مع سيئة البخت الفهيمية، فسر لي الكتابة العربية المحفورة على  
مرمر هذا الحوض فقرأ ابن حامد هذين البيتين  
من بنات الملوك تخطر في الروض كقصن عليه بدر تجلي

قلدت جبهها الآلي وما كا ن المحلى والله غير المحلى ( ١ )  
وهناك ابيات اخر ممحوة بتقدم العهد فقل ابن حامد كانت هذه  
الكتابة لاجلك يامليكة الحسن الباهر، وهذه القصور في شبابها لم تكن  
في الرونق التي هي عليه الآن في خرابها. اصغي الى خرير الماء الذي مال  
بمجره الطحلب، انظري الى الجنان التي تلوح من خلال هذه الحنايا  
المتهدمة، والمحي كوكب الصبح الذي يغرب وراء هذه الابواب . تالله  
ما حلى الطواف معك في هذه المقامير التي تتعطر بانفاسك كما تتأرجح  
باعراف الورد ! ما ألد حديثك الذي أجد فيه بعض نعمات بن اسان آباي !  
مرور ثوبك على المرمر يحرك كل عرق في فؤادي . إني لأجد انسيم مع ارا  
بس غدا نرك، وأرى لك جمال الحور العين في هذه الجناز . لكن هل لابن  
حامد أن يتصرف بقلبك ؟ من تراه هو عندك ؟ لقد أنتم وانجد وعرف  
خواص أعشاب البرية لكن ليس مهاء نبة واحدة تشفيه من الجرح الذي  
جرحته . هو يحمل السلاح وليس بنارس . كنت أقول لنفسي سابقا  
ان ماء بحر الراكد في جوف صخرة بعيدة سالم من العواصف حال كون  
كل ما يجاور البحر الكبير العوبة للريح، فانت يا ابن حامد اعتزل الناس  
تكن ذاعيشة راضية، وتعيش مجهولا في زاوية من الارض لا تتصرف بك  
الحوادث، حواشي الملوك تلمب بهم العواصف وتلقى ريمهم كل إعصار .  
كنت اناجي نفسي بمثل هذا يا اخت الروم لكن حقيقة لي أن الاعاصير  
تعصف أيضا بنقطة الماء المجهولة في جوف الصخرة البعيدة  
وكانت أدماء كلها أذنا لهذا الكلام الذي لم تسمعه من قبل

وكانت أساليبه الشرقية ومناهجه العربية تتأخى في غرابة المنحى ولطافة الذوق مع المكان الذي كانا يدوران فيه اذ المصدر واحد، فاجتمع عندها الشرق كله يانانا، وبنيانا واتسقت لديها القريحة العربية مقاما ومقالا، وكان الحب يلج قلبها من كل جانب وينبع عليها بقوته حتى صارت تشعر باصطكاك ركبتيها ووهن عزمها عن القيام، وأخذت تميل بكل ميلها على حبيبها، فكان ابن حامد يحتمل بارتياح هذا الحمل اللطيف ويردد أثناء مشيه \* ياليتني كنت فتى سراج \* قالت له ادماء اذا لم تكن عندي كالיום بل كان عذابي أشد ابق مجهولا عندي وعش لاجلي فكم من فارس شهير نسي الحب لاجل الشهرة (وكم ممن نسي الشهرة لاجل الحب) وقدم المجد على الوجد. قال ابن حامد لا تخافي هذا. قالت وكيف كان يمكن أن تهواني لو كنت سراجيا؟ أجاب نعم كنت احبك حبا فوق المجد ولكن دون الشرف. وكانت الشمس آذنت بالغروب أثناء تزهة العاشقين بعد أن طافا بالجرأ كلها متخاصرين كما قال

ثم خاصرتها الى القبة الجمراء تمشي في مرمر مسنون  
وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوة اص ميزات من جوهر مكنون  
واذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون

فلاهم هاج مرأى تلك القصور من اشجان ابن سراج، واستورى من زند تذكاره شرر الالتهاب، خصوصا عند ما كان يتصور الملكة فلانة جالسة في هذا البهو يرتفع اليها من مخارم الرخام دخان مجامر الطيب ونوافج المسك، وفلانة الاخرى متبرجة بجميع حلي المشرق تتهادى بين الرياحين والازهار، هذا واداء التي يعبدها عبادة المسيحي للذراء كانت

هي نفسها تقص عليه تلك الاقاصيص  
ثم طلع القمر فنشر حلقته البيضاء على تلك الابهاء، ورسمت أشمته  
الفضية على نبات الحدائق وجدران المقاصير تخريم الابنية واعطاف  
السواري، وظل الماء الجاري، وحركات الاغصان المائسة بمرور النسائم،  
وكان لذلك منظر يأخذ بالابصار، والهزار يفرد في رأس شجرة سرو  
باسقة فوق قبة مسجد بال والصدى يجاوب، فكتب ابن حامد في ضوء  
القمر اسم ادماء على مرص مملس في قاعة الشقيةتين نقشه بأحرف عربية  
ليزداد الزائر المتزه سرا على سر في هذا القصر الكثير الاسرار  
فقال ادماء : ما أشدهذه الزهرة علي ! لنخرج من هذه الاماكن،  
آه ابن حامد لقد تقررت حاتي في هواك وقضى الله أمراً كان مفعولاً،  
فاحفظ مني هذه الكلمات : أنا حبيبتك وخليعة فيك ولا أبالي ؛ فان  
تنصرت فأنا حليلة لك سعيدة بك ولا أبالي  
اجابها ابن حامد : وأنا عبدك الحزين فان أسدت فأنا بملك المحيد  
ثم خرج العاشقان النبيلان من ذلك المكان الخطير ، وصار هوى  
ادماء يشتد يوماً عن يوم ، وغرام ابن حامد يتزايد بدرجته ، وكان في  
نفسه معجباً جداً بكونه مشوقاً لذاته لا لسبب آخر ، وان الذي أمال  
من غصن كريمة ( الدوق صنتافي ) لم يكن ناشئاً عن علة خارجية فانه لم  
يكشف لها سر محتمده ، وكان يجد لذة لطيفة أن لا يعرفها باسمه الشريف  
إلا بغتة يوم ترضى به بعلا، لكن ما عثم أن ورد عليه كتاب من تونس  
ينبئه أن والدته قد أصيبت بمرض معضل وقد أشفت فتريد عناق ولدها  
والرضي عنه قبل مفارقة الحياة ، فجاء ابن حامد الى قصر ادماء وقال لها:



مولاتي ان والدني على شفا جرف الحياة وهي تدعوني لاجل ان انمضها  
بيدي فهل أنت حافظة في المغيب ودادي ؟ قالت له ادماء : تفارني أصفر  
اللون فهل أنا مشاهدتك بعد ؟ فقال لها ابن حامد : اتبعيني أبتغي منك  
يميناً لا يحل عقده الا الموت ، نخرجا ووصلا الى مقبرة كانت للمغاربة  
وهناك أعمدة صغيرة مطروحة كأعجاز نخل منقعر من أعمدة الضرائم  
على شكل عمائم العرب ؛ لكن الاسبانول تبدلوا الصليبان بالعمائم ، فجاء  
ابن حامد بولاته الى ما بين هذه العمد وقال لها : ههنا مر اقد آبني أقدم  
لك بعظام أولئك العظام اني أحفظ حبك الي يوم يبعثون ، الى يوم  
يدعوني الملك الى الحساب الاخير ، أعدك أنني لا أدخل قبلي حب  
سواك ، واتي أتخذك زوجا لي حالما يستنير قلبك بنور محمد صلى الله عليه  
و-لم ، وفي كل عام أعود الى غرناطة في مثل هذا الفصل لأعلم ما اذا  
كنت لم تسلي ودي ، ولم تخفري عهدي ، وكنت أفلتت عن ضلالك القديم  
قالت ادماء وأنا أنتظرك في كل عام وأحفظ لك الى الارق الاخير  
من عمري الهد الذي عاهدتكه وأتخذك به لي حينما يكون رب النصارى  
الذي هو أشد حولا من حبيبتيك قد تمكن من جذب فؤادك  
ثم ودع كل منهما الآخر وللبكاء والمويل حديث طويل ، وركب  
البحر فألقته الرياح على شواطئ افريقية

في كنف الله وفي حفظه      مسراك والعود بعزم صريح  
لو جاز أن تسلك أجفاننا      كنا فرشنا كل جفن قريح  
لكنها بالبعد معتلة      وأنت لا تسلك الا الصحيح  
فوجد السيدة والدته قضت نحبها ، فأخذ يبكيها ويندبها ويقبل

نعمشها ، ومضت على ذلك الايام ودرجت الليالي وهو يهيم تارة بين  
أطلال قرطاجنة ويجاس طوراً مطرقاً فوق قبر مار لويس ملك الفرنسيس  
( دار ابن لقمان التونسية ) ولا يزال ينتظر أوان رجوعه الى غرناطة  
حتى جاء ذلك الموعد فالتطى ابن حامد ترى سفينة أدارسكاهم انحول بمالقة  
فحدث ما شئت عن بهجته وطربه وخفقان فؤاده عند ما لاح  
له أنوف بر اسبانية فهل ياترى ادماء تترقب طلوعه على تلك الارياف؟  
أو هل تذكر ذلك العربي الذي بقي متبها أثرها متبولاً تحت نخيل  
الصحراء؟ نعم ان ابنة الدوق لم تخفر عهده بل سألت والدها أن يصحبها  
الى ثغر مالقة وكانت من أعالي الجبال المشرفة على البحر تتبع بأبصارها  
قاصي السفين والاشرعة التي تبدو آونة وتختفي ، فاذا هاج عاصف اخذت  
تراقب البحر بوجل الحب على المحبوب ، فكانت تود لو تتجلبب بحجب  
القيم وتتمتع بساط الريح ، وتؤثر التعرض للخطر الا كيد ، وتهوى السباحة  
في ذلك البحر الهائج الذي يخشي منه على حياة الحبيب ، فاذا رات طائر  
البحر مصفقاً يرف على وجه المياه قاطعاً نحو افريقية حملته من كلمات  
الحب ودعاء الهيام ما لا يوزن بميزان ، وزودته من عبارات الغرام المرسلة  
على السحبة ما لا يخرج منه معنى منتظماً ولا يصدر الا عن قلب توقدت  
فيه نيران الجوى

وبينما هي ذات يوم تتنزه على الرمل اذ ابصرت من بعيد ، فلكا  
مستطيلة عالية الجؤجؤ مائلة الصاري ، عرفت من قلاعها ولطف صنعتها  
أنها من سفن المغاربة ، فأسرعت ادماء الى المرسى ولما بالملك المغربية قد  
دخلت الجوز والبحر يرغي تحتها ويزبد من سرعة الجري ، وكان سيد

مغربي نبيه الثوب بادي السراوة واقفا على مقدم السفينة ووراءه زنجيان  
ماسكان بلجام جواد عربي كريم كان انتفاخ منخريه وانتشار معرفته دليلين  
على حدة طبعه وذعره من جلبه الامواج ثم وصلت السفينة وخفضت  
شراعها واصقت بالمرقا وهوت بأحد حرفيها فقفز السيد المغربي الى  
البر وقد سمعت صاصلة سلاحه، واخرج الزنجيان الجواد المتنمر يسهل  
و يحجز عند وصوله الى البر، وتزل عبيد آخرون معهم زنبيل فيه ظبية  
عقراء بين سعفان نخل، ساقاها الدقيقان مربوطان ومطويان تحتها خوفا  
من ان تنكسرا من ارتجاج الفلك وكان في جيدها عقد من حب عود  
الند، وعلى قطعة ذهبية تصل بين طرفي العقد محفور اسم بالعربي وطلسم  
فعرفت ادماء ابن حامدها لسكنها لم تتجرأ ان تدنو منه امام الجماعة  
الا يخونها عزمها بل انفردت وارسلت ( دوروته ) احدي جواريتها تقول  
للسراجي انها تذاظره في قصر المغاربة، وكان ابن حامد في ذلك الحين  
يطلع حافظ البلدة على أوراقه. ثم اجتمع العاشقان فلا تسل عن فرح كل  
بصاحبه، وعن بهجته برؤية محبوبه متهما على العهد! وكم من يمينا نجدت  
على دوام العهد والارتباط. ثم قاد الزنجيان الحصان عليه بدلا من السرج  
جلد أسود مربوط بنطاق أرجوان، وأتى بالظبية فقال ابن حامد: يامليكة  
الحسن هذه عنز برية من بلادنا هي من الخفة والالطف بدرجتك، فحلت  
ادماء بيدها فقال ذلك الحيوان البديع، وهو يرنو اليها كأنه يشكر  
صنيعها، وكانت ادماء في غيبة ابن سراج قد ابتدأت بدرس العربي فلما  
نظرت الى طوق الغزالة قرأت اسمها عليه فبال عينها الدمع، ولما فك  
عنها العقال، كادت ساقاها لا تقياها من طول الاعتقال، فاضطجعت

على الارض ، وأسندت رأسها الى ركبتى أدماء ، فناولتها سيدتها تمرآجديدا  
وأخذت تدلل هذه العنز البرية التي كان جلدها الرقيق قد حفظ طيب  
الند وعرف الورد من تونس

ثم سافر ابن سراج والدوق صنتاني وابنته الى غرناطة وقضى  
الصاحبان أيامهما بالمسرات والرغد كالسنة السابقة ، وكانا يتنزهان  
كالمسادة وأوقاتها بين حنين وندكار ، وأسف على أوطان وأوطار ؛  
وحب دائم ، وغرام ملازم ، بل متفاهم

ومع هذا فكل منهما مشتد في دينه ، متين في اعتلاقه حبلى ملته ،  
فأدماء تقول لابن حامد : كن مسيحيا ، وابن حامد يقول لها : بل تحولي  
انى الاسلام ، ثم ينفصلان بدون أن يدعنا احدهما الآخر

وفي السنة الثالثة كانت عودة ابن حامد الى اسبانية اوبة قواطع  
الطير التي تؤوب الى بلادها حنينا الى اوكارها ، نعم انه لم يجد ادماء  
على الشاطيء تترقب قدومه ، لكنه علم من كتاب بعثت به اليه ان  
والدها دوق صنتاني شخص الى مدريد وان الدون كارلوس شقيق ادماء  
وصل الى غرناطة وكان يصحب الدون كارلوس اسير فرنسي صديق  
له فلما قرأ النبيل المغربي الكتاب انقبض صدره وسار من مالقة الى  
غرناطة وهو كئيب سيء الظن في العواقب ، وكانت الجبال تبدو له  
اوحش من جوف حمار ، وهو يلتفت وراءه الى البحر الذي اخترقه

وكانت ادماء في غيبة ايها لا تحسن فراق اخيها الذي كانت تحبه  
حبا شديداً وهو يريد التخلي عن جميع تركته لها ، وكان مقدمه عليها  
بعد غيبة سبع سنين ، وكان في (الدون كارلوس) جميع اعراق بيتيه

من البسالة وحمية الانف وعزة النفس وكأنه يقول:

لي نفس لا ترتضي الدهر عمرا      وجميع الانام طرا عبيدا  
لو ترقى فوق السماء محلا      لم نزل تبتغي هناك صعدا  
أنا من تعلمون شيدت مجدي      في مكاني ما بين قومي وليدا  
فتاكا سفاكا نظير سائر فآحي أميركا ، دينا متشدا كسائر فرسان  
الاسبانيول الذين استخلصوا الاندلس لانفسهم بانتزاعها من أيدي  
المسلمين ، شديدا لعداوة لاهل الاسلام تراثا عن جده الملقب بالسيد (١)  
وكان (توما دولو ترك) من آل (فواكس) البيت المريق ذي الحسب  
الصحيح المشهور بشجاعة رجاله وجمال نسائه خلفا عن سلف والاخ الثاني  
لكونتة دو فواكس وللمقدام الشهير الصريم (أوده دو فواكس) سيد آل  
لوترك هو الاسير الفرنسي الذي حضر بصحبة الدون كارلوس وكان  
توما هذا قد لقب فارسا وسلحه ييار البطل الفرنسي المشهور في تلك  
الغزاة المشؤمة التي هلك فيها ذلك البطل ، « غير هباب ولا وكل » ، وما  
لبث توما أن سقط في تلك الواقعة مشخنا وقيدا ، وأخذ الى (بافيا) أسيرا  
وهو يناضل عن ملك الفرسان أو فارس الملوك الذي باء وقتل بخسران  
كل شيء « عدا الشرف »

وكان (الدون كارلوس دو بيفار) شاهدا اقدم الشاب (لوترك) وخوضه  
غمرات الموت فاعتنى بتضميد جراحاته وتكون بينهما هذا الوداد المتين  
الذي قلما تحصف حباه الا بين مثليهما من الانجاد الابطال مبنيا على

---

(١) هو لدريق سيد آل بيفار ولد سنة ١٠٤٠ وتوفي سنة ١٠٩٩ صاحب شانه  
ملك قشتالة ثم الاذفنى لسادس واشتهر في جهاد المغاربة وهو بطل رواية لورنيل

قاعدتي الشرف والفضيلة ، وكان فرنسيس الاول قد رجع الى فرانسة وأبقى شرلكان في ربة الامر سائر الاسراء ، وحصل للوترك نصيب من شرف صحبة سلطانه في النكبة والقيام على خدمته في الغربية ، وحيث بقي في اسبانية بعد سفر الامبراطور فقد سلم الى الدون كارلوس بمهد منه وحضر به الى غرناطة

فلما وصل ابن حامد الى قصر الدين لدريق وأدخل الى الغرفة التي كانت فيها كريمة دوق صنتافي استشعر قلبه ضجرا وانكماشاً لم يكن يمهدهما الى ذلك اليوم ، وذلك أنه رأى حذاء الدونة بلانكة شابا جاثما بنظر اليها صامت اللسان . نشرح الصدر وكان ذلك الشاب مرتدياً ثياباً من جلد الجاموس مشدوداً بمنطقة علق بها سيفاً من طبع بيت ملك فرانسة ومشتعلاً بفرنس حريري وقد تقنع بقبعة دقيقة الاطراف مظلمة بالريش ، ولبس وشاحاً محزماً محلولاً على صدره يظهر عنقه من ورائه ، وهو ذو سبال سود كلون الابنوس الحالك تستشف منها الرجولية والبسالة مع اللطف والرفقة ، وكان منتعلاً خفاً منثنياً حول رجله وله مهماز من ذهب شعار الفروسية

وهناك فارس آخر منتصباً على رجله متوكفاً على قائم سيفه وهو بزى الفارس الاول لكن الظاهر عليه أنه أعلى منه سناً وكانت تلوح على معارفه الحماسة والشدة مع التزمّت والوقار ، وكانت علامة الصليب الاحمر المسمى بقاعة رباح مطرزة فوق تبانه مكتوباً بجانبها هكذا « له وللملك » فلما أبصرت ادماء ابن حامد صاحت من حيث لم تشعراً قائلة : أيها الفرسان ها هو ذا المسلم الذي طالما حدثتكم عنه احذروا أن يكون له السبق فان بني

سراج الاولين كانوا كلهم من هذا الطراز ولم يكن أحد يفوقهم في الامانة والاستقامة والكياسة والشهامة ، فنقدم الدون كارلوس نحو ابن حامد وقال له : أيها السيد المغربي قد عرفت من والدي وشقيقتي اسمك واللائح عليك كرم المحمد وسراوة الاصل. وأنت بذاتك لك مزية اللطف والرقعة ، فقريباً مولاي الامبراطور شريكان يغزو تونس وهناك تتلاقى في مجال واسع للمجد، فوضع ابن حامد يده في حجره وجلس محمداً في ادماء ولونرك، وكان هذا كثير التطلع كطبيبة الفرنسيين ، فأخذ ينظر الى جبة الشريف المغربي واسلحته الباهرة ويرنو الى جمال طامته بابتهاج عظيم ، وأما ادماء فكانت في غاية الارتياح الى مرآه والاهتاش له وعيناها تترجمان عن ذات صدرها ، وكانت هذه الاندلسية الحسناء صديقة الوداد لا تحاول كتمان جواها ، ولا تداجي في سر هواها

وأفرطت من وجددي به فدرى بنا على ساعة اللقيان من لم يكن يدري وما الحب ما وريت عنه تستراً ولكنه ما ملت فيه الى الجهر (١) وبعد هنيهة من سكوت علا ذلك المجلس قام ابن حامد فاستوى أمام بنت الدون لذريق ثم انحنى وانصرف فأذهل لوترك ما رأى من حالة المغربي مع ادماء وخاصره عارض شك صار عن قريب يقينا فبقي الدون كارلوس منفرداً مع شقيقته فالتفت نحوها وقال لها : ادماء خبريني لماذا ظهر عليك التغير والاضطراب عند رؤية هذا الفارس الغريب ؟ قالت له : يا أخي اني أحب ابن حامد ولا أبالي وان صبأ عن ديانته وأنا حليمة له

قال كارلوس : ماذا نقولين؟ تهوين ابن حامد؟ فتاة آل بيفار تحب مغربيا مسلما غريبا عدوانحن قد طردناه من هذه القصور؟ فقالت ادما أيها الدون رويدك أنا أحب ابن حامد وهو يحبني وهو منذ ثلاث سنين يتركني ولا يترك دينه، رجل فيه الشرف والشهامة والفروسية وانني لمفرمة به مولمة عليه الى آخر نفس من حياتي

انك والاحتفال في عدلي غير مقيم زيني ولا مبلي  
بلى ان اسطعت أو قدرت نفذ من خابل سلوة لمختبل

وكان الدون كارلوس ممن يقدر عزم ابن حامد قدره وان كان في نفسه آسفا من هيامه في أخته، فقال لها : الى أين يسوقك هذا الحب فلقد كنت أملت أن صاحبي لو ترك يصير أخالي ،

قالت له ادماء : أخطأت فيما ظننت لا يمكن لي أن أحب هذا الغريب، وأما صبايتي بابن حامد فليس لاحد أن يناقشني عليها الحساب، وأما أنت فاحفظ عهد الفروسية مع صاحبك كما أحفظ عهد الحب مع صاحبي، لكن كن على يقين لاجل عزاء نفسك أن ادماء لا تنكح أبدا غير رجل مسيحي . قال لها كارلوس : اذا فأسرتنا تتلاشى من على وجه الارض قالت : عليك أنت باستحيائها، وبعد فماذا بهم ولد لا تراه عينيك ولا تسري اليه خلائتك؟ اتني لا أخشى أن نكون آخر سلالة بيتنا، فاننا قريبو العهد بالطبقة العامة ولا أمل لي أن ينجب لنا نسل من بعد، لقد كان ( السيد ) مبدأ أسرتنا وربما كان السيد آخرها . ثم خرجت ادماء من حضرته

فمضى الدون كارلوس الى ابن سراج وقال له : يا مغربي دع عنك



أختي أو سر معي الى البراز . قال له ابن حامد : هل أنت مكلف من جهة  
أخذك أن تستعيد اليهود التي آتتها لي؟ قال كارلوس : حاشا هي أعظم ما  
كانت لك حيا وبك ولها . فهتف ابن حامد : مهلا أخا ادعاء سأنشد ضالة  
سعادني كلما بين دمك ولحمك ، واضفر بأمنيتي في منيتك ، فياسعد ابن  
حامد ويا يمن طائرته اقد كنت ظننت وبعض الظن ثم ان أدعاء خفرت  
ذمتي حيا بهذا الفارس الفرنسي . فصاح الدون كارلوس وقد كاد يخرج  
من ثيابه وهذا هو بلاؤك أيها الفرءان (لوترك) صديقي ، ولولاك كان الان  
أخي ، وأنا أريد أن أقتص منك عن الدموع التي استذرفتها محاجر أهلي  
قال ابن حامد : لبيك لكن مع كوني سلالة قوم ربما يكونون قد  
قاتلوا آباءك ، فليست من الفرسان ولا أجد هنا من يعطيني العلامة التي  
تجعل برازك معي غير حطة في قدرك

فبهت الدون كارلوس من تنبيه المغربي ونظر اليه من طرف أخزر  
وقد اختلط منه العجب بالغضب وقال : ها أنا ذا اسلكك فارسا فأنت  
أهل لذلك فأنحنى ابن حامد أمام الدون كارلوس فعانقه وأمره صفحة  
سيذه ثلاث مرات على منكبيه ثم قلده نفس هذا السيف الذي ربما أغمده  
السراجي في أحشائه وهكذا كان الشرف القديم

ثم امتطى كل منهما جواده وخرجا من عمارة غرناطة قاصدين عين  
الصنوبر وكانت مبارزات المسلدين والنصارى قد جمات لهذه العين  
شهرة وذكرها حقة من الدهر

وهناك كان مالك العباس (رحمه الله) قد تبارز مع (بونش) دوليون  
وصاحب قلعة رباح قد فتك بأبي يادوس، وكانت لاتزال قصد وبقايا من

أسلحة الفارس المغربي معاقمة بأغصان الصنوبرة ولم يزل ظاهراً على لحاء  
الشجرة بعض أحرف كتابة قديمة فدل الدون كارلوس ابن سراج على  
قبر أبي يادوس وقال له : اقتدي بهذا المسلم الفحل وخذ النصرانية أو الموت  
من يدي . أجابه ابن حامد أما الموت فربما أخذت وأما النصرانية فلا  
إلا الله محمد رسول الله

ثم تحفزا وتواثبا كأنهما ليشان حردان ولم يكن في أيديهما غير السيوف  
فكانا كما قيل

إذا رأيت ليشاً رام ليشاً هزبراً أغلباً لافى هزبراً

وكان ابن حامد أقل مرانا على النزال من الدون كارلوس لكن  
مضاه نصاله المشحوذة في الشام وخفة جواده العربي الصريح جملاً له  
الرجحان على دون كارلوس فرمى بجواده على عادة المغاربة وقطع بركابه  
العريض الحاد جنب حصان الدون كارلوس الايمن من تحت الراكب  
فلما جرح الحصان هوى تحت فارسه كالبناء المشمخراً اذا سقط فنهض  
الدون وتقدم نحو ابن حامد والسيوف مشهور في يده فقفز ابن حامد عن  
ظهر جواده وصدم الدون كارلوس صدمة عنترية متلقيا ضربات الفارس  
الاسباني الاولى الى أن تكسرت نصاله على النصال الدمشقية وصار  
الفارس المغربي هو الاعلى وانقلب الدون يحرق الارم غيضاً ويبكي حنقاً  
وهو يصيح بقرنه : ضرباً أيها المغربي ضرباً يطير فراش الهام . الدون  
كارلوس أعزل يدعوك نزال أنت وكل قومك

قال ابن سراج : لو تمكنت لما أبقيت علي أما أنا فحاشا أن يربالي  
أن أدمي فيك جرحاً

وقال له يبرز علي أني أراك معفراً شطراً فشطراً  
واستحي المرءة أن تراني قتلت مناسبي جلداً وقهراً (١)  
ولذلك أمسكت ، وقصاراي ان أفهمك أني جدير بأن اكون  
أخاك ، أن لا أظل صغيراً في عينك ، فلم يكن كلا ولا حتى أبصرا عن  
بعد عجاجة سوداء واذا بلوترك وادماء ممتطين عتيقين من خيل فارس  
تسايقان الغزلان قد أقبلتا على عين الصنوبرة وقد كف القرنان وارتفع  
النزال ، فقال الدون كارلوس : أنا المغلوب وحياتي من عند هذا الفارس  
املك يا ادماء أسعد مني حالا ؟ فقال لوترك بدون عنف ولا كبر : ان  
جراحاتي تأذن لي أن أرفض البراز مع هذا الفارس الكريم ، ثم قال  
وقد عات الحرة وجهه : لا أريد أن أقف على سبب ضعيفتكما واستطلع  
سرا ربما كان فيه حتفي بل قريبا يكون غيابي عنكم داعيا للسلام فيما  
بينكم ، هذا اذا لم تأمر ادماء بأن أبقى بين يديها

قالت له ادماء : أيها الفارس ابق ما شئت عند أخي وأنا أختك  
ان جميع من حوالم هذا المكان منطوو الجوانح على سلّ فتعلم منا احتمال  
آلام هذه الحياة الدنيا

وكان مقصد ادماء أن تصلح ذات بين الفرسان الثلاثة  
فرفض كل من ثلاثهم الصلح وصاح دون كارلوس : لا أحب ابن  
حامد ، وقال لوترك : أما أنا فأغبطه ، فقال ابن سراج : أما أنا فأحترم  
الدون كارلوس وأرثي للوترك ولا أحب الاثنيين

قالت ادماء : لنبق معاً والاحترام جالب الحب . وأسأل الله أن

يجعل سبب اجتماعنا هنا منسيا الى الابد في غرناطة  
على أن ابن حامد منذ الآن كما لا يخفى صار أحب الى ابنة دوق  
صنتاي ألف مرة من ذي قبل فان العشق يمشق الشجاعة وأحب الناس  
الى الغوانى الفارس الا بتع كما قيل وقد ظهر أن ابن حامد دخل بين الفحولة وانه  
كريم بالغ الكرم قد استجيا الدون ككارلوس بعد أن كانت حياته في يده  
وكان ابن حامد باشارة خفية من اداءه قد انقطع عن القصر ريثما  
يكون جاش الدون قد سكن وكانت نفسه نهبا مقسما بين خواطر  
المسرة والغم فانه من جهة على ثقة من حب من لا يساويها عاشق في  
الثبات والوفاء ، ولا تحاكي فؤادها غضاة في اللوعة والاحترق ، ولكنه  
من اخرى على يقين ايضا بأنه لا يبلغ امنيته الا بالصبوء عن دين قومه  
مما كانت تنحط تحته عزائم ابن حامد خصوصا وانه كان قد مضى مدة  
سنوات بدون ان يجد لسقمه دواء ولا ين عليه شفاء ، فكان يخشى ان  
تمضي كذلك سائر ايامه

وبينما كان مرة سابجا في لجة المموم وقد شفاه الوجد إذ سمع قرع  
الناقوس ابذانا بصلاة النصرارى فخطر في باله أن يدخل هيكل رب آدماء  
ويستشير مرشد الطبيعة أن يفعل

فخرج فوصل أمام مسجد قديم كان النصرارى قد حولوه كنيسة  
فثارت فيه نوازع الدين وأطبق على قلبه الحزن ثم دخل تلك الكنيسة  
التي كانت في غابر الزمان معبد ربه ومسجد قرهه ، وكانت الصلاة قد  
انتهت ولم يبق في الكنيسة احد ، وخيم الظلام فوق تلك الاعمدة  
القائمة كأصول ادواح غابة متناسقة الفراس ، وكانت الهندسة العربية

قد زاوجت في ذلك المكان فن البناء القوطي ولم تفقد شيئاً من  
طلاوتها بل زادها هذا الاقتران فخامة وضخامة تقضيان زيادة التأمل،  
ولم يكن سوى مصابيح معدودات تنير زوايا الدهاليز الا ان المذبح لم  
يزل لامعا بأشعة الشموع وقد تلاً بالذهب وما رصع به من الجواهر،  
ولا يخفى ان الاسبانول يبذلون جميع ما تملك ايديهم ويجردون انفسهم  
من كل نفيس لاجل زينة اما كن عبادتهم، فتجد صورة الاله منصوبة  
وراء السجوف المحزومة البديعة بين اكاليل الدر واطمام الياقوت  
ولم يكن يوجد كرسي واحد في وسط الحظيرة بل كان مقعد من  
المرمر مغطى به بعض التوابيت لاجل جلوس الكبار والصغار، فتقدم  
ابن حامد رويدا رويدا في صحن الكنيسة الذي كان صدهاء يجيب حركة  
مشيه وكان خاطره مقسماً بين الذكر والحنين بما تهيجه فيه رؤية هذا  
الاثرا القديم البافي عن المغاربة وبين الاتحساس الذي كانت ديانة المسيحيين  
ابتدأت تولده فيه

ثم وقعت منه التفاته نحو احدي الاساطين فأبصر حذاءها شبحاً  
ساكناً جامداً ظنه تمثالاً فوق ضريح فدنا منه فاذا بفارس غض الشباب  
ريان الاقتبال جاثياً على ركبتيه يدهاء مشتبكتان على صدره . فلم ينبض  
دنو ابن حامد منه عرقاً ، ولم يخالج طرفاء ، وكان من استغراقه في الصلاة  
لا يلتفت ولا ينعطف ، وسيفه بجانبه على الارض . وقبعته المراشة  
موضوعة على الرخام قريباً منه . وكان يخال انه راكز على هذه الصورة  
بفعل سحري ، وكان هذا الفارس هو لوترك بعينه فقال السراجي عند  
رؤيته في نفسه : لا بد ان يكون هذا الشاب الفرنسي ضارعا الى الله

في استجداء بعض النعم فهذا الفارس المغرر المشهور في الوقائع خاشع  
قلبه امام رب القبة الزرقاء كأضف خلته فلنضرع اذا امام رب الفرسان  
والفروسية وآله العز والمجد

ولم يكذب يستتم فكره حتى أبصر على ضوء صباح احرف عربية وآية  
من القرآن ظاهرة على الرخام تحت جبس متناثر فما أبصرها حتى وخزه  
ضميره ، واظلم جو خاطره ، واسرع الى الخرج من المبد الذي هم فيه  
أن يخون ديانته وقومه

وكانت المقبرة المحيطة بهذا المجد القديم روضة من النارج  
والسرو النخيل تسقيها عينان نضارتي و بهار وراق ، فعند ما أراد  
ابن حامد الخروج من أحد الابواب أبصر امرأة داخلة الى الكنيسة ومع  
كونها متنقبة عرف ابن حامد انها حبيبة ابنة دوق صنداي فاستوقفها  
قائلا : هل أنت آتية للتفنيش على ( لوترك ) هذا المعبود ؟

قالت له ادعاء : يا مغربي يا مغربي من عليك هذه البيرة التي لا منفي  
لها . اذا عدت عن حبات صرحت لك فاني أعلى من أن أغشك ، وما  
جئت الى هنا إلا مصالية لا بلبل ، قائد برسدك ان كان محط آمالي ، وانني  
لذاهلة عن نفسي التي بين جنبي من ابلاب ، وقد دراك احدي خصاتين  
لما أن لا تسكرني بسلاف حبك ، ولما ان تبيد الرب الذي اعبدته ، فانت  
سبب قلق اسرتي كلها ، وأخي يفضلك . أبي كبير بغير دالمتناعي  
عن الزواج ، وانت أفلا تنظر الى صحتي كيف تغيرت وكيف أصبح  
جسمي ضئيلا كهلال الشك ، انظر الى هذا القبر فهو لي سكن قريب  
ودار أمم ، ان لم تسارع الى قبول عهدي خالصا لدن مذبح النصراري .

لن النزاع الذي طي جوانحي يهدم اركان وجودي ، وإن هواك الذي  
وله فؤادي لا يقوى على احتماله نحيف جسمي ، فانظر رعاك الله أيها  
المغربي وائق الله في أعز الناس لديك، إن النار التي تشمل الجذوة هي التي  
تجعلها رماداً منتورا

ناهيك من حرق أبيت اقلي      وجروح حب مالهن أواس  
لما لحظت فانت جؤذرُ رملة      واذا صددت فانت ظبي كناس  
قد كان مني الحزن غبٌ تذكر      اذ كان منك الصبر غبٌ تناس  
تجري دموعي حين دمعتك جامد      ويلين قلبي حين قلبك قاس  
اسمعت عاذلة فهل طاوعتها      ورأيت شائثة فهل من باس

ثم دخلت ادماء الى الكنيسة وغادرت ابن حامد مطرقاً أسفاً من  
كلماتها الاخيرة ، ولقد هم مرة اخرى أن يصبأ عن معتقده ، وظالما نازع  
نفسه وشاغب عزمه ، إلا أن حرصه على حياة أدماء كان في نفسه فوق  
كل حرص ومن دونه كل عزيز ، وكانت عنده علق الاعلاق ، ثم كان  
يناجي نفسه قائلاً: لعل رب النصاري هو الحق وعلى كل الاحوال هو  
معبود نفوس شريفة عالية كأدماء والدون كارلوس ولوترك

وكان ابن حامد تائها في بيداء الافكار ينتظر بأمر الصبر انبلاج الصباح  
ليأتي ادماء فيكاشفها بما عقد عليه نيته ويتبدل بحياة غم دائم ، ودمع سائل ،  
عيشة راضية ، وحالة هادية ، فلم يتمكن من الذهاب الى قصر دوق صنتافي  
إلا في المساء ، فاخبر أن ادماء ذهبت الى قصر الجنراليف حيث كان  
( لوترك ) قد أعد وليمة فهاجت ابن حامد خواطر جديدة وجد في أثر  
حيبته حتى اذا أقبل عليهم توردت وجنة ( لوترك ) وهجس في ضميره

وأما الدون كارلس فتلقى السري المغربي بمحشمة وافرة خالية من الاهتزاز  
لكنها شافة عن الاعتبار

فاحضر لو ترك على المائدة من أطيب فاكهة الاندلس وافريقية، ومد  
المائدة في أحد أبهاء الجنراليف المسمى بمجلس الفرسان وقد علق فيه من  
الجهات الاربع صور الامراء والفرسان الذين غلبوا المغاربة بمثل يلابج  
والسيد وغوتزلاف القرطبي ، وكان سيف آخر ملوك غرناطة معلقاً تحت  
تلك التصاوير ، فلما رآها ابن حامد كظم غيظه وقال هذه العبارة فقط  
وهو ينظر الى هذه الصور : نحن قوم لانعرف التصوير

ولحظ (لو ترك) أن عيني ابن سراج تحمقان على الرغم من نفسه الى سيف  
أبي عبد الله فقال له : لو عرفت أيها السيد المغربي إنك مشرفي بقدمك  
الى هذه المأذبة لما كنت استقبلتك هنا، أما وان فقد السيوف ليس بعادة جديدة  
في الدنيا، قد رأينا أفل ذي التيجان يسلم حسامه في الحرب الى خصمه الظافر  
فتتنفس المغربي الصعداء وقد لقع وجهه بطرف ثوبه ثم قال: يجوز أن  
يفقد ملك حسامه مثل فرنسيس الاول أما كأبي عبد الله ... فلا

ولما اقبلت جيوش الظلام جيء بصفوف المصاييح وتبدل نسق  
الحدث ورجعوا الى دون كارلوس أن يحدتهم باكتشاف المكسيك فأفاض  
عن أحوال ذلك العالم المجهول بفصاحة الاسبانيول واطنابهم المعهود  
وروى من مصائب موتيزوما عجباً واخبر عن اخلاق الاميريكين وعن  
باهر إقدام القشتاليين وعن فظائع اعمال بني جلده غير ممرض لها بمدح  
ولا جرح. وكان ابن حامد لدن سماع هذه الاحاديث يدس فيه عرق  
العربية من حب الاخبار والاسمار فيترنم طرباً ثم وصلت النوبة في السمر





ولما أتم لو ترك غناء البيت الأخير كيفك بقفاز يده عبرة استغفر فترا  
من عينه ذكرى بلاده الطيبة، وأوطانه البهجة، وابن حامد يقدر الوطن  
قدره، ويفهم معنى فراقه، بما يقبسه على نفسه، اذ كلاهما غريب، وكلاهما  
شاعر بألم فراق الاوطان، فطلب منه الغناء والضرب على العود فاعتذر  
قائلاً إنه لا يعرف إلا زجلاً واحداً ربما لا يحلو سماعه عند النصارى. فقال له  
الدون كارلوس ان كان غير المؤمنين يذنون ويتوجعون من غلبنا عليهم  
فلك أن تغني فان للمغلوب رخصة في البكاء  
قالت ادعاء نعم ولذلك ترك لنا آباؤنا الاولون الخانعون لسلطان  
العرب كثيراً من المراني

فغنى ابن حامد هذه الموشحة التي حفظها من أحد شعراء بني سراج (\*)  
انما الطاغى (جوان) قدما طالما من فوق اجرى فرس  
ارتقى فوق الرياض علما فرأى غرناطة الاندلس

\*\*\*

بلدٌ قال له اذ خطبه  
لجعل المهر لديك قرطبة  
وكذا اشبيلية وشاطبه  
زينة فاخرة وانما  
كلُّ ذا ابغى به مقدا  
للوليا يا حبذا من بلد  
واوليك فؤادي ويدي  
وسواها من حلى وعدد  
درراً زاهية في الملبس  
للهموي وحلية للامرس

\*\*\*

جاوبت غرناطة قولاً متين  
كن على علم باحوالي يقين  
أيها الاعظم تملك المغرب  
انتي قرينة للمغربي

(١) روعيت مطابقة الشعر الاصلي بقدر الامكان

دع هدايك مع الحلي الثمين الموشى والطرّاز الذهب  
انني اغنى واسنى مغتما وطرّاز من نفيس انفس  
ان لي ابناء صدق كرما وحوالي نطق الحرس

\*\*\*

قد كذبت وحنثت في الدين وجمعت خيبة في نفس راج  
وتركت اليوم ذا العالج اللعين حاكما في ملك ابناء سراج  
هكذا قدر رب العالمين ليس فيما قدر الله علاج  
لن ترى بعد النيق الرُما في طريق الحرم المقدّس  
حاملات الحاج عادوا للحمى وهو من أوبتهم في انس

\*\*\*

حقا العالج قد استولى على ارض ابناء سراج غلبا  
ايه يا حراء يا أفق العلى أيها القصر المسامي الشهبا  
جنة العيون والعمين ولا مثل نهر باللجين انسكبا  
ان عاجبا مارقا لج وما زال حتى صار وسط المجلس  
نال ميراث سراج قسما خطا ذاني اللوح باري النفس

فرق لهذا الرثاء حتى قلب الدون كارلوس التارز رغما عما تضمنه  
من لعن الاعلاج وكان يتعنى اعفاه من الغناء لكن تأدبا مع لو ترك التزم  
الاجابة فأخذ العود من يد ابن حامد وانباع يترنم بمديح (السيد) جده الاعلى

تأهب السيد يبغى في العرب غزو السواحل  
وقد تلالا بدرآ في مطلع البدر كامل

امسك عوداً يعني امام شيان زاجل  
شعراً غدا وحيه من سما الشهامة نازل  
أوحته شيان قالت للغرب فاذهب وقاتل  
قاتل عداتك وارجم للانصر والغنم فائل  
لو كنت آثرت حبا على العلى والفضائل  
لكنت تعبد حسني ولست تسمع عاذل  
هات الاسنة والبه يرض وزرق المناصل  
سيملم القوم قلبي وما به من شواغل  
وفي القتال اذا ما ضججت بالسيف صائل  
يكون صوتي لعرضي وللعلى اذ انازل  
يامغربيا تباهي برقة في الشمال  
ضجيج صوت النصارى على لحونك دائل  
يكون يوما لاهل اسه بانيةً أيّ خابل  
فالحب والمجد فيه كلاهما بات مائل  
غدا باعطاف واندي اندلس في المحافل  
ترى شيوخ النصارى يروون عني الجلائل  
جعلت روحي فداء اوردت عمري الفوائيل  
لله والملك والمج د وتاج العتائل  
فقل ألا في سبيل ل الكمال ما أنافاعل (١)

(١) هاتان القصيدتان هما تعريب قصيدتين فرنسيتين في الاصل بقلم المعرب

وكان الدون كارلوس عند انشاده هذه الابيات معجباً مترنماً بصوت  
جمهوري رنان حتى كأن السيد بعث من قبره. وأما (لوترك) فشاطر  
صاحبه تلك الخيلاء وهاتيك الحماسة ، وامتقع لون ابن سراج عند سماعه  
اسم السيد ثم قال ان هذا الفارس الذي يلقبه النصارى بزهرة الوقائع  
هو مشهور عندنا بالقسوة والجسوة فلو كان حمله على مقدار بأسه لكان ...  
فقطع عليه كارلوس الكلام قائلاً : حمله كان يفوق بأسه ولم يكن  
إلا لمغربي مثلك أن يهجو بطلاً اليه منتمى أسرتي وعشيرتي  
فقال ابن حامد وقد قفز عن المقعد الذي كان مضطجماً عليه : هل  
تعد السيد من أجدادك ؟

قال الدون كارلوس : إن دمه ليجري في عروقي وانني لأعرف  
نفسي من هذا الدم الزكي الطاهر بما أحس به من الشنآن لاعداء الهلي وديني  
قال ابن حامد لادماء : اذاً يا أخت الاسبانيول أنت من بقية آل  
بيفار الذين بعد فتح غرناطة أغاروا على منازل بني سراج المساكين وفتكوا  
بفارس منهم مسن كان يذب عن قبور أجداده

فصاح الدون كارلوس وقد كاد يميز من الغيظ : اعلم أنه لاسبيل  
لسؤالي وان كان في يدي الآن سباب بني سراج فان أهلي ملكوه  
بشمن النجيم الاحمر ، ولم يجنوه إلا من ورق الحديد الاخضر ، قال ابن  
حامد : أستزيدك علماً لقد جهلنا مكاننا من البعد والتغريب أن آل بيفار  
تلقبوا في غيبتنا بصنفاي ، وهذا ما أدخل علي الوهم

قال الدون : نعم وان بيفار هذا غالب بني سراج هو الذي منحه  
فرديناند الكاثوليكي هذا اللقب

فأطرق ابن حامد بين الدون كارلوس ولوترك وادماء وهم في دهشة  
منه ثم انحدرت سيول الدموع من ماقيه على الخنجر المعلق بنطاقه ثم  
قال لهم : عفوا ليس للرجال ذرف الدموع ، ولن تستعبر عيني بماء ،  
وان بقي عليها بكاء كثير ولكن اصغوا لمقالتى :

ادماء حبي لك يحكي حرارة الموم الهابة في بادية العرب . كنت  
متيما بك لا أقدر على الحياة بدونك ، وما كان بالامس من رؤية هذا الفارس  
الفرنسي مصليا خاشعا ومن كلماتك لي عند المقبرة كاد يحماني على الاعتراف  
بربك وتأدية يمين الامانة بين يديك

فلم يتم ابن حامد هذه الفقرة حتى تهال وجه ادماء سرورا ، وظهر  
الدهش على دون كارلوس ، وحجب لوترك وجهه بيديه ، فعرف السيد  
المغربى كنه حركته وهز رأسه وتبسم ابتسام اليأسين الذي يحرق الفؤاد  
ويقطع الاكباد

ثم قال : أيها الفارس لا تصرم حبل رجائك ، وأنت يا ادماء اندي  
الى الابد آخر بني سراج

ففي الحال رفع كل من ادماء والدون كارلوس ولوترك جميعا أيديهم  
الى السماء وهتفوا : آخر بني سراج ،

ثم عات السكينة المجلس وأخذت عراطف الخوف والامل والبنغض  
والحب والدهش والحسد كلها تتناهب قلوب الحاضرين . ثم جثت ادماء  
على رجليها وقالت : أيها الرب الكريم لقد عرفت عدالة قاي ونبل حبي  
فما كنت ممن يعشق الا سلالة الابطال

فصاح الدون بأخته وقد أحفظه قولها : اذكري أنك بمضرة لوترك

فقال له ابن حامد : كارلوس !سكن جأشك فأنا وحدي منقذك مما أنت فيه، ومريحك مما تمنيه . ثم انعطف نحو ادماء وكانت جلست ثانية وقال : يا حوراء الجنة وجنية الحسن سيكون ابن حامد تيماً لك الى آخر نسمة من حياته . لكن اعلمى شدة مصابي وعظيم خطبي ، فان الشيخ الذي أجهز عليه جدك—وهو يناضل دون عقر داره، ويذب عن حريمه — هو جدى . ثم اعلمى سرا آخر أخفيته عنك أو أذهلتني عنه وهو أنى عندما جئت لأول مرة زائراً هذا الوطن كان من جملة عزمي الاستقصاء عن أحد بني بيفارأداقه الحساب عن دم آباي الذي أهرقه آباؤه

قالت له ادماء بصوت حزن وورنة كآبة لسكن مع جلد النفس الكبيرة : وما هو قصدك الآن ؟ قال ابن حامد : العزم الاجدر بك أن أرد لك عهدك وموآثيقك ، وأوفي بغيبي المنقطعة حقوق العداوة بين قومي وقومك ووطني ووطنك . لكن ان اتحت صورتى من فؤادك ، أو أخنى على ذكراي الزمان الذي يخني على كل شيء ويذهب بكل شيء ، فيكون هذا الفارس الفرنسى . . . ويكون هذا الفداء كله من أجل أخيك

فقام لو ترك وألقى بنفسه بين ذراعي الشريف المغربى قائلاً له : يا ابن حامد لا تظنن أنك تغلبنى في المروعة والكرم ، أنا فرنسى قلدي بيار سيف الفراسة، سفكت دمي أمام مليكي ، وسأكون مثل مولاي وأميرى لا أخاف الموت ، ولا أرضى العار ، فان شئت أن تبقى في هذه الارض رجوت لك من الدون كارلوس أن يزوجك أخته ، وان رحلت عن غرناطة فان يزعج محبوبتك مني أنة حب ولا زفرة جوي ، فلا تذهب

ظانا أن (لوترك) لقلّة احتفاله بالمروعة ومبالائه بالمهد طمع في الاستفادة من بلائك ، وعمد الى الاتصال بما قطعه عنك حسن ولائك

وأخذ هذا الفارس يعانق ابن حامد ويضمه الى صدره بجميع ما

ركب في طباع الفرنسيس من اللجاج والحرارة

قال الدون كارلوس : أيها الفارسان الكريمان ما كنت لا تتظر

صدور أقل من هذا عن مثل سلالتكما السرية، وأعرأقكما الزكية، لكن

يا ابن حامد بأي علامة أوقن أنك حقاً <sup>أخيراً</sup> قوم سراج ؟

قال ابن حامد : تعلم ذلك من سيرتي

ومن يستبن أصلي ونجري فدونه      خلائق مثل الروض كلل بالزهر

نقاء كماء المزن في صلب سيرتي      وعفة نفس دونها عفة الزهر

وان حياتي كيف حاولت كلها      لمترك بين الشهامة والفخر

فذا بحر أنسابي فعالي دليله      وليس يكون الدر الامن البحر (١)

قال الدون : اني لمعجب بها جدا لكن هل لك ما عدا ذلك أن

تطلعي على اشارة أخرى الى نسبك الكريم ؟

فأبرز ابن حامد من تحت نظاهه شجرة نسب بني سراج التي

يحملها معه معلقة بسلسلة من ذهب

فعمدها مد الدون يده وصافح ابن حامد قائلاً : أيها السيد الفارس

الغطريف أنت عندي الرجل الصادق ، سلالة الملوك ، ونمالة الأبطال ،

ولقد شرفتنني بما كاشفتني به من أفكارك ومطوى عزمك في حق بني

بيغار أسرتي ، وها أنا ذا أقبل البراز الذي كنت آتيا في طلبه فان خرجت



من البراز مغلوبا كان لك ملكا جميع أملاكى وأموالى التي كانت من قبل  
أملاكك وأموالك ، فإن لم تقبل البراز فاقبل أمراً آخر وهو النصرانية  
مع الزواج بشقيقتي التي يتركها لوترك لك

فكانت التجربة عظيمة ، والاختيار عبثاً ثقيلاً ، لكنها بعد ظهور  
ما ظهر لم تعد فوق عزائم ابن حامد ، فإنه وان كان الحب من جهة مستولياً  
على قلبه بجميع سلطانه القاهر ، فن أخرى كانت تأخذه الرعدة عند  
تخيله المزاوجة بين الغالب والمغلوب ، والخلاط بين دم القاهر ودم المقهور ،  
كان يمثل خيال جده قد نشر وخرج من بين الاموات وقام يوبخه على  
هذا الزواج المحرم (ربما كان محرماً في شرع العداوة واما ديناً فهو جائز  
في المذاهب الاربعة ) ثم احرقه الوجد فهتف : آه يلزم ان اكون وجدت  
هنا أكرم الاخلاق ، وأعظم الانفس وأزكى الارواح ، وأشرف الخصال ،  
لكي أشعر بما شعرت به من ألم هذا الفراق ، لتقل ادماء كلمة عما يجب  
أن أفعل ليكور ذلك أخلاق بحبها

صاحت ادماء . عد الى الصجراء . ورتنح عليها

فقال نحوها ابن حامد وتأمل فيها ساعة عكوف الوثني على الصنم  
ثم خرج لا يلوي على شيء ولا ينطق ببنت شفة . وفي تلك الليلة نفسها  
اترعج الى ماقة وأبحر في مركب متوجه ناحية وهران وعند وصوله  
الى هذه المدينة وجد قافلة الحاج على عزم المسير الى مصر فالحجاز فانتظم  
في سبط الحاج

وأما ادماء ففي باديه فراقه أوشك ان يقضى عليها غماً ووجداً ، ولم  
يبقى فيها لا زماء لكن عاد اليها الرمتق من بعد . وحفظ لوترك العهد الذي

ماهد عليه ابن سراج فابتعد عنها، ولم تسمع منه نبسة الم ولا أمل تشير عليها  
كامن أشجانها، وكانت كل عام تذهب هائمة في جبال مالقة في الفصل  
الذي كان حبيبها يعود فيه من افريقية وتجلس على الصخور ناظرة الى  
البحر والى الفلك البعيدة، وهي تنسم تفحات الغرب وتنشق الريح الهابة  
من أرض الحبيب

أقلب طرفي في السماء تردداً  
وأستعرض الركبان من كل وجهة  
وأستقبل الأرواح عند هبوبها  
وأمشي ومالي في الطريق مآرب  
والمح من ألقاء من غير حاجة  
لعلني أرى النجم الذي أنت تنظر  
لعلني بمن قد شم عرفك أظفر  
لعلني نسيم الريح عنك يخبر  
عسى نعمة باسم الحبيب ستذكر  
عسى لمحة من نور وجهك تسفر

ثم ترجع الى غرناطة وتقضي سائر أيامها بين بقايا الحمراء، ثم انقطعت  
عن الشكوى والنحيب والكلام عن ابن حامد وربما ظنها الغريب سعيدة  
الحال في ذاتها، وبقيت وحدها من آل بيتها لان أباه مات غما وأخاها  
دون كارلوس توفي قنيلاً في براز كان (لوترك) له فيه عضداً

وأما ابن حامد فغاب غيبة القارظ العنزى ولم يؤت عنه بخبر ولا عرف  
أحد ماذا جرى عليه

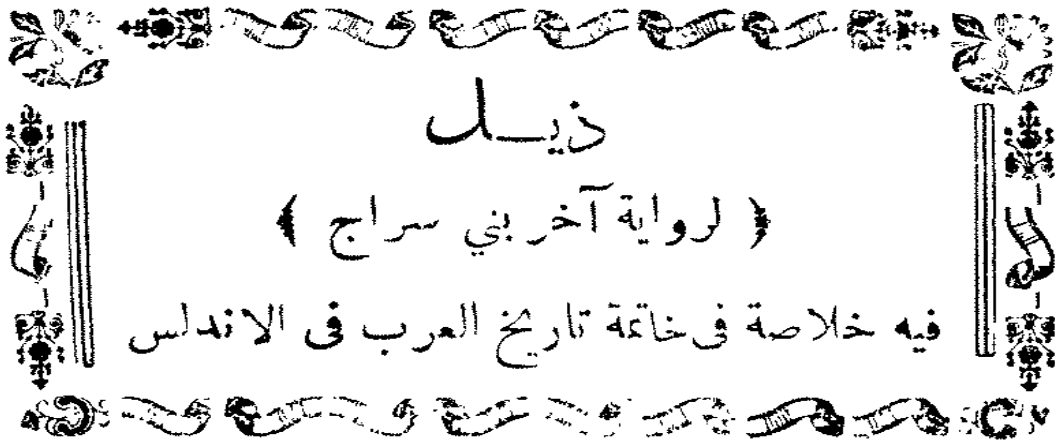
عند خروجك من تونس من الباب المؤدي الى اطلال قرطاجنة  
تجد مقبرة وتجد في زاوية من تلك المقبرة شجرة نخل تحتها ضريح قد  
أرشدت اليه يقال له هناك قبر آخر بني سراج ليس فيه شيء يستحق  
الصفة سوى ان في وسط حجر الضريح الأملس نقرة صغيرة محفورة

حسب عادة مدافن المسلمين وماء المطر يجتمع في هذا الجرن الصغير  
فترتوي منه تمت تلك السماء المحرقة طير السماء

اقصرَ سراج لا عزاء لمغرم  
أفي كل عام لا تزال مروّعا  
مضى أهلك الأختيار الا أفلمهم  
فصرت كعش خافته فراخه  
احب بنوك المكرمات فقررت  
تدانت مناياهم وتباعدت  
فشكل له قبره غريب ببلدة  
قبور بأطراف البلاد كأنما  
بتونس الخضراء قبر ابن حامد  
تشق عليه الريح كل عشية  
وانتهت القصة ويتبعها الذيل

(١) الايات للبحثري وانما بدلت فيها بعض الفاظ بما يوافق المقام





ذيل

( لرواية آخر بني سراج )

فيه خلاصة في خاتمة تاريخ العرب في الاندلس



## تمهيد

انما حدا بي الى تذييل هذه الرواية أمران : الاول إعانة القاريء على فهم الحوادث ومعرفة المواقع بما تفقد بدونه لذة المطالعة ، والثاني ما رأيته من اختصار جرم الرواية فأثرت إردافها بذييل يطيل من قدها ويزيد في حجمها ، ويكون فيه من حقائق الوقع التاريخية، ما لا يقصر فكاهاة عن موهوم الرواية الغرامية، فجاءت روايتنا ذبّالا وان لم نرج أن تكون طاووساً ، وايست هذه أول مرة جرت فيها الروايات أذبالا ، واتخذت القصص عصاعص طوالا

وما أقصد بهذا الذليل استقصاء تاريخ الاندلس الاجمالي الا ما اضطر اليه مساق الكلام، فقد كنت منذ نشأتي ممن لا يحبون التأليف فيما كثر فيه التأليف وطال فيه المقال، كما أنما اعده تكراراً لسابق أو اعادة لصدى ، واخلواً من كل براعة. وأخبار الاندلس مستفيضة في التواريخ شرقا وغربا ومعروفة عند الادباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة في عدد الكتب ، وانما يستحب الانشاء فيما ندر فيه الكلام ، وعز البحث وطمست الاعلام ، فاذا قرأته العامة بل الخاصة سقطت منه على جديد ذي طلاوة ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الاخرى مدارسة كتب القواعد التي لا تتغير

فأشد الاقسام عوزاً الى البحث من تاريخ هذه البلاد — التي لا

أزال نحسبها عربية لكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها -  
لأنما هو القسم الأخير واحوج طائفة من أخبارها الى التدوين ما تعلق  
بدور الجلاء وعصر الخروج من بلاد كانت مدة الضيافة فيها ثمانمائة  
سنة، لان هذا الحادث الكبير الذي هو من أضخم الحوادث في الاسلام  
وقع على حين خمول من القرائح العربية ، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة  
عند معشر الناطقين بالضاد ، ولدى اقحاط البلاد بالدمغة المتوقدة ،  
وعقم الامة عن الرؤس المولدة ، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه  
ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة فانه لا عطار بعد عروس  
نعم لا أنكر أن (كتاب تفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب)  
للعلامة المقرئ هو من أوفى الكتب بأخبار الاندلس وآدابها : حقيبة  
أنباء ، ووقطر حوادث وخزانة آداب ، وكشكول لطائف وديوان أشعار ،  
وقد كان عهد تصنيفه على إثر النازلة الكبرى بباقي الاندلس وامتصاص  
سؤر الكأس وعفاء الأثر الأخير من سلطان المسلمين فيها بحيث أمكن  
لصاحبه ذكر سقوط مملكة غرناطة واستيلاء الاسبانيول على الجميع  
وختم الدولة الاسلامية في تلك الديار ، ولكنه ككثير من مؤرخينا أو  
مؤلفينا الذين لا يراعون النسبة بين الاشياء ، ولا ينتبهون الى قاعدة أن  
الحسن انما هو تناسب الاعضاء ، فقد بحث في هذا الخطب الجلل والحادث  
المهم بحثا هو دون حقه بدركات ، وأتى عليه كما يأتي على واقعة متوسطة  
البال من الوقائع التي أشار اليها في بطن كتابه واستوعبه في أوراق  
يسيرة كانت لطافتها في كشافها ، فان التناسب يقضي باعطاء كل مقام من  
المقال ما يكفيه ويقوم بحقه ويحيي على قدره . ولو فسح الفاضل المقرئ

رحمه الله لواقعة سقوط مملكة غرناطة وحادث انقراض أمر الاسلام  
بالاندلس ما فسحه في تاريخه للنثر الكثير الذي يعني عن كاه بعضه من  
المخاطبات التي صدرت عن لسان الدين بن الخطيب أو وجهت اليه أو  
الى غيره، أو الشعر الغزير الذي كثير منه حقيق بالاسقاط من ذلك المجموع،  
أو القصص التي يرويها عن بعض المشايخ مع طول اناة غريب في  
الاستقصاء، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم الى السماء، - لكن ذلك أجزل  
فائدة وأسنى وقعاً، وكانت الناس قد شفت غايلها من خبر هذه الطامة  
التي لكل الحوادث سلوان يسهاها وليس لها سلوان كما قال أبو البقاء  
الرندي، ولكفينا مؤنة النقل عن كتب الافرنج فيما يختص بالعرب،  
وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبي عبد الله بن الأحمر وعمه الزغل  
وذهاب تلك المملكة وما جرى في ضمنه من الحروب وما حصر من  
المدن في مسافة من التاريخ استوعبت أطول منها رسالة واحدة صادرة  
عن ذلك السلطان الى الشيخ الوطاسي صاحب فاس في موضوع ابرد  
ما فيه مع طوله انه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالاندلس على  
يده بأن الخطب غير نادر المثل وان بغداد دار خلافة بني العباس قد  
اصابها ما أصاب غرناطة، فانظروا هل هذا مما يؤثر على طوله، او مما  
ترتاح الانفس الى قبوله، على فرض صحة تمثيله؟ وان كان العذر في ذلك  
ما يقال من ان صاحب النفع قد ألفه وهو نضو اسفار خال من الاسفار،  
ليس لديه من العدة ما يستعين به على الاطالة والاختبالا طرف، فسبحان  
الله كم يتأهى بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع، عن تعلق ما ينفع؟ وهذا  
الفاضل المقرئ قد املى عن ظهر قلبه اربعة مجلدات كبار اودعها من

التاريخ، الجغرافية والقصص والنكات وحشاها من الشعر والنثر والتراجم والتصوف غثا وسمينا ما لا اظن حافظة تتمكن من اختزانه بين صدغين، وتركنا في التاريخ المهم من تفصيل الوقائع الشداد والممارك التي سالت فيها انهر الدماء في دور المنزع الاخير عيالا على الافرنج مضطرين الى الاخذ عن مصنفاتهم، فكنا وإياهم في اخذ تاريخنا عنهم كما كنا في اخذ لغتنا عن صحاح الجوهرى (١)

ولا نشك ان في ديار المغرب من التواريخ عن كائنة الاندلس الاخيرة ما يستحق في شرحها، ولكنه لم يشتهر عندنا في المشرق غير (نوح الطيب) من متأخر تتأليف وهذه الحال معه، ولا عجب ان ساقنا حب الاستقصاء واقتفاء اثر أبناء الجلدة الى اخذ اخبارنا عن الاجانب وتلونا: (هذه بضاعتنا ردت اليانا)

## الفصل الاول

﴿ في ذكر بني سراج الذين تنسب الي آخرهم هذه الرواية ﴾

هذه العشيرة من أشهر عشائر العرب الاندلسيين عند الافرنج وأبعدم صيتا وقد يتوهمونهم لعهد دولة بني الاحمر في غرناطة بمقام العشيرة الثانية للاسرة المالكة ويعزون اليهم الوقائع ويبنون عليهم القصص والحكايات ومن جعلتها قصة الملكة التي من بنات ملوك غرناطة علقت بحب أحد

---

« ١ » يعنى أخذ العرب لغتهم عن الجوهرى وهو أعجمى النسب ولكنه صار من العرب لغة وأدبا ودينا وكتابه الصحاح احد معاجم اللغة وقد ألف العرب قبله وبعده معاجم تغنى عنه وليس فيه شيء لا يوجد في غيره



شبان هذه العشيرة الموصوفين بالجمال وضربت له موعداً للقاء في احدى خلوات القصر الشهير بالجرء فاجتمعوا ساعة هي بالعمراجم « وقد كانت كذلك » يتناجيان ويتغازلان ولكنهما بُغتا وهما على تلك الحالة ونمي امرهما الى السلطان فاستشاط غضبا واستحضر لديه اكثر رجال بني سراج وأمر بضرب اعناقهم في المكان المسمى بقاعة الاسود من جرء غرناطة فقتلوا جميعاً، ومن خرافات الاسبانيول أنه لم يزل يسمع لرؤسهم صدى عند خفوت الاصوات وانسدال حجب الظلام وهو صدى المقتولين بغيا وظلماً ( ١ )

والذي في موسوعات العلوم الفرنسية الكبرى أن بني سراج عشيرة نبيلة في غرناطة تروى لهم قضايا يطول شرحها في المناظرة مع بني الزغري من قبيل الروايات، والتاريخ لا يعرف بني سراج سوى وزراء عند سلاطين بني الاحمر نصر و محمد الاعسر على ابن أخيه محمد الصغير فلما تولى هذا منذ سنة ١٤٢٧ فتك بقسم من بني سراج فذهب رئيس العشيرة ملتجئاً الى ملك قشتالة وقد أشارت الى واقعة قتلهم بمض الاغاني المتعلقة بفتح قلعة الحامة التي فت ذهابها في اعضاء المغاربة وبكوها طويلاً . اه  
وأما بنو الزغري هؤلاء فيظن انه تحريف عن بني الزغبي نسبة الى قبيلة زغبة وأن البنغاس في رواية شاتوبريان يريد بهم مكناسة لكونها من القبائل الكبار كما تنطبق عليه اشارة صاحب الرواية وفي التحريف المعتاد في اسماء

---

« ١ » في دائرة المعارف الفرنسية الاسلامية يعيل الى ان هذه الاسرة هي من قرطبة هاجرت الى غرناطة ونظن ان واقعة هذا القتل حصلت في زمان أبي الحسن علي الذي تولى من سنة ١٤٦١ الى ١٤٨٢

الاندلس بين عربها وعجمها مالا يجعل هذا التحريف بعيداً  
وأما الذي بايدينا من كتب العرب فلا يشير الى شي من هذه القصة  
ونظن انها لو كانت واقعية لم يسبق اليها أحد صاحب تفح الطيب الذي  
ينبغي أن لا تقوته حكاية غرامية كذه في كتاب استوفى امثالها وهكذا  
قرر المرحوم ضيا باشا الاديب الشاعر المشهور من وزراء الدولة العثمانية  
في تاريخه للاندلس باللغة التركية فانه أشار الى هذه الحكاية المتداولة عند  
مؤرخي الافرنج وبين استحالة وقوعها بدون أن يعرفها كتاب العرب  
وتشتهر عندهم ورجح انها من اوهام الاسبانيول وخيالاتهم  
وأنا اذهب الى انها ان كانت ذات أصل فلا بد أن يكون ضعيفا جداً  
نظراً لتعامس المؤرخين عنها وياليت شرى ماذا كان يقول ابن خلدون لو  
احياه الله في المائة التاسعة بدل الثامنة اذا وقف على حكاية العاهمة الاميرة في  
الحراب مع الشاب السراجي وما أعقب ذلك من نكبة أبي عبد الله بن الاحمر  
لبنى سراج أفلا يخطر ذلك بباله قصة العباسية مع جعفر بن يحيى بن خالد  
البرمكي ونكبة الرشيد للبرامكة من أجل تلك القصة (١) لاجرم انه كان  
ينتهيج هذه المرة من الخطة في البرهان على عدم صحة الرواية ما انتهىجه في تبرئة  
شرف العباسية وتنزيه جانبيها عن خرص القصاصين ووضع المؤتقين. على  
انه ان كانت قصة اخت هارون عديمة الصحة مع اشتهاها في كتب  
العرب ونقل الكثيرين لها الدال على اقنئاعهم بها، فما ظنك بهذه وهي عربية  
ولم يعرفها العرب ولا حكاها غير الافرنج فيما نعلم

(١) أي على القول بأنها سبب النكبة والصواب ان سببها سياسة البرامكة  
الفارسية المراد بها نزع الملك من العرب

وبالاجمال فكثير من هذه الاحاديث الغرامية في الشرق وفي الغرب  
هو من اوضاع أهل النصص خصوصا الجانحين منهم لهذه المشارب لما  
هو مركز في فطرة القراء ولا سيما العشاق المستهترين من الميل الى  
مطالعة هذه الحكايات وتصديقها تأييدا فيما هم عليه من التهتك والمجون  
واسترسالها الى الشهوات ولولم تكن قصص العشق أعلق الكلام  
بالقلوب وأميل الاحاديث بالنفوس لما كان السواد الاكبر يؤثرون مطالعة  
الاقاصيص الغرامية في هذه الايام حال كونهم يعرفونها من اوضاع  
القرائح وخيالات الازهان والفرق بين هذه وبين تلك في لذة المطالعة  
فرق مدين الواقع ولموهوم

وأما ما نعرفه عن بني سراج من الكتب العربية فقد وردني النسخ  
عند ذكر انساب الاندلس وأصول القبائل التي نزلت بها جاية عن المشرق  
قوله: قال ابن غالب بنو سراج الاعيان من أهل قرطبة ينتسبون الى  
مدحج ولم يقل انهم من غرناطة فلعلهم انتقلوا الى غرناطة بعد انتقال  
قرطبة الى الاسبانيا و ذكر صاحب مطمح الانفس رجلا يقال له ابن  
سراج في ترجمة الوزير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد قال انه كان  
من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن المصاحبة في أعلى مراتب التبيان ،  
وروى عنه نكتة لطيفة لصاحب الترجمة لا بأس من ايرادها وهي انه كان  
له بياب الصرصة من الجامع موضح لا يفارقه أكثر نهاره يجلس فيه ليلة  
سبع وعشرين من رمضان في لمة من اخوانه ، هم يقتطفون من نخب آدابه  
واذا بحارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواربها من يسترها ويواربها ،  
وأماها طفل كأنه غصن آس وهي متنقبة خانفة ترتاد موضعاً لمجاة

ربها ، وتبتغي مكانا لاستغفار ذنبها ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ولت  
سريعة وتولت مروعة ، خيفة أن يشيب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلم يفتن  
عنها تواربها شيئا لانه حال ما نظرها ، قال قولا فضحها وشهرها ، وهو :

وناظرة تحت طي القناع دعاها الى الله للخير داع

سعت خفية تبتغي منزلا لوصل التبتل والانقطاع

وجالت موضعا جولة فحلّ الربيع بتلك البقاع

أتتنا تبختر في مشيها فلت بواد كثير السباع

وريعت حذارا على طفلها فنادت يا هذه لا تراعي

غزالك تفرق منه الليوث وتنصاع منه كما المصاع

فوات وللمسك من ذيلها على الارض خط كظهر الشجاع (١)

وورد في المطمح أيضا في ترجمة الاديب أبي بكر عبدالمعطي انه كان  
مرتسما في عسكر قرطبة وكان ابن سراج يتأني له في كل ما يبتغي خيفة  
من لسانه ، ومحافظة على احسانه ، فلما خرج الى اقلش خرج معه ؛ وجعل  
يساير من شيمه ، فلما حصلوا بفحص سرادق ، وهو موضع توديع المفارق  
للمفارق ، قرب منه أبو الحسين بن سراج لوداعه ، وانشده في تفرق  
الشميل : انصداعه :

فما أهدم منهم على أحد حنا

كأهمهم كانوا أحق بها منا

ظننا بكم ظنا فأخفتم الظنا

وقلتم ولم أعتب وجرتم وما جرتنا

ثم رحلوا عنا لامر لهم عذنا

ومارحلوا حتى استفادوا نفوسنا

فيا ساكني نجد لتبعد داركم

عذرتم ولم أغدر وختم ولم أخن

« ١ » الشجاع اسم نوع من الحيات

وأقسمتم ان لا تخونوا أخا الهوى فقد وزمام الحب ختمت وما خنا  
تري تجمع الايام بدني وبينكم ويجمعنا دهر نعود كما كنا  
ومما ورد أيضاً في النفع من ذكر بنو سراج عند ترجمة الوزير الرئيس  
العلامة ابن عاصم الغرناطي انه من جملة من أخذ عنهم الامام القاضي أبو القاسم  
ابن سراج وقوله في مكان آخر عند ذكر ابن عاصم أيضاً ومما خاطب به  
شيخه قاضي الجماعة بغرناطة أبا القاسم بن سراج وقد طالب الاجتماع بم  
زمن فتنة فظن انه يستخبره عن سر من أسرار السلطان وهو هذه الايات  
فديتك لا تسأل عن السر كتاباً فتلقاه في حال من الرشد عاطل  
وتضارؤه إما لحالة خائن أمانته او خائض في الاباطل  
فلا فرق عندي بين قاض وكاتب وشي ذابسر أو قضي ذاباطل  
وورد أيضاً عند ذكر العلامة ابن مرزوق ان من تأليفه العديدة  
(المعراج، في استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج) في كراسة ونصف أجاب  
به أبا القاسم بن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية  
ويستدل من تاريخ نشوء هؤلاء العلماء المتعاصرين ان بني سراج  
الذين تكثروا من انتنويه بهم الكتب الافرنجية هم قوم الاستاذ المذكور لكونه  
من أهالي لمائة التاسعة للهجرة زمن الجلاء الاخير الذي اشتهر وابه عند  
الافرنج، على اني لم أعهد الا ما ندد عن محفوظي أثراً غير ما ذكرت لبني  
سراج الغرناطيين المتأخرين، وأنت ترى انهم هناك من حملة السيف وهنامن  
حملة القلم، ولا عجب فقد طالما اجتمعوا في البيوتات العريقة، وتقارنا في العشاير  
النبيلة، وبنو سراج ممن قرنوا السيف الى القلم، وجمعوا الحكم الى الحكيم،  
فاحرزوا كغيرهم من هذه العشاير الشرف بطرفيه، والتحفوا المجد بمطرفيه،

## الفصل الثاني

( في ذكر مملكة غرناطة محل وقوع الرواية )

قال المقرئ : ومن أشهر بلاد الاندلس غرناطة - وقيل ان الصواب  
أغرناطة بالهمز ومعناه بلغتهم الرمانه - وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها  
( هو لسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وزير بني الاحمر أشهر من  
أن يعرف به ) وقال الشقندي : أما غرناطة فهي دمشق بلاد الاندلس ،  
ومسرح الابصار ومطمح الانفس ، ولم تخل من أشرف أمائل ، وعلماء  
أكابر وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من المرج  
طويل العريض ونهر شنييل لكفاها . وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته :  
وما لمصر تفخر بنيلها ، والف منه في شنييلها . ولا يخفى أن الشين في جـ  
المغاربة عددها ألف . وفي غرناطة قال الشاعر :

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق  
ما هي إلا العروس تجلي وتلك من جملة الصداق

وقال صاحب منهاج الفكر : إن كورة البيرة التي منها غرناطة تسمى  
دمشق قيل لان جند دمشق نزلوها عند الفتح وقيل لشبهها بدمشق في  
غزارة الانهار ، وكثرة الاشجار ، وقال : لما استولى الفرنج على معظم بلاد  
الاندلس انتقل أهلها اليها فصارت المصير المقصود ، والمقل الذي تنضوي  
اليه المساكن والجنود . وقال ابن بطوطة وهو الاولي لكثرة ترحاله أن لا  
تزد عليه بلاد : فوصلت الى بلاد الاندلس حرسها الله تعالى حيث الاجر  
موفور للساكن والشواب منخور للمقيم والظاعن ، الى أن قال عند ذكره

غرناطة مانصه - : قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها الا نظير  
له في الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يحترقه نهر شذيل المشهور، وسواه من  
الانهار الكثيرة، والبساتين الجليلة، والجنت والرياضات والقصور والكروم  
معدقة بها من كل جهة. ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه  
الرياضات والبساتين لا مثل له بسواها. وقال ابن جزى مرتب رحلة ابن  
بطوطة : لو لا خشية أن أنسب الى العصبية لاطلت القول في وصف  
غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة  
القول فيه، والله در شيخنا أبي بكر بن محمد بن شربين السبتي نزيل غرناطة  
حيث يقول :

رعى الله من غرناطة متبرواً      يسر حزيناً أو بحير طريداً  
تبراً منها صاحبي عند ما رأى      مسارحها بالثلج عند جليداً  
هي الثغر صان الله من أهلت به      وما خير ثغر لا يكون بروداً

كانت ثغراً في زمان شيخنا أبي بكر أما الآن فوسط من بلاد  
الاسبانيول وقال صاحب منهاج الفكر : يشقها نهر عليه قناطر يجاز عليها  
وفي قبليها جبل شلير وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفا ولا شتاء وفيه  
سائر النبات الهندي لكن ليس فيه خصائصه. وقال غيره : يشقها نهر  
حدرة ويطل عليها الجبل المسمى بشلير الذي لا يزول عنه الثلج شتاء  
ولاصيفا ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد وفي أعلاه الازاهر الكثيرة  
وأجناس الافاويه الرفيعة. وفي شلير يقول الشاعر وأصله من البلاد الحارة:

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم      وشرب الحميا وهو شيء محرم  
فراراً الى نار الجحيم فانها      أخف علينا من شلير وأرحم

وذكر بعض المتأخرين : أن قرى غرناطة مائتان وسبعون قرية (١) ومن أعمالها قطر لوشة وهو قطر عظيم يحتوي على كثير من الحصون والقرى والمزارع وقاعدته لوشة وبينها وبين غرناطة مرحلة وهي مبنية على نهر الشنيل أيضا ونحف بها البساتين والرياض، وإلى لوشة ينسب سلف الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي يقول ابن خلدون فيه - وناهيك به من شاهد - : إنه كان الصدر المقدم في الشعر والكتابة في عصره.

ومن أعمال غرناطة باغة وعامة الاندلس يقولون بينة وهي بلدة طيبة غزيرة المياه كثيرة النماره منها وادي آش ويقال وادي الاشات وهي مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين وجرت فيها الانهار ولاهلها مزية في الادب وحب الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن تزار:

وادي الاشات يهيج وجدى كلما      اذكرت ما أفضت بك النعماء  
لله ظلك والهجير مساط      قد بردت لفحاته الانداء  
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة      منه فتطرف طرفها الاقياء  
والنهر ييسم بالحباب كأنه      سلخ نضته حية رقشاء  
فلذاك نحذره الغسوف فيلها      أبداً على جنباته ليعاء  
ومن أعمال وادي آش حصن جايانة وهو مدينة واليه ينسب

التفاح الجلياني المشهور

وحيث كان مقصدنا هنا أن نذكر من بلاد الاندلس ما تعلق بالرواية

(١) من جملة قرى غرناطة التي ورد ذكرها في الاحاطة لسان الدين بن الخطيب

قرية اسمها حارة عمروس وفي طرابلس الغرب قرية اسمها عمروس وفي مصر بلدة اسمها عمروس وفي الشويفات بغرب لبنان مسقط رأس هذا العاجز حارة اسمها العمروسية فليتأمل القاريء الى وحدة العربية شرقا وغربا مع تباعد الديار.



أو ارتبط بالحوادث التي استوفيناها في الذيل تاريخنا لجلاء المسلمين عن ذلك القطر العظيم نقول على وجه الاجمال

لأن علماء الجغرافية من العرب قسموا تلك البلاد الى موسطة وشرق وغرب أما الموسطة فهي ذات القواعد المهمة التي كل منها مملكة مستقلة مثل قرطبة وطليلة وجيان وغرناطة والمرية ومالقة، فمن اعمال قرطبة استجة وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور واسطبة وبيانة والبسانة والقصير وغيرها. ومن اعمال طليلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة وغيرها. ومن أعمال جيان ابذه وبياسة وقسطلة وغيرها، ومن اعمال غرناطة وادي آش والمنكب ولوشة وباعة وغيرها. ومن اعمال المرية أندرش وغيرها ومن اعمال مالقة باش والحامة وغيرها

هذه أو اسط الاندلس فأما الشرق ففيه من القواعد مرسية ودانية وبلنسية والسهلة والثغر الاعلى فمن اعمال مرسية أوريوالة والقوننت ولورقة وغيرها. ومن اعمال بلنسية شاطبة الذي يعمل بها الورق الذي لانظير له وجزيرة شقر. ومن اعمال الثغر الاعلى سرقسطة وكورة لاردة وكورة نطيلة وكورة وشقة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أيوب وكورة برطانية وكورة باروشة. وفي كل من هذه الكور مدن وحصون وقرى لا تحصى ولدانية والسهلة اعمال واسعة أيضاً.

وأما غرب الاندلس فهو اشبيلية وماردة واشبوننه وشلب. فمن اعمال اشبيلية شريش والخضراء ولبلة. ومن اعمال ماردة بطليوس وبارة ومن اعمال اشبوننه شنترين. ومن اعمال شاب شنتريه ويلحق بعمل اشبيلية جزيرة قانس.

هذا وقد انطوى تحت كل عمل من الحصون والقرى والدساكر  
ما ترك وصفه لمؤرخي الاندلس ونجزيء عن تفصيله بما قرروه من أن  
طول الاندلس نحو ثلاثين يوماً وعرضها تسعة أيام ويشقها أربعون نهراً  
كباراً وبها من القواعد الكبار ثمانون ومن المدن المتوسطة أزيد من ثلثمائة  
وفيهما من الحصون والابراج والقرى ما لا يدخل تحت الحصر حتى  
قيل ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنتا عشر ألف قرية

وحيث قد ذكرنا هذا على وجه الاجمال نقول إن المدن التي كانت  
باقية في بد الاسلام حين الجلاء أهمها بعد غرناطة المرية ووادي آش  
ولوشة ومالقة وبلش مالقة والحامة واندرش وشلوبانية ورندة والمنكب  
ما عدا الحصون والقلاع التي تربو على المئين

ولما كنا قد ذكرنا وصف غرناطة كان لا بد من وصف المرية المدينة  
الثانية لمملكة ابن الأحمر فهي على ساحل البحر وفيها دار الصناعة للمراكب  
ولها القلعة العظيمة المنسوبة الى خيراق مولي المنصور بن أبي عامر الذي  
كان قد تولاها وفي كورتها معادن الحديد والرخام، وطول واديها أربعون  
ميلاً، وكله جنات وبساتين، ولم يكن في بلاد الاندلس أكثر مالا ولا أوسع  
تجارة من أهل المرية وقيل انه كان بها من الحمامات والفنادق نحو الالف  
وقيل كان بها لنسيج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والدياج  
الفاخر الف نول وللثياب الجرجانية والاصفهانية وللمعاجر البديعة والستور  
المسكالة الوف من الانوال، وكان يصنع بها انواع آلات الحديد والنحاس  
ويصنع بها لزجاج الانيق وبمصن شنش على مرحلة من المرية التوت  
الكثير وهناك الحرير والقرمز. وحصي المرية كالدر في رونقه يحمل الى  
١٠ - خلاصة تاريخ الاندلس

البلاد وكانوا يضمونه في كيزان الماء ولابي جعفر بن حاتم تاريخ شامل  
سماه ( مزية المربة ) اسنوفى فيه ارضافها وخصائصها  
ومن تلك البلاد مالقة وهي من اكبر الثغور واوسمها تجارة واحفها  
عمارة وقد ورد في رسالة ابي الوايد الشقندي في وصف مالقة ما يأتي :  
واما مالقة فانها قد جمعت بين منظر البحر والبر بالسكرم المتصلة  
التي لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التي شابهت نجوم  
السماء ، كثرة عدد وبهجة ضياء ، وتخلل الوادي الزائر لها في فصلي الشتاء  
والربيع في سرر بطحاتها ، وتوشيحها لخصور أرجائها ، ومما اختصت به  
من بين سائر البلاد التين الربى المنسوب اليها لان اسمها في القديم ربة  
ولقد اخبرت انه يباع في بغداد على جهة الاستطراف . وأما ما يسفر منه  
المسلمون والنصارى في المراكب البحرية فأكثر من أن يعبر عنه بما  
يحصره ، ولقد اجتزت بها مدة وأخذت على طريق الساحل من سهيل  
( عمل بعربي مالقة كثير الضياع فيه جبل سهيل الذي لا يرى نجم سهيل  
بالاندلس الا منه ) الى أن بلغت ( بلش ) قدر ثلاثة أيام متعجبا فيما حوته  
هذه المسافة من شجر التين وان بعضها ليجتني جميعها الطفل الصغير من  
لزوقها بالارض وقد حوت ما يتعب الجماعة كثرة . وتين بلش هو الذي  
قيل فيه لبربري كيف رأيتته ؛ فقال : لا تسألني عنه وصب في حاقني بالقننة  
( قال ) وقد خصت بطيب الشراب الحلال والحرام حتى سار المثل  
بالشراب المالح وقيل لاحد الملوك وقد أشرف على الموت أسأل ربك المغفرة .  
ففع يديه وقال : يا رب أسألك من جميع ما في الجنة خمر مالقة وزبيب  
اشبيلية . وفيها تنسج الحلال الموشية التي تجاوز أثمانها الآلاف ذات الصور

المجيبية المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم وساحلها محط تجارة لمراكب  
المسامين والنصارى . (قلت) وما زال تين مالمقة مضرى بالامثال حتى قيل  
انه يجلب الى الهند والصين وحتى جعله أبو الحجاج يوسف البلوي المالمقي  
حياته فقال :

مالمقة حُيبتَ يا تينها      السفن من أجلاك ياتينها  
نهى طبيبي عنه في عاتي      ما لطبيبي عن حياتي نهى

وقال ابن بطوطة : مالمقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان  
جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والقواكه رأيت العنب  
يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورمائها المرسي الياقوتي  
لا نظير له في الدنيا وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى  
بلاد المشرق ، المغرب . وبالمقة يصنع الفخار المذهب ، المجيب ويحلب منها  
الى أقاصي البلاد . ومسجدها كبير الساحة كثير البركة شهيرها وصحنه لا  
نظير له في الحسن وفيه أشجار النارج البديعة اه

وأما باش مالمقة فعليها مساحة من مالمقة في طيها وهذه أمهات مدن  
غرناطة ودرر سلكها ولو شئنا استقصاء أعمالها وتقري جهازها بالوصف  
والتنويه وحاولنا تتبع كبر الصقع وبقاعه والدخول في ثمايا حصونه وقلاع  
لضامات علينا الكتب برحبها ، كيف لا والاندلس جنة العرب وفردوس  
نعيمهم ومرعى غايات خيالهم ، وقد جرى في وصفها من المدد ، ما لو توزع  
لوسع سائر البلاد ، وردن دنها ارم ذات العماد ، وحسبت أن هذه المدن  
الاخيرة كانت مؤرماني الكان ، بخصاصة ما في الكرم ، ومع ذلك فلتعد  
أسباب دفاعها ، باستحكام خلق أقتاعها وغزار : مواد أجلا بها لم يزل أمل

الاسلام فيها وطيداً، والرجاء بثباتها . معقوداً، قال ابن سعيد: في حضورها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لا امتناع معاقبتها ودرية أهلها على الحرب، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطمن والضرب، وكثرة ما تنخزن الغلة في مطاميرها فنما ما يطول صبرها عليها نحو ما من مائة سنة ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح الى الآن، وان كان العدو قد نقصها من أطرافها، وشارك في أوساطها، ففي البقية منعة عظيمة، فارض بقي فيها مثل اشيلية وخرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف الى هذه الحواضر العظيمة الرجاء فيها قوي بحول الله وقوته انتهى .

قال المقرئ: قلت قد خاب ذلك الرجاء وصارت تلك الارجاء للعدو معرجاء، ونسأل الله الذي جعل لهم فرجا وللضيق مخرجاً، أن يعيد اليها كلمة الاسلام حتى يستنشق أهلها منه في الرجاء، انتهى  
(قلت) هذا كان منذ نحو ثلثمائة سنة والعهد بالخروج حديث، والدم على أسوار خرناطة طرىء، والعادة المستمرة راسخة التأثير، ولدنو زمن الخروج في أمل الرجوع حق كبير فأما الآن ولم يكتف العدو باسترداد أرضه حتى هم بالتجاوز الى ما وراء البحر، واعترض من بلاد الاسلام ما بين السحر والنجر، فلو نشر المقرئ في هذا العصر رأياً ما رأى من التكالب المحيط لقنع بحفظ الموجود، ولم تتماد به الاماني الى استحياء ما في الاحود، والله الامر من قبل وبمد (١)

(١) إننا عند ما حررنا هذا التاريخ لم يكن المغرب الاقصى سقط في أيدي الفرنسيين والاسبانبول، على ان الله تعالى بعث على هؤلاء جنده من بواسل ريف مراکش بقيادة بطل الاسلام الامير عبد الكريم فنكروا بهم وناروا لعرب الاندلس منهم، ونسأل الله حسن العاقبة لهم

\*

وأما تاريخ فتح غرناطة فينتهي الى فتح سائر الاندلس على يد طارق  
ابن زياد فان طارقا لما هزم لتريق ومزق جموعه وحاز أمواله وتسامع  
الناس من بر العدو بالفتح الذي تم على يده اقبلوا اليه من وراء البحر  
وتكاثفوا حوله فارتفع الاسبانيول عند ذلك الى الحصون والقلع، ولحقوا  
بالجبال، فطارق طارق حصونهم فاستنزلهم منها قسرا، أرهقهم ذلا وعسرا،  
وأوغل في البلاد فمذف لله الرعب في قلوب الاسبانيول، فلم يثبتوا في  
موقف، وصمد طارق الى طليطلة قاعة ملكهم، وأرسل غيثا ولى الوايد  
ابن عبد الملك الى قرطبة. وسرح جيشا الى مالقة وجيشا آخر الى غرناطة  
مدينة البيرة فافتتحوا مالقة ولاد علوجتها بجبالهم التي صارت في الدهور  
الالية لاجالها سلمين وترجها الى البيرة فحسروا اليها غرناطة فافتتحوها  
عنوة وضموا اليهود الى قصبين، من ذلك لهم سنة في كل بلد يفتحونه  
أن يضموا يهوده الى القصبية مع قطعة من المسلمين استثناء اليهم من  
دون الاسبانيول لما بينهم من العدوا، ثم لما العرب أخذوا بالرحيل الى  
لاندلس والوفود على تلك البلاد من كل قبيلة ولا سيما عرب الشام  
فلما كانت ولاية أبي الخطاب حسام بن زرار الكلبي من قبل حنظلة  
ابن صفوان عامل افريقية سنة خمس وشرين بعد المائة كثروا عنده  
في قرطبة فلم يحملهم المصرف ففرقهم في البلاد وكان شديد الرأي وافر  
الحزم فأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق، وأنزل أهل  
حمص اشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين جيازا وسماها قنسرين، وأهل  
الاردنية زمالة وسماها الاردن، وأهل فلسطين شربش وسماها فلسطين،

وأهل مصر تدمير وسماها مصر، وقيل إن بها نهرا له شأن كشأن النيل  
في الفيضان في فصل مخصوص .

ولما أفلت عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان  
الاموي الملقب باداخذل سنة ثمان وثلاثين ومائة شريدا من المشرق  
واقطع الاندلس عن المنصور العباسي نزل بساحل المكب بادىء بدء،  
وهناك وافاه أحزابه والقائمون بدعوة الاموية من أشبيلية ورية بالبيمة  
وأخلصوا المناصحة وانضم اليه اليمانية فهد إلى قرطبة مقر الوالي  
يوسف ابن عبد الرحمن الفهري وكان غازيا في الجلائنة فأسرع الاوبة  
وزحف اليه عبد الرحمن فتلاقى الجمعان بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولجأ  
الى غرناطة وتحصن بها ثم تصالحا على أن يبقى عبد الرحمن في قرطبة أميراً  
ثم نكث يوسف العهد واستوثقت الحرب فانهمزم الفهري واحتز رأسه ووجيء  
به إلى عبد الرحمن واستوسق له الام ودانت لطاعته البلاد ولمن بعده من  
أعقابه، على تزايد في صواتهم، وتائل من ساطعاهم، وكانت غرناطة كغيرها  
من الامصار يخفق فوقها اللواء الاموي حينما لم يكن غيره راية، ولادونه  
خلافة، إلى أن اضطرب حبل امره اذ بين بالاندلس وانتزى عليهم المنصور  
ابن أبي عامر كافل الخلافة ( ١ ) واعنابه وقاموا بالدولة العامرية وعاقدوا

( ١ ) هو الملك الاعظم المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر  
ابن الوليد بن بديز بن عبد الملك المعافري من أجل ملوك الاسلام، وامضى بيوف  
محمد عليه الصلاة والسلام، لم يرو عن أحد زيادة عماروي عنه من الهمة في الجهاد  
والاعمال في الغزو وتردد السرايا إلى العدو، اذ ان غزاهم ستا وخمسة من غزاة لم تنكس  
له فيها راية، ولا قل له جيش، وما أصعب له من وناهلكك لدمرة. وقيل انه اعتنى  
بجمع ما علق بوجهه من الغبار، ثم يمانية كالماء ثم يأخذون عنه بالاداديل حتى -

صنهاجة من قبائل البربر واتخذوهم عضداً في موافقهم من دون العرب وكان

اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتسييرها بجنوطه وكان يحملها معه في أسفاره وغزوانه مع أكمانه توقفاً لحلول الأجر. وفرات ما يشبه ذلك عن سيف الدولة ابن حمدان العدوي من اجتمع له من هذا الغبار ابنة كبيرة عهد بوضعها تحت رأسه في قبره، وجد المنصور هو عبد الملك المعافري الوافد على الإندلس بصحبة طارق وأصله من قرية نركش رحل إلى قرطبة وتادب بها ثم افتعد دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له كتب من خدام القصر إلى أن احتاجت السيدة صبح أم المؤيد الأموي من يكتب لها فعرّفها به من يعرفه فكتب عنها وترقى في خدمتها إلى أن رغبت إلى الخليفة في توليته القضاء فولاه فظهرت منه محابة فترقى إلى ولاية الركاة والمواريث بأشبية كانت ممداً ظهوره وناصح في خدمة المصحفي حاجب الخليفة وصار له شأن فلما توفي الحكم وتولى بنو هشام المؤيد وهو حدث جاشت الأفرنج فرماهم المصحفي بن أبي عامر فاصبر عليهم وتمكن حبه من القلوب وأخذ يزداد جاعاً وعلوا حتى تاب له رأي بالأسنيداد بكر بأهل الدولة وضرب بينهم وقتل بعضهم ببعض فنكب الصنادلة الخميميان بالناصر بالمصحفي ونكب هذا بغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ونكب غالباً بمجفر بن حمدون قائد الشيعة وممدوح ابن هاني وجعفر أيمالة ابن عبدالودود وابن جهور وابن ذي النون ثم استعان على أولياء الدولة كلهم بالحندي من زبانه والبربر واصطنعهم وحجر على هشام المؤيد ولم يبق له من الأمر إلا الاسم وأمر بالعداء باسمه على الممار عقب اسم الخليفة وصار شابه معه شأن ابن توبه مع المضيع أو الطائع العباسي بل أعظم من ذلك وأجاز إلى العدو وضرب بين رؤساء البربر فاستوثق له ملك المغرب وملك العدوتين وقهر جميع الأعداء وله الغزاة المشهورة في بلاد غابسية إلى شنت يا قب (سان جاك) التي وصل بها إلى مالم نظاء رجل مسلم من بلاد الأفرنج وتوفي سنة ٣٩٤ بمدينة سالم وهو منصرف من العزو وحكي أنه مكتوب على قبره هذان البيتان

آاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الرمان بمثله كلا ولا يحمي الثغور سواه

وكان ملكه سبعاً وعشرين سنة

وأخباره ونوادره تحتمل مجادلات وأكبرها مسنمض في التواريخ وكتب الأدب وقد أفرغ ابن حيان آثاره في الحزم والكيده والجد تاليفاً وخاتمه ولده عبد الملك المظفر أبو مروان وكان معتقياً اثر اسمه في الجهاد وملك سبع سنين وخلفه أخوه عبد الرحمن وكل منهم حجر على هشام لكن هذا الأخير أحب أن يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة وأجبر هشام على أن يوليّه عهداً ولكنه قتل وانتهى به ملك العامر بين كما أشرنا إليه



عميد صنهاجة لوقته زاوى من بني حبوس فكان هو وقومه من صنهاجة  
وزناته مادة لاولاد المنصور بن أبي عامر إلى ان همت القرشية ومن اليهم  
من المضرية باعادة الملك إلى نصابه وتمخضت الحال بالفتنة وثار اهل  
قرطبة على ابي المظفر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وبايعوا محمد بن  
هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من اعقاب الخلفاء  
واقبوه بالمهدي بالله وكان عبد الرحمن بن المنصور بالشعر فنقل إلى الحضرة  
وانقض عنه جمعه وخذله حزبه حتى البربر انصار دعوتهم بما تقوموا عليه  
من سوء تدبيره، ثم ثب عليه ثبالتأثيرين واحتز رأسه وحمله إلى المهدي  
وانقضت دولة العاربيين كأن لم نغز بالامس

وبعد أن ادبل ثانية لبني امية تذكر اشياهم من انتصار العاربيين  
بالبربر وتسليحهم بهم ما استخيل على هؤلاء القلوب وثار بهم الدهماء  
فهبوا دورهم وانقموا منهم فبكوا ما أصابهم إلى المهدي وكان واجداً في  
نفسه مثلها وجد الناس ففض الشرف عن اسماءهم فتمشت رجالاتهم  
بالتحريك وامروا النجدي في تقديم هشام بن سليمان بن أمير المؤمنين  
الناصر فقشا الامر وعوجلوا عن تصددهم وأحضر هشام وأخوه وبكر بن  
يدي المهدي فضربا عاقهما وزعم البربر عن قرطبة بنحى بهم سليمان بن  
الحكيم بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر فبايعوه واقبوه بالمستعين بالله  
واجتمعوا حوله بظاهر قرطبة ثم نهضوا إلى طليطلة واستجاشوا بابن  
الاذفونش ونهضت البرابرة والنصرانية إلى الأواحد إلى قرطبة فبرز المهدي  
إلى لقاءهم في جمهورها فانهمز ودخل المستعين قرطبة ختام المائة لرابعة  
ولحق المهدي بطليطلة واستجاش بابن الاذفونش أيضاً وكانت القضية

بالتناوب وكان هذا عند منهم كل من استجاش به توسيعاً للذكاية فبما بينهم،  
وكر المهدي على قرطبة بكشفها المستعين برمزها تفرقوا في البلاد للبعث  
والفساد، فخرج المهدي في أثرهم ومعه ابنه الأذفونش فاجتمعوا لهموا وكروا  
عليهما فانهزما بمن معهم من الاسلام والصرانية، ودخل المهدي قرطبة  
مدحوراً ويؤس من الفوز، فأخرج هشام أؤيد الخليفة كان قبل الفتنة،  
وأقام في حجابته ظناً بأن ذلك يجمع الكلمة ويقف من غيب امرئه فلم يقف  
ذلك بعزم البربر والمستعين صاحبهم وأداموا الحصار فقام عامة قرطبة وقتلوا  
المهدي بحجة انه هو سبب الفتنة فلم يجدهم ذلك في التنفيس عن خناهم وبقي  
المستعين بمصرهم حتى دخل قرطبة ومن معه وقتل هشام سرّاً، وعاش  
البربر في الخضرة ونهبوها، انزلوا المعركة بذوي الصون والسترون ببولتها،  
ثم وثب البربر لهذا الغلب على المدن العظيمة فولوها ونزل زاوي المقدم  
الذكر بغرناطة من القواعد وهي محل الشاهد، اتخذها داراً ومعتصماً له  
ولقومه، ثم خشي ثورة الاحقاد ووثب أسبل الاندلس على البربر فقتل الى  
المغرب ولحق بقومه في القيروان واستخلف على غرناطة ابنه خيث بينه  
وبين الغرناطيين ما اوجب انقراضهم عليه فبايدوا حبوس ابن عمه فتأثر  
أمره وصار من اعظم ملوك الطوائف الاندلس وبمد وفاته سنة تسع  
وعشرين واربعمائة ولي ابنه باديس واقب بالمظفره زحف اليه العاصري  
صاحب المرية لقيه باديس بظاهر غرناطة فمزمه وقتله وتمت شوكرته  
وعظام ساطنه حتى خلب نصرته جميع ملوك عزمه واستنجده محمد بن  
عبد الله البرزالي في دفاع ابن عباد واستمد النادر بن ذي ثنون في  
ما صبه أيضاً وشاد باديس في غرناطة القصور ومراد الصروح. وسنة

تسع وأربعين عند انقراض بني حمود أصحاب مالقة أضافها الى عمله وتوفي سنة سبع وستين وحلته حافده عبد الله بن بلكين بن باديس وعقد لآخيه تميم على مالقة وكانت ظهرت دولة المرابطين وأجاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى الاندلس ونزل بقرنطرة سنة ثلاث وثمانين فقبض على عبد الله بن بلكين وأخيه تميم ونفاها الى بر العدو وانزلهما السوس الاقصى فهلكا وانقضت بهما تلك الامارة

### رجع الى أخبار قرطبة

لما استقام الامر للمسنين بوساطة البربر خرج علي بن حمود الحسني وأخوه قاسم من عقب ادريس ملك فاس من المغرب وأجازا الى الاندلس وادعيا الخلافة واعصوا صب حولهما البربر وانصروهما على المستعين الاموي صاحبهم الاول فقتلوه وثلوا عرش بني امية سبع سنين ، وجرى بينهم اثناء هذه المدة حروب ووقائع ليس هنا محل شرحها وتلقبوا بالقبائل الخلفاء وتغلبوا على الامصار ، لكن لم تطل مدتهم فان آخرهم كان الواثق توفي سنة خمسين وكان أهل قرطبة أعادوا الخلافة الى نصابها وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي ولقبوه بالمستظهر وبعد شهرين من خلافته ثار عليه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر واتبعه العامة ففتك بالمستظهر واقام مكانه ولقب بالمستكفي وهو والد ولادة الادبية الشهيرة صاحبة المطارحات مع الوزير ابن زيدون رحمهما الله . وبعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الامر الى المعتلي يحيى ابن علي بن حمود وكان أهل قرطبة أكثر الناس تشغيبا

وأقلهم ثباتاً على الامور فخلعوا المعتلي وباع الوزير أبو محمد جهور بن محمد ابن جهور كبير قرطبة لهشام بن محمد الاموي أخي المرتضي وكان في (لاردة) عند ابن هود ولقب بالمعتمد بالله ولم يصبروا عليه فوق ثلاثة أعوام قضى أكثرها متردداً في الثغر حتى خلعوه سنة ٤٢٢ وانطوى بساط الدولة الاموية وانتثر سلك الخلافة وصار الامر الى رؤساء وزراء وقضاة استقل كل منهم بما أمكنته يده وصار يتظاهر بعضهم على بعض بملوك الافرنج ويستجيشون بهم في الاحايين ويكنونهم من حصون المسلمين طعمة على الاستظهار وإيثاراً لهوى الانفس على مصلحة الملة ومن أشهر هؤلاء الملوك الذين تلقبوا بملوك الطوائف بنوعباد من سلالة المنذر بن ماء السماء اللخمي كانوا ملوكاً بأشبيلية وغرب الاندلس وانتزعوا قرطبة من يد بني جهور أصحاب الوزارة. وأشهرهم المعتمد بن المعتضد الشهير بالادب والبراعة، والموصوف بالكرم والشجاعة، الذي نكبه في آخر أمره أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكان قد استفحل أمره بالاندلس وعلت يده على بقية ملوك الطوائف وخطبوا نصره وغلوا في رضاه، وما زال إقباله في ازدياد وجدده في صعوده، حتى أسره بن تاشفين في خبر سيأتي ونكبه النكبة التي ض بئملها التاريخ بعد نكبة البرامكة وتوفي مسجوناً باغصمات سنة ٤٨٨ ومن ملوك الطوائف بنو ذي النون أصحاب طليطلة وقد بلغت دولتهم غاية قصية من الاستفحال والترف وجاهدوا في الثغور جهاداً كان الصبر مقامه وغلبوا المعتمدين عباد على قرطبة وقتلوا ولده أباعمر ووزعوا بلنسية من يد ابن أبي عامر الى أن أدرك ديارهم الضعف بعد القادر بن ذي النون، واستلم بن الاذفونش منهم طليطلة

مقر ملكهم وشرط المظاهرة عز أهل بالذسية فأجابوه، تغلب الاسبانيول  
على الارض واكتسحوا بسائحتها، وقادوا أئبيها، وأذوا عتبتها، وفي ذلك  
قول بعضهم يندب طابطة :

لشكك كيف تبتسم الثغور  
أما وابي صابته هدونه  
لند صحت ظهور حين قالوا  
ترى في الدهر سرور بعيش  
أبس بها أبت النفس ثم  
لقد ضمت رقاب من لمأ  
وهان على عزيز القوم ذ  
طابطة أباح الضد منها  
فيس مثلها إوان كسرى  
بمينة محمنة بعيد  
ألم تلك مة لا لدين صعبا  
وأخرج أهلها منها جوما  
كنت دار إياز ولم  
مسا دها كمناس أي قاب  
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا  
يبتسر كل حوايس يعلى  
أديت قاصات الطرف كانت  
مأديتها فتد انجنا

سرور رأ بعد ما تمست ثقرر  
تبير لدين فانصل اشير  
أدير الكاشحين له ظرر  
مضى عنا لطيته السرور  
يدور على الدوائر إذ تدور  
وزل غدوها مضى "نور  
دسامح . الحربم فنى غر  
حماها ان ذ نيا كير  
ولامنها الخورنق والسدير  
تماولها و طابها عير  
فداله كما ماء المدير  
فصاروا حيث ثابهم .  
لما اتى طاست قير  
على ما ذا برت ونا بوير  
يكر ما تكررت الدهر  
لى يوم يكون به التبر  
مصونات مساكنها التور  
اسرب في لوانها وتور

لو انضمت على الكمل القيور  
وكيف يصح مغلوب قرير  
بأحزان وأشجان حضور  
بملاكهم فقد رقت النذور  
وجاءهم من الله النكير  
نجور وكيف يسلم من يجور

فتدحامت على القتلى النصور  
تباب . ضاربا عنه النحور  
بكم من أن تجاروا أو تجوروا  
يلام عليهما العلب الصبور \*  
وام الصقر مغلاة زور

الى أين النحول والمسير  
وليس لنا وراء البحر دور  
نباكرها فيعجبنا البكور  
فلا فرث هناك ولا حرور  
وبشرب من جداولها غير  
ويؤخذ كل صائفة عشور  
زغر القوم بالله الغرور  
رأه . وما أشار به مشير

وكان بنا وبالقينات ألى  
لقد سخرت بالذين عين  
لئن غبنا عن الاخران اذ  
نذور كان للايام فيهم  
غان قلنا العقوبة أدرتكم  
فانا منهم وأشد منهم  
ومنها

خذوا مار لديانة وانصروها  
ولا تهنوا واولوا كل عضو  
وهوتوا كالجملوت ألى  
أصبراً بعد . . . امتحان \*  
فام للصبر مذكور بلود  
ومنها

كفى حزنا بأن الناس قلوا:  
انترك دورنا . . . ستمها  
ولا تم الشياخ زروفي حسدا  
وظل وارقب وخبر ماء  
ويؤكل . . . فرا كره باطري  
يؤدي . . . مرم في كل شهر  
لقد ذهب اليقين فلا يقين  
رشدنا بالرق بالله ما ذا

مضى الاسلام فابك دما عليه  
ونح وانذب رفاقا في فلاة  
ولا تجنح الى سلم وحارب  
أنعمى عن مرشدنا جميعا  
ولو أنا ثبتنا كان خيرا  
اذا ما لم يكن صبر جميل  
فما ينفي الجوى الدمع الغزير  
حيارى لا تحط ولا تسير  
عسى أن يجبر العظم الكسير  
وما ان منهم الا بصير  
ولكن ما لنا كرم وخير  
فليس بنافع عدد كثير

ومن ملوك الطوائف بالاندلس بنو هود أصحاب سرقسطة واشهرهم  
المقتدر بالله وابنه يوسف المؤمن وكان المزمع قائما على العلوم الرياضية وله  
فيها تصانيف وابنه المستعين أحمد هو الذي هزمه الافرنج في واقعة (وشقة)  
وقتل من المسلمين يومئذ نحو عشرة آلاف واستشهد المستعين بظاهر  
سرقسطة سنة ٥٠٣ وولي ابنه عبد الملك عماد الدولة وهو الذي اجلاه العدو  
عن سرقسطة سنة ٥١٢ وولي ولده سيف الدولة وله في الجهاد الموقف الذي  
لا يخفى . ومنهم بنو الافسط ملوك بطليوس الذين منهم المظفر صاحب  
التأليف المسمى بالمظفري في خمسين مجلداً وهم المرثيون برأية ابن عبدون  
المشهوره التي مطلعها

الدهر يفجع بمد العين بالاطر فما البكاء على الاشباح والصور  
وذلك عند فتك البربر بالمتوكل البطليوسي . ومنهم بنو صادق بالمرية  
ومنهم مجاهد العامري بدانية والجزائر ومنهم بنو حيوس بقرناطة . كان  
الحاجة من الاستشهاد هذا ولما تكالب الاسبانيول على بلاد المسلمين في  
الاندلس واهتبلوا القرية بما كان من افتراق الكلمة وتشعب السلطة  
وملكوا بلنسية وطليلة وسرقسطة وغيرها وسار طائغيتهم حتى وقف

بفرضة المجاز من طريف وضرب على ملوك الطوائف انواع الجزى فأدوها واعطوه المقادة وكان اضخمهم ملكا المعتمد بن عباد اللخمي صاحب اشبيلية يؤديها وهو صاغر فلما تملك الاذفونش طليطلة أرسل اليه المعتمد المعتاد فلم يقبله هاتيك المرة وارسل يطلب منه النزول عن جميع الحصون المنيعة وتبقى السهول للمسلمين والافهوزحف الى قرطبة، وكانت الرسالة مع جمع وافرنحو خمسمائة فارس، فضاق المعتمد ذرعا واعتزم القيام ففرق الجماعة على قواد عسكريه وامرهم بأن يقتل كل من عنده وتولى هو بنفسه صفح عميدهم حتى خرجت عيناه وافلت منهم ثلاثة نفر فمادوا الى الاذفونش واخبروه بالخبر فرجع عن قرطبة الى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويحلب بالقوة الكافية وهذه رواية ابن الاثير

وروى صاحب (الروض المعطار في ذكر المدن والاقطار) ما يخصه أن المعتمد تأخر في دفع الضريرة لاشتغاله بغزو ابن صمادح صاحب المرية فلما ارسلها استشاط الاذفونش غضبا وارسل يطلب منه بمض الحصون وامعن في التجني وسأل في دخول امرأته الحامل جامع قرطبة لتلد فيه حسب اشارة القسيسين والاساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم وأن تنزل في قصر الزهراء غربي مدينة قرطبة والزهراء، هذه هي التي بناها الناصر لدين الله وامعن في بنائها و جلب اليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور الخ ذلك لتلد الاذفونشة بين طيب نسيم الزهراء فضيلة الكنيسة من الجامع المذكور، وكان صاحب هذه السفارة يهوديا هو وزير الاذفونش فأبى ابن عباد اجابة التماسه فراجعه وألح عليه حتى أياسه بما غاظله من القول فضربه المعتمد بحجرة كانت بين يديه فانزل دماغه



في حلقه وأمر به فصاب منكوسا بقربانية واستفتى في جواز الفعلة الفقهاء فبادر  
محمد بن الطلاع الفقيه بالفتيا بجواز ذلك لعدم الرسل حدود الرسالة  
واحتمج بأنه إن بادرتك خوفه أن يكسل المتهمة من منبذة العدو وبلغ  
الخبر الأذفونش فاسم : لهه ايغزونه باشييليه وليحصرنه في عقر داره  
وجردله جيشين أحدهما زحف الى كورة باجة فلبانة ماشييلية : الثاني تولى قيادته  
بنفسه حتى التقى الجيشين تحت لوائه بملة قيسر ابن عباد على ضفة النهر  
الاعظم وفي أيام قامه هناك كتب الى ابن عباد زاريا « كثير بطوله قامي في  
مجلسي للباب واشتد عليّ الحرقا تخفني من قصرك ؛ وحت اربح بها على  
نفسى واطرد بها للباب عز وجهي » فوقع له ابن عباد بخنه في ظهر  
الرفعة « قرأت كتابك وفهمت خيالك : امجابتك رسا أنظرك في مراوح  
من الجلود اللطيفة تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله تعالى » وشاع  
توقيع ابن عباد وفشا في الناس زومه على استنثار البربر لمجاودة اعدو فلما  
علم بذلك امراته ملوك الدار هف اهتورا وتشورا للامر ومنهم من  
كاتبه ومنهم من شافه قائمان : الملك عتيم والبرهان لا يجتمه ما في عمد  
واحد فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة « رعي الجمل خير من رعي الخنازير »  
أي أن يكون أكل ليو سف ابن تاشفين رعى جماله من الصحراء خير  
من كونه ممزقا للأذفونش أسير أعناه يرمى خنازيره في قشدة وكان  
لعداله قولا آخر يا قوم اني من امري نلى حالين حالة يقين وحالة شك  
ولا بد لي من احدهما ما حالة الشك فان استندت الى الأذفونش أو  
الى ابن تاشفين فمن لممكن أن يني لي بى بكن أذ لا يفعل وأحالة يقين  
فاني ان استندت الى ابن تاشفين ارضى الذوان استندت الى الأذفونش

اسخطت الله وهذه حالة يقين فلماذا ادع مايرضى الله الى مايسخطه  
ولما عزم المعتمد على الاستجاشة امر كلا من المتوكل بن الاقطس  
صاحب بطليوس وعبد الله بن حيوس صاحب غرناطة أن يوقدا قاضي  
الجماعة بمحضرتة واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن  
ادم وكان أعقل أهل زمانه فلما اجتمع عنده القضاة باشبيلية أضاف اليهم  
وزيره أبا بكر بن زيدون وأسند الى القضاة ما يلقى بهم من وعظ ابن  
تاشفين وترغيبه في الجهاد وأسند الى وزيره ابن زيدون ما لا بد منه  
في تلك السفارة من ابرام العقود السلطانية ( وقد وفي يوسف بالاولى  
ولم يف بالثانية )

وكان ابن تاشفين منذ اعتراء الضعف دول الاندلس لم تزل  
تفد عليه وفود المسلمين من وراء البحر مستعطفين مجهشين بالبكاء فوافدت  
رسل ابن عباد حتى اسرع الاجابة وحشد العساكر وانزلها بالجزيرة  
الخضراء وأجاز على أثرها وامتألت الجزيرة بالمجاهدين والمتطوعة وعلى  
رواية ابن خلكان انه أمر بعبور الجمال فمبرمنها ما أغص الجزيرة وارتفع  
رغاؤها الى عنان السماء لم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم فصارت  
الخيل تجمع من رؤية الجمال ومن رغاؤها وكان ليوسف في عبور الجمال رأي  
مصيب فكان يحدق بها عسكره عند الحرب وكانت خيل الفرنج تجمع منها  
ولما نزل يوسف بمحشوده في الجزيرة وبلغ الاذفونش تألب امرأه  
المسلمين لناهدته استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع  
القسييسون والاساقفة صلبانهم واجتمع له من الافرنجة والجلالقة مالا  
١٢ - خلاصة تاريخ الاندلس

يحصى عدده ، وبعث الاذفونش الى ابن عباد ان صاحبكم يوسف نجشم المشقة وخاض البحار وأنا أكفيه لعناء فيما بقي والقام في بلادكم رفعا بكم وكان مقصده في الدلوف الى ديار المسلمين انه ان دارت عليه الدائرة كان له من ورائه من معاقله ومدائنه معتصم وان كانت عليهم كان أقدر على النكاية فيهم في عقرتهم. ومما قيل انه كتب الى يوسف كتابا انشأه له بعض غواة المسلمين يغلظ له في القول ويتوعده فأمر ابن تاشفين ولم يكن اعلم بالعربية من الاذفونش كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجاوبه وكان كاتبا بدأ فكتب وأجاد فلما قرأه يوسف استطاله وأخذ كتاب الاذفونش كتب على ظهره الذي يكون ستراه. وأخذ المعتمد وامراء الاندلس

ابون لجيوش المرابطين الاقوات والضيافات

ولما قرب أمير المسلمين من اشبيلية خرج ابن عباد للقائه في وجود اصحابه وعنده اتلاقيا تصاحفا وتعانقا ثم شكرا انعم الله وتواصيا بالصبر والرحمة وتوسلا الى الله أن يجعل سعيهما خالصا لوجهه. ووافت الجيوش كلها بطليوس وجاءهم الخبر بزحف الطاغية ولما تدانى الفريقة ان اذكى المعتمد عيونه في محلات الصحرا وبين خوفا عليهم من المكائد لجهلمهم المكان وكان يوسف قد كتب الى الاذفونش يدعوهم الى احدى الثلاث وهي الاسلام أو الجزية أو السيف كما هي السنة فاهتلا الاذفونش غيظا وقامت الاساقفة ورفعوا صلبانهم وتباينوا على الموت وقام الفقهاء من الجهة المقابلة ووعظوا وحضوا على الصبر والثبات، وصدعوا بقوارع السكتاب ، واصبح يوم الخميس فبعث الاذفونش الى ابن عباد يقول له غداً يوم الجمعة وهو عيدكم والاحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت فاعلم ابن عباد السلطان

يوسف بذلك وإنها خديعة ليفتك بالمسلمين الجمعة فاتتبه الجيش الاسلامي طول ليلة الجمعة واستيقظ الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي فرحاً مسروراً يقول إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والشهادة فتأهب ودعا وتضرع وودهن رأسه بالطيب وانهى ذلك الى ابن عباد فبعث الى يوسف يخبره

وجاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الاذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش وصليل الاسنة وجاءت السيوف من داخل محلتهم يقولون قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لاصحابه ابن عباد مسمر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وان كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب فهم جاهلون البلاد فاقصدوا ابن عباد واصدقوه الحملة فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون فأرسل ابن عباد يعرف أمير المسلمين وقبيل ورود الجواب غشيته جنود الاذفونش من كل جهة وهاجت الحرب وحى الوطيس وتبايع الناس على الموت وصبر المعتمد صبراً لم يعهد مثله لأحد واستبطأ يوسف في النجدة، انكشف بعض اصحابه وأثنج جراحات وعترت تحت ثلاثة أفراس

ويئنا هو على تلك الحال أقبل عليه من قراد المرابطين داود بن عائشة وكان من الابطال فنفس عن خنافه وأقبل يوسف بجموعه وأصوات طبوله قدملاّت الفضاء فنهد اليه الاذفونش بمعظم جيشه فصدمهم ابن تاشفين بجندة فردم الى مراكزهم، وانتظم بيوسف شمل ابن عباد وحملوا جميعاً حملة الرجل الواحد فنزلت الارض بحوافر خيلهم واطلم الجو من العثير وتراجع المنكشفون من أصحاب ابن عباد ونجدت الحملة

فانكشف الاذفونش وقيل بل تصادم الجمعان وتناوبا الكرو والفر الى أن أمر يوسف حشمه من السودان فترجل منهم نحو أربعة آلاف بدرق للمط وسيوف الهند ومزاريق الزان وأدرك الاذفونش اسود لصق به وقبض على عنانه وانتضى خنجره اثبته في فخذه فهتك حلق درعه، وهبت ريح النصر وأنزل الله السكينة على المسلمين وانكشف العدو من كل جانب وقد فشا فيه القتل والاسر واعتصم الاذفونش بخمسمائة فارس من قومه بربوة عالية انسابوا منها بعد تحميم الظلام وقد أباد القتل من الاسبانيول امة وجعل المسلمون من رؤوسهم ما آذن يؤذنون عليها واستشهد في ذلك اليوم ابن رميلة كما بشره النبي صلى الله عليه وسلم وقاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصودي وغيرها من الاعيان

وأقامت العساكر بالموضع اربعة أيام حتى جمعت الغنائم فنعنف عنها أمير المسلمين إيثاراً لأهل الاندلس وعادوا جميعاً الى اشبيلية وحضرت الكتب من بر العدو الى ابن تاشفين تفتضي عزمه بالرجوع فعبّر البحر وودعه المعتمد. وهذه واقعة الزلاقة الشهيرة من أشهر ما حملته التواريخ من الوقائع بين الاسلام والنصرانية وقد استوفينا خبرها بمكانها من صدور الحوادث ووجدنا اختلافاً في تعيين عامها فابن خلدون يقول سنة احدى وثمانين (بعد الاربعماية) وابن علقمة يقول ان طليطلة أخذت يوم الاربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ وكانت واقعة الزلاقة التي نشأت في السنة بعدها. ولما قفل ابن تاشفين الى المغرب خف وراءه بالاندلس الامير سيري بن أبي بكر أحد قواده الكبار وسمعه جيش برسم الجهاد وابن خلدون يقول انه خاف محمد المعروف بابن الحاج فزحفت عساكر

المرابطين صوب بلاد العدو فأنخنت وسبت وتوغلت في البلاد وكتب  
الى يوسف قواده: ان الجيش مقيم على مراس العدو وهو في أضيق العيش  
وأنكده وأن ملوك الطوائف متقاعدون يجرؤن ذبول الترف والترفة،  
وقيل بل كان ابن تاشفين أنكر عليهم تراكم المغارم وتلاحق المكوس على  
رعيهم فأمر برفع الكثير منها فانقبضوا عنه الا ابن عباد في الاول فأمر  
ابن تاشفين بنقلهم الى بر العدو وقتال من عصى منهم فابتدأ ببني هود  
وأنزلهم من قلاعهم واستولى مكانهم وقتل ابن ذي النون صاحب بلنسية  
وملكها، نازل بني ظاهر بشرق الاندلس فاجلاهم وألحقهم بالمغرب، وقصد  
بطليوس وفيها ابن الافطس فانتزع منه جميع أعماله، وأخذ غرناطة من  
بد عبد الله بن بلكين بن باديس ومالقة من يد أخيه تميم، ولم يبق عليه  
لا المعتمد بن عباد في اشبيلية وكان النعمان قد أفتوا أمير المسلمين بخلع  
لجميع لما رأوا من فرقتهم وسوء أحوالهم من تشعب أمور الملة، نكالب  
لعدو ووردت الفتاوى على يوسف من اعلام الشرق مثل الامام الغزالي  
والطرطوشي بوجوب ذلك

وكان ابن تاشفين لما ورد على المعتمد حضرته اشبيلية بعد الزلافة  
ورأى ما رأى من ترف المعتمد وسرفه في قصوره واسترساله الى  
حظوظ نفسه مما كانت ترغب عنه نفس ابن تاشفين الناشيء في  
الصحراء أنكر ذلك الامر وقال: ان هذا الرجل مضيع لما بيده  
وحكم بأن توفر هذه الاموال بين يديه لا بد أن يكون نتيجة المظالم  
والمغارم. والظلم وزيادة الرسوم عين الخراب على الرعيّة، فأرسل سيرى  
فأثمه يطالبه بالطاعة فلم يجبه فنأزله وحصر اشبيلية واستجاش المعتمد

بالطاغية فلم ينفعه لما كان المرابطون قد فلوا من غربه فدافع المعتمد عند دخول المرابطين بلده دفاعا مشهورا وخرج حاسرا عن مفاضته والسيف في يده فرماه أحد الداخلين برمح فأخطأه فبادره بضربة أزهرق بهاروحه ولقي ثانيا فقسمه شطرين الى أن وجد ابنه مالكاً مقتولا وبئس من الثبات فطلب الامان فأجيب اليه وحمل على السفين منفيا الى بر العدو فأسكنه يوسف اغيات وبها مات سنة ٤٧٠ ومن قوله عند ما خلم

ان يسلب القوم العدي	ما-كي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم	أن لا تمصني الدروع
وبرزت ليس سوى القمي	ص على الحشى شيء دفع
أجلي تأخر لم يكن	يهواه ذلي والخضوع
ما سرت قط الى القتال	وكان من أملي الرجوع
شيم الالى أنا منهم	والاصل تتبعه الفروع

والمعتمد بن عباد ينتمى الى المنذر بن ماء السماء اللخمي وفي ذلك

يقول أحد الشعراء

من بني منذر وذاك انتساب	زاد في نخرهم بنو عباد
فتية لم تلدسواها المعالي (١)	والمعالي قليلة الاولاد

ولم تعرفنا كتب الادب العربي بيت قيل فيه من الشعرو دار على

أيام انسه ثم ادوار نحسه من المحاضرات. مثل هذا البيت اللخمي، ولا بدولة

(١) والى هذه الشجرة ايضا ينتسب محرر هذا الكتاب ومن بني لخم

أقوام كثيرون في الغرب والشرق ولا سيما بصعيد مصر

راجت فيها بضاعة الادب والفصاحة، وتناهت اليها غايات الكرم والسماحة  
أكثر من دولة بني عباد؛ حتى قال ابن اللبابة أن الدولة العبادية بالاندلس  
أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد سعة مكارم، وجمع فضائل ولذلك ألف  
فيها كتابا مستقلا سماه (الاعتماد في أخبار بني عباد) ولا يلتفت لكاتب  
عقور نبح بقوله

مما يزهدني في ارض اندلس      ألقاب معتمد فيها ومعتضد  
اسماء مملوكة في غير موضعها      كالمريحي انتفاخا بصورة الاسد  
لان هذه مقالة متعسف كافر للنعم ، ومثل ذلك في حقهم لا يقدر ، وما  
زالت الاشراف تهجي وتمجح انتهى . وأخبار المعتمد واشعاره وامداح  
الشعراء فيه، وفريقات القصائد في مراثيه، ملء كتب المحاضرات، وهي  
غرر قصص المسامرات

غزا يوسف بن تاشفين الاندلس أربع مرات اخرهن سنة ٩٧٧ وانتظمت  
جميع ديار الاسلام فيها بملكه وانقرضت ملوك الطوائف  
واتسع سلطانه بالعدوتين وورد له التقليد من الخليفة المستنصر العباسي  
وتوفي على رأس المائة الخامسة وقام بالامر بعده ابنه علي بن يوسف وسلك  
سنن أبيه في الغزو والجهاد وأجاز الى الاندلس سنة ثلاث ونازل طليطلة  
وانحن في ديار العدو وعقد لولده تاشفين على غرب الاندلس وأجاز معه  
الزبير بن عمر في جيش وعقد لابي بكر بن ابراهيم المسوقي على شرق  
الاندلس وهو ممدوح ابن خفاجة أرق شعراء الاندلس شعرا ومخدوم  
الحكيم المعروف بابن الصائغ وولي ابن غانية الجزائر الشرقية ميورقة  
ودانية ولاربعة عشرة سنة من ملكه ظهر المهدي بن تومرت القائم بدعوة



الموحدين آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر والتفت عليه المصادمة وتوفي سنة ٢٤ وقام بالامر بعده عبد المؤمن بن علي كبير اصحابه وانتسبت الدولة اليه فقبل دولة بني عبد المؤمن فلم يزل يسعى في تقويض خيام ملتونة ومحو آثار المرابطين حتى ملك اكثر المغرب منهم وكان علي بن يوسف قد مات وخلفه ابنه تاشفين فصعد الى الموحدين بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطري فانهمزمت صنهاجة وفر تاشفين الى وهران لاجتباب ابن ميمون قائد البحر ومات سنة ٤١ وبويع في حضرتهم مراکش لابنه ابراهيم وكان ضعيفاً عن حمل الامر فأدبيل منه لعمه اسحق بن علي بن يوسف وعلى تفيئة ذلك نازل الموحدون مراکش وملكوها وقطعوا اداب المرابطين وانمطفوا نحو الاندلس سنة ٥٥١ فاتزعوها من أيدي عمالهم مدينة مدينة وحصنا حصنا بعد حروب تساجلت بها فثة المرابطين والموحدين وانتهت بالفتح لهؤلاء

وظلب الثوار الامان من عبد المؤمن وتلاحقوا به فصفح عنهم ونهض الى سلا سنة ٤٥ واستدعى أهل الاندلس فبايعوه جميعاً وكان ميمون ابن بدر اللامتوني في غرناطة فنزل عنماله ولحق بمراكش ونازل السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن المرية وكانت يومئذ في يد الاسبانيول فاستنزلهم منها وتولى ابنه الآخر السيد أبو يعقوب اشبيلية بطاب اشياخها وزحف صاحب طليطلة الاسبانيولي بجميع الاكفاء لها الى قرطبة فسرح جيوش الموحدين الى مقابله فارتحل عنها

وكان الامير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش قد ثار عليه بشرق الاندلس فكتب الى عماله بالاندلس بما يتيسر له من فتح

افريقية وأنه عابر اليمم وكان ولداً أبو سعيد وأبو يعقوب في الحضرة  
 زائرين فانتهاز الفرصة ابن همشك من اشياح اللمتونيين واستولى على  
 غرناطة وانحصر من فيها من الموحدين بالقصبة فنهض عبد المؤمن الى  
 سلا وارسل ابنه سعيداً وضم اليه ابن أبي حفص عامل اشبيلية من قبله  
 لاجل استنقاذ غرناطة فهزمها ابن همشك ورجع أبو سعيد الى مالقة  
 فأعادها الى غرناطة وعززها بثالث هو ابنه الآخر السيد أبو يعقوب  
 في سواد من الموحدين فوصلوا الى غرناطة وقد وافاها ابن مردنيش  
 مدداً لابن همشك وظاهرها النصراري فازدلف الفريقان بعضهم الى بعض  
 بفحص غرناطة فدارت الدائرة على ابن همشك وأحلافه ففر ابن مردنيش الى  
 الشرق مكانه ولحق ابن همشك بجيان ودخل السيدان ولداً عبد المؤمن قرطبة  
 سنة ٥٨٥ توفي عبد المؤمن بن علي رأس الموحدين وقام بالامر بعده  
 ولده أبو يعقوب وبايموه كافة وفي أيامه قصد الحاج ابن مردنيش قرطبة  
 ومعه جموع من زغبة وغيرها فارسل السيد أبا سعيد صاحب غرناطة  
 والسيد أبا حفص أخاه في عساكر الموحدين لمنازلته فالتقوا بفحص مرسية  
 فانهزم ابن مردنيش وأولياؤه من الاسبانيول وأقر أبو يعقوب أخاه  
 أبا سعيد على غرناطة وجعل أخاه السيد أبا اسحق على قرطبة وزحف  
 الاسبانيول على مدن المسلمين فخرج أبو حفص من مراكش سنة ٦٥٥ ومعه  
 جموع الموحدين وأخوه أبو سعيد فوصل الى اشبيلية وأرسل أخاه أبا سعيد  
 الى بطايوس وكان موحدوها قد دفعوا العدو فانهقد الصلح مع الاسبانيول  
 ونهض الموحدون الى مرسية لتأديب ابن مردنيش الثائر ورافقهم ابن  
 همشك حليفه بالامس لوحشة وقعت بينهما حلت هذا على أن يبعث الى

أبي حفص بطاعته وتوحيده فخرصر ابن مرداس في مرسية وأطاع أهل  
الورقة وخضع ابن عمه صاحب المرية فخصه بالجناحه وتوافت عند  
الخليفة بمراكش جموع العرب فبعضها إلى اندلس واحتل قرطبة سنة  
٥٧٠م اشبيلية وكان ابن مردنيش قد هلك في المصارف فادع عن أولاده  
للخليفة وقربهم إليه وصهر لطلال بن محمد بن دنيش في بنته وأقرأخاه  
أبا سعيد على غرناطة وخرج التومس الإلهدي بمجموع الاسبانيول فنهد  
اليهم وأوقع بهم في قلعة رباح ورجع إلى اشبيلية فانتقض المدونانية فكر  
عليه وتوغل في بلاده وفرق جموعه وقتل إلى بصرى عام ٧١١م خمس سنين  
من إجازته إلى الاندلس ونوي السيد أبو سهيل وأخوه بالطاعون فعمد  
لابي زيد بن أبي حفص على غرناطة وأخيه محمد عبد الله على مالقة  
وسنة ٧٥٠م عقد لقائم بن محمد بن مردنيش اتفاقاً وأغزاد اشبونة فتم  
ورجع وانتقض الاسبانيول سنة ٧٥٠م ناروا ترطاش شنوا غارات على جهات  
غرناطة وهالقة وصدمهم الموحدون من الاندلس وعاليهم السيد أبو اسحق  
أخو الخليفة فكروهم أجز الخليفة ثانياً لاجبة في لشود العرب وذلك  
سنة ٨٠٠م فغزا سنتمر بن واثمنا مصارها أو مرفه عنها توفي قيل من  
سهم أصابه من جهة الماء وبنى في مرسية في نخفه ابه يعقوب فلم  
يزل في الجهاد وأخر في العدو وأجاز إلى مرسية وبعد مدة بالعه خروج  
العدو وإيقاعه بالمسديين وتغايبه إلى شب ٥٠٠م الزبير زحف إلى قصر  
مصودة ومنها أجاز إلى طريف وحصر شاب زرش وغيرها من الحصون  
فاقتحها ودانت له البلاد فقتل إلى المغرب وبها لما بلغه من ثورة  
ابن غانية الذي كان والياً في ميورفة فلم تكذب به تستقر هناك حتى بلغه

من امر الاندلس وكرنا مدد . ما أقض مضجعه فاستأنف الاجازة سنة ٩١  
وتلاحقت به حشود المسلمين من كل جهة فنزل بالارك من نواحي  
بطليوس وقصدته الاسبيريول وعليهم ابن الاذفونش ومملكان آخران  
في جيوش وافرة فكانت ائمة الارك التي هي ائت وائمة لزلافة وقيل  
أجل منها قدراً بروي ان بل فيها من الافرنج ثلاثون ألفاً وحصل في  
بيت المال من الدرع عستة الف الف درهم . هم خمسة آلاف فاعتصموا  
بمحسن الارك فحصرهم . تتزلهم وفدى بهم عدد من المسلمين

وفي السنة التالية . ج الى الجهاد أيضاً افتتح عدة حصون وتوغل  
حتى أشرف على طليطلة . كما فتح أسد لها ونجم وسى . أبعد النكاية في  
العدو وقفل الى اشبيلية . هناك اعتقل القاضي أبو الواليد بن رشد طائر  
الصيت في الاصقاع الا بية والمنسوب اليه . الا شراق في الفلانة  
والذي ألف عليه و باس . فقايد وف رفان الذي نسي كتاباً مستقلاً وذلك  
لممالات رفعت الى السلطان . معتوب المذكور يستدل بها على رقة دينه  
وسلاسة اعتقاده .

وعام ٩٣ عاود الخليفة . أمحن في ديار طليطلة واعيت بالافرنج الحيلة  
فهادنوه وخطبه اعاد فأ . لذي لما في بغمر ثورة ابن غايبة وقرافه ش  
مملوك بنى أيوب وأج . الى الحضرة وثوفي . وذلك عام ٥٩٥ .  
وهذا السلطان يعقوب المنصور هر لذي استجاش به صلاح الدين  
يوسف بن أيوب ليمنع . باطيله وروود الافرنج على الشام وأرسل اليه في  
هذه المهمة ابن منقذ واد حبه بهدية فقيل انه رده لتجاني سلطانه عن خطابه  
ياقب أمير المؤمنين وتقم . ره من حقوقه وقيل بل جهز له بعد ذلك اسطولا

عظيما وقطع طريق البحر على الافرنج وهو السلطان الذي يروى انه زهد في آخر حياته وترك الملك وساح في الارض حتى وصل الى الشام ومات ودفن في البقاع والآن في الشرقي قرية اسمها السلطان يعقوب والمحققون على أن هذه الحكاية لا اصل لها وجزم ببطلانها الشريف الغرناطي وقال انها من اوضاع العامة لولوعهم بالسلطان المذكور

وتولى الامر بعد المنصور ابنه محمد ولقب بالناصر وفي أيامه خرج الاذفوناش وعثا في بلاد الاسلام فجمع الناصر جموعا لا قبل بها لاجل الجهاد قيل نحو ستمائة الف مقاتل والتقى بالافرنج فيهم ابن اذفوناش وصاحب برشلونة فكانت الواقعة المسماة بالعقاب التي لم يتم بعدها للمسلمين في تلك البلاد البلاد قائمة بمحمد وهلك فيها اكثر المجاهدين وبالغ بعض المؤرخين فليل لم ينبج منهم غير الالف وهو بعيد عن التصديق وكان وقوعها في أواخر صفر سنة ٦٠٩ وقد روى ابن خلدون هذه الواقعة فلم يبالغ في مصيبتها ما بالغه غيره وزعم أن الافرنج بعد الكائنة أغاروا على بلاد المسلمين فاقبهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبا من اشبيلية فزهمهم وانتعش الاسلام

وتوفي الناصر وخلفه ابنه يوسف ولقب بالمستنصر وكان حديث السن فانصرف عن تدبير الامور الى العبث واللهو وفي أيامه تولى أبو محمد العادل عم المستنصر مرسية بدل غرناطة

وتوفي المستنصر فبويع عبد الواحد اخو المنصور ولم يكن يحسن التدبير فانزى عليه العادل المذكور وبايمه اخوته الذين كانوا على مدن الاندلس وتم له الامر ولكن زحفت اليه الافرنج وأطلقوا الغارة

في البلاد فتصاف معهم فانهم زعموا وأصيب المسلمون فأجاز الى المغرب وخلف على الاندلس أخاه أبا العلاء ادريس

ثم خنق العادل بمر اكش وبويح يحيى ابن الناصر وهو صغير فادعى الخلافة السيد أبو العلاء المذكور وبويح بالاندلس ثم في المغرب لكن انتقض عليه المتوكل محمد بن يوسف الجذامي ودعا لبني العباس فقال اليه أهل الاندلس وأجاز أبو العلاء الى المغرب ينازع يحيى بن الناصر وتعاضمت الفتنة بينهما واستبد ابن هود بما وراء البحر ودخل الوهن دولة الموحدين ومات أبو العلاء وكان يلقب بأباً ون سنة ٦٣٠ وتولى بعده ابنه الرشيد وفي مدته ظهر ابن الاحمر صاحب غرناطة وأرسل اليه بالبيعة وتوفي سنة ٤٠٠ وقام بالامر أخوه السعيد فقتله بنو عبد الواد بقرب تلمسان عام ٦٤٠ وفي أيام الرشيد والسعيد خرج بنو مرين من بني واسين من زناتة واعصوب حولهم البربر واجتمع العرب على بيعة عمر بن ابراهيم ابن يوسف بن عبد المؤمن ولقبوه بالمرتضي ولم تمض مدة من خلافته حتى انتقض عليه ابن عمه السيد أبو العلى ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن خلف تمكن بينهما وصحبه ابن عمه السيد أبو موسى عمران ولحقا يعقوب ابن عبد الحق المريني الثائر على دولتهم وما زال النزاع قائماً حتى غاب أبو العلى المذكور وكان يكنى بأبي دبوس على مر اكش ووقع المرتضي في يده فعفا عنه أولاً ثم قتله واستقل بالامر وثلق بالوائق ونهض اليه يعقوب بن عبد الحق ببني مرين وحزبهم فخرج أبو دبوس من مر اكش لدفاعه فاصطالت الحرب في وادي أعفر وانهمزم الموحدون وقتل أبو دبوس ودخل بنو مرين

مراكش وانقرض ملك بني عبد المؤمن وكان ملكاً كبيراً وذلك عام ٦٦٨  
والبقاء لله

أما يعقوب هذا فهو ابن عبد الحق بن محيو بن محمد بن حمادة بن  
محمد بن ورزير بن فكوس بن كرماط بن مرين من بني واسين. كان جده  
محيو زعيماً لبني مرين وحضر وقعة الأرك مع الموحدين وأصابته فيها  
جراحة توفي منها فتم بالرياسة بعده ابنه عبد الحق فوافق ظهوره دخول  
الضعف على دلة بني عبد المؤمن فسمت نفسه إلى انتزاع ملكهم وتأذن  
الله بنصره في جملة مواطن إلى أن هلك في إحدى وقائعهم وأمره لما  
يستقم وخلفه ابنه يحيى فلك فاس في خبر ليس هنا شرحه ومهدلاً عتابه  
القواعد وخلفه أخوه يعقوب المذكور فدخل مراكش حضرة الموحدين  
واستأصاهم ومن هناك استقل بالأمر بنو مرين  
وأما الأندلس فعند ما الناث أمر الموحدين بالمغرب تمتت فيها  
رجال العرب باخراج السادات الموحدين واستبد بالأمور ابن هود  
وابن مردنيش وخرج على ابن هود رجل يقال له محمد بن يوسف من  
بني نصر ويعرف بابن الأحمر بخاذبه الجبل وكانت أسكن منهما دولة أورثها  
أعقابه وأسكن آل الأمر أخيراً إلى انحصار تراث الإسلام بالأندلس في  
ذرية ابن الأحمر على ما سيأتي

## الفصل الثالث

في دولة بنى الاحمر اصحاب غرناطة

قال ابن سعيد: الضابط فيما يقال في شأن أهل الاندلس في السلطان أنهم اذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان أو جواداً يبرع الاجواد تهافتوا في نصرته و نصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة الامر الى يوم يؤمل. بعد أن يكون الملك في مملكة قد توورت وتدووات يكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للاجناد و مراعاة قدمه و ملكاً في حصن من الحصون ورفضوا عيالهم وأولادهم ان كان لهم ذلك بكرسي الملك ولم يزالوا في جهاد وتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطالبه، وأهل المشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك والمحافظة على نصابه لئلا يدخل الخلل الذي يتضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع. ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الاخيرة بالاندلس تمخضت عن رجل من حصن يقال له (أرجونة) ويعرف الرجل بابن الاحمر كان يكثر مغاورة العدو من حصنه وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة الى أن طار اسمه في الاندلس وآل ذلك الى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ثم حبس فملك قرطبة العظيم وملك أشبيلية وقتل ملكها الباقي وملك جيان أحسن بلد بالاندلس وأجله قدراً في الامتناع وملك غرناطة ومالقة وسموه بأمير المسلمين فهو الان المشار اليه بالاندلس والمعتمد عليه انتهى (أرجونة) حصن من حصون قرطبة كان فيه قوم يعرفون ببني نصر



بنتسبون الى سمد بن عبادة سيد الخزرج رضى الله عنهم وكان عميدهم  
الآخر درلة بن عبد المؤمن محمد بن يوسف بن نصر ويكنى بأبي دبوس  
ويقال له الشيخ وغلب عليه لقب ابن الاحمر وكان له أخ اسمه اسماعيل  
وكانت لهم وجاهة وكلمه عالية في تلك الجهة فزال يتقدم من حالة الى  
حالة حتى أحس من نفسه الكفاءة للاستقلال فثار على ابن هود سنة  
٦٢٩ وأطاعته جيان وشريش واستفحل امره ثم اصهر الى الرؤساء بني  
اشقيلولة فتعزز بهم ، ثم لما خرج ابن هود من اشبيلية الى مرسية ثار  
بأشبيلية ابو مروان الباجي فداخله محمد بن الاحمر على ان يزوجه ابنته  
فأطاعه ودخل ابن الاحمر اشبيلية فمات فمك بابن الباجي واستولى  
مكانه غير ان اهل اشبيلية رجعوا الى طاعة ابن هود واخرجوه منها  
فتغلب على غرناطة اذ كان فيها ابن ابي خالد الذي ثار بدعوته وارسل  
اليه بيده فقدم عليها ولا ابن اشقيلولة وجاء على اثره فنزلا بها وابتنى لنزوله  
حصن الحمراء التي لم يبن مشها في البلاد وكان غلبه على غرناطة عام ٦٣٥  
وغلب بعدها على مالقة وبايعة اهل لورقة وتناول المرية من يد ابن  
الرميمي عامل ابن هود واخذ يضم الاطراف ويكتب الكتاب ويحصن  
الثغور ويؤوي المشردين واتخذ لقب الغالب بالله وضرب على سكوته  
وكتب على رايته ( لا غالب الا الله ) وصار ذلك علما لدولته فيما بعد  
وفي ذلك الدهر وهو القرن السابع للهجرة كان الاسلام اخذ يتقلص  
ظله عن الاندلس واصبح المغرب بما ادرك اموره من الاختلال وما  
اصاب اهله من اليأس من نصرة اندلس خصوصا بعد وقعة العقاب عاجزا  
عن امدادها بالبعوث الوفيرة التي كانت تجتمع تحت رايات المرابطين

والموحدين هاتيك الدول الكبار فتقدم الاسبان يول من كل جهة وملكوا القواعد مثل طليطلة وقرطبة وبلنسية واشبيلية وجيان وغيرها وصاروا يقطعون كل يوم كورة ويحذفون من مملكة الاسلام حصنا الى ان الجأوا المسلمين الى سيف البحر من رندة من الغرب الى الشرق نحو عشر مراحل فقط وتكلم الناس في ذهاب هذه البقية وقال شاعرهم :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس      فما المقام بها إلا من الفلظ  
السلك ينثر من أطرافه وارى      سلك الجزيرة منثور آمن الوسط  
من جاور الشر لا يأمن عواقبه      كيف الحياة مع الحيات في سفظ

والذي يلاحظه القاريء من كلام ابن خلدون الذي عاش قبل الخروج الاخير بنحو القرن وكان يشير الى ما له بمشاهدة مقدماته وابن الخطيب الذي من جملة وصيته لا ولاده عدم الا كثار من تملك الارض واعتقاد العقار في بلد مثل الاندلس دار قلمة ومنزل غربة—ان عتلاء المسلمين كانوا مستشعرين هذا الخطب من قبل وقوعه بأزمان لتكالب الاسبان يول على البلاد من كل جهة وظهور الفرقة بين أمراء الاسلام وانقطاع مدد المغرب شيئًا فشيئًا كما سيتضح من مجرى الحوادث

وكان بقية السيف من المسلمين الذين قد غلب على ديارهم العدو صائرين الى احدى ثلاث خصال: اما أن يلبثوا في ديارهم خائعين لسلطانهم على شروط قررهما مع بعضهم في البداية وقيل لهؤلاء «المدجنون» من التدجين أي التأليف والتأديس—واما أن يجيزوا الى بر العدو فينزلوا بفاس أو وهران أو تونس حيث شاءوا— واما أن ينحاشوا الى مملكة غرناطة لكونها أندلسية ومجاورة لمساقط رؤوسهم ومنابت أسلمهم حيث

لم تنزل آملهم بالكرة منوطة ، وعزائمهم على ادراك الاوتار مشدودة ،  
وحب الوطن من الايمان . وقد كان في أحياس المهزمين الى أعمال ابن  
الاحمر منعة لسلطانه وشد لازره بسطة الملك ، فأمكنه الكرة المنصورة  
على العدو والأشجان في بلاده كما يقول صاحب نفع الطيب من انه لما  
أخذت القواعد الانداسية مثل قرطبة واشبيلية وطليلة ومرسية نحاز  
أهل الاسلام الى مائة وغرناطة والمرية ونحوها ، وملك هذا النزر  
ملوك بني الاحمر فلم يزانا في تعب وممارسة مع العدو كما ذكره ابن  
عاصم قريبا وربما أحنوا في العدو كما علم من أخبارهم وانتصروا بملوك  
فاس في بعض الاحابين وقال : لما قصد ملوك الافرنج السبعة في المائة  
الثامنة غرناطة بأخذوها تنفق أهلها على أن يمشوا لصاحب المغرب من  
بني مرين يستجدونه وعيوا والمرسالة انشيخ أبا اسحق بن أبي العاصي  
والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي ، ثم بعد سفرهم  
نازل الافرنج غرناطة بخمسة عشر مئتين الف فارس ومائة الف راجل ولم  
يوافقهم سلطان المغرب منغى الله ببركة المشيخ الثلاثة أن كسر الافرنج  
في الساعة التي كسر فيها حياظرهم سلطان المغرب وكانت بذلك كرامة  
لسيدي أبي عبد الله الطنجالي انتهى

وزعم بعض المؤرخين أن سبب فشل الريم بالاندلس تقاطع  
المسلمين من أهلها واقبالهم على لذات واهملهم أمور الجهاد في كثير  
من الاماكن حتى نفاك إن الافرنج لما قصدوا بالندسية سنة ٤٥٦ خرج  
للقائم أهلها بثياب الزينة فكانت وقفة بطرنة التي قال فيها الشاعر لقومه :  
لبسوا الحديد الى الوغى وابستم حلال الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن بيظنة ما كانا  
وقالوا انه لما تغلب العدو على طيطة من من جملة اغمه الفرنج  
من الجيش الذي حاربهم الف غفارة نفيسة خارجا عما سواها من الحلل.  
ولما ذكر ابن حيان تغلب العدو على برشتر القريبة من مرقسطة بالثغر  
الاعلى سنة ٤٥٦ وما جرى فيها من فظائع القتل والسبي والاستباحة  
التي تقطر لها القلوب دماً وتذير العيون عن مطايتها في التواريخ قال قد  
أشفينا بشرح هذه الحالة القادمة. صاحب جايلا مؤذنة بوشك القلعة، وقال  
من جملة تغلب أهل الاندلس ان العدو أطل عليهم بجوس خلال الديار  
ويكتسح البساط ويقتلع كل يوم طرفاً ويبدأه والباقيون منهم صموت  
عن ذكر اخوانهم، لهامة عن شهر، ما يسمع بمسجد ريس ساجدهم مذكر لهم  
أو داع، فضلاً عن نافر انهم أو ماش. قال حتى كأهم ليسوا منا أو كأن  
بشقمهم ليس بمفض الينا انتهى

بلى والله لقد أفضى بشقمهم الى الجميع وهذا قول ابن حيان في القرن  
الخامس وما مضى على ذلك قرن حتى أفضى البثقي لى قرطبة وطنه والله  
الامر أجمع وأخذ الاسبانيول تطيلة واختها طرشونة سنة ٥٢٤  
ومكنهم المسلمون انفسهم بسبب اختلاط ملوك الداوائف من بالنسية  
المره الاوئى سنة ٤٨٨ الى ان استردها يوسف بن تاشفين بعد سبع  
سنين من اخذها وقدم عليها يحيى بن غانبه الملم، وفي المائة السادسة  
صارت الى يد ابن مردنيش ابي عبد الله ملك شرق الاندلس فقدم  
عليها اخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ولما تكالب العدو على  
الاندلس فى اواخر دولة بني عبد المؤمن كان المدافع عن بالنسية

الامير زيان بن ابي الحملات بن ابي الحجاج بن مردنيس فاضطر الى  
الاستغاثة بصاحب افريقية ابي زكريا بن ابي حفص من دولة الموحدين  
واوفد عليه بالرسالة ابا عبد الله بن الابرار القضاعي الحافظ الكاتب  
الشهير فقام بين يدي السلطان بنونس وانشده قصيدته السينية الفريدة .  
أدرك بخيلك خيل الله أندلسا      ان الطريق الى منجاتها درسا  
وهب لها من عزيز النصر ما التمت      فلم يزل منك عز النصر ملتقما  
وحاش مما تعانيه حشاشتها      فطالما ذاقت البلوى صباح مسا  
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً      للحادثات وأمسى جدها تمسا  
في كل شارقة إمام بارقة      يعود مآتمها عند العدى عرسا  
وكل غاربة اجحاف نائبة      تثني الامان حذارا والسرو رأسي  
تقاسم الروم لاناك مقاسمهم      الا عقائلها المحجوبة الانسا  
وفي بلنسية منها وقرطبة      ما يذهب النفس أو ما ينفذ النفسا  
مدائن حلها الاشرار      جذلان وارحل الايمان . بتسا  
وصيرتها العوادي المائشات بها      يستوحش الطرف منها ضف ما أنسا  
يا للمساجد عادت للعدى ريبا      وللنداء يرى انباءها جرسا  
لحفي عليها الى استرجاع قائتها      مدارسا للثاني أصبحت درسا  
وأربما نمنمت أيدي الربيع بها      ماشئت من حلال . وشية وكسا  
كانت حدائق للاحداق . ونقة      فصوح النضر من ادواحها وعسا  
وجال ما حولها من منظر عجب      يستوقف الراكب او يستركب الجلسا  
سرعاناءات جيش الضد واحربا      عيث الدنيا في . غانيها التي كبسا  
وابتز بزتها مما تحيفها      تحيف الاسد الضاري لما اقترسا

وأبن غصن حينناه بها سلسا  
ما نام عن هضمها حيننا وما نسا  
مفادر الشم من أعلامها مخلصا  
ادراك ما لم تطأ رجلاه مخلصا  
أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا  
أحييت من دعوة المهدي ما طمسا  
وبت من نور ذلك الهدى مقبسا  
كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا  
والصبح ماحية أنواره الفلسا  
يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا  
وأنت أفضل مرجو لمن يئسا  
منك الامير الرضى والسيد الندسا  
عبابه فتعاني اللين والشرسا  
كما طلبت بأقصي شدة الفرسا  
حفص مقبلة من تربه القدسا  
دينا ودنيا فغشاها الرضى لبسا  
وكل صاد الى نعماء ملتقسا  
ولو دعا أوقا لي وما احتبسا  
ودولة عزها يستصحب القعسا  
ويطلع الليل من ظلماته لقسا  
تحف من حوله شهب القنا حرسا

فأين عيش جنيناه بها نصرأ  
محا محاسنها طاغ أتيح لها  
ورج أرجائها لما أحاط بها  
خلا له الجو وامتدت يداه الى  
صل حبيلها أيها المولى الرحيم فما  
واحي ما طمست منها العداة كما  
أيام صرت لنصر الحق مستبقا  
وقت فيها بأمر الله منتصرا  
تمحو الذي كتب النجسيم من ظلم  
وتفتضي الملك الجبار مهجته  
هذه رسائلها تدعوك من كذب  
وافتك جارية بالنجع راجية  
خاضت خضارة يملها ويخفضها  
وربما سبحت والريح عاتية  
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي  
ملكه تقلدت الايام طاعته  
من كل غاد على يذام مستلما  
مؤيدا لو رمى نجما لاثيبه  
لمارة يحمل المقدار رايتها  
يبدي النهار لها من ضوئه شديبا  
كأنه البدر والعلياء هالته

تدييره وسمع الدنيا وما وسعت  
قامت على العدل والاحسان دواته  
مبارك هديه باد سكينته  
يرى العصاة وراش الطائعين فقل  
الى الملائك ينمي والملوك معا  
من ساطع النور صاغ الله جوهره  
له الثرى والثريا خطتان فلا  
حسب الذي باع في الاخطار يركبها  
بشرى لعبد الى الباب الكريم جدا  
كأنما يمتطي واليمن يصوبه  
فاستقبل السم وضاحا اسرته  
وقبل الجود طفاحا غواربه  
يا أيها الملك المنصور أنت لها  
وقد تواترت الانبياء لانك من  
فاوطني الهيلق الجرار ارضهم  
وانصر عيدا باقصى شرقها شرقت  
م شعبة الامروهي الدار قد نهكت  
فاملا هنيئا لك التمكين ساحتها  
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه  
فهزت هذه القصيدة من الامير أبي زكريا عطف ارتياح وبادر  
للاصراخ بالاسطول الثقيل، والسلاح والمال الجزيل، ولكن حالت اساطيل

العدو بينه وبين بلنسية فبقي في مرسي دانية واشتد الحصار على أهل بلنسية  
وهلك مناس جوعاً فسلموا بلادهم صلحاً سنة ٦٣٦ وتسلمها جقوم ملك  
أراغون على شروط ، ضرب لأهل بلنسية أجلاً مسمى لنقل امتعتهم ثم  
نكث العهد معهم وتجشموا من الذل والهون ، الا يوصف ، وعصفت ريح  
الاسبانيول في أقطار الاندلس ، توافقوا على غزو بلاد المسلمين من كل  
جهة واسفوا الى القوادد وكان لهم سنة ٦٣٣ سبع محلات لحصار المسلمين  
محلتيان على بلنسية وجزيرة شتر وشاطبة ومحلة على جيان ومحلة بلطرية  
ومحلة برسبة ومحلة بلبله وكان أهل جنوة محاصرين ستبة وألح صاحب  
قشتالة عم مملكة ابن هود ففتح ثلاثين حصناً وزحف الى قرطبة فلم  
يجد أهلها في أنفسهم الكفاءة لمدافعته فسلموه مدينتهم وهي بالاندلس  
قبة الاسلام ، والمناظرة في الشرق دار السلام ، وخرجوا لا يحملون شيئاً  
سوى ثيابهم التي على أبدانهم وجلابهم أهل قرى والحدون المجاورة  
بعد أن أفسد الطاغية زروعهم ، ودمر بيوتهم ، فعمادت بقاع الخير قاعاً صافصفاً ،  
وبدلت تلك البلاد بالعمارة الخراب ، وبتغريد الهزار نعاب الغراب ، ومن  
الغرائب أنها بعد ان نانت تكفي الملايين من سكانها ، وتفيض عن ميرتهم  
خيراتها ، صار الاسبانيول يجلبون اليها الميرة والذخيرة من نفس قشتالة  
والى الله تصريف الامور

وأخذ العدو لوشة سنة ٦٢٢ ثم استردها المسلمون وبقيت في يدهم الى  
ان استردها الاسبانيول ثانية في الكائنة الاخيرة وكان العدو أيضاً اتولى  
على المرية سنة ٥٤٢ في وقعة شديدة استشهد فيها الامام الرشاطلي المحدث  
الكبير وكان لخمياً في النسب ثم استرجعها الموحدون وبقيت في يد المسلمين



الى أن ذهبت فيما ذهب لآخر المدة

وملك العدو مارذة وبظليوس نحو سنة ٦٢٦ ومملك جزيرة ميورقة  
سنة ٢٧ وزحف إلى شاطبة سنة ٣٥ وحصل هنالك وقائم قتل فيها شيخ  
المحدثين أبو الربيع الكلعي ثم في السنة التالية كان تسليم بالنسية وخرج  
ابن مردنيش عنها إلى جزيرة شقر فتمتعبه العدو إليها فاخرجه منها فلاحق  
بدانية وأخذ هناك البيعة للحفصي صاحب افريقية ثم داخل أهل مرسية  
وقتل واليها أبا بكر بن خطاب وبعث ببيعتهما إلى الحفصي أيضا ولم يزل  
في مرسية إلى أن غلبه عليها ابن هود فخرج عنها إلى ملنت الحصون سنة ٣٨  
وبقي فيها عاملا لابي زكريا الحفصي أمير افريقية حتى انتزعا منه ملك  
برشلونة فلاحق بمولاه في تونس وانقرض أمره بشرق الاندلس والله  
وارث الارض ومن عاينها

وفي هاتيك الايام كما لا يخفى كثرت القصائد في استنهاض الهمم  
واستجاشة الحفائظ لتلافي أمر الاسلام بالاندلس وسارت أوابد الشعر  
في العدوتين بالاستنفار إلى الجهاد والاجابة لداعي الله . تسنم الجنة

فمن ذلك قول أبي جعفر الوقشي البلنسي نزيل مالقة من قصيدة

فابصرَ شمل الكاشحين طريدا	ألا ليت شعري هل يمد لي المدي
تغادرهم للمرهفات حصيدا	وهل بعد يقضى في العدو بنصرة
يعيد عميد الخارجين عميدا	ويغزو أبو يعقوب في شنت يا قب
فيتركهم فوق الصعيد هجودا	ويلقي على افرنجهم عبل كلكل
ركرعا على وجه الفلا وسجودا	يفادرهم قتلى وجرحى مبرحا
تبدلن من نظم الحبول قيودا	ويفتك من أيدي الطغاة نواعما

وأقبلن في خشن المسوح ، طالما  
 وغير منهن التراب تراباً  
 فحقّ لدمعي أن يفيض لأزرق  
 ويالطف نفسي من معاصم طفلة  
 ويا أسفي ما إن يزال مردداً  
 وآها بعد الصبر مننحبا على  
 سحبين من الوشي الرقيق بروداً  
 وخذد منهن المهجير خدوداً  
 تملكها دمع المدامع سوداً (١)  
 تجاوز بالقد الاليم نهوداً (٢)  
 على شمل أعياد أعيد بديداً  
 خلو ديار لو يكون مفيداً

\*  
\*  
\*

ومن ذلك الفصيذة الطويلة التي خوطب بها أبو زكريا بن أبي حفص  
 صاحب تونس عند أخذ بالندسية ومطلعها  
 « نادتك اندلس قلباً نداءها »

ومنها:

صرخت بدعوتك العلية فاجبها  
 هي دُرْك الفصوى أدت لايالة  
 وبها عبيدك لابقاء لهم سوى  
 مدفوا لا يبا. الخياطوب :ع:نها  
 وتنكرت لهم الليالي فافتضت  
 تلك الجزيرة لابقاء لها اذا  
 رش أيها المولى الرحيم جناحها  
 من عاطفانك ما يقي حواءها  
 ضمنت لها مع نصرها ليواءها  
 سبل الضراعة يسلكون سواءها  
 فهم الغداة يصابرون عناءها  
 سرّاءها وقضتهم ضراءها  
 لم يضمن المتخ القريب بقاءها  
 واعتد بارشية النجاة رشاءها

« ١ » قوله لأزرق أي لعلاج أزرق العيينين وتكنى العرب به عن العدو

« ٢ » الطفلة بفتح الطاء الغادة الناعمة والغدي بكر القاف السير من الجلد

يربط به الاخير

فالتبقي للدين الخفيف ذنبا  
قصرت عليك نداءها ورجاءها  
ترجو بيحي المرتجى احياءها  
عندت لصر المستضام لو عبا  
سئم الهى نحو الصلال هداها  
يمري الشؤون داءها لاماءها  
شب الاعاجم دونها هيجاءها  
حامل الربيع مصبفها وشتاءها  
وتدلت غرر الهى اثناءها  
نسخت نوافيس الصليب نداءها

لتذيل منك معادة ابناءها  
تقتل ضرائعها ونسب ظباها  
تسبق الي ائثالها استدعاءها  
لم يبرحوا دون الورى ظهرها  
مبها أمرت بغزوها احياءها  
لداوت عليها أرضها وسماها  
لاستقبات بالمقربات عفاها  
صيدا وناد لطحنها أرحاءها  
آن لحيوب. أحرزوا عليها  
تجدوا سماها في غد وسناها

أشفى على طرف الحاة ذؤها  
حاشاك أن تفني حشاشتها وقد  
طافت بطائفة الهدى آملها  
واستشرفت امصارها لامارة  
ياحسرتي لعقائل معقولة  
ليه بلنسية وفي ذكراك ما  
كيف السبيل الى احتلال معاهد  
والى ربي وأباطح لم تمر من  
طاب المرس والمقيل حلالها  
بأبي مدارس كالطلول دوارسا  
ومنها:

مولاي هاك معادة أنبؤها  
جرد ظباك لمحو آثار العدى  
واستدع طائفة لامام اغزها  
لاغرو أن يعزى الظهور للمة  
ان الاعاجم الاعارب نهمة  
تالله لودبت لها أدبها  
ولو استقبات عوقبا لقالمها  
أرسل جوارحها تجثك مصيدها  
هؤبوا لها يامعشر التوحيد قد  
هي نكته الحيا فخيلا بها

في أزمة أو تضرروا إقصاءها  
رهبوا وجوبوا نحوها بيداءها  
ساوت بها أحياءها شهداءها  
وقفت عليها ريشها ونجاءها  
آلاءها أو تجتلي آراءها  
ما وقعته يتقدم استقاءها  
مترقب يفتوحها آناءها  
ويحب في ذات الاله لقاءها  
يشفي ضناها أو يعيد رواءها  
وأبى عليها أن تطيع إاءها  
هام الاعاجم ناسفا أرجاءها  
تتسوغ الدنيا به سراءها  
واقاده لالاؤها لالاها  
ونضت بكف صفارها خيلاءها  
فسما اليها حاملا أعباءها  
قادت له في قديم أمراءها  
لهدهاء شرف وسمه أسماءها  
فيزور زاخر موجهها زوراءها

حاشكم أن تضرروا إلقاءها  
خوضوا اليها بحرها يصح لكم  
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة  
هذي رسائلها تناجي بالتي  
وفدت على لدار المريرة تجتني  
مستسقيات من غيوت غباها  
وبحسبها أن الامير المرتضى  
بشرى لاندلس تحب لقاءه  
صدق الرواة المخبرون بأنه  
اندهخ العرب الصماب بقيادة  
فكان بفيلقه المرصم فاتحا  
لا يعدم لزين انتصار مؤيد  
ملك أمد النيرين بنوره  
خضعت جبابرة الملوك لعزه  
أبقى أبو حفص أمارته له  
قبضت يدها على البيضة قبضة  
فعلى المشارق والمغرب ميسم  
تطمو بتونسها بحار جيوشه  
ومنها:

فيها توقع للوقوف جلاءها  
لارهوها يحشى ولا هو جاءها

تقع الجلائل وهو راس راسخ  
كالطود في عصف لرياح وقصنها

## نونية أبي البقاء الرندي

﴿ في نكبة الاندلس ﴾

ومن مشهور ما قيل في ذلك نونية أبي البقاء الرندي من أشهر شعراء  
الاندلس وهي متداولة بين الناس تعد من حفظ العوام فضلا عن الخواص  
وقد أترناها هنا لكيلا يخلو منها ذيل جررناه على الاندلس

لكل شيء إذا ماتم نقصانُ	فلا يغربطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دولُ	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد (١)	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة (٢)	إذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سيف للفناء ولو	كان ابن ذي زن وانعمد غمدان
أين الملوك ذوة التيجان من عين	وأين منهم أذك اليل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرم (٣)	وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مرد له	حتى قضوا فكان التوم ما كانوا
وصاره ما كان من ملك ومن ملك	كما كفي عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله	وأتم كسرى فما آواه ايوان

(١) وفي رواية \* وهذه الدار لا تبقى محاسنها

(٢) وفي رواية \* يمزق الدهر منا كل سابغة

(٣) وفي نسخة : من إرم

يوما ولا مَلَك (١) الدنيا سليمان  
وللازمان مسرات وأحزان  
وما لسا حل بالاسلام سلوان

كأنما الصعب لم يسهل له سبب  
بجائع الدهر انواع متنوعة  
وللاحوادث (٢) ساوان يسراها

\*\*\*

هوى له أحد وانهد نهلان  
حتى خات منه اقطار وبلدان  
واين شاطبة ام اين جيان  
من عالم قد سما فيها له شان  
ونهرها العذب فياض وملاآن  
عسى البقاء اذا لم تبق اركان  
كما بكى لفراق الالف هيمان  
قد اقفرت ولها بالكفر عمران  
فيهن الا نوافيس وصلبان  
حتى المنابر ترثي وهي عيدان

دهى المزيرة أمر لاعزاء له  
أصابها المين في الاسلام فارتزأت  
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية  
واين قرطبة نار المعلوم فكيم  
واين حمص وما تحوبه من نزه  
قواعد كن اركان البلاد فما  
تبكي الحنيفية البيضاء بن اسف  
على ديار من الاسلام خالية  
حيث المساجد اضمحت كنانس ما  
حتى الحاريب تبكي وهي جامدة

\*\*\*

ان كنت في سنة فالدهر يقظان  
أبعد حمص تغر المرء اوطان  
وما لها مع طول الدهر نسيان

يا نا اوله في الدهر وعظة  
وما شيئا مرحا يلبيه موطنه  
تلك المصيبة انت ما تقدمها

\*\*\*

ياراكبين عتاق الخيال ضامرة  
وحاملين سيوف الهند مرهفة  
ورائعين وراء البحر في دعة  
أعدكم نبأ من أهل اهل  
كم يستغيث بالمستضعفون هم  
ماذ التناطح في الاسلام  
الا نفوس آيات لها هم

كأنها في مجال السبق عقبان  
كأنها في ظلام التقمع نيران  
لهم اوطانهم عز وسلطان  
فتد مري حديث الفوم ركيان  
قلبي . أهدى فيا يهتز ان  
وأنتم يا عاد لله اخوان  
اما على الخير انصار وأعوان

يا من لذة قوم بعد عزم  
امال حالهم جور وطفيان  
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم  
واليوم هم في بلاد الضد عبيدان  
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم  
عليهم من ثياب النذل ألوان  
ولو رأيت بكاهم عند بيه هم  
لهالك الامر واستهرك احزان  
يارب أم وطفل حيل بينهما  
كما تفرق ارواح وابدان  
وظفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت  
كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها العالج للمكروه مكرهه  
والعين باكية والنب حيران  
لمثل هذا يذوب القلب من كمد  
ان كان في لقلب اسلام وايمان

\*

وكان استخلاص لاسبانيول نشرق الاندلس قاطبة شاطبة وغيرها  
واجلاؤهم من يشاركهم من المسلمين فما تغلبوا عليه هناك في شهر رمضان  
سنة ٦٤٥ وتلك لاسبانيول مرسية صاحبها عن يد ابر هو ده وأقام صاحب  
قشتالة يحص انبديلة حولا كاملا وخمسة أشهر حتى ملكها صاحبها سنة  
٦٤٥ وترفي بين يدي منازلها الشيخ أبو علي الشلوين مام السجدة فكانت  
المصيبة بها على المسلمين واحدة وعلى النجاة اثنتين وافرغ الاسبانيول في  
حصار اشبيلية من الجهد مالا يوصف ووافتهم النجدات من اوربا الى  
أن افتتحوها وخرج أهلها الا اللليل فأجاز بعضهم الى بر العدو وانجاز  
الاكثرون الى غرناطة

وكان ملك البرتغال قد ضبط بعض الحصون اثناء منارلة اشبيلية  
نحف فرديناند صاحب قشتالة غائته فأحد يسلم بعض جيرانه من قواد  
المسلمين مثل صاحب شريش وصاحب لبللة، رضى منهم بالاتاقوة وأخذ كثيرا  
من جهات الاسلام تحت حمايته حتى صفاله لوقت وطمأرباله من جهة قومه  
فأعمل في فتح لمغرب وبينما هو يستعد لذلك اذ وافاه أجله فخلف (١) ابنه  
الاذفنش الملقب بالفونس العاشر المعروف بالصاي أو السايو لاشتغاله بالتنجيم



ولما لم يبق للاسلام في تلك المدة بالانداس سوء غرناطة وجوارها  
وانحصروا فيها، كسفت هناك جوعهم وعز حياهم وكان جلهم بل كلهم قوما  
موتورين تتأجج الاحقاد في صدورهم ولا يريدون الا فرصة لاخذ الثأر  
فطالما أعظموا النكاية في العدو وهم تحت رايات بني الاحمر وكانوا جميعا  
أهل فلاحه وتجارة وصناعة فعمرت بهم تلك الجهات عمرانا حاءلا تحدثت  
به الركبان، وكان محمد بن يوسف بن الاحمر الذي أسس الدولة النصرانية  
على انقاض دول الطوائف وركبها من بقايا أملاك المسلمين بالانداس رجلا  
داهية منجدا خيرا بالسياسة صالحا للرئاسة، وكان قوما ثابتا في الحروب كما  
يقول ابن خلدون «فضم شمل قومه واحسن ادارته أمرهم وسدد الاحكام  
فيهم، واتخذ غرناطة حاضرة ملكه وحصنها، وناهياتها ابنتي فيها حراهما  
الشهيرة — التي لم يبق للعرب في تلك الديار ولا في غير تلك الديار —  
أثر أجل منها»

قال ضيا باشا في تاريخه للانداس تحت بنو انوار (معمودية غرناطة)  
ما مناه «ان محمد بن الاحمر الذي غرس دوحه تلك الامارة اتزم لاجل  
تمكين سلطانه قاعدة : لاملأ الابالرجال، ولارجال الا بذان، لالال الا  
بالعمارة، ولا عمارة الا بالعدل بالسياسة فاخذرعين بحسن السياسة، وأقامهم  
على العدل، واحتفل بتشيد المصانع والمعافل، واشتغل بتوطين المسلمين  
المنهزمين من جور الاسبانيول، حاءلا اياهم على الزراعة والتجارة والصناعة،  
واحياء موات الارض واستثمارها، وثرية الحيوانات تكثيرها، فلم تمض  
سنون قلائل الا وقد اشبتكت عمارة بلاده، وقد انتنت نحو علماء  
الطبيعة والكيمياء فاستخرج بموتهم المعادن واستفتح ارضاد الكنوز  
الطبيعية، ولم يهمل أمر الصحة العمومية، فبني جملة مستشفيات ومنازل

للمجزة وشاد كذلك كثيراً من المدارس لطلب العلم ، وبنى قصر الحمراء الشهير ، الذي أنسى ذكر الخورنق والسدير ، وهو من القصور المعدودة في الدنيا رونقاً ومتانة واتساعاً وإحكام بناء . وكانت غرناطة في أيامه من أشهر مواقع المعمور عمارة وسعادة وسعة تجارة وبسطة في العلم والجسم ، وكانت منسوجاتها فائقة منسوجات غيرها من جميع الاقطار »

وقال هذا الاديب الراسخ والوزير الجليل في محل آخر من كتابه مامعناه : انه بحسن ادارة محمد الخامس ( من سلالة محمد الشيخ ) وجنوحه الى السلم أو بالصدمات الداخلية والخارجية التي توالى يومئذ على مملكة مشتالة واراغون قد مضت لذلك التاريخ عشرون سنة متتامة على غرناطة كانت فيها أسعد الممالك حالاً ، وأنعمها بالآء ، وهي غرناطية ابن الأحمر وحجولها ، بل أيام الاندلس كلها منذ غابت شمس الناصر والحكم ، فكانت وقتئذ الزراعة في نماء ، والصناعة في ارتقاء ، ولاهـل غرناطة عاقت تجارية مع ايطاليا وفرنسا ومصر وبر الشام ، وكان ينوارد اليها التجار والسياح من جميع الأنحاء ويسكنونها بكمال الطمأنينة . وفي بعض التواريخ انه كان لاهل جنوة انبار عظيمة مخصوصة بهم في غرناطة ، وقد كانت الميناء ميناء غرناطة محط رجال التجارة من جميع الآفاق وفيها من الحركة ما ليس في ميناء غيرها ، لذلك كان أهالي تلك المملكة في ذلك الدور من سعة العيش وصفاء الوقت وتوفر أسباب الرفاهة وإيلام الولائم بالمكان المحسود والحل المغبوظة ، وانتشرت بينهم الفضائل التي يقتضيها العلم والتهديب من الحمية وحب الوطن والامانة والصدق والرأفة وكرام الغرب . وأخذ كرام الناس وابناء البيوتات يقدون الى غرناطة أفواجا حتى انه عند الاحتفال

بنقل كريمة صاحب فاس الى الامير يوسف ابن السلطان محمد الخامس  
وفد لاجل النزهة وبرسم حضور الزينة الشائقة عدد لا يحصى من الامراء  
والنبلاء والفرسان من اسبانيا وايطاليا وفرنسا، ويقول بعضهم ان غرناطة  
كانت وقتئذ وطننا مشتركا لجميع الاقوام »

ولنعد الى ذكر محمد بن الاحمر فنقول: لم يزل المدجنون ينكشفون عن  
شرق الاندلس وغربها الى مملكة غرناطة وهي تتعزز بهم وبعد استيلاء  
الاسبانول على شاطبة وتمهيدهم تلك البلاد شرعوا يهتضمون المسلمين  
الباقين فيها فشرع هؤلاء - من شدة الظلم والاخذ بالخنق واستضعاف  
اعدائهم لهم بعد أن كانوا هم الاعلون - يرفعون لواء الخروج فاشتعلت  
الفتنة وكثر سواد الثوار الى أن قتل بعض رؤسائهم فاطفأت النائرة في  
تلك البقعة واسكن قام بعدها مدجنو بلنسية واستولوا على جملة حصون  
وذلك في نواحي سنة ٦٥٢ وكان جقوم صاحب اراغون غائبا وبأمر بالرجوع  
الى مقره وعقد ندوة حضرها اركان مملكته لهذا كره في قضية حسم  
الفتنة وذهب في رأيه الخالص الى وجوب تحصين قلاع شاطبة وطرده  
المدجنين كافة من مملكته. استبدلهم بزراع النصراني بهم فوافق على  
ذلك القسوس والخالون من الاراضي ولكن اصحاب المزارع ابدوا له  
تعذر وجود مزارعين مسيحيين وانه على فرض وجودهم فلا يقومون  
مقام المسلمين فلم يصنع لسكلامهم وأمر بطرده المدجنين كافة فخرجوا تاركين  
جميع املاكهم وأشياءهم وقصدوا غرناطة الوفا مؤلفة وكان مدجنو  
مرسية وجوارها قد خرجوا بمكانهم على صاحب قشتالة تفونس العاشر  
الملقب بالصابي واستولوا على عدة حصون وقدموا عليهم قائدا وطالت

مدة انتفاضهم الى أن أحال الفونز أمرهم الى حميه جقوم ملك أراغون  
ثم تزايد الجور على مدجني بلنسية الباقين كانوا منهم ببلادها  
وسيموا من الخسف والاهانة ما يكل عنه الوصف وفقدوا الامان على  
أرواحهم وعمولوا بخلاف الشروط التي بينهم وبين المستولي فاستأنفوا  
الثورة ومدوا يدهم الى من جاورهم من المسلمين لاجل مظاهرهم، اصطلموا  
الاسبانيول وتقدموا نحو بلنسية حتى كادوا يسترجعونها فوقع الرعب  
في قلب جقوم ومات على أثر ذلك وتولى بعده ولده بترو أو بطره فعمد  
مع الثوار هذنة وأمرهم ريثما تفرقت جموعهم فنكث معهم وصمد اليهم  
على غرة فأنحازوا الى ( مونتزه ) في عيالهم وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً قام  
يحاصرهم طويلاً وأخذ منهم بالخنق حتى استأمنوا فدخل الاسبانيول  
الحصن وانتهبو المال والمتاع وأخذوا المسلمين أسارى وفرقوهم في داخل  
البلاد بعيداً عن الثغور

وكان تخاذل المسلمين وتودد أعقاب ابن هود وابن مردنيش للملوك  
النصارى قد دعا محمد بن الاحمر الى مهادنتهم ونزل لهم عن بلاد ( الغرنتيرة )  
وكانت هذه المدة بحسب قول ابن خلدون فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين  
والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحروب ووضيعة ومداراة في السلم  
والتزم ابن الاحمر بما ضايقه من تكالب العدو على بلاد المسلمين ومظاهرة  
بعض أمراءهم له على الاستيلاء أن يلجأ بالمسلمين الى جوار غرناطة  
وسيف البحر معتصمين بالجبال وراكنين الى أوعارها وفي أثناء هذا  
كله لم يزل صرِيخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر ووفود الاندلس تتوالى  
من الى حضرة بني مرين أصحاب المغرب تستنصرهم على العدو وتستجيرهم

في استباحة الحرم والولدان ، وبنو مرين وان كانوا يوءثرون الجهاد ،  
ويسابقون في مضمار الجهاد مسابقة الجياد ، فقد كان لهم من مناصبة دولة  
الموحدين وشغلهم بتدريج المغرب كله وتمهيد قاعدة ملكهم ما يعترض دون  
اجابة داعي الجهاد. ولكنه لما انتقضت الوحشة بين أبناء ادريس بن عبد الحق  
وبين السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني انتدب السلطان الكثير منهم  
لنجدة الاندلس ، ولم تزل هذه البلاد منذ اوائل الفتح ثمر الاسلام ،  
وموطن الجهاد ، ومدرج الشهادة ، وغاية من قصد من الآخرة السعادة ،  
نفر جوا في نحو من ثلاثة آلاف مرابط عليهم عامر بن ادريس وتقبلهم بن  
الاحمر ودفع بهم في صدر عدوه وتوفي الشيخ ابن الاحمر لسنة ٦٧١ وقد  
عهد الى ولده والقائم بالامر بعده محمد الشهير بالفقيه لانتحاله العلم في  
أيام أبيه أن يجعل مموله على بني مرين في الاستصراخ اذا اشتد به  
الامر ويبدأ بهم ، وكان محمد الثاني بعد جلوسه بقليل وهو على مهادة  
صاحب قشتالة سار الى اشبيلية لزيارته وتأكيده سلمه فلقى من الاعزاز  
والاداء ما لم يسبق له مثيل ، غير أن زوجة الملك خاطبته مرة أثناء  
اقامته بناهم في شأن بني أشقيلولة القائمين كانوا على أبيه وعليه من بعده  
فاسترحش محمد من هذه التوصية واستنشأ من ورائها رائحة المفسدة  
والميل الى القاء الفتنة ، والفرقة في مملكة الاسلام الباقية ، فعند رجوعه  
تأمل فيما يعمل لاجل التخلص من فتنة بني أشقيلولة ومما كان عليه من  
الخضوع للمنوي لصاحب قشتالة فلم يجد بدا من انفاذ وصية أبيه ومد اليد  
الى بني مرين خاطباً نصرهم ومستجيشاً بهم في الدفاع عن الملة  
وكان بنو اشقيلولة كما لا يخفى أنصار ابن الاحمر على أمره وأبوهم

أبو الحسن هو الذي تولى كبر الثورة على ابن هود وداخل أهل اشبيلية في الفتك بابن الباجي حتى استوسق الملك لابن الاحمر، وكان هذا من قبيل المكافأة قد أصهر اليهسم وأشركهم في أمره ورسمهم من مياهم التعظيم وأشعرهم من شعار التجارة بما لم يختص به أحداً من سواهم، وولى أبا محمد على مالقة وأبا اسحق ابراهيم صهره على وادي آش، وكانت في يدهم قارش فيقال أن قد أبطرتهم النعمة فسموا الى مشاركة السلطان في ملك غرناطة واستأثر الرئيس أبو محمد بمالقة وقيل انهم اتفقوا مع الطاغية وأباحوه حتى الاسلام. وضيا باشا ينقل أنهم جاءوا بمساكره يكتسحون البسائط ويعيشون في البلاد وكانوا سببا لخروج كثير من المدن والحصون مثل شريش و ابريجة وسجونة من يد المسلمين

فأرشد ابن الاحمر مشيخة بلاده على السلطان يعقوب بن عبدالحق المريني فلقوه منصرفاً من فتح سجلماسة خاتم الفتوح بالبلاد المغربية فنبهوا عزائمهم واستنفروا جمته وكان من نفسه الى ذلك ارتياح فجهز خمسة آلاف عقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية واستدعى الاسطول فأجازوا نازلين بطريف وبعد أن أراحوا ثلاثاً دخلوا الحرب فاكثسحوا بسائطها وأتخنوا فيها بالقتل والاسر والتخريب، ونزلوا بساحة شريش فخامت حاميتها عن اللقاء، وانقلبوا الى الجزيرة الخضراء، وقد امتلات أيديهم بالغنائم. ولما بلغ الخبر أمير المسلمين يعقوب بن عبدالحق أجاز بنفسه على أثر ولده وحيث كان يخشى عادية (يعمراسن) بن زيان أمير تلمسان بعث اليه في السلم تفرغاً للجهاد وتوفراً على عدو الملة، فأوفد عليه (يعمراسن) شيخه بني عبد الواد بالاجابة وأسنى الهدية وطابت بذلك نفس يعقوب فاستنفر قبائل

المغرب من العرب والموحدين ومصمودة وصنهاجة ومكناسة وانضم اليه جمع من المطوعة والمرزقة فأجاز بهم لصفير من سنة ٦٧٤ وكان نزل له ابن الاحمر عن رندة وطريف فاحتل ساحة طريف ومالات كتائبه الجزيرة الخضراء وأقبل عليه الفقيه أبو محمد بن الاحمر والرئيس أبو محمد ابن اشقيلولة صاحب مالقة والغربية وزال ما بينهما من النهرة وصارا مع أمير المسلمين يداً واحدة على الاذفنش ثم عقد أبو يوسف يعقوب لولده أبي يعقوب على خمسة آلاف وسرحهم في بلاد العدو فحاسوا خلال دياره ونسفوا البناء وحطموا الزرع واتهبوا المال والمتاع وباتعوا في الأتخان والسبي، واقتحم السلطان حصون المدور وابدة وتالسة وبلمة وغادرها قاعاً صفصفاً وعاد بالغنائم والسبي فنزل باستجة، وكان الاسبانيول قد أعدوا عدتهم وأكملوا احتشادهم، فزحف الدون (نونو) أو (ذنه) بحسب املاء العرب وكان محافظا لاشبيلية ومقدماً عندهم فاصطدم الفريقان، واحتدم بينهما الضراب والطعان، وكانت وقعة من أعظم ما يرويه تاريخ اسبانية، فأنزل الله سكينته على المسامين وانهمزمت جموع (ذنه) وقتل هو في المصاف وتآثر المسلمون قومه بالقتل والاسر فبلغ عدد قتلاهم بحسب رواية ابن خلدون ستة آلاف وخذل العدو ووهنت شوكته وبعث أمير المسلمين برأس ذنه الى ابن الاحمر فقيل انه رده الى أهله سرّاً مداراة لهم، وقيل انحرافاً عن يعقوب لامور وجدها في نفسه، وظهرت شواهدا فيما بعد. وقد أصاب المسلمون في هذه الغزاة من الغنائم ما لا يحصيه الا الله وبيعت الشاة بدرهم واحد وأخذ سبعة آلاف وثمانمائة أسير ولم يكمل هذه الغزوة حتى رجع الى بلاد العدو فاكتسح نواحي اشبيلية وأوغل في جهاتها، ونزل

بأرض شريش فجاس خلالها، واستقصى بالدهار أعماها، وقل إلى الجزيرة الخضراء لشهرين من غزاته ووعول على اختطاط مدينة بفرضة المجاز من المدوة لنزل أجناده منتبذاً عن الرعية لما يلحقهم عادة من ضرر الجند فأتى المدينة المعروفة بالبنية، وأجاز البحر إلى المغرب بعد غيبة ستة أشهر في الجهاد عز بها الإسلام، وأدال له بعد طموس الإعلام، حتى لقد قال بعضهم: ما نصر المسلمون من العقاب حتى دخل يعقوب المريني

وأما ابن الأحمر فساق عساكره إلى جهة جيان وأنحن فيها فجمع له الدين (صانشو) بن (جقوم) ملك أراغون وكان مطرانا على طليطلة وبادر إلى لقائه فأنكشف الأسبانيول وأسر الدين صانشو - أو شانجه على رأى العرب - وحصل بسببه خلاف إذ مال بعضهم إلى إرساله إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق والآخرون إلى إبقائه عند ابن الأحمر فوثب عليه أحد الجنود فاحتز رأسه وحسم الخلاف. وثاني يوم هزيمة الدين شانجه وأسرته وصل الدين (لوب) بالمدد الوافر وتوافق مع المسلمين وقد امتلات أيديهم بالغنائم فتأمل أن يشتغلوا بها عن القتال واصلاهم ناراً حامية من مطلع الشمس إلى أن توارت بالحجاب فلم يفز منهم بطائل، فرأساهم في رأس شانجه والخاتم الذي بيده ووقع الفداء بهما على جملة من أسرى المسلمين ونقل الرأس مع الجثة ودفن في كنيسة طليطلة وكان لما اعتزم أمير المسلمين يعقوب على الإجازة إلى المغرب خاطبه ابن الأحمر بقصيدة استعانة من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط قال فيها:

هل من معين في الهوى أو منجد  
من متهم في الأرض أو من منجد  
هذا الهوى داع فهل من مسعف  
باجابة واناية او مسعد



بالعدوتين من امرىء مسترشد  
يخشى المصير الى الجحيم الموقد  
أجب الهدى تسعد به وتؤيد  
ألدبك علم أن تعيش الى غد  
ان لم يحن لك نعمة فكأن قد  
زاد لكل مسافر تزود  
خذ منه زادك لارتحالك تسعد  
منه لما يرضي الهك واغثد  
وجهاً للقبيا الله غير مسود  
محت الدموع خطيئة المتعمد  
أو يقتدي بنبيه أو يهتدي  
مشحودة في نصر دين محمد

فاهلك عليه اسي ولا تتجلد  
من قانتين وراكين ووجد  
فكلاهما يبغى الفداء فما فري  
فيهم توذ لو أنها في ملحد  
ولداه وذا أنه لم يولد  
يبكى لآخر في الكبول مقيد  
ما بين حدي ذابل ومهند  
وبكى لهم من قلبه كالجلمد

هذي سبيل الرشدة وضحت فهل  
يرجو النجاة بجنة الفردوس أو  
يا أمل النصر العزيز على العدى  
يا من يقول غداً أتوب ولا غده  
لا تترن بنسيئة الاجل الذي  
أو ما علمت بأنه لا بد من  
هذا الجهاد رئيس أعمال التقى  
هذا الرباط بارض أندلس فرح  
سوّدت وجهك بالمعاصي فالتمس  
وامح الخطايا بالدموع فربما  
من ذا يتوب لربه من ذنبه  
من ذا يطهر نفسه بعزيمة  
ومنها :

كم جامع فيها اعيد كنيسة  
أسفا عليها اقفرت صلواتها  
كم من أسير عندهم وأسيرة  
كم من عقيلة معشر معقولة  
كم من وليد بينهم قدود من  
كم من تقي بالسلاسل موثق  
وشهيد معترك نوزعه الردي  
ضجت ملائكة السماء لحالمهم

أفلا تذوب قلوبكم اخواننا  
أفلا تراعون الازمة بيننا  
أكذا يعيث الروم في اخوانكم  
اين العزائم مالها لا تقتضي  
أبني مرين اتم جيراننا  
فالجار كان به يوصي المصطفى  
أبني مرين والقبائل كلها  
كتب الجهاد عليكم فتبادروا  
وارضوا باحدى الحسنيين وأقرضوا  
هذي الجنان تفتحت أبوابها  
لله في نصر الخليفة موعده  
هذي الثغور بكم اليكم تشكي  
ما بال شمل المسلمين مبدد  
أتم جيوش الله ملء فضائه  
ما ذا اعتذاركم غداً لبيكم  
إن قال لم فرطتم في أمي  
تالله لو أن العقوبة لم تخف  
اخواننا صلوا عليه وسلموا  
واسموا لنصرة دينه يسقيكم

فأجابه السلطان يعقوب بن عبد الحق بقصيدة من نظم عبد العزيز  
شاعر الحضرة: «لا تخش اعتداء المعتدي»، الخ وأجاب عنها أيضا

مالك بن المرحل بقوله «شهد الاله وأنت يا أرض اشهدي»، الخ فأجابهما أبو عمرو بن المرباط بقوله «قل للبقاة وللعداة الحسد»،

وبعد الجهاد الاول بنحو سنتين ثقف فيها امير المسلمين أطراف المغرب اعتمز الجهاد ثانية فأجاز الى طريف لسرار المحرم ثم نهض الى الجزيرة الخضراء فرندة حيث وافته بنو أشقيلولة ونهضوا جميعاً الى اشبيلية وكان بها ابن الاذفنش الملقب بالصابي نقام عن اللقاء واعتصم بساحة البلد فاكتسح السلطان جوارها ودك حصونها وسي أهلها ودخل حصن جليانة وقطيانة وحصن القليعة عنوة وعاد بالغنائم والاثقال الى الجزيرة ثم نهض ثانية فنزل بساحة شريش، أذقها نكال الحرب والحرب وبعث ولده أبا يعقوب في جيش الى اشبيلية وحصون الواد فبالغ في الأثخان واجتاح حصن روطة وشلوقة وغلبيانة والقناطر ثم اعتمز الغزو الى قرطبة فاستفز به ابن الاحمر وأجابه وتوافيا على الطريق ودخلا حصن بني بشير عنوة ودمراه وأثخانا في أهله وتقدما بالا كتساح والتدمير والاسر والقتل الى أن نزل بساحة قرطبة قبة الاسلام في الماضي وشددا عليها الحصار وبعثا السرايا في الجوار فعانت ودمرت ودخلت الحصون واقتحمت القلاع واشتد الامر بالطاغية فخطب السلم من أمير المسلمين فأحاله على ابن الاحمر تكرمة لمشهده فأجابه محمد الفقيه بعد استئذان أمير المسلمين لإراحة لاجناد الاندلس والمرابطين فيها وانعقد الصلح وقفلوا فخرج أبو يوسف يعقوب على غرناطة تزيلا على ابن الاحمر وترك الاندلسيين الغنائم وقفل الى الجزيرة وفي تلك الاثناء توفي الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة صاحب مالقة فنزل ابنه محمد عن البلد للسلطان يعقوب

فعمد عليها لابنه أبي زيان منديل فسار اليه في بمتء كان الفقيه ابن الاحمر  
لما بلغه وفاة صهره طمع في الاستيلاء على مالقة وظن ابن أخته مشايخا  
له فأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الداني فوجد الامير أبا زيان قد احتل  
البلد فقبل خائبا ثم قدم اليها السلطان نفسه من الجزيرة فبرز اليها أهلها  
في احتفال شهير وعقد عليه لعمر بن يحيى بن محلي من أركان دولة بني  
مرين وقفل الى الجزيرة ومنها الى المغرب سنة ٩٧٠ وقد أعاد بهجة الايام  
الاولى في الجهاد وحسن البلاء، وحاز الاسلام لعهد الغاية من العلاء  
ولما بلغ السلطان يعقوب ما بلغه من الظهور ومالت اليه القلوب  
واشرأبت الى ولايته الاعناق واكتسب له محمد مقامه بالاندلس  
محاب الامة تذكر ابن الاحمر وكان فقيها مطاعا قصة المعتمد بن عباد مع  
يوسف بن تاشفين نخاف الغيلة وبرم "عاقبة" على إيصال يده بيد  
الطاغية خشية على سلطانه من أبي يوسف فنهض الاذفنش لاختد الثأر  
وأغزى أساطيله مسالح بن مرين بالجزيرة الخضراء وانقطع مدد المسلمين  
من وراء البحر وانتبذ عمر بن يحيى بن محلي عن قومه بمكانة مالقة وذلك  
أنه كان بين أخيه طاحنة وبين السلطان نفور بعث طلحة على ممالاة ابن  
الاحمر وبمداخلته نزل له عمر عن مالقة وجهها قصده واقطعه شلو بانية  
والمتمكب فانتقل اليها ممالاة ابن الاحمر ومن ثمة للاذفنش وخوفهم من  
إجازة السلطان راسلوا يغمراسن بن زياد أمير تلمسان في الانتقاض عليه  
وتشبيط حركته فأجابهم الى ذلك وتهادوا وتحابوا وتخاذل المسلمون واشتد  
بأهل الجزيرة المخنق وبلغ الخبر الى السلطان بمراكش وهو يطفيء فتنة بني  
جشم من العرب فلما تمكن من حسمها نهض قاصداً طنجة بقصد الاجازة

فبلغه استئفاف جشم الثورة فكر اليهم وتأثرهم في الملوات وترك ابنه  
أبا زيان لتدوين السوس الأقصى وعقد لولده ولي عهد الامير أبي يعقوب  
على الاساطيل التي جمعها من طنجة وسبتة وسلا حتى بلغت اربعمائة سفينة  
وأغزاها الجزيرة وكان أهلها قد باعوا من الضيق أن قتلوا صغارهم خوفا  
عليهم من انسي والنشوء على غير الاسلام فأثر ذلك في قلب ابن الاحمر  
وندم على ما فرط منه من ممالاة العدو وجهر أباطيله من مالقة والمرية  
بداراً لنصرة اخوانه في الدين وغابت عليه حفيظة الملة واجتمعت أساطيل  
المسلمين برفاء جبل طارق وتبارزوا مع العدو وصدقوه العزيمة فكشفوه  
وذعر الاسبانيول وغشيهم من اليم ماغشيهم وملك المسلمون مرفأ  
الجزيرة وهزموهم من كل ناحية لكن الامير أبا يعقوب تذكراً عن الغزو  
خبر فام ابن الاحمر وحدثته نفسه أن يصلح لاذفنش ويزحفها معاً الى  
غرناطة انتقاماً من صاحبها فأجابته هذا الى ذلك توسلاً الى موادعته ولما  
كان في نفسه نلى ابن الاحمر من مدده أهل الجزيرة فبعث أساقفته الى  
أبي يعقوب فأجازهم الى أبيه فانكر ذلك السلطان وغضب من فعلة ابنه  
ولم يشأ أن يواطيه على الاسلام أحداً وأجاز أبو يعقوب الى المغرب بوفد  
أهل الجزيرة وولى ابنه الآخر أبا زيان عليها فاحكم الصالح مع صاحب  
قشتالة وتفرغ لمانازلة ابن الاحمر في غرناطة مع بني اشقيلولة وابن الدليل  
ثم رجع ابن الاحمر الى سلم بني مرين وخطبها من أبي زيان واجتمعوا ثم في  
سنة ٧٨ أطل السلطان يعقوب على الاتدلس لما اختل من أحوالها وكان  
ابن اشقيلولة قد نازل غرناطة سنة ٧٩ وظاهره الاذفنش فلم يفوزوا  
بطائل وقتل جماعة من الاسبانيول ولما أيقن ابن مرين بما وقع بين يعمراسن

وملوك اسبانية المسلمين والنصارى من الاتصال والتعاهد تعويقا لحركانه  
عمد الى غزو يغمراسن وجرت بينهما حرب دارت فيها الدائرة على  
يغمراسن وقفل يعقوب الى مرا كش . وأثناء مقامه بها وافاه صريخ  
الاذفنش على ولده سانشو أو شانبجه وذلك أنه لما تم ماتم من الملوك والظهور  
لكلمة الاسلام على يد أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق قام أمراء اسبانية  
وأركان مملكة قشتالة وخصوصاً رجال الدين ناقلين على الاذفنش عدم  
الكماءة وسوء التدبير ونحس الطالع على قومهم فكادوا له وأخرجوه  
عن ملكه ونادوا باسم شانبجه وذلك سنة ٨١ وخرج الوالد طريداً أخذوا  
قد غدر به أهله وخلانته ، وخانه زوجته وأولاده ، فأخذ يستغيث ملوك  
النصرانية من أراغون والبوراغال وفرنسا فلم يجب أحد صريخه فرفع  
أمره الى البابا فلم ينجده بغير النصيحة والتوصية بالصبر والتحمل فلما  
يئس ممن شبكته وإياهم أو أصر الرحم والديانة أو الجوار حول نظره جهة  
المغرب فاستجار بسلطانه يعقوب بن عبد الحق بن مرين فأجاره في الحال  
ذهاباً مع هوى الشيمة الابية وقتضى الفتوة ووافاه الى مرا كش أساقفة  
الاذفنش فصرفهم واعداءً بالأغذاذ وسار الى قصر الجاز وركب منها الى  
الجزيرة الخضراء وقد وافته الجنود وسار الى صخرة عباد حيث وافاه  
ملك قشتالة فأكرم نزله (١) وأمدته لنفقته بمائة ألف استرهن عليها  
التاج الملكي وبقي عند ملوك بني مرين نفراً للاعتاب وزحف السلطان

---

( ١ ) قيل انه بعد أن سلم عليه الدون الفونس طلب يعقوب بلسان  
زناة الماء ليفسل يده من قبلة ملك قشتالة وقيل من مصافحته فانظر الى ما  
كان من عز الاسلام بازاء الافرنج

الى جهة قرطبه وبها شانجه فاكتسح نواحيها وامتنت عليه فانتقل الى  
طليطلة فخرّب جهاتها وعاد الى الجزيرة وقد ثقلت أرقام مطاياها الغنائم  
ورأى ابن الاحمر ذلك فبدا له أن يوالي شانجه الخارج على أبيه وتماهدا  
فلم يغنهما ذلك . ولما رجع السلطان من غزاته غزا مالقة من أملاك ابن  
الاحمر فلم يجدها بدا من طلب السلم والتجأ في ذلك الى ابنه فأسغفه وأجاز  
الى أبيه رغبة في الثواب وجمع كلمة لمسلمين فأسغفه فيمارغ - فيه اليه  
وأقلع عن مالقة وتأكدت السلم مع ابن الاحمر وانبسط رجاء المسلمين  
وأعاد السلطان الغزو في دار الحرب واستأنف الانتحان وخرج الى نواحي  
طليطلة في غرة ربيع الثاني سنة ٨٢ فلم يصادف بناء الا هدمه ولازرعاً  
الا حطمه ولا سرحاً الا اقتلعه ولا جماعاً الا صدعه وعاق جيشه عن  
زيادة الايغال كثرة الغنائم فرجع وقسم السلب بين أجناده ونقل من الخمس  
وأجاز الى المغرب وبلغه وفاة أذفنش ملك قشتالة واجتماع النصرانية  
على ولده شانجه الخارج كان عليه فتحرك للجهاد وأرسل ولده أبا يعقوب  
في أثر العرب الخارجين فاتبع أثرهم الى الساقية الحمراء آخر العمران من  
بلاد السوس ونهض السلطان مستنفراً للجهاد فأجاز بجنوده الى الجزيرة  
ومنها دخل دار الحرب فخرج وأثخن ونزل على شريش فصايقبها وأخذ  
بمخنقها وأغزى ابنه الامير أبا يعقوب اشبيلية فوسف ديارها، وعاث في  
نواحيها، وصرف في منصرفه بقرمونة فشدد عليها وطأته، وأعظم فيها نكايته  
وسرح الوزير محمد بن عطوا ومحمد بن عيلة جواسيس في أرض العدو  
اليه فمادا بنياً ضعف الحامية فأغزى حافده عمر بن عبد الواد جهة وادلك  
وحصن اركش فأبادوا عمرانها، وغادروها كجوف المير، وسرح ابنه أبا

معروف لغزو اشبيلية ثانية فأتى ما كان باقيا دون خراب وقصد حصنا بقرب معسكره فسرح الجنود والناشبة بالآلات فاقتحموه وسبوا أهله وقتلوا حاميته وركب الى حصن آخر فأصابه ما أصاب الاول ووافاه ولي عهده أبو يعقوب بمرابطة المغرب ومطوعته وصرتزقته في واحد وعشرين ألفا كلهم قد باعوا أنفسهم من الآخرة فعمده أبوه على جيش كثيف وأغزاه نواحي اشبيلية فاقتحموا الحصون ودكوا القلاع وسبوا الذراري ودمروا قرى الشرف والغابة الكثيرة العمران وعادوا بالغنائم فأغزاه ثانية قرمونة والوادي الكبير فبرز حامية قرمونة للدفاع فانكشفوا وأحجرهم في الحصن وكر على اشبيلية ثانية واقتحم منها برجا كان هناك عينا للعدو فأحرقه وقفل . ثم أغزاه والده جزيرة كيوتر فاقتحمها وأباد أهلها بالسيف وأغزى طلحة بن محلي اشبيلية رابعة فأتخن فيها حتى صفرت تلك البقاع من العمران ، وأصبحت بسائط افرنتيره واشبيلية ولبله وقرمونة واستتجه منمقا لليوم بعد أن كانت ملأى بالعمارة والنضارة ، وهو أثناء هذه الغارات كلها غادي شريش ويراوحها قتالا ونكالا ، ويبيت السرايا في أرض العدو ليلا ونهارا ، حتى لم يخل يوم منه من غزوة أو غارة

وقد أصابت جموع الاسلام في هذا الرباط الطويل العريض من الغنائم وأحرزت من المال الصامت والناطق ما لا يحصىه إلا خالقه ولم يرتد أمير المسلمين من الغزو إلا بقدم فصل الشتاء وبلغه أن العدو أوعز الى اساطيله بالاعتراض في الزقاق وأوعز السلطان الى اساطيله بالاجتماع من ثغور العدوتين فأحجمت أساطيل الافرنج ورأى ابن



اذن نش شانجه أو صانشو ما نزل ببلادهم من بأس المسلمين وضرع اليه كبار دولته في خطبة السلم من يعقوب بن عبد الحق لشدة ما بلغ بهم البلاء ونالهم من النكال ورأوا من شمول الخراب أوطانهم فعول على مخاطبة أمير المسلمين في السلم صارعاً صاغراً وأوفد اليه الملائم من أساقفته وأعيان مملكته فرددهم يعقوب اعتزازاً عليهم فزدهم شانجه وكرروا الاستعطاف فأجابهم الى السلم بشرط أن يقبلوا ما شاء من عز قومه وأن يسالموا جميع المسلمين من قومه وغيرهم وأن يرفعوا الضريبة عن تجار المسلمين في دار الحرب ويجتنبوا الفتنة بين امراء الاسلام الى غير ذلك فأجابوا الى كل ما اشترط ووفد شانجه على السلطان بمكانه من شريش فالتقاه برآ وترحيباً واحتفل للقاءه اظهاراً لعز الملة وقدم له ملك الاسبانبول هدية سنوية وخضع له . انقلب تقرير الدين بمسألته وسأله يعقوب أن يعث اليه بكتب العلم التي حازها النصارى من مدن الاسلام فارسل اليه منها ثلاثة عشر حملاً فوقفها في المدرسة التي أسسها بفاس

وقفل السلطان من هذا الجهاد بعد أن وفر للاسلام من العزم ما لم يمهده منذ أيام ابن تاشفين وازدهمت في حضرته الشعراء للتهنئة واعتل بعد ذلك وتوفي بالجزيرة قبل وصول ولي عهده أبي يعقوب فأخذ البيعة على الناس بزراء أليه وأجاز اليهم من المغرب فجددوا البيعة غرة صفر سنة ٦٨٥ . وفرق العطاء واحزل ومحا بعض الرسوم ورفع المكوس وقبض أيدي العمال عن الظلم واصلح السابلة وبعث الى ابن الاحمر بالحضور فوافاه فاختلفى به ونزل له عن جميع الاندلس إلا الجزيرة وطريف واتفقا على اخرج أبي الحسن بن اشقيلولة من وادي آش ففصل الى المغرب

وأقطعه ابن مرين فيه وانفرد ابن الاحمر برئاسة الاندلس  
وسنة تسعين بلغ أبا يعقوب انتفاض صاحب قشتالة وتمطيله ثغور  
المسلمين فسرح قائد المسالحي علي بن يوسف بن يرناسن فغز اشريش وأتخن  
في أرض العدو وأجاز السلطان بنفسه فالتفته أساطيل الاسبانيول في  
الزقاق حجراً دون النزول فانكشفت سفن المسلمين فكر السلطان  
فاحجمت أساطيل الاسبانيول وأزل عساكره بطريف وشرع منها بالنزول  
فأذاق شريش واشبيلية وبال الحرب ولم يرجع عنها إلا عند قدوم الشتاء  
وقفل الى المغرب سنة ٦٩١ وقد تم له من الظهور ما تم لا يبيه وعاد الوساوس  
الى مخيلة ابن الاحمر وتذكر مرة ثانية قصة المعتمد بن عباد ووصل حبله  
بجبل القشتالي واجما على افتتاح طريف ام الثغور وذات المسالحي فنازلها  
الاسبانيول واعترضت أساطيلهم ببحر الزقاق دون مدد المغرب وارسل  
ابن الاحمر التجيدات الى حليفه وتمادى الحصار بأهل طريف أربعة أشهر  
والمدد منقطع عنهم فسلموا بلدتهم للاسبانيول وطالبهم ابن الاحمر بالخروج  
عنها له فأبوا ونكثوا فندم على اتصالهم وراسل ابن مرين تائبا مستعظما  
داعيا الى اجتماع الكلمة وأوفد بذلك ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن  
اسماعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني فاحكموا الصلح وعقد  
ابن مرين على مسالحه بالاندلس لابنه ولي العهد الامير أبي عامر ولما  
رجعت رسل ابن الاحمر بقبول الصلح أجاز بنفسه تزيلا على ابن مرين  
ممتذراً فاعرض عن عدله واكرم وفادته وقدم له ابن الاحمر المصحف  
الكبير أحد مصاحف عثمان ( رضي الله عنه ) الاربعة المبعوث بها الى  
الآفاق اتصل الى صاحب غرناطة من قرطبة حيث كان في خزانة بني

امية ونزل ابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا لابي يعقوب وأرسل هذا وزيره عمر بن السعدي لشمسي لمازلة طريف فانتمت عليه وقفل ابن الاحمر الى حاضرة حمراءه عام ٦٩٢ وقد تأدت المصافاة بينه وبين ابن مرين

وتوفي محمد الثاني المعروف بالفقيه ابن محمد الاول المعروف بالشيخ سنة ٧٠١ فقام بالامر بعده ابنه محمد الثالث ويقال له الخلع والاعمش اضعف بصره وكان مع ضعف البصر ضعيف البصيرة فتعلم عليه كاتبه أبو عبد الله بن الحكيم ولم يعمل الامر حتى يدل له الانتقاض على ابن مرين لأمور نغمها ولا جرم لها فوصل يده بيد ملك الاسبانبول وردينه الرابع ابن شانجه وهو (هرانده) عند العرب وداخل ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج ن اسماعيل في الاستيلاء على سبتة وأجاز اليها على غفلة من أهائها واشتغال ابن مرين بمحصار تلمسان الكبير بعد التضرير بين أعيان البلدة فاستولى عليها وأرسل عمالها بنو العزفي الى غرناطة وقامت بهادعوة ابن الاحمر على يد ابن عمه وأخذ أبو سعيد في التفريق بين بني مرين والدعوة لعثمان ابن أبي العلاء المريني رئيس الغزاة المجاهدين بالاندلس واستقدمه لاجل تمكين الفتنة بينه وبين أولاد عمه فخرج ودعا لنفسه وأجابه كثير من الناقين وبايعوه على الموت وفاز أبو سعيد بن الاحمر بامنيته وانتشبت الحرب بين رجال بني مرين

وتوفي السلطان أبو يعقوب في اثنائها فخلفه السلطان أبو ثابت بن أبي عامر ولي عهد أبي يعقوب لكون والده توفي قبل جده ولم يستقم له الامر الا بعد نزاع هاض جناح الدولة مع عمه أبي سالم فشرع في محاربة

عثمان بن أبي العلاء وحصره أخيراً بسبته وتوفي قبل أن يتمكن منه وخلفه  
السلطان أبو الربيع فضايق عثمان الخارج عليهم حتى فرّ من سبته إلى الأندلس  
لاحقاً بقرناطة وبعدهما أرسل أبو الربيع تاشفين بن يعقوب الوطاسي  
بمسكر فاستولى على سبته وقبض على قائد قصبتهما وقائد البحر وقائد  
الحرب من قبل ابن الأحمر وعادت إلى ملكه ثم توفي أبو الربيع لسنة  
عشر بعد السبعمائة وخلفه السلطان أبو سعيد فآذاً الأساطيل للجهاد  
وولى أخاه أبا البقاء ثعور الأندلس

وَأما محمد الثالث سلطان قرناطة فساء أثره في الملك واستبد مع  
وزيره ابن الحكم فاتزى عليه أبو الجيوش نصر أخوه وقتله ووزيره  
لسنة ثمان بعد السبعمائة ، في تلك المدة نزل ملك الأسبانيول الجزيرة  
الخضراء وجبل اذتح فاستولى على الجبل ولم يقلم عن الجزيرة إلا صلحا  
بعد أن أذاقها مرّاً لحصار فقلق ابن الأحمر لاخذ الجبل ورغب إلى أبي  
الربيع في إصلاح فأسلفه ونزل له عن الجزيرة وورندة وبعض الحصون فقبل  
ذلك . منه ثم اسهر إليه في اخته وأمد بالمال والخيول جنائب مع عثمان  
ابن عيسى من رجاله ، بقي نصر في الملك إلى أن اتزى عليه اسماعيل  
أبو الوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر . فحاصره في الحمراء وآل الأمر  
أن نزل له عن الملك سنة ٧١٤ واعرزل ومات في نواحي سنة ٧٢٢

وكان فردينا ندم ملك قشتالة عند نزال جيش الفتح : الجزيرة قد استصرخ  
صاحب برشلونة فحاصر المدينة براً وبحراً . ذلك في مدة أبي الجيوش نصر  
وانصب عليها الآلات واحترف الأسبانيول مسارب تحت الأرض مقدار  
مايسير عشرون راكبا في الواحد منها وفتنان المسلمون ففروا قبائلهم

والتقوا تحت الارض واقتتلوا وهذا كما حصل في حصار مالقة في العهد  
الاخير كما سيأتي وسارع عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة بالاندلس من  
بني مرين لنجدة أهل المرية فالتقى بجيش صاحب قشتالة فمزمه ثم صعد  
الى عسكره باسطيونة فوقع به فسرح اليه جيوشاً كثيرة فظفر بهم وقتلهم  
أبرح قتل وقفل بالغنائم وتوفي فرديناند على أثر ذلك عام ٧١٢ وولي بعده  
ابنه المعروف عند العرب بالهندشة طفلاً رضيعاً فجعلوه لنظر عمه الدون بترو  
أو بطره والدون جوان

وفي أيام كفالتهمما شغل أبو سعيد المريني سلطان المغرب بفقتة ابنه  
فاتهمز الاسبانيول الفرصة واعتمروا استئصال المسلمين من الاندلس  
وتداعوا للحرب واستنفروا الاقطار وأناخ الدون بطره على غرناطة  
بمجموع لا كفاء لها وقيل كان مه خمسة وعشرون ملكا وذلك لسنة ٧١٩  
نخرج اليهم شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء يوم الخميس ٢٠ ربيع الاول  
فاقتطع منهم سرية واستأصلها ويوم الاحد ركب ابو سعيد عثمان بن أبي  
العلاء في خمسة آلاف من أبطال المسلمين فقيض الله لهم نصرا غريبا  
وعند ما شاهدهم الافرنج وقد ألهاهم تكاثرهم أخذ منهم العجب لقلتهم  
وهجومهم فلم يشعروا الا وقد أذاحوهم عن مراكزهم فانهمزوا مذعورين  
وأهب الله ريح النصر للغرناطيين فتبعوهم يأسرون ويقتلون ثلاثة  
أيام وغنموا من الذهب ثلاثة وأربعمين قنطارا ومن الفضة مائة وأربعمين  
قنطارا وسبي سبعة آلاف نفس وكانت خسائر المسلمين من القلة  
بحيث لو ذكرت لدفع ذلك العقل. وسلخ الدون بطره وحشي جلده  
قطننا وعلق على باب غرناطة وبقي معلقا سنوات وقال ابن خلدون

ان رأسه نصب بسور البلدة وأنه كان باقيا لعهده. وهذه الواقعة من أشهر وقائع الاندلس وفيها استنصر الغرناطيون السلطان أبا سعيد المريني فاعتذر لهم بمكان ابن أبي العلاء شيخ الغزاة وعدوه من دولتهم واشترط عليهم دفعه اليه ووعدهم باعادته فلم يمكنهم ذلك لمكان عثمان ومنعته من عصابته وأغناهم الله عن نصرة أبي سعيد بنصرته تعالى

وفي سنة ٧٣١ توفي أبو سعيد المريني وقام بالامر بعده ولي عهده الامير أبو الحسن وكان من أجل سلاطين الاسلام فاشتغل مدة باطفاء فتن مملكته ولما خلاص له المغرب وجه عنايته الى الجهاد وسعت نفسه الى حال جده أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وكان الاسبانيول بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال وشجر بين المسلمين دون التوافي لنصرة بعضهم بعضا قد تغلبوا على كثير من حصونهم ونازلوهم في عقر دارهم غرناطة وضربوا الجزية على أبي الوليد فأدأها عن يد الذل فاعتزم أبو الحسن الجهاد وجهز الاساطيل وسرح بالجيش ابنه الامير أبا مالك فغزا أرض العدو وأتخن وغنم وجمع له العدو فأشير عليه بالخروج من دار الحرب انتصاما فأبى لباؤه وأقام بأرضه فأدركوه وعسكره وهم في مضاجعهم وقتل أبو مالك قبل أن يستوي على جواده واستلم الاسبانيول أكثر قومه وغنموا ما معهم ووصل النعمي أبا الحسن والده فقت في عضده وتفجع واعمل في النفير للجهاد والاخذ بالثأر واستدعى الاساطيل من مراسي العدو، وأنجده الموحدون من تونس باسطول بجاية عليه زيد بن فرحون قائد البحر، ووافاه أسطول طرابلس وقابس وجربة واجتمعت كلها بسبلة معقودا عليها محمد بن العزفي، زحفتم الى أساطيل الافرنج ففتحاجزت

وتناجزت وأهب الله ريح النصر من جهة بني مرين فخالطوا سفن الافرنج واستاحموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم (المنذر) وعادوا بالسفائن محنوبة الى مرفأ سبتة وطيف بالرؤس وجلس السلطان للتهنئة وكان يوم مشهوراً  
ثم أخذ يجهز العساكر الى الاندلس وأجاز على أثرها ختام سنة ٧٤٠ وخيم بساحة طريف ووافقها سلطان غرناطة بغزاة زناتة و جنود الاندلس وشددوا الحصار على طريف وجاء الاسبانيون بالمدد بأسطول عظيم خالوا به بين العدو وبين وامتعت البلاد فقنيت الاقوات واختلت أحوال المعسكر وتكاثرت جموع الاسبانيون وأصر خيم صاحب أشبونة البر تغا في جزاء بقومه و دخلوا البلاد ليلاً على حير غفلة وكموا في مكان وفي الغم تراخف الجمار فبرز الجيش الكمين من البلد وخالفوا الى معسكر السانار وعمدوا الى فسطاطهم فافهم الحراس فقتلوهم وقتلوا بمحظايا السلطان عائشة بنت عمه وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب افريقية وغيرها وسلبوا السطاطة و احرقوا المعسكر، فلما رأى المسلمون ما حل وراهم بالمعسكر اختل مصافهم واخذ ابن السلطان أسيراً لمخالطته العدو في تقدمه و اخاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله فدافع ونجاء وصل الطاغية الى محلة الامان فانكر على قومه قتل النساء والاولاد وانهزم ابن الاحمر الى حمراء وخلص أبو الحسن الى الجزيرة فجعل طارق ومنها الى سبتة وكانت وقعة مشهورة على المسلمين عظم فيها البلاء وفدحت الرزية وجل الخطب، وقد بالغ بعض مؤرخي الافرنج في تقدير خسائر المسلمين فزعم بعضهم أنه قتل منهم مائتا ألف وان خسائر الاسبانيون كانت نحو ٢٠ قتيلاً فقط وهذا أشبه بقول بعض مؤرخي الاسلام إن خسائر الافرنج في وقعة الدون بطرور بلغت خمسين ألفاً ولم يستشهد من

المسلمين إلا ثلاثة عشر فارساً وقيل عشرة فقط مما يدل على تأخر فن  
النقد في تلك الاعصار وقبول الاخبار على علاقتها بدون عرضها على  
العقل ولا سبرها بمعيار الحكمة والنظر. على أن هاتين الواقعتين تتشابهان  
في قضية أسر نساء الملوك ففي الاولى أسرت امرأة الطاغية بحسب قول  
العرب وفي الثانية أسرت بعض نساء السلطان أبي الحسن عدا من قتل منهم  
وبعد هذه الواقعة اشتدت وطأة الاسبانيول على المسلمين وطمعوا  
في التهام بقيه الاندلس ونازلوا قلعة بني سعيد وأخذوها بعد حصار  
شديد فأعاد أبو الحسن بن مرين الكرة وجهز الاساطيل وسرب البعوث  
الى الجزيرة الخضراء وتلاقت الاساطيل الاسلامية والنصرانية ففضى  
بهزيمة المسلمين وملك أسطول الطاغية بحر الزقاق وسماه شوق الى  
استخلاص الاندلس فبعث بالنفير ووافته النجدات وحضرت الاوامر  
من البابا بوجوب انقيام يداً واحدة لطرد مسلمي الاندلس، وانضم الى  
انفونس ملك قشتالة كثير من الملوك ووافاه من أنسباء ملك انكلترة  
الكونت درني والكونت سالسبري، غاستون، كونت دوفواو كونت  
دوبيارن، غيرهم وزحف الجميع فنازلوا الجزيرة الخضراء ليلحقوها بطريف  
ويستولوا على فرضة مجاز المسلمين وحشروا اليها الفعلة والصناع لانقب  
والحفر وأطالوا حصارها واتخذوا للمعسكر بيوتاً من الخشب بقصد  
المطاوله كما اتخذوا للمعسكرهم في القرن التالي بيوتاً من الحجر وهم على غرناطة  
وجاء سلطان غرناطة لمدد الجزيرة فنزل بظاهر جبل طارق وطال الحصر  
وأصاب أهل الجزيرة الجهد فسأوا الامان فبذلوه لهم وخرجوا الى  
المغرب وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلهم أبو الحسن خير نزل



والى هذه الوقعة يشير كتاب شهير بعث به السلطان أبو الحسن بن مرين الى الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر يقول فيه عند ذكر الصلح : « إلا أن المطاولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف، منازلها في البر نحو عامير معقوداً عليها الصلح بالصلح أدى الى فناء الاقوام في البلد حتى لم يبق لاهله قوت شهر مع انتطاع المدد وبه من الخلق ما يربي على عشرة آلاف دون الحرم والولد ، فكتب الينا سلطان الاندلس يرغب في الاذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح » الخ

وورد الجواب من السلطان ابن قلاوون وفيه عند ذكر الوقعة قوله : « ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا سيكم عقبان الجياد المسومة ، وسالت على عدوكم أباطحهم قسينا المعوجة وسهامنا المقومة ، وكحلنا عيون النجوم بمراود الرماح ، وجعلنا ليل المعجاج ممزقا بيروق الصفاح ، واتخذنا رؤسهم لصوالج القوائم كرات ، وفرجنا مضائق الحرب بتوالي الكرات ، وعطفنا عليهم الاعنة ، وخضنا جداول السيوف ودرنا شوك الاسنة ، وفلقنا الصخرات بالصرخات ، وأسلنا العبرات بالرعبات ، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطول ، وأين اثريا من يد المتناول » الخ

ليت شعري ما كان أغناد عن حرب الكلام ، والاعتياض عن السيوف بالافلام ، إن كانت الغاية بعيدة عليه الى هذا الحد ، والظاهر أن كاتبه صلاح الدين الصفدي المشهور بحب التجنيس عن عليه أن لا يفلق الصخرات بالصرخات حرمة لهذا الجنس ولو كان في فضلة القول عن العمل ما فيها من المهجنة

ولنعد الى الكلام على بني الاحمر أصحاب هذا المقام فنقول : لما توفي أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على مملكة غرناطة من يد ابن عمه أبي الجيوش بويح وولد محمد الرابع طفلاً صغيراً كفالة الوزير محمد بن المحروق فالتب هذا بالامر وأمن في الظلم فلما بلغ محمد الرابع سن الحلم اغتاله وشمر لتأييد الملك وجهاد العدو ووفد على أبي الحسن ابن مرين في فاس فأعظم قدومه وثقاوضا في شأن المسلمين وراء البحر واعتزما الجهاد ويومئذ أرسل أبو الحسن ابنة الشهيد فيما بعد الامير أبا مالك في خمسة آلاف مئزر من آل مرين وانضموا الى محمد بن اسماعيل ابن الاحمر المذكور ونازلوا جبل الفتح. زحف اليهم الاسبانيول فوقمت بين الفئتين حروب ومناجزات لم يظفر فيها الاسبانيول بطائل ودخل المسلمون الجبل عنوة وبقي مع الجزيرة الخضراء لنظر أبي مالك الى أن قتل كما سبق به الخبر وتوالت الهزائم على المسلمين وكان صاحب قشتالة قد حاول استرداد الجبل ونزل عليه قبل المرة الاخيرة فأسرع محمد الرابع الى انقاذه فرحل ملك النصارى وعاد محمد الى غرناطة ظافراً ونقم على جند افريقية فيما قيل قعودهم وهزيء بهم فعتبوه ، وربما ذلك في قلوبهم فقتلوه . وقيل ان ذرية عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة من زناة والبربر وابن سلطان المغرب كانوا قد خلفوا شيخهم في الجهاد بيرا الاندلس وكانوا يرجعون في رثاستهم الى الامير أبي ثابت عامر وقويت عصابتهم وعلت كلمتهم حتى استبدوا على السلطان وكان ذلك قبل اجازته نحو أبي الحسن بن مرين فلما أجاز اليه ظنوا فيه الظنون وأضمروا السوء لما بينهم وبين أولاد عمهم من المنافسة والمداوة فعند أوبته التقوه بقرب حصن

أصطبونة وأغلظوا له القول وقتلوا عاصما صاحب ديوان العطاء من مواليه فلما أنكرها السلطان تناولوه قمصا بالرماح الى ن قتلوه وانقلبوا فجأوا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد فأجلسوه مكانه واستبدوا عليه وخشي غائلتهم وأسروهم فلما اتفق مع ابن مرين قبض عليهم واعتقلهم جميعا وأجازهم الى تونس وكان أبو الحجاج يوسف من أفاضل الملوك في عدله ونزاهته وحببه للعلم والعلماء عقد مع النصارى المهادنات لإراحة لرعيته وتفرغا للاعداد والاهبة، ولم يهمل وقته ولا ضيع الفرصة، وأنشأ المساجد والمدارس، وجر المياد ومهد السوايل، الى أن توفي عام ٧٥٥ وسبب وفاته أن بعض الزعاف وقيل ان رجلا به مس قد طعنه يوم الفطر وهو ساجد في الصلاة فمضى عليه لحينه فقام بالأمر بعده محمد الخامس وكان بعضهم رشح ابنه الأصغر سماعيل فلما عدلوا عنه بجروه ببعض القصور وكان له صهر من ابن عمه محمد بن اسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فكان يغريه سرا بالوثوب الى أن أمكنته الفرصة وذلك ان محمداً خرج مرة الى التنزه فدخل محمد بن اسماعيل في زهرة من الاوشاب لفهم حواليه واقتحم دار الحاجم رضوان فقله بين حرمه وبنائه وقربوا الى اسماعيل فرسه فركب ودخل القصر وقرعت الطبول بسور الحمراء وفر محمد الى وادي آش فبايده أهلها على الموت واتصل خبر هذه الواقعة بالسلطان أبي سالم المريني خلف أبي الحسن فأرسل لحينه أبا القاسم الشريف لاجازة محمد المنصوب ملكه الى المغرب لما بينهما من العهد وعقد مع السلطان المنصوب تسريح الوزير الكاتب أبي عبد الله بن الخطيب المشهور بإسان الدين لمكانه من دولة محمد فأجزوا جميعا واحتفل أبو سالم لقدمهم بناس دار ملكه وغص المجلس

بالمشيخة والاعيان وقام ابن الخطيب فأشده بين يدي السلطان قصيدته  
الرائية يستعطفه لسلطانه وبستنجده لاعادته حتى أبكى الحاضرين ومطلعها  
سلا هل لديها من مخبرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الزهر  
ومنها

بلادي التي عايطت مشهولة الهوى وجوي الذي ربي جناحي وكره  
نفث بي لاعر جنفوة وملالة ولكنها الدنيا قليل متاعها  
فمن لي بنهل القرب منها دوننا ولله عينا من رأنا والاسى  
بكينا على النهر السرور عشية ومنها

باكتافها والعيش فينان مخضر  
فها أنذا مالي جناح ولا وكره  
ولا نسخ الوصل الهني لها هجره  
ولذاتها دأبا تزور وتزور  
مضى طال حتى يوهه عندنا شهر  
ضرام له وبكل جانحة جمر  
فماد اجاجا بعدنا ذلك النهر

زجرنا براهيم ملء همونا  
بمنتخب من آل يعقوب كلما  
أطاعته حتى العصم في قنن النبي  
ومنها

فأما رأينا وجهه صدق الزجره  
دجا لخطب لم يكذب امرته فجره  
وهشت الى تأميله الأنجم الزهر

قصدناك يا ولي الملوك على النون  
وأنت الذي تدعى اذا دم الردى  
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه  
غريب برجي منك ما أنت أهله  
فعد يا أمير المؤمنين لبيعة  
لنصفنا مما جنى عبدك الدهر  
وأنت الذي ترجي اذا خلف القطر  
كسير ومن عليك ياتمس النصر  
فان كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر  
موثقة قد حل عقدتها الغدر

أعدده الى أوطانه عنك ثانياً وقلده نهماك التي ملها حصر  
وعاجل قلوب الناس فيه يجبرها فقد صدم منك التغلب والقهر  
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة تحاولها يملك ما بعد ما خسر  
وبقى ابن الاحمر محمد ووزيره ابن الخطيب على الرحب والسعة  
والاجلال والكرامة في حاضرة ابن مرين الى أن كان ارتجاع محمد ملكه  
لسنة ٧٦٣

ولنذكر هنا قول الوزير ابن الخطيب عن هذه الحادثة في تأليفه المسمى  
(باللمحة البدرية بالدول النصرية) وهو إنه كان السلطان أبو عبدالله عند  
تصير الامر اليه قد أزم أخاه اسماعيل قصرًا من قصور أبيه بجوار داره  
مرفها عليه متممة وظائفه وأسكن معه امه وأخواته منها وقد استأثرت  
يوم وفاة والده بمال جم فوجدت به السبيل الى السمي لولدها فجعلت تواصل  
زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبي عبدالله ابن الرئيس  
أبي الوليد بن الرئيس أبي عبد الله المبايع له باندرش ابن الرئيس أبي سعيد  
جدهم الذي تجمعهم جرثومتهم وشمر الصهر المذكور عن ساعد عزه  
وهو على ما هو عليه من الاقدام ومداخلة ذؤبان الرجا واستعان بمن أسفته  
الدولة وهفت به الاطماع فتألف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من  
جهات القلعة متسنمين شفاً صعب المرتقي واتخذوا آلة تدرك ذروته ليعود  
بنية كانت به عن التمام وكبسوا حرسيا باعلاء بما اقتضى صمانه ونزلوا الى  
القلعة سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبع مائة  
فاستظفروا بالمشاعل والصراخ وعالجوا دار الحاجب رضوان ففضوا  
اغلاقها ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده وانتهبوا ما اشتملت عليه

واسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الامير المعتقل اسماعيل وقرعت  
الطبول و نودي بدعوته

وقد كان أخوه السلطان متجولا الى سكنى الجنة المنسوبة للعريف  
لصق داره فما راعه الا النداء والعجيب وقرع الطبول وهب الى الدخول  
الى القلعة فألقاها قد أخذت دمه شعابها ورشقته السهام فرجع وسدده  
الله في محل الحيرة ودس له عرق الفحول من قومه فامتطى صهوة فرس  
كان مرتبطا عنده وصبح مدينه وادي آس وقد أعيا . تبعه فلم يشعر حافظ  
قصبتهما الا وهو فيها فأعطاء أهلها صنفقتهم وتجهزت الحشود لمنازاته  
وجدد أخره المتقلب عقد السلم مع طاغية قشتالة باحتياجه الى سلم المسلمين  
لجاء فتنة بينه وبين البرجلونيين

واغتبط به أهل المدينة فذبوا عنه ورضوا بهلاك نعمتهم دونه  
واستمرت الحال الى يوم عيد النحر من عام التاريخ ووصله رسول صاحب  
المغرب مستنزلا عنها ومستدعيا الى حضرته لما عجز عز امساكها وراسل  
ملك الروم فلم يجد عنده من مبول ، فانصرف ثاني النحر وتبعه جمع  
وافر الى مريلة من ساحل اجازته وكان وصوله الى مدينة فاس مصحوبا  
من البر والسكرامة بما لا مزيد عليه في السادس من المحرم فاتح عام ٧٦١  
وركب السلطان للقائه ونزل اليه عندما سلم عليه وكنت قد لحقت به . فلما  
من شرك السكبة التي استأصلت المال ، وأرهمت سوء الحال بشفاعة  
السلطان أبي سالم فقامت بين يديه . منشد في الحفل المذكور ( و ذكر  
القعيدة الرائية حتي أنى على آخرها ثم قال ) : وفي صبيحة يوم السبت  
السابع عشر من شوال عام اثنين وستين وسبعمائة كان انصرافه الى

الاندلس وقد أُلح صاحب قشتالة في طلبه ، فعقد السلطان بقبة العرض من جنة المصارة وبرز الناس ، واستحضرت البنود والطبول والآلة وألبس خلعة الملك وقيدت له مراكبه فاستقل . وقد التف عليه كل من جلا عن الاندلس من لدن الكائنة ورأى من رقة الناس واجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد اذ كان مظنة ذلك سكوناً وعفافاً وقرباً . قد ظله الله برواق الرحمة وعطف عليه وشائج المحبة الى كونه . ظلوم العقيد منتزع الحق فتبعته الخواطر وحميت عليه الانفس ، وانصرف لوجهته ، وهو الآن برندة مستقل بها وبجهاتها ، ومقتنع برسم سلطنتها ، وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد علي بن يوسف بن كاشة الحضرمي وبكتابة الفقيه أبو عبد الله بن زمرك ( تلميذ ابن الخطيب صاحب هذا القول ) وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقظ والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر انتهى ببعض تصرف

تم استرجع السلطان المذكور حاضرة ملكه حمراء غرناطة وقتل له ملك قشتالة المنتزي على ملكه من أبناء عمه ، وقد استوفى القصة كتاب من انشاء الوزير لسان الدين بن الخطيب عن سلطانه الغني بالله محمد المذكور الى الملك المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون فنظف منه بعض ما يناسب المقام لصدوره عن شاهد للحوادث بجماتها ، وواقف على دخيلتها ، وشريك في أسبابها ، وبحرفي معرفة أنسابها وهو قوله : وان بعضا ممن ينسب اليها بوشائج الاعراق ، لا بكمال الاخلاق ، ويمتد اليها بالقرابة البعيدة ، لا بالنسبة السعيدة ، ممن كفلناه يتيماً ، وصناه ذمياً شتياً ، وبوأناه مبعواً كريماً ، بعد أن نشأ حراً فوشاد مبعواً ، وملعونا لثيماً ، ونوهناه من خموله بالولاية ، ونسخناه

حكيم نسجه بآية العناية ، داخل أخالنا كنا الزمناء الاقتصار على قصره : ولم  
نعمل أداة تدل على حصيه ، وسامحناه في كثير من أمره ، لم نرتب  
نزيده ولا عمره ، واغتررنا برماد علا على جمره ، فاستدعى له من  
الصماليك شيعة من كل درب بفك الاغلاق ، وتسرب انفاق النفاق ،  
وخارق للاجماع والآصاق ، وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفساق ،  
وتسور بهم القلعة من ثلم شرع في سده ، بعد هده ، ولم تكمله الاقدار  
المميزة في ليلة آثرنا بيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا ، واستنبنا من  
يضع بامورنا ، فاستتم الحيلة التي شرعها . واقتحم القلعة واقرعها ،  
وجدل حرس النوبة وصرعها ، وكبس محل النائب عنا وجدله ، ولم  
ينشب أن جدله ، واستخرج الاخ البائس فنصبه ، وشد به تاج الولاية  
وعصبه ، وابتز امرنا وغصبه وتوهم الناس أن الحادثة على ذاتنا قد تمت ،  
والدائرة بنا قد أملت ، ولقد همت ، نفد الناصر ، وانقطعت الاواصر ،  
واقدم المتقاصر ، واقتحمت الابهاء والمقاصر ، وتفرقت الاجزاء وتحملت  
العناصر ، وفقد من عين الاعيان النور الباصر ، فاعطوه طاعة معروفة ،  
واصبحت الوجوه اليه مصروفة ، وركضنا وسرعان الخيل تفلقوا أثر  
منجاتنا والظلام يخفيها ، وتكفي علينا السماء والله يكفيها ، الى أن خلصنا  
الى مدينة وادي آش خلوص القمر من السرار ، لا تملك الا نفسا  
مسلمة لحكم الاقدار

( الى أن يقول ) ولم ينشب الشقي الخزي ان قتل البائس الذي موه  
نزيده ، وطوقه بسيفه ، ودل ركب المخافة على خيفه اذا أمن المضموف  
من كيده وجعل ضرغامه بازيا لصيده واستقل على اريكته استقلال الظلم



على تريكتته ، حاصر الهامة ، متنفقا بالشجاعة والشهامة

( الى أن يقول ) وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة . وركبنا البحر تكاد جهته تتقارب تيسيرا ، ورياحه لا تعرف غير وجهتنا مسيرا ، وأخذت الخائن الصيحة فاختبل ، ظهر تهوره الذي عليه جبل ، فجمع أوباشه السفلة وأوشاهه ، وبهرجه الذي غش به المحض وشابهه ، وعمد الى الذخيرة التي صانتها الاغلاق الحريزة ، والمعاقن العزيزة ، فملا بها المناطق ، واستوعب الصامت والناطق ، والوشح القراطق ، واحتمل عدد الحرب الزينة ، وخرج ليلا عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعامته الشائلة ، ودولة بغير الزائلة ، ان يقصد طاغية الروم من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولأمر عرف حقيقته ، الا ما أمل اشتراطه من تبديل الكامة ، واستئصال الامة المسددة فلم يكن الا ان تحصل في قبضته ، ودنا من مضجع ربضته ، واستشار نصحاءه في امره ، وحكم الحيلة في جناية غدره ، وشهره ببلده ، وتولى قتله بيده ، ألحق به جميع من أوده في غيه ، وظاهره على سوء سميه ، وبمئذ الينا برؤوسهم فنصبت بمسور غدرها ، وقلدت لبة تلك البنية بشدرها . الى آخر ما قال

وفي هذه اواقعة نظم لسان الدين قصيدته اللامية المشهورة ووجه بها الى سلطانه المذكور فيقال أنه لشدة اعجاب به بها أمر بكتابتها على جدران الحمراء ومطلعها

الحق يملو والاباطل تسفل  
والحق عن أحكامه لا يسئل  
واذا استجالت حالة وتبدات  
فالله عز وجل لا يتبدل  
واليسر بعد العسر موعودُ به  
والصبر بالفرج القريب موكل

بحايتها دون الورى تتجمل  
عقد باحكام القضاء مسجل

قد تنقص الاشياء مما تكمل  
والله يأمر بالمتاب ويقبل  
باساءة قد سرك المستقبل  
أرضاك فيما قد جناه الاول  
لما ارتضاك ولاية لاتعزل  
وقضى لك الحسنى فمن ذا بخذل  
متن العباب فأى صبر يجمل  
الريح تقطع للزفير وترسل  
تختال في برد الشباب وترفل  
من يعلم الاثنى وماذا تحمل

سد الثنية عارض تهمل  
يرمي الجلاذ به أغر محجل  
واذا تغنى للصهيل فبلبل

مره العيون فبالعجاجة يكحل  
مما يعمل من الدماء وينهل  
رمد ولا يخفى عليه بمقتل  
٢٠ - خلاصة تاريخ الاندلس

أحمد والحمد منك سجية  
أما سعودك فهي دون منازع  
ومنها

عوذ كمالك ما استطعت فانه  
تاب الزمان اليك مما قد جنى  
ان كان ماض من زمانك قد مضى  
هذا بذاك فشفع الجانى الذي  
والله قد ولاك أمر عباده  
واذا تفعدك الاله بنصره  
وظعننت عن أوطان ممالك راكبا  
والبحر قد حيت عليك ضلوعه  
ولك الجوارى المنشآت وقد غدت  
جوفاء يحماها ومن حملت به  
ومنها

صبيحتهم غرر الجياد كأنما  
من كل منجرد أغر محجل  
زجل الجناح اذا أجد لغاية  
ومنها

وبكل أزرق ان شكت الحاظه  
متأود أعطافه في نشوة  
عجبا له ان النجيم بطرفه

ومنها

لله موقفك الذي وثباته ووثباته مثل به يتمثل  
والخيل خط والمجال صحيفة والسمر تنقط والاسنة تشكل  
والبيض قد كسرت حروف جفونها وعوامل الاسل المثقف تعمل  
لله قومك عند مشتجر القنا اذ ثوب الداعي المهيب وأقبلوا  
قوم اذا لفتح الهجير وجوههم حجبوا برايات الجهاد وظلموا  
وقد كافأ محمد الخامس ملك قشتالة على صدره بخصمه ابن عمه  
بمضافته إياه على أخيه المنتزي عليه أيضا ولكن دارت الدائرة أخيراً  
على الملك وتمكن أخوه من قتله وفي خلال هذه الفتنة بقيت ثغورهم مما  
يلي أرض المسلمين عورة وتشوف المسلمون الى ارتجاع الجزيرة وكان  
صاحب المغرب في شغل عن ذلك بانتفاض ابن أخيه وعامر بن محمد  
فراسل صاحب الاندلس على أن يزحف بعساكره على أن عليه الأمداد  
بالمال والاساطيل فزحف ابن الأحمر بعساكره المسلمين واقلمت أساطيل  
صاحب المغرب من مرسى سبتة واحيط بالجزيرة وضيق على حاميتها  
ويئسوا من المدد فنزلوا عنها بالامان ودخلها المسلمون وذلك سنة ٧٧٠  
وبعد ذلك رأى المسلمون هدمها خشية ارتجاع الاسبانيول لها كما هدم  
صلاح الدين الايوبي عسقلان لمثل هذه الغاية فهدمت في سنة ٧٨٠  
واصبحت خاوية على عروشها

واستمرت أحوال غرناطة في مدة الغني بالله محمد الخامس على ما  
كانت عليه من الغبطة والسعادة وأومضت تلك الدولة لإيماض الخوود إذ  
لم تقم لها بعد هذا انسلطان قائمة تشكر الى أن قبض في عام ٧٩٨ وقام

بالأمر بعده ابنه أبو عبد الله يوسف والسلطان محمد هذا هو الذي استوزر لسان الدين بن الخطيب أشهر وزراء الأندلس على الإطلاق، بل من أشهر رجال الأدب والسياسة في الآفاق، الذي بنى المقري أكثر نفع الطيب على سيرته وأخباره ونثره ونظمه وأشياخه وتلامذته بما لا أظنه جمع عن أحد. مثله وحيث كان المقام تاريخ غرناطة في هذا الذيل وكان الوزير المذكور مفخر ذلك البلد وواسطة عقد ذلك الصقع فلا بأس في إيراد زبدة خبره بما أمكن من الإيجاز فنقول :

\*

### زبدة ترجمة لسان الدين الخطيب

ترجمه سليل السلطان الأيرال العلامة أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الأحمر نزيل فاس في كتابه المسمى (فرائد الجمان فيمن نظمني ولما الزمان) فقال ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن الرئيس الفقيه الكاتب المنتزعي ببدة لوشة عبد الله ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب

وقال في منشأه : نشأ على حالة حسنة سالكا سبيل أسلافه فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العواد تكتبا ثم حفظا ثم تجويدا ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي وقرأ عليه العربية وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزى ولازم قراءة العربية والفقه على الشيخ الإمام ابن الفخار البيري وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر وتآدب بالرئيس أبي الحسن بن الجباب الى آخر من

ذكر من أسيان الرجل الاعلام ثم ذكر أخذه الطب وصناعة التعديل  
عن الامام يحيى بن هذيل حكيم بوقته  
وقال ابن خلدون بنسقه المعروف في شأن لسان الدين وكان ماصره  
وصاحبه : (١)

### ترجمة ابن خلدون

(١) كما ترجم ابن خلدون لسان الدين ترجمه لسان الدين في ( الاحاطة بأخبار  
غرناطة . بما نصه (عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن  
ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي من ذرية عثمان أخي كريب  
المذكور في نهاء ثوار الاندلس وينسب سلفهم الى وائل بن حجر وحاله في القديوم  
على رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة انقل سلفه من مدينة اشبيلية عن نباهة  
وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك فاستقر بتواس منهم ثاني المحمدين  
محمد بن الحسن وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة، وتصرف جد المترجم  
به في القيادة، وأما المترجم به فهو رجل فاضل حسن الخلق حم المضائل ناهر  
الخصال رفيم القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس خاصي الزي عالي الهمة  
عزوف عن الضيم صعب المقادة قوي الجأش طامح لقين الرئاسة خاطب للحفظ  
بارع الخط مفري بالتجلة جواد حسن العشرة مبدول المشاركة مقيم لرسم التعيين  
حاكف على رعى خلال الاصلة مفخر من مفاخر التخوم المغربية . قرأ القرآن  
ببلده على المكتب ابن برال والعربية على المقرئ الزواوي وغيره وتأدب بأبيه  
وأخذ عن المحدث أبي عبدالله بن جابر الوادي آشي وحضر مجلس القاضي ابي عبدالله  
ابن عبد السلام وروي عن الحافظ ابي عبدالله السطي والرئيس ابي محمد عبدالمهيمن  
الحضرمي ولازم العالم الشهير ابا عبدالله الابلي وانتعم به  
انصرف من افريقية منشأه بعد ان تملق بالخدمة السلطانية على الحداثة  
واقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة وعرف فضله  
وخطبه السلطان منفق سوق العلم والادب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان  
واستعضره بمجلس المذاكرة فمرف حقه وأوجب فضله واستعمله على الكتابة  
أوائل عام ستة وخمسين ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده =

« أصل هذا الرجل من اوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال

= عن حسن التأمي وشفوقه بثقوب المههم وجود الادراك فأغروا به السلطان اغراء عضده ما جبل عليه عهدئذ من اغفال التحفظ مما يريب لديه فأصابته شدة ( الى ان يقول ) ودالت الدولة الى السلطان أبي سالم وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حظوته فقلده ديوان الانشاء مطلق الجرايات محرر للسهم نبيه الرتبة الى آخر أيامه ولما ألت الدولة مقادها بعده الى الوزير صهر ابن عبدالله مدير الامر وله اليه وسيلة وفي حليه شركة وعنده حق رابه تقصيره عما ارتقى اليه أمله فساء ما بينهما بما آل الى انفصاله عن الباب المريني وورد على الاندلس في أول ربيع الاول عام أربعة وستين وسبعمائة واهتز له السلطان وأركب خاصته لتلقيه واكرم وفادته وخلم عليه وأجاسه بمجلسه ولم يدخر عنه براً ومواكفة ومراكية ومطايبة وفكاهة (قال) وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة قد استعمل في السفارة الى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه ، مولده بتونس دله في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ووصفه في الكتابة (قال) راماشره وسلطانياته قسجعية نخاج بلاغة ورياض فنون رمعادن ابداع يفرع منها راياعه الجري شبيهة النداءات بالخواتم في نداوة الحروف وقرب العهد بجزية المهاد ونقود أسر القريحة واسترسال الطبع. واما نظمه فنهض لهذا العهد قدما في ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه فانثال عليه جوهه وهان عليه صعبه الخ

وانما قال لهذا العهد لان ابن خلدون في البداية كان يستصعب الظم وينسب ذلك الكثرة . المحفظ من المتون وكتب الاصول وقد ذكر في مقدمته انه ذاكر في ذلك صاحبه الوزير ابن الخطيب وشكا اليه ضعف ملكته في النظم بما ظن من السبب فأجابه والله انت وهل يقول هذا الا مثلك

هذا وقد ذكر ابن خلدون في تعريفه بنفسه آخر التاريخ انه في آخر مقامه بقرناطه اشتم من الوزير ابن الخطيب رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة فاستأذن السلطان ابن الاحمر في الارتمحال وعمى عليه ذلك الشأن إبقاء لمودة وارتمحل مكرما ولقد صبح بذلك ما قاله ابن الخطيب في حقه من انه صعب المقادة عزوف عن الضيم الخ رحم الله الاثمين مقدكان كل خير ابصاحبه

من البسيط الذي فيه ساحتها المسمى بالمرج على وادي سنجيل ويقال  
شذيل المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب الى الشمال، كان له بها سلف  
معروفون بوزارتها وانتقل أبو عبد الله الى غرناطة واستخدم لملوك بني  
الاحمر واستعمل على مخازن الطعام ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ  
وتأدب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل  
وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب واتحل الادب وأخذ عن  
أشياخه وامتلا حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه  
وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يجاري فيهما وامتدح السلطان أبا  
الحجاج من ملوك بني الاحمر وملا الدولة بدائمه وانتشرت في الآفاق  
فرقاه السلطان الى خدمته وأثبتته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي  
الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية  
الى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فولى السلطان  
أبو الحجاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رئاسة الكتاب ببابه وثناه  
بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في  
مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو ثم داخله السلطان في تولية العمال  
على يديه بالمشارطات فجمع بها أموالاً وبلغ به المخالصة الى حيث لم يبلغ  
بأحد من قبله ( الى أن قال )

ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين عدا عليه بعض  
الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة وطمنه فأثواه لوقته  
وتماورت سيوف الموالى المملوجي (١) هذا القاتل فزقوه أشلاء وبوبع  
(١) يجمع علاج على علوس واعلاج ومملوجي والظاهر ان الاخير مختار اهل  
المغرب لتداوله في كتاباتهم

ابنه محمد بالامر لوقته وقام بأمره مولا هم رضوان الراسخ القدم في قيادة  
عساكرهم ، وكفالة الاصاغر من ملوكهم ، واستبد بالدولة وأفرد ابن  
الخطيب بوزارته كما كان لآبيه واتخذ لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب  
رديفاله في أمره ، وتشارك في الاستبداد معا ، فجرت الدولة على أحسن  
حال وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير بن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبي  
عنان مستمدين له علي عدوم الطاغية على عادتهم مع سلفه فلما قدم على  
السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الاندلس  
وفقهاها واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر بقدمه بين يدي نجواه فأذن  
له وأنشد وهو قائم :

علاك ما لاح في لدجى قر	خليفة الله ساعد القدر
ما ليس يسطيع دفعه البشر	ودافعت عنه كف قدرته
لنا وفي المحل كفك المطر	وجهك في النائبات بدر دجى
لولاك ما أوطنوا ولا عمروا	والناس طرا بأرض أندلس
ما جحدوا نعمة ولا كفروا	ومن به مذ وصلت حياهم
فوجهوني اليك وانتظروا	وقد اهتمهم نفوسهم

فاهتز السلطان لهذه الابيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن  
يجلس : ما ترجع اليهم الا بجميع عطائهم ، ثم أثقل كاهلهم بالاحسا زوردهم  
بجميع ما طلبوه ، ومكثت دولتهم هذه بالاندلس خمس سنين ثم نازلهم  
محمد الرئيس ابن عم السلطان (وذكر القصة السالفة من اجازة ابن الاحمر  
ووزير ابن الخطيب الى المغرب) الى أن قال : واستأذن أي ابن الخطيب  
في التحول الى جهات مراکش والوقوف على آثار الملك بها فأذن له



وكتب الى العمال باتحاحه فبادر به في ذلك وحصل منه على حظ وعند  
ما صر بسلا عند قفوه من سفره دخل مقبرة الملوك بسالة ووقف على قبر  
السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على روي الراء الموصولة يرثيه ويستثير  
به الى استرجاع ضياعه بفر ناطة مناعها :

ان بان - نزله وشطت داره      قامت مقامه عيانه أخبصاره  
قسم زمانك عبرة أو عبرة      هنا تراه وهذه آثاره  
الى آخر ما ذكر من ترجمته

ولا بأس في نقل شيء مما ترجم به ابن الخطيب نفسه زويه بيمض  
تصرف حبا بالاختصار قال محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن احمد أسلماني  
قرطبي الاصل ثم طليطلة ثم اوشية ثم غرناطية يكنى أبا عبد الله ويلقب من  
اللقاب المشروية اسان الندي انما واه مع الام الحاية القرطبية كيجي بن يحيى  
الليثي في وقعة الربض (١) الشهيرة الى طليطلة ثم تسربوا نحو مين الى وطنهم  
قبل استيلاء الطاغية عليه فاستنرم منهم بالمرسنة الاندلسية جملة من النبهاء  
كعبد الرحمن قاضي كورة باغة وسعيد المستوطن بلوشه وكان سعيد هذا من  
أهل العلم والدين وخلفه والده عبد الله ساكنا سلك أبيه في التزيي بالانقباض  
والتحلي بالنزاهة وخلفه ولده سعيد جدنا الا قرب وكان عمداً خيراً مستولياً

(١) ملخص هذه الواقعة ان أهل ربض قرطبة ثاروا على الحكم الاموي  
وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثي وغيرهم فهزمهم الحسكر وقتل من قتله  
منهم وأجلى الباقي الى الاسكندرية فلم يطل الامر ان حصلت فتنة أجلتهم  
الى اقريطش - أو كريد - في الايام فعمروها واختطوا بها مدينة قنديالتي يقال  
ان اسمها بالعربي الخندق لكونهم أداروا عليها خندقاً وكانت لهم بها اماراة  
استمرت نحو سبعين سنة ثم رجعت الجزيرة للروم في ذلك الوقت

على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وساب وأدب تحول الى غرناطة عند ثورة جيرته بني الطنجالي لها تميمين وصاهر بها الاعيان من بني اضحى بن عبد اللطيف الهمداني أشرف جند حمص الداخلى الى الجزيرة في طاعة بلج بن بشر القشيري توفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة وتخطب والدي نابتاً في الترف نبت العليق يكنفه رعي أم تجر ذيل نعمة وتحنو منه على واحد تحذر عليه النسيم اذا سرى، فقافته لترفه حظ كبير من الاجتهاد وعلى ذلك فقرأ على بعض الجلة وانتقل الى لوشة بلد سلفه مخمس صابلق الوزارة الى أن قصدها أبو الوليد متخفياً الى الحضرة فعضد أمره وأدخله بلده لدواع يطول استقصاؤها. ولما تم له الامر صحب ركابه الى داره ملكه مستأثراً بشقص عريض من دنياه، وكان من رجال الكمال طلق الوجه، وتضمن كتاب المحلى والاحاطة رائقاً من شعره، وفقد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سابع جمادى الاولى سنة واحد وأربعين وسبعمائة ثابت الجأش غير جزوع ولا هيابة.

حدثني الخطيب أبو عبد الله بن اللوثي قال : كبا بأخيك الطرف وقد غشي المدو وجنحت الى أردافه فأنحدر اليه والدك وصرقي وقال : أنا أولى به فكاك آخر المهد بهما . قال : وخلفني أي عبد الله عالي الدرجة ، شهير الخطبة ، مشمولاً بالقبول ، فقلدني السلطان سره ولما يستكمل الشباب ، معززة بالقيادة رسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة الى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ، ورمى الى يدي بخاتمه وسيفه ، واثمتني على صوان حضرتة ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، وممقل امتناعه . ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي ، وقصر المشورة على نصحي ، الى أن

٢١ - خلاصة تاريخ الاندلس

كانت عليه الكائنسة فقتل في أخوه المتغلب على الامر به فسجل  
الاختصاص وعقد القلادة

ثم حمله أهل الشجناء من أعوان ثورته على القبض علي فتقبض  
علي ، ونكت ما أبرم من اماني ، واعتقلت بحال ترفيه . وبعد أن كبست  
المنازل والدور واستكثر من الحرس وختم على الاغلاق واستؤصلت نعمة  
لم تكن بالاندلس من ذوات النظائر في تبحر الغلة وفراهة الحيوان  
وغبطة العقار واستجادة العدة ووفور الكتب الخ فأخذ ذلك البيع ،  
وتناهبتها الاسواق ، وصاحبها النحاس وشمل الخاصة والاقارب الطلب ،  
واستخلصت القرى ، وانصرف اللسان الى ذكر الله تعالى ، وطبقت  
نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت

تخلصت منها نكبة مصحفية لعقداني المنصور من آل عامر  
( يشير الى نكبة مصحفية أيام المنصور بن أبي عامر ) ووصلت الشفاعة  
في مكتبة بخط ملك المغرب ، وجعل خلاصي شرطاني حل العقدة ، ومسألة  
الدولة ، فانتقلت صحبة ساطاني المكفور الحق الى المغرب وبالغ ملكه في  
بري ، منزلا رحيبا ، وعيشا خنضا ، واقطاعا جما ، وجراية ما وراءها مرمى ،  
ثم اسمف قصدي في تهيوء الخلوة بمدينة سلا : منوٓ الصكوك ، مهنا  
القرار ، متفقدآ باللهي ، موفور الحاشية ، مخلي بيدي وبين اصلاح معادي ، الى  
أن رد الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله ( محمد الخامس ) ابن  
أمير المسلمين أبي الحجاج ملكه ، فظالني بوعد ضربته ، ولم يوسعني عذرا ،  
ولا فسح في الترك مجالا . فقدمت عليه بولده على حال من التقشف والزهد  
فيما بيده ، فرمى الي بمقاليد رأيه ، وغطى من جفاء لي بحمله ، وحثاني

وجوه شهواته تراب زجري، وصرف هواي في التحول ثانيا، فاستعنت  
الله تعالى وعاملت وجهه فيه من غير تلبس بجرأية، ولا تشبث بولاية،  
مقتصر على الكفاية، حامل المركب، هاجر الزخرف، صاده بالحق في  
أسواق الباطل، كافا عن السخال برائن السباع الخ انتهى.

وبقي ابن الخطيب في وزارة أبي عبد الله محمد إلى أن غصت بامر  
حاشية السلطان فديت في حقه عقارب السعاية، وتوهم ابن الخطيب ميل  
سلطانه إلى قبولها فأجمع التحول عن الاندلس إلى المغرب، واستأذن  
مولاه في تفقد الثغور الغربية وسار إليها في لمة من فرسانه ومعه ابنه  
علي، فلما حاذى جبل طارق مال إليه ومنه أجاز إلى سبتة ومنها قصد  
السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني وكان مكينا لديه  
لسابق عهد فأنزله خير نزل، وبعث كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى  
الاندلس في طلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات. فلما خلا الجو  
لأعدائه أخذوا تتبع سقطاته وإغراء سلطانه محمد به، ورموه بالزندقة  
ونسبوا إليه في ذلك كلما. رفعت إلى قاضي غرناطة أبي الحسن بن الحسن  
فسجلها عليه وبعثه ابن الأحمر إلى سلطان المغرب يطلب الانتقام منه  
بتلك الكلمات. فأبى ذلك عبد العزيز أنفة لدمته أن تخفر ونزله أن يهان  
وقال: هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم المون بما كان عليه.

ولبت في جوار عبد العزيز إلى أن توفي سنة ٧٧٤ ورحع بنو مرين  
من تلمسان إلى فاس فصحب لسان الدين الوزير أبا بكر بن غازي القائم بالدولة  
بومئذ فأرسل ابن الأحمر يطلا. من ابن غازي لإسلام ابن الخطيب فأبى  
واستنكف وكان ابن الأحمر قد أعان أحمد بن سالم المريني على ساطنة المغرب

وأمدته . وبويع هذا وجرت بينه وبين ابن غازي حروب انتهت بانهزام ابن غازي وخضوعه واستلم ابن الاحمر طعمة على ذلك جبل الفتخ والى ذلك يشير الاير الفاضل الرئيس أبو الوليد بن الاحمر بقوله « حتى خيم مولانا جدنا بظاهر جبل الفتخ وكان إذ ذاك راجعا الى إمالة المغرب فأناخ عليه كل كل الجيش ، وأهمهم ثقل الوطأة ، ولم يبال مولانا جدنا بما أرسلت آباء الليل وأطراف النهار من شآبيب الانقضاء ، ولم يبق بقربناطة من له خلوص ولا من تتراعى به همة إلا وأعمل السير الحثيث ، ولحق بمولانا جدنا لحاق المحب بالحبيب . الخ

وقال ابن خلدون : ان ابن الاحمر يومئذ محادولة بني مرين من وراء البحر وكان من جملة شروط ابن الاحمر على السلطان أبي العباس احمد بن أبي سالم عدا جبل الفتخ تسليم لسان الدين ابن الخطيب لما كان موغرا صدره منه ولا سيما بعد أن بلغه انه كان يقري عبد العزيز بافتتاح الاندلس . فلما استولى السلطان أبو العباس احمد قبض على ابن الخطيب وكان سليمان بن داود شديد العداوة للسان الدين لمنعه ابن الاحمر ايام وزارته من تقليده مشيخة الغزاة بالاندلس . فلما قبض عليه طار الخبر الى سلطان غرناطة فأرسل وزيره بعد ابن الخطيب ابا عبد الله ابن زمرق وهو تلميذ لسان الدين وخريجه فأضمر ابن الخطيب في مجلس الخاصة . و ص عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبة ، فعظم فيها النكير ووزغ وعزر بمشهد الملائم نقل الى محبسه حيث دس عليه سليمان ابن داود من قتله واخرج شلوه من القند فدفن بمقبرة باب المحروق ، ثم أخرج من قبره وأحرق ثم أعيد الى الحفرة . وعزي ذلك الى سليمان ولهذا

سمي لسان الدين بذي القبرين، كما كان يلقب بذي الوزارتين، وكما جاء في كثير من الامور على اثنين .

وكان صدر زمانه في الكتابة والشعر بحيث أن المغرب ليفتخر بمخائي ابن الخطيب وابن خلدون، كما يفخر الشرق بصادي الصابي والصاحب ولا بن الخطيب تآليف حجة أشهرها . كتاب التعريف ، بالحلب الشريف ، والأحاطة بتاريخ غرناطة . في مجلدات ستة ، وإشارة الى آداب الوزارة ، والتاج المحكي ، والكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة ، والاكلیل الزاهر فيما فضل عند نظم الناج من الجواهر ، ورقم الحلل في نظم الدول ، وطرف العصر في دولة بني نصر ، وبستان الدول ، قسمه الى شجرات أشبه بالنظارات في هذه الايام ، فقال مثلا : شجرة السلطان ، وشجرة الوزارة ، وشجرة الكتابة ، وشجرة الجهاد ، وقسم هذه فرعين خيول وأسطول ، كل ذلك على وضع غريب لم يسبق اليه . وكتاب تخليص الذهب ، وجيش التوشيح ، وعائد الصلة ، ونفاضة الجراب ، وانزبدة الممخوضة ، وكناسة الدكان ، بعد انتقال السكان ، والدرر الفاخرة ، وسد التريمة ، وأعمال الاعلام ، فيمن بويح قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام ، وبضمة تآليف في الطب ، وعدة رسائل منها : خلع الرسن ، في أمر القاضي أبي الحسن ، ترجم بها القاضي أبا الحسن بن الحسن عدوّه ، وديوان كبير ، وقد استوفى صاحب النفح في شأنه ما لم يبق في القوس منزعا ،

ولنعد الى ذكر بني الاحمر أصحاب غرناطة فنقول : بعد وفاة أبي عبد الله محمد الخامس الذي كان واسطة عقد هذا البيت تولى الامر ابنه

أبو الحجاج يوسف بن جندب عقد السلم مع ملوك قشتالة وهادن الاسبانيول طمعا في راحة رعيته واعتنى باصلاح شؤون قومه إلا أن ابنه الثاني محمد قام عليه وحدثته نفسه بالامارة وقضى مدته في مدافعة ابنه الى أن توفاه الله في سنة ٧٩٩ وكانت القاعدة أن يخلفه ولده البكر يوسف لكن حيث كان أخوه محمد (١) هو المنتزي على الملك وقد التف حوله جماعة من رجال الدولة، فقد أجلسوه على رسي الامارة وهو السادس باسم محمد من سلاطين غرناطة وفي مدته لم تفتقر المناوشات مع الاسبانيول على حدود المملكة وفي عام ٨١١ أتم أنفاسه وجيء بأخيه البكر يوسف الثالث من اعتقاله فبويع بالملك وهادن العدو ما استطاع الا انه اضطر أخيراً الى ركوب الاسنة ولم ينمقد الصلح الا في نحو سنة ٨١٣

#### اضطهاد اسبانية لمسلمي الاندلس ويهودها

وفي تلك المدة كلها كانت دولتا قشتالة وأراغون تتسابقان في تعذيب المدجنين الذين ذكرنا أنهم المسلمون الخاضعون لحكومة الاسبانيول وملوك الدولتين يتبارون في الانتقام منهم والنكال بهم استزادة لهشوية واستملاء في درجات الآخرة، حسبما كانت عليه حالة ذلك العصر من التحمس الديني والتأخر المدني

(١) أما ما يفهم من قول الامير الفاضل المؤلف اسماعيل بن يوسف ابن محمد الغني بالله بن الاحمر في ترجمة الوزير الكاتب ابي عبدالله بن زمرك خلف ابن الخطيب في وازارة دولتهم فهو ان وفاة يوسف وقعت قبل هذا التاريخ لقوله « الى ان من الله بسراجه واعاده الى الحضرة في اول شهر رمضان المعظم من عام اربعة وتسعين وسبعمائة فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى وقيام اخينا محمد مقامه بالامر »

ففي قشتالة كان هنري أخو بطريرك قذ جعل للمدجنين والاسرائيليين علامة فارقة اسمها ( المشيرة ) وأمر بمنع اختلاطهم وأخذهم وعطائهم مع الاسبانيول وان لا يقبل أحد منهم في خدمة الدولة

وفي أيام جان الاول ملك قشتالة صدرت الاوامر بأن كل مسيحي يربي في بيته مدجنا أو اسرائيليا فله الحق كل الحق أن يؤدبه بالسياط وانه لا يجوز لمدجن ولا يهودي ان يستخدم عنده مسيحيك، وان من خالف ذلك يضرب وتضبط أملاكه، كما انه لا يجوز دخول مسلم ولا يهودي بيت أحد من الاسبانيول الا اذا كان طبيبا و ثبت لزومه ومن خالف ذلك يعرم بدفع ستة آلاف مراويد ( نوع من السكة )

وسنة ٨١١ هجرية جدد جان الثاني أمر سلفه في رفض المدجنين واليهود في خدمة الدولة وضم اليه أن جزاء المخالفة دفع ثلاثة آلاف مراويد، وان كل من يسافر من المسلمين أو اليهود مع أحد الاسبانيول او يؤاكله او يستخدمه في عمل له يجلد مائة، واذا تكرر الفعل يؤخذ منه ألف مراويد ويكون ثلثاها للمخبر، واذا وجد أحد من هؤلاء في ولية اسبانيولي يعرم بدفع ثلاثة آلاف وان عاد صاحباً له من الاسبانيول اثناء مرض يدفع ثلثمائة وان عاملهم بأخذ أو عطاء فيدفع الثلثمائة ويضرب ويعزر

وكانت في بادئ الامر محاكم مخصوصة بالمدجنين فالغيت في التالي وأحيلت دعاويهم الى محاكم الاسبانيول وصدرت الاوامر ايضاً بأن كل يخرج مدجنا من مزارعه ويستخدم لحرثه مدجنا بدلا عنه يعرم بخمسة الاف مراويد وان تكرر فعله فبجائة الف وان تكرر ايضاً فتضع الدولة يدها على جميع عقاراته واذا فر مدجن الى غرناطة ووقع أثناء فراره في يد



الاسبانيول عدّ اسير حرب وضبطت جميع أمواله وصار ملكا لمن يمسه  
وسنة ٨٢٦ اضيف الى هذا الشرط أن من منع من المدجنين ابنه من التنصر

عذب شديدا ومن اسر من مسلمي غرناطة احداً كان له ملكا خالصا  
وسنة ٨٣٠ صدرت الاوامر بعدم اعتبار امضاء الاسبانيول فيما

عليهم للمدجنين واليهود وباعتبار امضاء هؤلاء فيما عليهم للاسبانيول  
وسنة ٨٣٣ صدرت الاوامر ان المسلم او الاسرائيلي المدعى عليه

يدين لاحد الاسبانيول اذا انكره لا يقبل منه اليمين ولكن حيث كان بعض  
المدجنين واليهود يضمنون الاراضي الاميرية ففي هذه الحالة يقبل منهم  
اليمين عند الانكار اعدم إلحاق الضرر بخزينة الدولة

وسنة ٨٨٠ صدقت الملكة ايزابلا جميع عهود جان الصغير وأضافت  
عليها حظر لباس الحرير وحلية الذهب والفضة على المسلمين واليهود (عاملت

المسلمين في ذلك بحكم شريعتهم لكن في الرجال فقط) ووضعت لهم  
علامات فارقة في اللباس من جملتها رقعة زرقاء عرضها أربع أصابع لتمييز

المسلمات والاسرائيليات

وما كفى كل هذا حتى نشرت حكومة قشتالة امراً لجميع عمال  
النواحي بأنه بنغ المذمة وقوع إهمال في انفاذ بعض اشروط بتماها في حق

المدجنين واليهود وانه ان حصل فيما بعد اقل تقاعس من احد في تنفيذها  
بحرفها يعزل من منصبه ويحرم معاشه

واما في مملكة اراغون فكان بطاره الثالث قد اعلن في نحو سنة ٦٨٠  
هجرية أن كل شخص مسيحيا كان او مسلما او اسرائيليا يمكنه استيطان

مملكته والاقامة بها حيث شاء لكن ينفي المسلمون واليهود من الخدمة

المسكرية والمالية في الحكومة ويحظر عليهم ان يدنوا الاسبانيول مالا  
بأكثر من فائدة عشرين في المائة ون دعاويهم تنظر عند الحكام ويقبل  
فيها اليمين على انه ان كان لمسلم أو يهودي دين عند احد الاسبانيول بدون  
سند أو بيعة خطية فيقبل قوله من تاريخ الدين الى خمسة عشر يوماً ومن  
ثم لا يعود مقبولاً والسند الذي للمسلم والاسرائيلي على الاسبانيولي ان  
لم يسجل عند حكام الاسبانيول فيمدن فيست سنوات يسقط اعتباره  
ويلغى كل حكم له

وسنة ٧٧٠ أصدر الدون جان امراً بأن من تنصر من ابناء المدجنين  
ومات أبوه فله نصيبه من الارث كما وبقي مسلماً

وسنة ٧٨٠ صدرت الاوامر بان كل مدجن يفر الى ارض غرناطة ويقع  
في اليد يعتبر اسير حرب وتضبط املاكه وتقسم الى ثلاثة اقسام الاول  
للملك والثاني لمن يكون قد قبض عليه والثالث مناصفة بين صاحب  
الارض التي ابق منها وصاحب الارض التي تهباً فوعه فيها  
ثم منع المدجنون من الجهر بالشهادتين واستعمال النكير لما فيه من  
تحريك الجامعة وجوزي من يجاهر بشيء من ذلك بالقتل

وسنة ٨٩٠ أصدر الملك فرديناند صاحب اراغون امراً بمنع المدجنين  
من الخروج من مملكته وانه اذا استصحب أحد الاسبانيول احداً منهم في  
خدمته لضرورة قضت فيؤذن بشرط ان لا يكون مع المدجن ولد دون  
الاربع عشرة من عمره ذلك خوفاً من الفرار الى بلاد الاسلام — الى  
غير ذلك من آيات العدل (١) التي تواترت في كتب الافرنج فلخصنا  
منها ما قرأت ولا عجب فلولا هذه الغرائب ولولا الامعان في الظلم الى

هذه الدرجة لما تأخرت اسبانية الى الحد الذي وصلت اليه بعد ان كان لها من مرتزها في أوروبا وافتتاح اميركا على يدها وانبساط أيديها في مستعمرات الخافقين ما يضمن لها المقام الاول بين الدول

\*\*\*

﴿ عودته الى ابن الاحمر ﴾

ومن اخبار يوسف الثالث انه لما كان في محبسه من سلوبانية واشتدت علة أخيه محمد السادس وقطم حبال الرجاء من هذه الحياة طمع في تحويل الملك الى ابنه فكتب الى قائد القلعة التي كان أخوه معتقلا فيها بأمره بضرب عنقه عند وصول كتابه لكيلا ينازع ابنه في الملك واتفق عند وصول الكتاب ان يوسف كان يلعب بالشطرنج مع القائد فلما دفع الرسول اليه مرسوم السلطان استأذن الامير يوسف في قراءته وما علم ان امتقع لونه فاستشف يوسف الامرو سأل القائد هل فيه أمر بضرب عنقي؟ فتحير في الجواب فأخذ يوسف الكتاب وقرأه بدون أن يعلو وجهه اقل تغير ولما أتى على آخره تبسم قائلاً للقائد : لنكمل لعبنا ، فلم يدر القائد كيف يلعب بعد ما شاهد من ربط جأش الامير وسكينته ، ويقال انهما كانا لم يزالا في اللعب حينما اقبل فارس ينعي محمدا السادس ويبشره بانتظار الناس حضوره لتبوء تخت الملك وكانت أيام يوسف هذا موسومة بالخير لاهل غرناطة وكان ممّا بلا من حلوا الدنيا ومرها ، وحلب من شطري عرفها ونكرها ، قد أصبح على جانب من الحنار في قومه والرافة برعيته فساس أورهم سياسة الاب الشفيق الى ان وافاه اجله خمس عشرة سنة من ملكه

فقام بالامر بعده ابنه محمد اليساري أو الايسر فأكد عهد المصافاة مع من جاوره من الملوك لكنه لم يحسن الاضطلاع بالاعباء فنار عليه اهل غرناطة وبايعوا محمد الصغير من ابناء عمه وانسل محمد الايسر أو الاعسر خفية من غرناطة في هيمة ذلك فلحق بساحل البحر ومنه تزيياً بتياب بحري وأجاز في فلك صغير الى تونس نزىلا عند محمد الناصر ملكها مستغيثا به فأكرم نزله ووعدته خيراً

وأما محمد الصغير فأخذ ينتقم ممن شايعوا ابن عمه وقد ورد في تواريخ الافرنج انه حاول لاجل ذلك نكبة يوسف بن سراج من رؤساء غرناطة ففر ابن سراج بأربعين فارساً من أهله وصحبه الى ملك قشتالة وداخله في أمر إعادة محمد الاعسر فكتب صاحب قشتالة الى صاحب تونس يسأله لارسال نزيله الاعسر وهو يظاهره على أمره فانقذه بألف وخمسمائة من رجاله ولما وطى أرض الاندلس انحاز اليه الاكثرون وأخرج محمد الصغير عسكرياً للقائه فانضم أكثرهم اليه ودخل غرناطة فاعتصم محمد الصغير بالجرء وبقي محصوراً الى ان أسلمته حاميته بعد ان نال منهم جهد الحصار فقتل وكانت مدة امارته سنتين وبضعة أشهر واستقر الاعسر في ملكه وعضده في ذلك ملك قشتالة املا بوهن عزيمته وسوء تدبيره لكنه رمى بآماله ابعدما يمكن للاعسر قبوله وطمح الى ادخال سلطنة غرناطة تحت جناح حمايته فنشأ عن ذلك خلاف انتهى بالحرب وماجت الثغور بالبعوث وفي أثناء ذلك فر يوسف بن الاحمر الذي يقال انه حفيد أبي سعيد المنتزي على الغني بالله الى صاحب قشتالة ووعدته ان اعانه على ملك غرناطة بقبول الطاعة له واداء الجزية فسرح معه جيشاً وانضم اليه أحزاب يوسف

فأجلسوه مكان الاعسر وفر هذا واستقر بمالقة لكن لم يمض على ذلك ستة أشهر حتى توفي يوسف هذا وأعيد محمد الاعسر الى مكانه ثانية وذلك في سنة ٨٣٥

وكانت بين ملوك الاسبانيول لذلك العهد محاربات شغتهم عن غرناطة زمنا الا ان الایسر لم يعرف الاستفادة من هذه الفرصة واختلت أمور الدولة في أيامه فأسف لذلك الخواص ووقع الخلاف بين رؤساء البلد وقواد مصر واتسع الشر وانحاز محمد بن اسماعيل من انبياء السلطان وقيل ابن أخيه بلمة من فرسانه الى ملك قشتالة وانتزى محمد بن عثمان الاحنف من ذوي القرابة أيضا وكان قائداً بالمرية وجاء بجماعة من خاصته فدخل الحمراء وتبوا الملك عنوة وقصر الایسر في قلعة وذلك في أوائل جمادى الاولى سنة ٨٤٩

ولما كان ملك قشتالة ذا هوى مع تزيله محمد بن اسماعيل زحف ابن الاحنف الى بلاده واكتسح البساط وآنخر وغنم وهزم الاسبانيول مرارا الا ان سرية له انهزمت في ١٨ المحرم سنة ٨٥٦ وفي الشهر التالي انهزمت له سرية ثانية يقودها ابن عبد البار وكان هذا منفذ لا عن أبيه حليف محمد الاعسر للاتصال بخدمة الاحنف وله امامه مراقف محمودة فمع هذا قتله جزاء هزيمته وكان مولما بسفك الدم فانتقض عليه الاعيان لكثرة موبقاة وانسل الرؤساء من غرناطة طالبين رجوع الاعسر اكنهم خافوا أن تكون الوسيلة الى قتله فولوا جوهم شطر إمارة محمد بن اسماعيل نزبل صاحب قشتالة وأمدده هذا بجيوشه فانهمزم الاحنف ودخل غرناطة ليجمع فل قومه فوجد الاغلب منتقضين عليه فعندها وقد أيقن بظفر

ابن اسماعيل قصد قبل انقضاء أمره الانتقام من أعيان البلد الذين داخلوا خصمه وشايعوه فاستدعاهم الى الحمراء ووضع فيهم السيف. ويقول (لا فاه) صاحب تاريخ اسبانية وأحد أعضاء جمعية الآثار في مدريد إنه ربما كانت هذه الحادثة سببا لوجود هذه الرواية. المعنى بها حادثة قتل نبي سراج في الحمراء - اذ لا بد لهذه الروايات المتناقضة من عصر الى عصر أن تكون ذات أصل ولو كان ضعيفا ثم فر الاحنف من الحمراء قبل وصول ابن اسماعيل ولحق ببعض الجبال مع بعض خواصه، من شركاء رأيه الفائل وعمله الموبق ودخل خصمه قصور الحمراء سنة ٨٥٩

ولما كان استيلاء ابن اسماعيل قد تم بمظاهرة ملك قشتالة لم يدل جهداً في التنوع بشروط اذلاله وادخاله في طاعته حتى عاد كما هو قائم من قواده. وفي تلك الاثناء وصل الى الاندلس خبر الفتح الاكبر الذي تضاعف من دونه الفتوح، وتفتحت أبواب السماء فأطارت منها الملائكة والروح، ألا وهو استيلاء السلطان محمد الفاتح قدس الله روحه على القسطنطينية العظمى، فاشند بهذه البشرية ازر الاسلام في مشارق الارض ومغاربها ونال سكان الاطراف منها أضعاف ما نال سكان الاوساط ومنهم أهل الاندلس المنقطعين وراء البحر، ووجودهم من العدو بين الناب والظفر، فقد استبشرت بذلك نفوسهم، تجددت عزائمهم، وافق هذا الفتح العظيم بالشرق وفاة الطاغية جان الثاني عندهم، ولما ظم بعده ابنه هنريث تزع محمد ابن اسماعيل الى طلب الاستقلال فتجدد القتال وشدت الغارات، زحف صاحب قشتالة بجيوش جرارة فطلب المسلمون الصالح فأجابهم اليه على شرط جزية يؤدونها واطلاق مائة أسير اسبانيولي وانعقدت المهادة

وفي خلال هذه الهدنة عادت الملائق التجارية بين غرناطة وجيرتها الى ما كانت عليه وكانت هذه البلدة ملجأ لكثير من فرسان الاسبانبول الذين قضت عليهم الفتن الداخلية بالفرار من أوطانهم حتى يروي أن من هؤلاء رئيساً يقال له دياغو دخل في ذمة ملك غرناطة وخدمه وعظمت ثقة هذا فيه حتى رمى أهل مالقة به في عسكر عند ما انتقضوا مرة عليه على أنه قيل إن من جملة غرائب تلك الهدنة أن تضم الحرب أوزارها عن جميع البلاد إلا ثغر جيان بين الفريقين فإنه يبقى ميداناً للغارات، ولم تنشب المواجهة ان بطلت من الجهتين وأغار مولاي أبو الحسن على بكر أولاد السلطان بحسب أقوال مؤرخي الافرنجة على أطراف شاطبة فانتقم الاسبانبول بالاستيلاء على جبل الفتح، وأعجب الدون هنريك جداً بهذا الفتح، حتى أضاف إلى القاب منكه القلب ملك جبل طارق، وجمع جيوشه ونهد الى ناحية غرناطة فاستكفي المسلمون شره بالهدايا وضروب التحف ورجع عنهم بعقد الصلح، واستمرت دعة البلاد الى أن ودع محمد بن اسماعيل هذه الدنيا القافية في ١٠ شعبان سنة ٨٦٩ وذلك في مدينة المرية وخلفه مولاي علي أبو الحسن كما سيأتي

## الفصل الرابع

في دول اسبانية المعاصرة لدولة بني الاحمر

قد تكلمنا عن غرناطة لكونها آخر مدن الاسلام بالاندلس وعن دولة بني نصر فيها لكونها ذمء المسلمين وآخر أنفاس حياتهم بتلك الديار وبتكلم الآن مجملا عن تاريخ الدول الاسبانية المعاصرة لدولة بني الاحمر لما بين التاريخين من المداخلات والمناسبات بحيث يستعين القارىء بفهم هذا على فهم ذلك وتكون الفائدة أعم وأوفى

فاسبانية كانت لعهد القرن الثالث عشر للمسيح منقسمة الى خمس ممالك نافار وأراغون وقشتالة وغرناطة والبرتغال أما في الشمال فمملكة نافار الصغيرة على منحدري جبال البيرانه وكان ملوكها من آل أيزر فلما انقرضت سلالتهم عام ١٢٣٤م ورثهم بسبب زواج بيت كونت شمبانيه وذلك أن اخت الدون شانجه آخر ملوكهم كانت مزوجة بالكونت تيبوات دوشمبانيه فلما توفى الدون بلا عقب كان الحق في ارثه لابن اخته من كونت شمبانيه

إلا أنه لما كان ابن اخته هذا قد لج في طلب الملك قبل وفاة خاله وأثار عليه لاجل تنزيله مما احفظه واحقده عهد بملكه بعد الوفاة لصاحب أراغون فلما توفى كاد يقيم الخلاف بين جقوم وبين تيبولت لكن أهل نافار طلبوا من جقوم النزول لتيبولت عن الملك حبا بالسلام فأل الامر اليه وبعد أن استوى على كرسي الامارة بمدة انتظم في سلك الصليبية



وانزعج الى المشرق يحارب مسلمي الشام والمسلمون منه بالانديلس بالكان  
الادنى ويقال انه كان محبا للعلوم والفنون وانه كان يقول الشعر ويلحنه  
على القيثارة ويعرض اشعاره في قصره مستهدفا لا انتقادها وقد تزوج ثلاث  
مرات الاولى بابنة كونت لوران فلم يولد له منها أحد والثانية بابنة كونت  
فلاندره فولد له منها ابنته بلانش واثلاثة بابنة كونت فواكس فولد له  
منها ولدان تيبولت وهنري وابنة اسمها ليو نوره ومات في ٨ تموز سنة  
١٢٥٣ م تاركاً اربعة اولاد تدبوات الثاني وهو الذي تزوج بايزابلا ابنة  
مارلويس أو لويس التاسع وكان من جملة هدايا الزفاف التي أهداه اياها  
الملك المذكور شوكة يقال انها من كليل الشوك الذي كان به السيد  
المسيح وقد صحب حماه الى الاراضي المقدسة حتى اذا مات مارلويس في  
غزاة تونس في ٢٥ اغسطس سنة ١٢٧٠ انقلب تيبولت الى صقلية وبها  
توفي في ٥ كانون الاول من السنة المذكورة . واذ لم يكن له ولد قام  
بالامر بعده أخوه هنري وتزوج هنري بلانش ابنة روبرت كونت  
ارتوا وتوفي في ٢٧ اغسطس سنة ١١٧٤ عن بنت واحدة اسمها السونة  
جويانه . هي التي ورثت ملك نافار وحيث كانت عند وفاة والدها في  
الثالثة من عمرها تولت المملكة والدتها بالكفالة الى أن ترشد الصغيرة  
وفي تلك الاثناء أخذ الملوك من الجوار يتسابقون في مرضاة كافلة الملك  
طامحا كل منهم الى التزوج بالفتاة أو تزويج أحد اولاده بها وانقسم  
أهالي نافار الى شطرين منهم من يميل الى ملك قشتالي ومنهم الى ملك  
أراغوني ولم تلبث الفتنة أن اتفقت بين الفئتين فعمت البلاد واضطرت  
بلانش أن تلتجئ الى ملك فرنسا فيليب الملقب بالجرميء فانحازت الى

قصره بابنتها وأرسل الملك من خواصه (أوستاش دو بومارشه) والياً على بلاد (نافار) فلم تمض مدة حتى قامت الفئدة القشتالية هناك على العامل الفرنسي فحصروه في القلعة من (ببلونة) حاضرة الملك ووصل الصريح الى الملك فيليب فسرح جيشاً الى ببلونة اقتص من رؤساء الثورة بعد أن أفرج عن العامل . هذا ولما بلغت الملكة (جويانة) النافارية سن البلوغ تزوجت (بفيليب لوبل) ملك فرنسا وولد لجويانة (لويس هوتن) ملك فرنسا وعند وفاة هذا الملك بويعت ابنته ملكة على نافار كما بويع أخوه فيليب الطويل ملكاً على فرنسا وتزوجت ابنته هذه وكان اسمها جويانة أيضاً بفيليب كونت افرو من آل كابت وتناسلوا في ملك نافار وكان منهم شارل الرديء الذي احترق في فراشه من شمعة أوقدت بجانبه واتصل لهيبتها بالفراش وابنه شارل النبيل الذي مات عن ابنة واحدة اتصل الملك منها الى آل اراغون فوقع النزاع عليه بين أب وابنه وذلك نحو السنة ١٤٥١

ثم مملكة أراغون حذاء جبال البيرانية اعتمدت في أوائل أمرها على لصوصية البحر واشتهر بين أمرائها (جقوم) هو الذي استولى على جزائر الباليار: ميورقة ومينورقة ويابسة، وقيل ان السبب في الاستيلاء عليها تعرض اهل ميورقة لمراكب الالبانين ويغهم من قول الخزومي في تاريخ ميورقة ان سبب اخذها من المسلمين ان أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى احتاج الى الخشب فأنفذ طريفة بحرية وقطعة حربية الى يابسة باخذه فلم يذالك والي طرطوشة فجهر اليها من أخذها فترصد محمد لبعض مراكبهم وأخذها فأجمع الروم على قتاله في عشرين ألفاً وجهزوا ستة عشر ألفاً في البحر وكان لدى وصول الروم قد أمر الوالي صاحب

شرطته ان يأتيه باربعة من كبراء المصر فضرب أعناقهم فاجتمعت الرعية الى أبي حفص بن سيري واخبروه بما نزل، عزوه فيمن قتل، وقالوا له هذا امر لا يطاق. وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إهمال، فأمر صاحب شرطته باحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة وأحضرهم واذا بنفارس على هيئة النذير دخل الى الوالي وأخبره بان الروم قد أقبلت وانه عدفوق الاربعين من القلوع وما فرغ من اعلامه حتى ورد آخر وقال إن اسطول العدو قد تظاهر وانه عد سبعين شراعا فصح الامر عند الوالي وأطلقهم واستنفرهم ثم ورد الخبر بان العدو قرب من البلد فانهم عدوا مائة وخمسين قلعا فاخرج الوالي جماعة تمنعهم من النزول. وفي الثامن عشر من شوال وقع المصاف وانهمزم المسلمون وارتحل النصارى الى المدينة وتزلوا منها على الحربية الحزنية من جهة باب الكحل ولما رأى ابن سيري ان العدو قد استولى على البلد خرج الى البادية ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالا شديدا ولما كان يوم الاحد أخذ البلد وقيل فيه أربعة وعشرون ألفا وأخذ الوالي وعذب وعاش خمسة واربعين يوما تحت العذاب ومات وأما ابن سيري فتحصن بالجبال وجمع حوله ستة عشر الفا وما زال يقاتل حتى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ووجد من آل جبلة ابن الايهم الغساني واما الحصون فأخذت في آخر رجب من تلك السنة وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين ببلاد الاسلام انتهى ما ذكره ابن عميرة الخزومي ملخصا

وبعد استيلاء اقوم على ميورقة ثار بمينورقة الجواد العادل العالم

الذي أُلقت باسمه التآييف الشهيرة ابر عثمان سعيد بن حكيم القرشي ثم  
تصالح مع النصارى على ضريبة معلومة وضبط الجزيرة احسن ضبط  
وبقيت مينورقة مدة في يد المغاربة بعد أخذها ميورقة  
وفي مدة جقوم هذا أخذت بلنسية من المسلمين وقد سبق ذكرها  
وبعد ذلك بمدة اجتمع مسلمو مملكة اراغون وثاروا وانحنوا في عدوهم الا  
ان جقوم طردهم أخيراً فأنماز اكثرهم الى مملكة ابن الاحمر وأجاز بعضهم  
الى افريقية وقد اشتهر جقوم هذا بحب الطلاق والزواج واتخاذ الحظايا  
والتهتك في المنكر ، بينما كان مطران جيرونه يوبخه على استهتاره مرة  
استأط منه غضباً وأمر بقطع لسانه واغتصب مرة امرأة احد رعبته  
وكانت وفاته في ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦ وخلفه ابون بطره في مدته انضمت  
مملكة صقلية الى مملكة اراغون وطرده بطره منها شارل دانجو وأخامار لويس  
ملك فرنسا بالرغم من ارادة البابا وبعده استعادتها فانهزموا فأصدر  
البابا حراً على حرم علي بطره وبنيراً قوام البابا مملكته شارل دو فالوا  
ابن فيليب الجريء ملك فرنسا فزحف فيليب بمساكره على مملكة اراغون  
وكان له من يقوم اني بطره نفسه عضداً لإحنة كانت مستحكمة بين  
الاخوين فانهزم جند بطره واستولى انفرنسيس على جيرونه الا ان  
العلة تفشت فيهم من رائحة يثث القتلى فهلك منهم خلق كثير وأصيب  
فيليب الملك نفسه وحمل ومات في الطريق بعد انصراف انفرنسيس  
استعاد بطره جيرونه بحول نظره صعباً ابي أنبيه جقوم الذي ضافر عليه  
الغريب فارس ولده الفونس الى ميورقة باسطارل ليأخذها من يده وتوفي  
بطره وابنه في حصارها لم يقام حتى دخلت في روزته وقام بأمر اراغون بعد ابيه

ومات هذا وخلفه اخوه جقوم . ملك صقلية فترك أمورها لوالده  
وجاء الى اراغون مستلما زمامها وأعاد ميورقة علي عمه جقوم ثم تولى صقلية  
اخوه فريدريك وتزوج بابنة شارل دونابل وولد له منها خمسة ذكور جقوم  
والفونس وجويان وبطره وراون وخطب لابنه البكر جقوم الدونة  
ليو نوره القشتالية وينا كما كانوا ايمقدون له عليها اذ عدل عن الزواج زعماء أن أباه  
أجبره عليه وانه يريد التهرب والتبتل واسقط حقه من وراثته الملك ودخل  
في سلك الرهبان وقضى الناس من ذلك العجب لما كان عليه من الانعاس في  
الذات والاسترسال الى الشهوات فولى العهد أخوه الفونس وصار جويان  
أخوهام طرانا على طليطالة وأخذ كل من الاخوين الباقيين اقطاعا باسمه  
تمت جقوم الثاني في برشلونة في ٢ نوفمبر سنة ١٣٢٧ وخلفه ولي  
عده الفونس الرابع وتزوج هذا ماريين، ولد له من احداى امرأته الدون بطره  
ولي عده فلما مات الفونس سنة ١٣٣٦ وقع النزاع بين بطره وبين خالته اخت  
ملك قشتالة وادعت أنه يريد انتزاع أملاك اخوته أو لادها فكاذا الخلاف  
يتسع بين قشتالة وأراغون لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدسة ضد  
السلطان أبي الحسن ابن مرين صاحب المغرب وبعد وقعة طريف وانتفاض  
بطره من عوارض تلك الحرب أخذ يحاول انتزاع ميورقة من يد صهره  
جقوم قيل ان السبب في ذلك أن الدون بطره كان متوجها الى افينيون  
لزيارة البابا ومعه الدون جقوم راكبا بجانبه فلما صارا على مقربة من البلدة  
وقد حفت بهما حاشيتهم رأى سائس حصان الدون جقوم أن سائس  
حصان الدون بطره يحث مسير حصان مولاه فاطمه ليتشد ويمكنه اللحاق  
به فأبصر ذلك الملك واغتاظ من ابن عمه لسكوته واغضائه على حركة

سائسه فوقرت في صدره وانهز الفرصة لتجريده من مملكته ميورقة  
وذلك انه وقم خلف بين صاحب جزر الباليار وبين ملك فرنسا من أجل  
مونيبلية وزحفت عساكر فرنسا لاخذها فبعث جقوم الى ابن عمه بالصريح  
فلم يجبه ثم نقم عليه امورا منها انه يحاول الاستقلال وانه ضرب السكة  
باسمه وأعلن خلعه من ولاية الجزر فاستغاث هذا بالبابا فارسله البابا الى  
برشلونة نزيلا عند بطره ومستميحا عفوه فعند ما حصل عنده ضبط عليه  
امراته التي هي اخته وسرحه فلحق جقوم بميورقة وقد نادى بحرب بطره  
والا تفصال عنه فاسترجع بطره اسطوله من الجزيرة حيث كان في رباط  
المسلمين ونزل به على ميورقة ففر جقوم الى فرنسا وبقي في نزاع مع ابن  
عمه حتى باع أخيراً بعض أملاكه من ملك فرنسا وجوز بشمنها ثلاثة  
آلاف ماش وثمانمائة فارس وركب بها البحر طامعاً في الاستيلاء على جزيرته  
ميورقة تقابله واليها بجيوش أوفر مراراً من قوته وغلبه فهلك في القتال  
ولم تنته مسألة بطره مع جقوم ابن عمه حتى ثارت مسألة اخرى مع أخيه  
جقوم بسبب انتقال الملك لان بطره كان يريد العهد لابنته لانه لم يولد  
له ذكور ولان أخاه كان يطالب بهذا الحق فانشقت المملكة بهذا السبب  
الى قسمين وانتشبت الحرب بينهما وقام جمهور من الرؤساء على الملك  
وفي اثنائها توفي أخوه فاتهم بكونه سمه فازدادت الثورة وزحف الملك  
الى الرعية النائرة فجرت عدة مواقع وسالت الدماء الجزيرة وغدر بطره  
بالرؤساء الذين استسلموا اليه وارهق مدن مملكته حصراً وعسراً الى أن  
تمت له الغلبة ثم بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده رغم ارادة  
بطره ملك قشتالة انتشبت الحرب بينهما وانضم الى أراغون جميع الامراء

والرؤساء الذين كان بطره القشتالي قد آسفهم وما وضعت تلك الحرب  
أوزارها حتى اصطلت الثانية ثم الثالثة

وهلك بطره الاراغوني سنة ١٣٨٧ وملك نيفا وخمسين سنة وكان  
سفاكا للدماء غدر بأهله واخوته وأهرق سيولا من الدم حتى لقب بالخنجري  
وتزوج باربع نساء الاولى ابنة ملك نافار دونه ماريه ماتت سنة ١٣٤٦  
والثانية دونه ليونيورة ابنة ملك البرتغال وماتت هذه سنة ١٣٤٨  
بالطاعون الذي عم جنوبي اوربا وهو الذي يشير اليه ابن خلدون ويسمونه  
بالطاعون الجارف خرب كثيرا من ديار الشرق والغرب ثم اقترن الدون  
بطره بليونوره اخت ملك صقلية وماتت سنة ١٣٧٤ وقد ولدت منه  
ثلاثة ذكور وابنة واحدة فاقترب بامرأته الرابعة سيدبلا فورسيا أرملة  
شهيرة بالجمال وكان أو انثى قد بلغ الحادية والستين فملك قلبه واعطاها  
قياده واقطعها من املاك التاج الملكي فاعترض ولي عهده جويان من  
امرأته الثالثة ووقع النزاع وانتهى بتحكيم أحد القضاة

وفي أواخر مدة هذا الملك وقع النزاع الشهير بين البابا اوربان  
السادس والبابا كليمان السابع وأخذ كل منهما يحرم الآخر او انقسمت  
ممالك اوربا في شأنهما الى شطرين فان فرنسا وقشتالة ونافار ونابولي  
قامت بدعوة كليمان وانكلترة والبرتغال وأراغون قامت بدعوة اوربان  
إلا أن أراغون مالت فيما بعد الى كليمان

وبعد وفاة بطره قام ابنه جويان الاول وفي الحال تقبض على امرأة  
أبيه سيدبيليا وعلى أخيها وأعوانها وابتزها الاملاك التي كان أبوه وهبها  
اياها وسلمها الى امرأته دونه فيولا التي راعته بتزويج ابن أخيه دون مارتين

بابنة عمه فريديريك ملك صقلية التي كان آل اليه ارث تلك الامارة بعد وفاة والدها وكان جويان مولعا بالشعر والموسيقى والصيد مهمل الجد من الامور حتى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء ومجتمع مغنين لا يسمع فيه الا ايقاع أو انشاد فقام اعيان البلاد وطلبوا منه اقصاء حظيته دونة ككاروزه لانهم اياها بترغيبه فيما هو فيه من العبت فانقاد الى ارادتهم خوف الانتقاض

وتوفى في الصيد بكبوة جواد تردى به في غابة وهو يطلب ذئبا خلفه أخوه الدون مرتين اد لم يعش له غلام من صلبه فنازعه في الملك آل فواكس فغلبهم عليه واستوثق له الامر وتزوج هذا بالدونة ماريه كما تقدم فوالد له منها أربعة أولاد توفى منهم ثلاثة دون البلوغ وبقي الواحد وهو الدون مارتين متوج صقلية فمات هذا في غزاة بسردانية عام ١٤٠٩ ولم يعش له ولد على كونه تزوج مرتين بل كان له أولاد من حظاياهم فعند وفاته انقرضت ذرية الذكور من صلب البيت المالك وتنازع حقوق الوراثة خمسة امراء: الدون فادويك ولد مارتين من احدى حظاياهم وكونت اورجل ابن عم مارتين في الدرجة الخامسة أيضا ودوق كالا بره ابن الدونة فيولانتته بنت جويان الاول ثم فرديناند القشتالي المنقب عندهم بالرشيد كان ابن جويان الاول القشتالي والدونة ليونزره اخت الدون مارتين ملك صقلية الذي انقطعت به السلالة وبذلك فهو ابن اخته وكان أقرب المتنازعين الى بلوغ الغاية فرديناند المذكور وكونت اورجل وربما كان لهذا في مملكة أراغون الشيعة الكبرى الا انه لم يحسن طلب حقه وجمع المساكر يعيشون في البلاد مما امال عنه القلوب الى



فانتخبوه ملكا في ٣ ايلول سنة ١٤١٢ و تقبض على كوزنت أورجل و سجنه  
واستتب له الامر الا انه مات في سنة ١٤١٦ و خلفه بكر اولاده الفونس  
الخامس الذي افتتح نابولي ثم مات هذا (١٤٥٨) عن غير ولد فانتقل  
الملك الى اخيه جويان الذي كان تزوج بابنة شارل النبيل و بواسطتها  
ملك بلاد نافار و ولد لهذا فرديناند الملقب بالكاثوليكي فملك اراغون و نافار  
و تزوج بايزابلا ملكة قشتالة فصارت الممالك الثلاث واحدة عادت  
في حالة من اجتماع الكلمة ووفرة العديد و المادة بحيث قضت على الملك  
الاخير الباقي كان بالاندلس للمسلمين

أما مملكة قشتالة أجل النصرانية في الاندلس فان رافع منارها  
فرديناند الاول الملقب بالكبير الذي انتزع كثيرا من أملاك المسلمين  
وكان معاصرا لابن عباد و قسم ممالكه بين أولاده الثلاثة فاعطى شانه  
البحر مملكة قشتالة و الفونس او اذفنش مملكة ليوق و غارسيا الصغير  
مملكة غاليسيا او جيلقية الا أن الفونس تمكن في الآخر من ضم الجميع  
الى مملكته و صار خلفا لابييه وهو الذي استولى على طليطلة قلب اسبانية  
وجعلها مقر سلطانه و في أيامه ظهر السيد بطل الاسبانيول الذي تنسب  
الى ذريته عروس رواية شاتوبريان التي ذيلنا عليها هذا التاريخ المختصر ولما  
كان التناسب الذي هو شرط الحسن بقضي الافادة عن آل بينفار أجداد  
ادماء بمثل ما أفدنا عن آل سراج أجداد ابن حامد رأينا أن نلمع الى شيء  
من أخبار السيد حسبما ذكر المحققون

فنقول: هو السيد لذريق دياز بن دباغو بن لاين نوناز بن لاين كلفو  
من كبار قضاة قشتالة تزوج السيد بشيامة و ولد دياغو لذريق الذي مات

في حياة والده وابنتين احدهما تزوجت بابن ملك نافار والاخرى  
بابن ملك أراغون

وشيامة هذه هي ابنة الكونت لوزانو دو غورماز من فخور قواد  
الملك فرديناند وسبب اقتران السيد بها أن والدها كان قد صنع دياغو  
والد السيد وهو بالغ من الكبر عتيا فلم يمكنه أخذ ثاره بيده لكن ولده  
لذريق أخذ السيف ودعا غورماز الى البراز فقتله ولما لم يكن في قتل البراز  
جناح جاءت ابنته شيامة تشكو الى الملك فرديناند كون لذريق يأتي كل  
يوم بازه على يده فيطلقه في بيت حمامها فيفتك بالحمام، ويذيق فراخها كؤوس  
الحمام، وقد بعثت نقول له في ذلك فجوابها بالوعيد فالملك الذي يسمح بقهر  
اليتيم ولا يقتص ممن اعتدى عليه لا يلبق أن يسمى ملكا. فتحير فرديناند  
في أمره لان لذريق كان أقوى عضده في واقفه مع المسلمين، والاسبانيول  
يزعمون أن السيد أسر خمسة من ملوك الاسلام وبعد أن قادم بمخزائم  
الاستكانة من عليهم باطلاق سبياهم ودعوه سيدهم فلم يجد فرديناند مخرجا  
من الامر الا بتزويج السيد بشيامة

وأما نسبة السيد الى بيفار فلولا دته في ذلك القصر وهي كالا يخفى  
عادة الافرنج في ألما ب الشرف. ومن شهير أفعال السيد انه لما اصطلت  
الحرب بين قشتالة وأراغون لعهد فرديناند وقع الاتفاق بين هذا الملك  
وبين أخيه على تحكيم السيف وابرار قرنين بالنيابة عنهما من ابطالهما  
واعطاء الحق لمن منهما حقت له الغلبة فكان السيد نائبا عن ملك قشتالة  
وكان مارتين غوماز نائبا عن صاحب أراغون أخيه فعند اللقاء فتك السيد  
بخصمه وبرد الحق لفرديناند دون أخيه وفي هاتيك الايام كان هنري

الثاني امبراطوراً لالمانيا فسمت نفسه الى ادخال اسبانية في طاعته لكونها من ولايات سلطنة المغرب ويقال أن البابا فيكتور الثاني ما لاه على مقصده فلما أبلغ ذلك الامبراطور والبابا الى فرديناند مال الى الخضوع خوفاً منهما لكن السيد عارض في الامر وجمع عسكرياً وزحف به الى طلوزة قاصداً لقاء العدو فلما علم البابا به خاف العواقب وصرف امبراطور المانيا عن دعواه ولما مات فرديناند لم يكن لشانجه ولده ساعد أشد من السيد وهو الذي نصره في وقعة غولبيجاره وكان بجانبه عندما قتل في زامورة وفي مدة الفونس أخيه انصرف السيد الى مرابطة المغاربة ووالى عليهم الهزائم حتى لقب بأكبيادور ومعناه بلغتهم قائد المعسكر الا أن ما حازه من شهرة أثار عليه حسداً لاقران وضغائن الا نظار فانقبض بنفسه عن الحضرة وسكن البادية وبلغه اثناء ذلك أن مسلمي مرقسطة والشعر الا على اجتاحتوا اراضي تشنالة وانحنوا في الاسبانيول فنهد اليهم وساق منهم سبعة آلاف أسير واكتسح بسائط طليطلة وكانت في يد المأمون صاحبها فشكا الى الاذفونش خرق الصلح بدون موجب فاستشار الملك خاصته واجمعوا على نفي السيد وضربوا له أمداً تسعة أيام لاجل الخروج فأطاع ولما سكنه لم يكن يملك من المال ما يكفي لميرة الثلاثمائة فارس التي هي في صحبته فاعمل في الحيلة وارسل صندوقين مفعمين رملا الى بعض اليهود مؤكداً لهما أنهما مملوآن حلياً وأخذ عليهما مبلغاً من الذهب ثم وفي دينه بمقد ذلك بما حازه من الغنائم اثناء غزواته في بلاد الاسلام وبقي مدة بعيداً عن الحضرة الى أن رضي عنه الملك وأعاد له في الغزو وحده فابتني لنفسه قصرأ بقرب أراغوز لم يزل معروفاً باسم (صخرة

السيد) الى الآن وجعلها لنفسه وكرآ ياوي اليه وينطلق منه للغزو . وكان  
أكثر ما يغزو مملكة ابن عباد لكونه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين الى  
الاندلس على أنه لما أراد ابن تاشفين استخلاص ملك اشبيلية من يد  
ابن عباد واستنجد الطاغية أرسل اليه عشرين ألفاً قيل أنه عتد عليهم السيد  
لكن لم ينالوا له وطراً اذ كان في المرابطين سادات بدل السيد ثم زحف  
السيد بمساكره نحو بلنسية وضيق عليها الحصار وكان فيها القاضي أحمد  
ابن جعفر المعافري بحسب رواية بعض مؤرخي الافرنج ومنهم لافاله  
والذي في كتب العرب أن الذي كان فيها هو القاضي أبو أحمد بن حجاف  
واتفقت روايات العرب والافرنج أن لتريق دخولها صلحا وعاهد القاضي  
لكنه لم ينشب أن احرقه بالنار بعد الاستيلاء قيل لكون السيد طلب منه  
ان يده له على ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون فاقسم انها ليست عنده  
فاحرقه وعاش في بلنسية . وفي ذلك يقول : ابن خفاجة الشاعر المشهور:  
عانت بساحتكِ الظبا يا دائر      ومحا محاسنك البلا والنار  
فاذا تردد في جنابك ناظر      طال اعتبار فيك واستعمار  
ارض تقاذفت الخطوب بأهلها      وتمخضت بخرابها الاقدار  
كتبت يد الحدثان في عرصاتها      لا أنت - أنت - ولا الديار ديار  
وورد في نفع الطيب ما نصه بالحرف : وكان استيلاء القنيطور  
( تحريف القمبيدور او الكمبيدور لقب السيد ) سنة ثمان وثمانين وأربعمائة  
وقيل في التي قبلها وبه جزم ابن البار قائلا فتم حصار القنيطور اياها عشرين  
شهراً وذكر انه دخلها صلحا وقال غيره انه دخلها وحرقها وعاش فيها ومن  
أحرق فيها الاديب أبو جعفر بن البناء الشاعر المشهور رحمه الله تعالى وعمنا

عنه فوجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الامير أبا محمد مرزلي ففتحها  
الله على يديه سنة خمس وتسعين واربعمائة وتوالى عليها امراء الملثمين ، انتهى  
وفي حرق قاضي بالنسية قد أتى لافله بجميع أصناف المعاذير تغطية  
لعمل القنبطور واتهم القاضي بالخيانة وأنكر ان يكون السيد فعل ذلك  
بسبب الذخيرة بل لمكيدة لا بد ان يكون اطلم له عليها ورمى مؤرخي  
العرب بتشنيع سيرة السيد تمصبا منهم وكرهية لاسمه لما كان عليه من  
الغيرة على النصرانية

وذهب غير واحد من المؤرخين الاوربيين الى غير ذلك ومنهم  
سنانلي لانبول الانكليزي وزعموا ان مسألة فضائل السيد من وضع  
قصاصي الاسبانياول وهالك بعض ما يقوله المؤرخ المذكور مما يرتبط  
بهذا المقام وهو

« وان من الغلط البين والخطأ المتعين ان يظن ان مقاتلة قشتالة  
وليون كانوا على مايرام تخييله من الشهامة والشرف وآداب الفروسية  
وان يتصور كونهم على شيء من دماثة الاخلاق والتهذيب والصحيح ان  
مسيحي الجهة الشمالية كانوا على نقيض ما كان عليه اقرانهم المغاربة فان  
العرب الاجلاف لاول تزولهم باسبانية قد تهذبوا وتمدنوا بالاندلس فيما  
بعد وباستعدادهم الفطري مالوا الى التأنق والرفاهية والتحقق بالحضارة  
العالية ، وذكفوا على طلب العلم وقرض الشعر وحفظ الادب ، فكانت  
أذواقهم في أسمى مكانات السلامة ، وإحساساتهم في أقصى مظان الرقة كما  
هو شأن من تحقق بالمدنية وذاق حسن المعيشة وغاب عنهم التأمل  
والشعر ، فكانوا يؤدون من الجوائز على منظومة واحدة ما يكفي لميرة كتيباً

كاملة ولم يكن الامير الظالم . منهم والملك الفاسح يأنف من الآداب  
والمعارف ، فالفصاحة والموسيقى وسائر فروع العلم والادب من الامور  
الطبيعية عند هذه الامة ، وأوتوا ملكة الانتقاد والتمييز ولطف الذوق في  
نقد اجزاء الكلام وتفصيل القول مما عرفه في زماننا لامة الفرنسيين  
وأما نصارى الشمال فعلى خلاف ذلك كله فانهم وان كانوا اسلاف امة  
قديمة خالتهم حالة امة حادثة ، اجلاف جفافة اجانب عن العلم منقطمو  
السبب في العرفان ، نعم كان عند بعض امراءهم مسكة من التربية لكنهم  
في هذا الامر مساكين في جانب امراء العرب ، وانما كان المسيحيون هناك  
أنجاد حرب واحلاس نزال محبوبون الهيجاء مثل اقربانهم المسلمين لكنهم  
اقوم منهم عليها وأصبر على تحمل شاقها ، ولم يكن عندهم ما تصور له لنا هذه  
الخيالات الشعرية من اخلاق الفروسية بل انما كانوا ضربا من سيف وانتهى  
الحديث ، وقد حملهم فقرهم على المحاربة بالاجرة ، وتقديم من يزيد لهم على غيره  
في الخدمة ، وقد رأينا كيف ان الوزير المنصور استخدم جمعا منهم في حرب  
ليون وفتح صانيتاغو . وتاريخ شمالي اسبانية ملوؤ بشواهد ذلك من استخدام  
أصراء المسلمين لفرسان النصارى في الجش

ومما يؤيد قول هذا المؤرخ الانكليزي ما ورد في تاريخ المنصور  
ابن ابي عامر من انه في انكفائه عن باب شنت ياقب بتلك الغزوة التي لم  
يلغ . ثابها أحد وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر  
بالكف عنها وصر مجتازاً حتى خرج على حصن بيلية من افتتاحه  
فأجاز هنالك القوامس بمجملتهم على اقدارهم انتهى . يظهر انهم لم يقتصروا  
في الخدمة على ملوك الانا لس بل ربما أجازوا الى المغرب أجنادا عند

ملوكه وابن خلدون يروي انه كان نغمراسن بن زيان صاحب تلمسان قدماً  
استخدم طائفة منهم مستكثر آبهم معتداً بكمائهم مباهياهم في المواقف والمشاهد  
ولنعمد الى كلام ستانلي لانيبول قال : « لكن لم يوجد من هؤلاء من  
بلغ شهرة السيد بطل اسبانية، واسمه لذريق دياز البيفاري ولقب بالسيد  
لكون ذلك هو اللقب الذي كان يدعو به المغاربة وهو مخفف عن سيد  
بالتشديد،، (١) الى أن قال : « وهو محارب شهير كان يتقدم الصفوف مثل  
جلياد أمام جيوش بني اسرائيل ولم يعرف أحد طار له من الشهرة في الغزو  
أكثر من « سيدي القمبدور،، كما كانوا يدعونه كما أنه ليس من السهل  
أن يقرر الانسان الحقيقة ويمحص الواقع مما يحاط به اسم السيد من  
الوقائع لان مؤرخي النصراني يقولون أنه يستحيل الاحاطة بوصفه وان  
الانشيد الاسبانية تنوع السيد بالفضائل والكمالات وتنسى أن تلك  
الفضائل كانت مجهولة أو غير معتبرة عند نفس السيد ومعاصريه وكتاب  
العرب الذين هم غالباً أحسن انصافاً للحقوق تجدهم شددوا الحكم على  
ذلك النصراني الذي أذاق مسلمي بلنسية ما أذقهم من الوبال،، قلت  
وأني تشديد فانك ترى كيف جاء اسم القنبطور مردوفاً باللعنة في فتح  
الطيب وبأي شعر نظم ابن خفاجة نثر عمران تلك البلدة

قال ستانلي لان بول : « ونحن في عصر انتقاد مضطرون الى طرح  
المفرح من أقاصيص مؤرخينا التي تليق بالاحداث والسيد لم يستثن من  
الانتقاد بل أن أحد المستشرقين الراسخين ألف عنه كتاباً مستقلاً قرر

---

(١) بل هو على أصله فالسيد بكسر السين وسكون الياء الذئب والتشبيه

به عند العرب ذم لانه مفترس غادر حقير بخلاف التشبيه بالاسد فانه مدح

فيه أن السيد لم يكن ذلك البطل الذي قدر أنه كان بل رجلا غدارا سفاكا  
نهبا فتاكا ناكث العهد ناقض الزمام . كذلك الاستاذ دوزي ( مؤرخ  
اسبانية الجليل ) ذهب الى أن قصة السيد هذه اختراعية وكتب عن  
السيد الحقيقي نقيض ما ورد في تلك الاقاصيص ، الى أن قال : ووغير  
صحيح أنه كان حامي الدين فإنه قاتل في مصاف المسلمين كما قاتل في مصاف  
النصارى ،، وذكر أنه استولى على بلنسية بسبب التحريك والفرقة باعانة  
ملك سرقسطة ودخلها صلحا . وهذا طبق ما ذكر مؤرخو العرب من أن  
الذي أنهضه هو يوسف بن احمد بن هود صاحب سرقسطة

وأما لافاله فيقول في شأنه : أنه هو بطل الاسبانيول المقدم حبيب الشعب  
الذي يحملونه بجميع فضائل الابطال ، يتغنون بوقائمه في الاشعار والازجال فاذا  
شاء المؤرخ معرفة الحقيقة من الوهم أشكل عليه الامر بما يعرض له من  
الاختلاط فقد يقم أن المؤرخ لاجل الخروج من حيرته ينتهي الى انكار  
وجود المؤرخ عنه أصلا كما أنكر ماسدو وجود السيد قبذور ولم يبلغ  
الشك من غيره درجة انكار وجوده بل أنكروا عليه المأثور من الفضائل  
وتخيروه زعيم أشقياء ورئيس عصابة شر بعد أن جعلته القصص مثلا  
تاما للفضل والشهامة والنبيل .

فأنت تجد أن السيد ككثير من الرجال الذين ولعت بذكرهم العامة  
منهم من جعله سيدا غطريفقا بالتشديد ، ومنهم من جعله سيدا عملسا  
بالتخفيف ، ومات السيد سنة ١٠٩٩ وهي التي فتح الصليبية فيها بيت  
المقدس وبعد موته عادت بلنسية الى الاسلام وبقيت زمانا حتى استولى  
عليها جقوم كما ذكرنا سابقا وحملت جثة السيد محنطة على جواده المشهور



وبيده أحد سيفيه المسمى تيزونة وقدم نعه في الجمع كما كان هو مقدا  
في الحروب ودفن في كنيسة اربنارس دو كردنه وماتت شمانه امرأته  
بعده بسنتين وبقيت رايته وسيوفه في ذلك الدير يحماها ملوك قشتالة في  
حروبهم تيمنا بالنصر ورواية كوريل المسماه بالسيد أشهر من قفانبك  
هذاما آثرنا استيفاءه من خبر السيد قادهاء محبوبة ابن حامد السراجي  
في قصة شاتوبريان الخيالية وذلك بعد تمحيص الاقوال وانتخال الآراء  
ولنعد الى ذكر مملكة قشتالة فنقول : ان الاذفنش أو الفونس  
السادس استفحل أمره الى أن لقب بأبراطور اسبانية لكن المرابطين  
هزموه مرارا وفي المرة الاخيرة انهزمت جيوشه في وقعة اقليش وقتل  
ولده فمات من الغم وترك الملك لابنته أوراك فتزوجت بالفونس الاول  
ملك أراغون ونافار وصادت تتحد الممالك الثلاث الا أن أوراك أرادت  
الاستقلال بملك قشتالة بأسماء معاملة زوجهما ووقع الشقاق بينهما  
فحبسها في قصر فسجلار فأهنت وجمعت عساكرها ووقعت الحرب بين  
اراغون وقشتالة ودخل البابا في الصالح فلم ينته الخلاف الا بفسخ الزواج  
بين الفونس وامرأته بعد أن أهرج خصامهما البلاد ولكن لم يستوثق  
الامر لاوراك في مملكتها بما كانت الامامة نعمت عليها من مجاهرتها  
بالخلاعة ، وتجريرها أذيال المهرة ، وقد اشتهر بين عشاقها الدون غونسانز  
دولاره والدون غوميز دو كاندسبينا وحكي أن لها من هذا الاخير ولدا  
اسمه فرناندو ولقبه هرتادو ويقال أن آل هرتادو الاعيان ينتسبون  
اليه وكانت قد تزوجت في الاول بالكونت ريموند الجليلقي فولد له  
منها الفونس السابع فلما بلغ أشده وشاهد أحوال أمه ثار عليها وشاطرها

الملك وانحازت اليه كثير من البلاد ولما ماتت في سنة ١١٢٦ اسنقل بملك قشتالة واستفحل أمره وأخذ قلعة رباح من المسلمين وهو الذي تناول منهم المرية وبقيت في حوزة الاسبانيول مدة ثم استرجعها المسلمون الى أن انطوت مع ما انطوى من بطاط الاندلس وتلقب هذا الملك أيضا بأبراطور اسبانية الا أن دولة بني عبد المؤمن ظهرت في أيامه فأصابه من الموحدين ما أصاب جده من المرابدين ومات غماً وقسم مملكته بين ولديه الواحد على ليون والثاني على قشتالة فبقيت هذه القسمة ثلاثاً وستين سنة فتولى شانجه البكر قشتالة وفردينانز الثاني ايون وجليقية وخلف شانجه ابنه الفونس الثامن وهو في الرابعة من عمره فكفله الدون دوغاسترو الى أن بلغ سن الرشد وخلف فرديناند ابنه الفونس التاسع وفي تلك المدة حلف الموحدون الى اسبانية وهزموا الفونس الثامن وجيوش الاسبانيول في وقعة الارك الشهيرة التي روى مؤرخو الافرنج أنه هلك فيها ثلاثون ألفاً من المسيحيين أكثرهم من فرسان نظام قلعة رباح ومار يعقوب ومار يليان وبعد النصر جيء بألوف من الاسارى الى يعقوب المنصور فنّ باطلاقهم وترتب على هذه الوقعة استرجاع المسلمين كثيراً من المواقع والمدن ثم انعقدت الموائد لعشر سنين في أثناءها تقاتل الفونس الثامن مع ابن عمه ملك ليون فأجمع رأي الاساقفة على تزويج ملك ليون بابنة ملك قشتالة تأييداً للصالح على ما بينهما من درجة القرابة الحائلة دون ذلك ومع كون ملك ليون تزوج بابنة ملك برتغال ففسخت الكنيسة الزواج لمثل تلك العلة إلا ان الزواج الثاني امضى في سبيله بالرغم من حرم الدين، وجاء عنه الملك فرديناند الممدود في القديسين، ومن

غريب الاتفاق ان البنات الثانية لالفونس الثامن ولدت قديسا ايضا هو مار لويس فيكون الاذفونش المذكور جدا لقديسين من جهة الدم وفي ايام الفونس ايضا حصلت هزيمة العقاب على المسلمين وقتل منهم مائتا الف وفر الناصر محمد امير الموحدين شريداً وقد بالغ بعض مؤرخي العرب في عدد قتلى تلك المعركة فقالوا : انه لم ينبج من الستمائة الف التي جهها الناصر إلا الف فقط ونسبوا ذلك الى سوء تدبير الناصر وقتله الرجال العارفين بقتال الافرنج وجعل بعض محققي الافرنج السبب في هذه الهزيمة البعيدة عن التصديق التفاوت العظيم في السلاح بين الفريقين لان اكثر المسلمين كانوا كأنهم بدون سلاح والجلالة كان معظمهم تمت المغافر والدروع وقيل في كتاب الفونس الى البابا ان عدد المسيحيين الذين جراحاتهم تنذر بالخطر على اثر الواقعة هم مائتان وخمسة وعشرون فقط وقد انقد كثير من المدققين هذا القول ونسبوه الى ضعف ملكة النقد في ذلك العصر ووافق يوم العقاب الرابع عشر من صفر سنة ٦٠٩ وفق ١٦ تموز سنة ١٢١٢ واشترك فيه جميع ملوك الاسبانياول ، لذلك تقاسموا اسلاب المسلمين ووسع كل منهم بسطة امارته في املاكهم

ولما مات ملك ليون قام بالامر بعده ابنه فرديناند القديس ولما كانت امه ابنة ملك قشقاله وكان اخوها الدون اريك قدمات يافعا محصرا اوث التاجين في فرديناند على أنه في حياة أبيه كان قد وقع النزاع بينهما فلم يخل له الجو إلا بعد موته . وفي أيامه أخذت قرطبة من يد الاسلام وانثر سلك الجزيرة من الوسط وتلا أخذ قرطبة ذهاب اشبيلية بعد

حصار سنتين وجلاء ثلثمائة الف من أهلها الى غرناطة وفي أيامه استفحل أمر محمد بن الأحمر وحالفه وأدى له الجزية وعصفت ريمح قشتالة في اسبانية وعلت كلمة الصليب في تلك الارض لذلك جعل فرديناند في صف القديسين وعدّه من أعظم الملوك إلا أنه مع تسميته قديسا روى عنه بعض مؤرخي الافرنجة أنه في سنة ١٢٣٦ بينما كان يحرق أحد الخوارج في الدين أخذ بثورت النار بيده ويضع الخطب لعل ذلك من زيادة الحماسة والله أعلم وخلف فرديناند ابنه الفونس الفلكي الملقب بالصباي وكان فريد وقته في الملوك في طلب العلم وألف في الفلك التأليف وكانت له فيها آراء نازعة الى مذاهب الاعصر التي بدمه فقيل انهم بينما كانوا يتذاكرون امامه في الهيئة على المذهب الذي كان لعهد قان لهم ان كان ما تقولون حقا فيا ليت الله استشارني قبل ترتيب الافلاك فانكروها عليه وعدوها كفرأ وانما كان يريد بها التهمك بأراء العلماء في ذلك العصر على أن مكانه في السياسة لم يكن في درجة مكانته في العلم فان مؤرخي الافرنجة ينسبون اليه الاشتغال بالافلاك عن الاملاك ومعرفة ما في السماء مع جهل ما تحت قدميه

وفي أيامه استصرخ المسلمون يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب من بني مرين فأجاز الى الاندلس ونصر الاسلام نصراً عزيزاً ونحن في بلاد العدو بما أعاد ذكر الايام الاول، وخيل رجوع الاموية والمثمين وتلك الدول، وهذا الملك الفونس هو الذي عقه ولده شأبه وطرده بمساعدة الرؤساء والاعيان فاستغاث بالمسلمين ونصروه وعززوه . عند وفاته كتب وصية حرمه فيها من ولاية عهده وعهد لالفونس حفيده ابن فرديناند بكره المتوفى وذلك لسكونه عقه ونشر دليه وأثار الرؤساء والدون فيليب أخاه

الذي ذهب مع جماعة من الامراء الى غرناطة وأقاموا عند سلطانها لكن وصية الصابي لم تغن عن الملك شيئا فانه ما غمض عينيه حتى قام شانجه بالامر ونازعه أخوه جويان قليلا لكنه اضطر الى الاذعان وفي مدة شانجه أخذت طريف من يد ابن مرين فاعمل في الجهاد وسرّب البعوث لاسترجاعها وأجاز اليه الدون جويان أخو شانجه بحسب رواية بعض مؤرخي الافرنجة وحضر حصار طريف مع المسلمين ومما يحكى في هذا الحصار والمهدة فيه على الراوي أن جويان جاء بأحد أولاد دوغوزمان قائد طريف من قبل شانجه ووقف به على شفير الخندق ونادى القائد قائلا له أن سلم البلد أو لا تظن بالولد، فلم يجاوبه دوغوزمان ببنت شفة بل شهر سيفه ورمى به نحوه فرمى المحاصرون الولد في الحفرة. وهذه من حكايات الاسبانيول التي يطاولون بها الجميع في المفاخرة وعلى بقائها مثلا نادرا في الامانة والوفاء لو صحت فهي دون رواية السموآل الذي لم يسلم الدروع ولم يخفر ذمته ولو بهلاك والده، فان كان عند الاسبانيول شيء من هذه الاخلاق العظيمة فهي من رشح التربية العربية في تلك البلاد كما يقرر ذلك أرباب التحقيق من مؤرخي اوربا انفسهم

ومات شانجه في ٢٥ نيسان سنة ١٢٥٩ تارك الملك لواده فرديناند وهو شاب غض الاهاب فاستلم الزمام والملك جرة تضطرم، بالفتنة من كل ناحية تتقدم وفي أيامه ألغي نظام الفرسان الهيكليين وسببه أن هؤلاء الفرسان كانوا قد بلغوا درجة من القوة والثروة اعيت على سواهم، ووقفت بالاماني من دون مبلغهم فنفسوا عليهم امرهم، وأغروا بهم الملك وزينوا له ماشاؤا من خبرهم، حملا له على الايقاع بهم، وتذرعوا الى ذلك بمقالات لفقوها

عنهم وروهم بالاحاد والتعطيل، والناس في امرهم بين معسوق ومكذب  
فصدرت الاوامر باستئصالهم فأحرق منهم جماعة ومات فرديناند هذا  
لسبع عشرة سنة من ولايته وقيل في كيفية موته إن اميرين من جهة  
مارتوس اتهما ظالما بقتل جويان الونزو دو بونا فيدز وهو منصرف من  
قصر الملك فقبض عليهما و امر بقتلها بدون ان يسمع لهما دفاع فقيل انهما  
لما كانا يساقان الى الموت انظرا الملك ثلاثين يوما لسكي يحضر في محكمة  
الديان تعالى فلم يمض ثلاثون يوما إلا ووجد فرديناند ميتا في فراشه بدون  
سابق علة ولا سبب سوى الاجل

وخلف فرديناند ابنه الفونس الحادي عشر وكان طفلا فقامت بكفالة امه  
ثم عمه دون بطره وجويان الى ان قتلا في مرج غر ناطة لمهدن سماعيل بن الاحمر  
وفي مدته اجاز ابو الحسن المريني ابنه الامام لك برسم الجهاد في الاندلس  
فقتل في احدى الوقعات واستلحم من معه من المسلمين واستنفر ابوه  
السلطان ابو الحسن قبائل المغرب للاحازة وكانت المعركة البحرية بين  
اساطيل المسلمين والنصارى في بحر لزاق فتكسرت اساطيل الاسبانيول  
وقتل امير البحر جو فر تنوريو واستلحم اكثر مقاتلته وذلك في ٣ اغستوس  
سنة ١٣١٠ فالتزم الفونس ان يهادن جميع ملوك اسبانية ويؤكد معهم  
السلم جمعا لكلمة النصرانية وحصن مواقعه وشحنها بالمقاتلة واجاز ابن  
مرين بجيوشه وغنم كثيرا من اسطول الاسبانيول الى ان كانت الوقعة  
المشثومة على المسلمين في حصار طريف وق بالغ الافرنج في تقدير قتلاهم  
ذلك اليوم فقالوا مائتا الف وليس هذا من الغرابة بمكان تقدير قتلى  
الاسبانيول فيه بعشرين رجلا ووقعت قلعة ابن زيد وروطة وغيرها من

المواقع في ايدي الاسبانيول وانتصروا في بعض المواقع البحرية فجمع الفونس حشوده ونازل الجزيرة وسرب اليها ابن مرين المدد ويقال ان العرب اسنعملوا في الدفاع عنها الآلات النارية لأول مرة عرفها الاوربيون وقد مضى بعض وصف هذا الحصار الطويل في الشق المتعلق باخبار المغاربة من هذا الذيل وأفاضت كتب الافرنج في ذكر المعارك التي وقعت على أسوار الجزيرة والدفاع والهجوم مما استمر نحو عامين حتى بنى الفونس لجيشه معسكراً ثابتاً جعل فيه الاسواق والدكاكين وقفل كثير من الملوك والامراء الذين معه الى بلادهم مثل كونت بيارن وقسطيلبون وكونت دربي وساليسبري من أمراء الانكليز ومات ملك نافار وآل الامر الى الصلح عن يد ابن الاحمر بتسليم الجزيرة وخرجهج أهلها بالامان وتسلمها الافرنج في ٢٧ آذار سنة ١٣٤٤ وانعقدت الهدنة لمدة عشر سنين غير انه لما رأى الفونس اشتغال أبي الحسن بن مرين ببعض الفتن في المغرب اهتبل هذه الفرقة ونازل جبل الفتح لكنه مات في هذا الحصار لسته وعشرين من آذار سنة ١٣٥٠ وفق ١٦ المحرم سنة ٧٥١

وقام بالامر بعده الدون بطرد الملقب بالعامي ومن غريب الاتفاق ان اسبانية كان يلبها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أربعة ملوك جائرين اسكل منهم سيرة فريدت في بابها فكان الدون بطرد الملقب بالخنجرى في أراغوز وشارل الملقب بالرديء في نافار والدون بطره الملقب بالقاسط في البرتغال والدين بطر وهذا المعروف بالعامي أو الجاسي بقشتالة وكان عند ارتقائه كرسي الملك لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره فمهد بتهذيبه الى دون جويان الونزو دو البو كرك الذي يقال ان كان تزلفا الى مرضاته

يزين له شهواته ويسوغ له أفعاله وكانت فاتحة أعماله قتله الدونة لبونورة  
دوغوزمان امرأة ابيه ثم قتل غارسيلازو من أمراء بورغوس لتهمته اياه  
بالانحياز الى بني لاره اعدائه وأمر بطرح جثته في الاسواق وعقب ذلك ضربه  
ملا معلوما على أهل بورغوس فعارض في دفعه بعض أعيانها فشنق منهم  
ثلاثة ثم غضب على الدون الونزو فرناندز كورونل لسكونه زوج ابنته  
جويان دو لاسردامن اعداء الملك ولما نسب اليه أثناء مرض الفونس من  
القيام بدعوة جويان نونزدولاره فزحف اليه في مدنه اغيلارو بورغيليو  
وموتلفان وعات فيم او تقبض على الدون الونزو وقتله ثم اتخذ الملك الدونة  
ماريه دوباديليه حظية له وكان ذلك بتشويق كافله البوكرك الذي كان  
يرجو أن تكون عضداً له ويستولي بها على قلب الملك نخاب ظنه وناصبته  
العداوة فأراد ان يجعل لها ضرة وصار يسمى في تزويج الملك نخطب له  
بلانشة ابنة دوق دو بوربون من فرنسا وزفت اليه وكانت بارعة الجمال  
متوقدة الدهن في السادسة عشرة من السن فبعد يومين من دخوله بها  
تركها ورجع الى حظيته نخاف البوكرك ان يبطش به وفر الى البرتغال  
واجتهدت والدة الملك ان تحول ميله فلم تفلح في سعيها وأمر أخيراً باعتقال  
امراته بلانشة في قصر اريفالو بدون ان يأذن لاحد أن يراها ثم اقترن  
بالدونة جويانة دو كاسترو وكانت على جانب من الحسن والذكاء واستفتى  
في فسح نكاحه الاول الاساقفة وأفتوه على الرغم منهم لكنه لم تطل مدته  
أيضاً مع هذه المروس الجديدة وهجرها فارتحلت الى دويناس وولدت ابنها  
جويان ، انضم أهلها بنو كاسترو الى الفئة الناقية وعمت حركة الاتقاض  
مملكة قشتالة وثار تليلطة وفي أثناء ذلك أغري الملك طيبياً ايطاليا



فسمّ البوكرك مهبه فازدادت الحركة وتقوت العصبية وحاول القبض على امرأته الاولى بالانشة فنصرها الشعب وانضمت والدته الى الثوار فقبضوا عليه أخيراً وحجروه وأبدوا عن داره من كانوا اماليه على مقاصده لكن لم تطل المدة ان تقسم رؤساء الثورة وفي الملك من معتقله واستنفر أشياعه وقاتل بهم أعداءه وظفر بهم واستمال جماعة منهم وأمر بضرب أعناق رؤساء طليطلة ف قيل انه كان منهم رجل صالح قد ذرّف على الأمانين وكان له ولد في سن الثمانية عشرة جاشت به الحمية على أبيه فالتمس ان يقتل مكان أبيه فلم تأخذ الملك رافة بشبابه ولا بشيخوخة أبيه فقبل البدل وقتل الولد محل الوالد

وبعد ان استراح بطره من ثوار الداخل وشردهم الى فرنسا وغيرها نشب في حرب مع أراغون سببها ان فرنسيس بيرلوس قائد البحر عند بطره ملك أراغون كان ذاهباً ببعض اسطوله يساعد فرنسا على انكثرة في حرب ببحر المانش ولما وصل الى ثغر سان لو كاردو براميدافي قم الوادي الكبير صادف مراكب جنوية فضبطها لوقوع الحرب يومئذ بين أراغون وجنوى بسبب سردانية فسأله بطره الجاني الافراج عن تلك المراكب وكان هناك يتهمه فأبى فامتعض منه وأرسل الى رسيغه في الرتبة والخصال بطره الملقب بالخنجرى يسأله تسليم فرنسيس المذكور فأجاب ان فرنسيس لم يزل غائباً وعند رجوعه تجري محاكمته بما يرضي ملك قشتالة لكن لا يمكن تسليمه فشهّر بطره الحرب على جاره وسميه وانضم الى ملك أراغون جميع الناقين من اخوة ملك قشتالة وأعين مملكته وخف الدون انريك من فرنسا الى أراغون وكما كان في جانب بطره الاراغوني كثير

من أمراء قشتالة كان في جانب بطره القشتالي كثير من أمراء أراغون مثل الدون جويان والدون فرناند ولكن شراسة أخلاق مولاهم وسوء عشرته آلى بكثير منهم الى الانحياز عنه فابتدأ بذلك الدون فرناندو وفارقه وقيل ان منهم الدون الفار بيريز دو غوزمان كانت له امرأة حسناء اسمها الدونة الدونزة أعجبت الملك فحدثه نفسه باغتصابها من زوجها ففر الى أراغون وانحاز ابن عمه الدون جويان دولا سردا الى الاندلس فجمع عسكرياً من مقاطعته واجتاح البلاد لكنه لم يساعده القدر إذ وقع أسيراً في أيدي جنود الملك وسيق الى اشبيلية فأرسل بطره في الحال من بطانته لتدريق دو كاسترو لقتله وبلغ امرأته الدونة ماريه ما حل بزوجها فجاءت الى الملك تبكي وتلطم خدها وضربت اليه جاثية على رجلها أن يعفو عن بعلها فأعطاها أمراً بالعفو على يقينه بأن الامر قد قضي فلما وصات الى اشبيلية وجدت أن قد سبق السيف العذل

ثم وفدت عليه الدونة الدونزه كورونل بعد انعقاد الهدنة بينه وبين أراغون واستماحت منه العفو عن لدون الفار بيريز دو غوزمان وكان الملك قد حاول سابقا اغتصابها فامتنعت منه فسبحان مقلب القلوب إذ مالت اليه هذه المرة وحظيت عنده فأسكنها في برج الذهب على ضفة الوادي الكبير وتمتعت زمنا بالامر الى أن ملها وعاد الى حظيته الاولى ماريه دو باديليه كأنه لا حب الا للحييب الاول ثم لسبب ضعيف أولغير سبب قتل بطره أخاه الدون فادريك رئيس نظام مار اعقوب ارتكبها فيه شنعاء إذ أجرى ذلك محضوره واسترحم فيه الحرس مرراً حتى تناولوه ضرباً بالدبابيس فأنوه لوقته وذهب الملك يسأل عن رفاق أخيه

في القصر فلم يعثر إلا على رجل يقال له سانشو فقتله بيده وهو ماسك بأذيال ابنة الملك طلبا للنجاة . عاد فتناول الغداء في القاعة التي كانت مطروحة فيها جثة أخيه وبعد أن فتك بفادريك دعا أخاه الثاني جويان ووعدته بولاية بيسكاي ، استصحبه إليها لقتل متوليها أخيه الدون تلو وقطاعه أياها وفر تلو إلى فرنسا واستنجز الدون جويان وعد أخيه فبعث إليه بالحضور فقدم ومعه ثلاثة بقوا خارجا ودخل جويان ليس معه سوى خنجر صغير فجاء بعض حاشية الملك والهوى وعلى غفلة منه سلبوا الخنجر وما حصل في قبضتهم حتى صرعوه وانثأوا عليه بالدبابيس على أم رأسه فمات لحينه وقذف به الملك من غرفته إلى الساحة وبعد ذلك تقبض على خالته الملكة ليونوره وايزابلا دو لاره امرأة الدون جويان ولما طالت الحرب بينه وبين أراغون وأبي ملك أراغون قبول مطالب بطره نسب هذا رفضه إلى دسائس الدون انريك دو تراستامار والدون تلو والدون فرناند ماركيز طرطوشة فانتقم منهم بقتل أمهم خالته ثم اعتقل امرأة الدون تلو الباقية كانت في البلاد ثم قتلها ثم قتل أخويه الصغيرين الدون جويان الذي كان في التاسعة عشرة من العمر والدون بطره الذي كان في الرابعة عشرة بدون ذنب اقترفاء وكانت الحرب لا تزال قائمة على ساق بين أراغون وقشتالة فحضر لدى الملك مرة كاهن من سان دومينيك دو لاشوسه وطلب أن يقابل الملك فمكثوه من ذلك فقال له مولاي . رأيت في النوم مار دومينيك الكبير فأمرني أراجيء اليك وأنذرك لكي تأخذ حذرك لأنك ستموت مقتولا بيد الكونت أنريك أخيك فراجع الملك ان كان بمثه أحد ليقول له هذا القول فأصر

على أن هذه هي رسالة سان دومينيك فاستعاد حديثه بملء من  
الناس فأعادها فأمر بحرقه حيا ولم يبالي بمسأله ثم قتل أمين صندوقه صموئيل  
لاوي اليهودي الذي كان ملا خزائنه ذهبيا واستصفي جميع أمواله ثم بعد  
عقد الصلح مع أراغون قتل امرأته الملكة بلانش التي كانت قد قضت  
معظم حياتها بأسبانية رهن الاعتقال وكانت كاسمها نقيه البياض بديعة  
الحسن جذابة الملامح فسقيت كأس حتفها في الخامسة والعشرين من  
سنها ومضت طاهرة الارار حتى قيل على لسانها في أغاني العامة مامعناه:  
« أموت بدون أن يعرفني الملك وأذهب بين العذارى »، مع هذا لم تنج  
هذه الملكة من أوهام الفصاصين الذين رموها بمعاشقة الدون فادريك  
أخي الملك ودافع عنها كثير من المؤرخين بكون زواجها وقع أثناء غياب  
فادريك وأنها بعد ذلك لم تجتمع به فأين تمكن من رؤيتها؟ وهذا الملك  
هو الذي التجأ اليه أبو سعيد بن الاحمر المنتزي على محمد الخامس فقتله  
قيل مع سبعة وثلاثين فارسا من بطانته وتولى قتله بيده قائله: « هذا  
من أجل المعاهدة المذمومة التي اضطررتني أن أعقدها مع أراغون »،  
فغنفه ابن الاحمر وسبه ولكنه بادلها كلاما بكلم ولما قتل مع جماعته أرسل  
برؤوسهم الى سلطان الاندلس وتصافيا ولما أمن من جهة المسلمين خاف  
أن يناقشه ملك فرنسا الحساب على قتل الملكة بلانشة فأكد المهسد مع  
صاحب انكترية ومد يده الى ملك البرتغال وملك نافار وزحف معه  
نحو ملك اراغون فانهزمت جيوشه وآل الامر الى الصلح على شرطان  
يتزوج دون بطرد ملك قشتالة ابنة دون بطره ملك أراغون وان ولي عهد  
اراغون يقترن بابنة ملك قشتالة من حظيته ماريه دو باديليه وان ملك

اراغون يسلم اليه الدون اريك دو تراستامار والدون فرناند مركيز  
طرطوشة فقبل بذلك رصيفه وقتل فرناند وحاول اغتيال الثاني فقر  
واعصوب حوله القشتاليون ، وذهب اريك الى فرنسا واستجاشها  
على أخيه وكان لهم ثأر في قتل بلاشه فأرسلوا ثلاثين الف مقاتل معقوداً  
عليهم لبرتران دو غوكلين فدخل مع أريك مملكة قشتالة ونودي بهذا  
ملكاً في كثير من مدائن التي كان أهلها ينتظرون الفرصة لخلع طاعة الظالم  
ففر بطره الى البرتغال فأبى ملكها قبوله فعاد وافلت الى جليقية حيث لقي  
فرناند دو كاسترو ومطران سان جاك فوعدها بالنصرة وجهز له المطران  
كتيبة مؤلفة من ١٢٠٠ مقاتل لكنه جوزي جزاء سنمار وغدر به بطره  
واستصفى امواله وذهب بها بجرأ الى بيون وكانت في يد الانكيز  
واستتب الامر لآخيه الدون اريك في قشتالة الا ان الانكيز اجازوا  
بطره واصحبوه بحفيل جرار لافتتاح مملكته وكان اريك قد اعاد  
اكثر الفرنسيين الذين معه الى بلادهم فضعفت قوته وانهزم امام البرنس  
دو غال في واقعه نافاريت فلحق بفرنسا ودخل بطره الجاسي مع البرنس  
دو غال الى البلاد وحاول قتل الاسارى الذين أخذوا في الوقعة فوبخه  
البرنس ومنعه ثم طالبه بنفقات الحرب فأخذ يطوف في البلاد ويقتل  
اعيانها ياخذ اموالهم واهلك في تلك الجولة خلقاً كثيراً حتى فر كثير  
منهم الى أخيه المنهزم وشدوا ازره ، واقلع البرنس دو غال غير راض  
عن أعماله ، وعاد الدون اريك الى البلاد ومعه جماعة من الفرنسيين  
فقامت أكثر المدن بدعوته ، وحصر طايطة فدافع عنها الدون  
فرناند الفارز أو الفارس من قواد الملك بطره وجاء هذا مع حليفه ابن

الاحمر يحاصر قرطبة التي كانت تقبالت دعوة أخيه فضيقا عليها وهجم المسلمون على الاسوار فاحتلوا منها برجال الكن القرطبيين كرواعلى المحاصرين فكشفوهم فازمعا العودة واهتبل محمد سلطان غرناطة هذه الغرة فعات في بلادهم واسترجع بعض الحصون واكتسح جيان وابذة وغيرهما من المدن المحالفة للدون انريك

وفي ١٤ آذار سنة ١٣٦٩ انتشبت بين الاخوين معركة بقرب مونتيل وانكشف الدون بطره واعتصم بقصر مونتيل فبني أخوه انريك جداراً بحجارة يابسة أعجل بناءه حول القصر ليقطع رجاء بطره في الخروج فلما شاهد ذلك أخوه وواعوانه وقد منهم معرفة لبريران دوغو كاين فداخله في غض الطرف عن فرار الدون بطره لقاء جائزة سنوية فرفض بريران واخبر بذلك الدون انريك فأشار اليه بأن يقبل هذه المداخلة ويسمح للدون بطره بالحضور عنده وفي ليلة ٢٣ آذار المذكور انسل الملك قاصداً خيمة القائد دوغو كاين فلما استقر بهادخل عليه أخوه الدون انريك بالشكة الكاملة ولاول وهلة لم يعرف أخاه اطول عهده به فقال له أحد فرسان الفرنسيس هاهوذا خصمك - وأشار الى الدون بطره - فأجابه نم هاناذا فوثب عليه انريك ونفحه بشفرة قصيرة في وجهه فلقاه بطره بذراعيه وتصارعا فسقط الاثنان على الارض فوجأ انريك بمخنجره جملة طينات حتى أتوا وقيل بل عند ماسقط الملكان على الارض جاء بطره فوق انريك لكن القائد دوغو كاين قلب الثاني فوق الاول حتى مكنه من قتله وكان عمره يومئذار بماو ثلاثين سنة وسبعة أشهر وخلفه الدون انريك قاتله وقد أطلنا قليلا في قصة هذا الملك الجاسي لغرابة أحواله وشذوذ

مبادئه وهالك ماخصه ابن خلدون من خبره قال :

قد تقدم ذكر تغلب الطاغية ابن الهندسة على الجزيرة سنة ثلاث  
واربعين وانه نازل بعدها جبل الفتح سنة احدى وخمسين ومات بالطاعون  
وهو محاصر له عند ما استفحل امره واشتدت شوكته وكفى الله شأنه وولي  
أمر الخلافة بعده ابنه بطره وعدا على سائر اخوته وفر أخوه القمط ابن  
حظية أبيه المسماة بلقتهم الريق بهمة الى قط برشلونة فأجاره وانزله خير  
نزل ولحق به من الزعماء المريكس ابن خالته وغيره من اقباطهم وبعث اليه  
بطره ملك قشتالة في إسلام أخيه (١) فأبى من اخفاره وحدثت بينهما  
بذلك الفتنة الطويلة افتتح فيها بطره كثيراً من معاقل صاحب برشلونة  
وأوطأ عساكره نواحي ارضه وحاصره بالنسيمة قاعدة شرق الاندلس مراراً  
وأوجف عليها بعساكره وملا البحر اليها بأساطيله الى أن ثقلت على النصرانية  
وطأته وساءت فيها مأساته فانتفضوا عليه ودعوا القمط أخاه فزحف  
الى قرطبة وثار على بطره أهل اشبيلية وتيقن صاغية النصارى اليه ففر  
عن ممالكة ولحق بملك الافرنج وراء جليقية في الجوف عنها وهو صاحب  
انكلترا واسمه الفلاس غالس ووفد عليه صريحاً سنة سبع وستين فجمع  
قومه وخرج في صريحه الى ان استولى على ممالكة ورجع ملك الافرنج  
فماد النصارى الى شأنهم مع بطره وغلب القمط على سائر الممالك فتحيز  
بطره الى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين ونادى صريحاً بابن الاحمر فانتهز  
الفرصة ودخل بمساكر المسلمين فآخن في أرض النصرانية وخرّب معاقلمهم  
ومدنيهم مثل ابدة وجيان وغيرهما من امهات أمصارهم ثم رجع الى غرناطة

ولم تزل الفتنة قائمه بين بطرء وأخيه القمط الى أن غلب عليه القمط وقتله انتهى  
وقال ابن خلدون في سفارته عن السلطان ابن الاحمر الى اشبيلية  
مانصه « وسفرت عنه سنة خمس وستين الى الطاغية ملك قشتالة يومئذ  
بطرء بن الهندشة بن اذفونش لاتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك العدو  
بهدية فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة  
فلقيت الطاغية باشبيلية وعانيت آثار سلفي بها وعاملني من الكرامة بما  
لامزيد عليه وأظهر الاغتباط بمكاني وعلم أولية سلفنا باشبيلية واثني علي  
عنده طبيبه ابراهيم بن زرور اليهودي المقدم في الطب والنجامة وكان  
لقيني بمجلس السلطان أبي عنان وقد استدعاه يستطبه وهو يومئذ بدار  
ابن الاحمر بالاندلس ثم نزع بعد مملك رضوان القائم بدولتهم الى الطاغية  
فأقام عنده ونظمه في أطبائه فلما قدمت أنا عليه اثني علي عنده فطلب الطاغية  
حذاء المقام عنده وان يرد علي تراث سلفي باشبيلية وكان بيد زعماء دولته  
فتفاديت من ذلك بما قبله ولم يزل علي اغتباطه الى أن انصرفت عنه  
فزودني واحماني، ختصني ببغلة فارهة بمركب ثقيل، لجام ذهبيين اهديتها  
الى السلطان فاطعني قرية البيرة من ااضي السقي بمرج غرناطة انتهى

\*  
\* \*

وبعد ان ادبل للدون انريك قام ملك البرتغال يطالب بالخلافة  
بمجة أنه هو الوارث الشرعي الوحيد لتخت قشتالة لان والده بطرء  
القاسطانه هو ابن بنت شأبجه الرابع ملك قشتالة ولان الدون انريك  
ابن لحظية فتنشبت الحرب واستولى انريك على كثير من معاقل  
البرتغال وحاصر اشبونة عاصمتهم ثم انعقدت السلم بتوسط وكيل البابا



وكان أولاد الدون بطره الملك السابق مع خزائنه في قرمونة فحاصره  
الدون انريك ودافعه قائدها مرتين لوزير دو قرطبة الى أن تقدمت الاقواب  
واضطر مع حاميته الى التسليم على شرط الامان فأمنهم رئيس ماريه قوب  
من قواد انريك لكن هذا أنى تصدق عهد القئد وقتل مرتين صبراً  
واستولى على الخزان وارسل أولاد اخيه الى طليطلة حيث اودعهم السجن  
وسنة ١٣٧٢ وقعت الحرب بين الانكايز والفرنسيس فأرسل  
الدون انريك قائد محرمه امبروسيو بو كانغره لمساعدة الفرنسيس فهزم  
اسطول الانكايز ثم تحارب مع ملك أراغون من اجل مرسية وانتهت  
الفئنة بتزويج جويان ولي عهده بابنة صاحب اراغون وكان الدوق  
دولنكاستر رابع اولاد أدوار ملك انكلترة قد تزوج في بيون بالدونة قسطنسه  
ابنة بطرة الجاسي وكان والدها قد عهد لها بالملك نخال هذا الدوق انه صار  
صاحب الحق في خلافته فجمع عسكراً جراراً وزحف صوب اسبانية  
فناوشه الفرنسيس القتال في طريقه ومات اكثر جيشه فعاد بنحفي حنين ثم  
لعهد وقع بين شارل الرديء ملك نافار والانكايز زحف اليه الفرنسيس  
من جهة والقشتاليون من اخرى فالتزم ان يصرم ذلك الجبل ومات الدون  
انريك في ٢٩ ايار سنة ٧٩

وجلس على كرسي الامارة ابنة جويان وولد له في اوائل ملكه ولد  
مماه انريك وكان فرديناند صاحب البرتغال لم يرزق غلاما وانما ولد  
ابنة يخشى بعد موته ضياع حقها فخطر له ان يجعلها حليمة لابن الدون جويان  
فيمكن من حفظ حقها فخاف الانكايز عاقبة هذا الزواج وكان الدوق  
دولنكاستر لم ينزل عن دعواه فدخلوا البرتغال في فسخ ذلك العقد وحملوه

على الحرب فاصطلت بين المملكتين عوانا وطلات زمانا ووفد الانكليز  
بالمدد على اشبونة وفي تلك المدة توفيت ليرنورة امرأة الدون جويان فرأى  
صاحب البرتغال أن يزوجه ابنته التي كان يريد اعطاءها لابنه وهي  
المسماة بالدونة بياتريزة ويحتم بذلك الحرب فانصاع عنه الانكليز وعقد  
للدون جويان على ابنته المذكورة وبعد زفافها عليه باربعة أشهر مات الدون  
فرديناند ونودي بكريمته ملكة على البرتغال فأسفرعية هذه المملكة أن  
يروا عليهم أجنبيا ولم يقبلوا الدون جويان فزحف الى عاصمتهم اشبونة  
وحاصرها برا وبحرا حتى هلك كثير من أهلها ومن عساكرها فانكفأ عنها  
وطمع فيه البرتغال فقاتلوا من أطاعه منهم واجتمعوا وقرروا تحت رئاسة  
قائد اشبونة أن بياتريزة ليست ولدا شرعيا لفرديناند لان امها كانت  
متزوجة بالدون جوان لورانسو دوا كونها حينما نقلت الى الملك فرديناند  
فبايع البرتغال الدون جويان ابن بطره القاسط وانضموا اليه وكان متولي  
الدفاع عن اشبونة فزحف ملك قشتالة لقتاله فالتقى في ١٤ آب سنة ١٤٤٤ بعد  
الثلاثمائة والالف بقرب قرية الجبروته فانهزم ملك قشتالة وهلك من  
جيشه عشرة آلاف ومن البرتغال الف وهي وقعة مذكورة في التاريخ  
بقي البرتغال يحتفلون بتذكارها زمانا فنرطد بذلك أمر الدون جوان  
البرتغالي وجاء الدوق دولنكاسترا الانكليزي فدخل قشتالة بجيش واستولى  
على بعض البلاد ومد يده إلى يد ملك البرتغال وهيا قسمة بلاد عدوها  
لكن هذا استعجاب بالفرنسيس فأمدوه بالمال والرجال ولم يفز اعداؤه  
بطائل فانتهمت الفتنة كغيرها من الفتن التي تضمنها هذا التاريخ بزواج انريك  
ابن ملك قشتالة بكاتالان لانه بنت الدوق دولنكاستر من امرأته ابنة بطره الجاسي

وفي ٩ اكتوبر سنة ٣٩٠ بعد الالف بينما كان الملك مجري  
فرسه في ميدان مع بعض فرسان النصارى الجالين من افريقية وكانوا  
موصوفين بالفروسية اذ كبايه جواده نخر صريعاً وحمل بدون حراك خلفه  
ابنه الدون انريك في الثانية عشرة من العمر وكنهه مجاس مؤلف من  
الدون فادريك ابن الدون انريك جد الملك من حظيته ومن الدون بطره  
حفيد فادريك رئيس نظام مار يعقوب الذي قتله أخوه بطره ومن  
أساقفة طليطلة وسان جاك وغيرهم من القوادف انتشرت السلطة وتمخضت  
الحال بالفتنة وصارت الناس فوضى وفي هيعة ذلك هجمت العامة في  
قرطبة على اليهود فقتلوا منهم خلقاً وانتهبوا اموالهم وفي مدته قام محمد  
ثاني اولاد يوسف بن الاحمر على أبيه ورماه بالضعف عن الجهاد وأثار  
عليه العامة فالتزم يوسف أن يخرج بمساكره ويحتاج بلاد النصارى لينفي  
تهمة ابنه الذي اتخذها حجة للخروج إلا أنه لما كان ميالاً بطبعه الى السلم  
لم يلبث أن هادهم وقفل

وفي تلك المدة ظهر رجل عند الاسبانيول يدعى سيو معروف  
بالسك والزهادة وقبول الدعاء وصار لعامتهم فيه اعتقاد كبير فانبا  
رئيس فرسان القنطرة بأنه يفتح غرناطة كما فتح السيد بلنسية فصدقه  
وأرسل اثنين من اعوانه الى سلطان غرناطة برسالة تضمنت قذفاً  
وطعناً في دينه ، وتهديداً وانذاراً من بطشه ، وهو يدعو الى النزاع ،  
ويعدده ان احجم من الانذار ، ويقاتله بفتنة قليلة له أن يجمع بازائها اضعافها ،  
فلم يكثر صاحب الانذار بكلامه إلا كما يكثر بهذيان المسوسين ،  
وطرد الرسل من حضرته مذمومين مدحورين ، فلما بلغ ذلك مراتين يانس

استاذ القنطرة جهز خمسة آلاف مقاتل وسار بهم نحو غرناطة و قيل أن  
الدون اربك نهاره عن المسير لما فيه من النكث بالمعاهدات فلم ينته قائلاً  
انها مسألة دينية لا سياسية يلزم فيها الخضوع لملك، ولما ربح جيشه بقرطبة  
حاول بعضهم أن يمنعه من جواز الجسر فثارت العامة واعترضت على ملك  
المما نمة فأذن له وفي ٢٦ نيسان سنة ٣٩٤ بعد الالف وصل الى ثغور  
غرناطة وحاصر برجا اسمه برج إيحة وبعث الى الخالية يعرض عليهم  
التسليم والنصرانية وإلا فالسيف فمزوا به وجاوبوه بالنشاب والحجارة  
فجرح الاستاذ وقتل معه ثلاثة من أبطاله فدعا الناسك سيو وقال له أ كدت  
لنا انه لا يهلك منا أحد وهو ذائلاثة قد سقطوا صرعى قتال له الناسك  
نعم قلت ولا أزال أقول لكن انما أردت بذلك الحرب في السهل لا الحصار امام  
الحصون فأخذ يجمع اكداسا من الخطب بقصد احراق البرج واذ به ساكر  
المسلمين قد اقبلت فذعر أصحاب يانس من كثرتها و صاروا ينسلون  
هاربين فوضع راتته والصليب في الوسط وأحاط بهما في نخبة رجاله إلا  
أن العدو أحاط بالجميع فلم ينج من الخمسة آلاف سوى الف ، خمسمائة  
وأما معلم القنطرة فسقط مع جميع الرجال الذين انتخبهم ليكونوا في موطنه  
وانتشر خبر هذه الهزيمة في اسبانية فخاف النصراني أن يستأسد المسلمون  
ويوقعوا بهم لكن السلطان يوسف حصر القتال في مكانه مع هذا الرجل  
المتحمس ولم ينكث بمهده معهم إلا انه للمامات وخافه ولده محمداه تؤنفت  
الحرب وأخذ كل من الفريقين ينحى باللائمة على الآخر في اخفار الذمة  
وعام أربعة بعد الاربعمائة والالف خرج محمد بن يوسف غازيا في جيش  
كثيف فاكتسح البسائط وعاث في بلاد الاسبانية وفي السنة التالية

غزا جيان وأذاقها مر القتال وقفل بالغنائم فأخذ الدون أنريك يمحصن  
ثغوره دفعا لمادية المغاربة

وسنة ١٤٠٦ قضى نجبه تاركا من الولد طفلا وابنتين فأوصى بتربية  
أولاده أخاه الدون فرناند الملقب بالرشيد وامرأته الملكة كاترينة وكان  
من فوائده أعمالها التجهبز لحرب غرناطة فشنت الغارات وعطلت الثغور  
ومات أثناءها محمد بن يوسف وخلفه أخوه البكر يوسف فتجدد القتال  
في مدته وتزاحف الفريقان في سنة عشر بعد الأربعمائة والالف  
وحاصر الأسبانيول النقيرة وأخذوها واستفحل بذلك شأن فرناند  
وفي هاتيك الآونة مات صاحب اراغون عن غير ولد شرعي كما  
قدمنا في أخبار أراغون فأجمع رأي نواب تلك الأمة على انتخاب  
فرناند الرشيد ملكا عليهم لكانه من القرابة وما عرف من ذمته وأمانته  
وعفته عن اغتصاب ملك ابن أخيه الذي استودعه طفلا رضيعا فتوج  
فرناند ملكا على أراغون وبقي كافلا لابن أخيه في قشتالة وبينما كان  
سائرا لغزو المسلمين سنة ١٤١٦ وافاه أجله فاستقل بكفالة ملك قشتالة  
أمه كاترينة بنت دوق لنكاستر الانكليزي وكانت ممدوحة السيرة إلا  
أنها كانت مغرمة بالخرقة ونعم عليها الأسبانيول عدم كراهيتها الشديدة  
للاسلام فماتت حتف ألقها في غرة حزيران سنة ١٨ فاستلم ابنها ملك  
جويان أزمة الملك وهو في نحو الثالثة عشرة من العمر فتنازع الرئاسة  
الامراء والقواد وانتشبت الفتن وتوالت المحن الى أن تمكن من راب الصدع  
وفي تلك الايام حدثت في غرناطة حوادث جمة من وفاة يوسف  
ابن الاحمر وقيام ولده محمد الاعسر مقامه وخلع هذا وقيام محمد الصغير

وخله ورجوع الاعسر وانتزاع يوسف ابن عمه عليه وجلوسه على تخت  
الامارة وموته ورجوع الاعسر ثالثة مما استوفيناها في أخبار غرناطة  
وامتدت لجويان في قضايا المسلمين بعضهم مع بعض يد طولى واستفاد  
من انقسامهم فهزمهم وأنخن في بلادهم. ومما سود صحيفته نكبه لامير  
الجيش الدون الفارو دولونه الذي حضنه ورباه ونصره على أعدائه  
وأخلص في مناصبته مدة ثلثين سنة بجزاه شر الجزاء بسبب اختياره  
ابنة ملك البرتغال لزواجه به ووفاة زوجته ال ونة مارية حال كون  
جويان يهوى رادغوند ابنة شارل السابع ملك فرنسا والصحيح أن  
الدون الفارو كان في دولة تشنائة بعد جويان أشبهه يحيى بن خالد  
البركي في دولة ارشيد لا يتعلق أمر بدونه ولا تمضي قضية إلا على  
مقتضى ارادته حتى انصرفت اليه تناس من دين الملك وازدحت في  
بابه الاقدام وثقل على جويان انتماء هذا الامر أكثر مما احتمله إلا أنه  
لم يعمر زمانا بعد وفاة الفارو ومضى لسبيله في ٢١ تموز سنة ١٤٥٤ وكان  
ملكه مشوبا بالفتن ورأيه نسبيا لا جزاء إلا أنه كان ممن يحب العلم خصوصا  
التاريخ والادب وخلفه ابنه اندر انريك الرابع فأول ما فكر فيه عند  
استوائه على الكرسي أن ينسل ولد يورثه الملك ففترن بالدونة جويانة  
البرتغالية لكن لم يلبث أن اتخذ من دونها الخطايا فاختار كاتالينه دو  
صندو قال مدة ثم تركها ولما لم أنها عانت بفارس غيره أمر بضرب عنقه  
ثم بلغه ان دير راهبات ار بطرس دولاس دويناس محتاج الى الاصلاح  
فمين معشوقته هذه رئيسة الراهبات واتخذ الدونة عيومار دو كاسترو  
عشيقة فحكها في ارادته وانهطم اليها دون العالين فثار عليها حسد الملكة

واشتدت الفتنة بينهما حتى انهما مرة تعاركتا وتضاربتا وقتل من ساعد الملكة ما في صدرها من الفيظ ممن اغتصبها حقها فأمسكت بذوائب الحظية وصرعتها في الارض فحضر الملك مسرعا ورفس الملكة فأنامها لوقتها منغشيا عليها. قال المؤرخ لا فالة: وهذه الوقائع المخجلة لم تكن الا مقدمة لحوادث اعظم فضيحة واطهر عارا، وروى من عشق الملكة لبرتران دو لا كوفاو من تهتكها وولادتها ودعوة الملك امراء البلاد لحلف يمين الامانة لابنته الجديدة ولبائهم ذلك اشتباها في صحة نسبها للملك الى غير هذا من الامور الفاضحة ما امسكنا عن تفصيله ضنا بشأن التيجان، وحرمة لمقام الصولجان، خصوصا وان لهذا الملك فيه السهم الاوفر من العار وبالاجمال فنقول ان امراء قشتالة خرجوا على اميرهم انريك ولاشتهار عجزه عن الزواج عندهم رفضوا ان يقبلوا عليهم ولي عهد من سلالة اذ ليس عندهم ممن له سلالة، فولوا عهد الامارة اخاه الفونس وطوح ببعض الثوار بغض الملك واحتقاره حتى نصبوا له علما في محفل غاص ووضعوا عليه جميع شارات الملك وعصبوه بالتاج وقام واحد فقرا على الملا فاضح سيرته فأخذوا عند كل نبذة ينزعون قطعة حتى جردوا النصب ثم لم ينتهوا حتى حطوه للارض وبايعوا الفونس ملكا وجمهروا حوله وحصروا بعض المدن فزحف اليهم انريك وناصره من الامراء والاعيان من احفظه عمل الثوار ولم يحطب في حبال الفوضى، فالتقى الجمعان في ظاهر اوليدو وتناجزوا مناجزة الاضداد، اذا ملأت صدورهم الاحقاد وفصل كل من الفريقين مدعيا لنفسه النصر والصحيح أنه لم يتعين لاحد ولم تزل النائرة حتى جاء ما لم يكن في الحسبان وهو وفاة الدون

الفونس في ٥ تموز من أشهر عام ٦٨ بعد الأربعمائة والالف فلما لم يجد الخوارج من يقدمونه عليهم جاؤا مبايعين الدونة ايزابلا أخت الملك انريك فأبت مزاحمة أخيها وذكرتهم بما عليهم من فروض الطاعة للميكهم الا أنها طالبت بحق الوراثة فلما عرض ذلك على الملك عده مغنما بشرط دخول القوم في الطاعة وسكن الثوار على وثيقة استخلاف الدونة ايزابلا والعفو العام عنهم ورضي الملك بذلك واعترضت الملكة داعية لابنتها التي تقدم خبرها فلم يسمع لها وحل وكيل البابا الامراء الذين أقسموا يمين الامانة لتلك البنت من عقدة اليمين

وكانت ايزابلا جامعة بين جمال المنظر وجودة الادراك وأحسن منهما انها وارثة ملك قشتالة فاخذ جميع ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها الا ان اختيارها وقع على فرديناند ملك أراغون ومضت اليه رغما عن ارادة الكثيرين من أعيان المملكة فالتقيا في وادي الوليد وتم عقد النكاح بينهما في سنة ٦٩

فأحفظ ذلك المركيز دوفيلنه مستشار الملك فقام يسمى في ايجاد خطيب من الملوك لابنة الملك أملا بمنازعة ايزابلا الوراثة فقالوا أولا إلى ملك البرتغال ثم أبرزوا الدوق دو غويان واحتفلوا بالخطبة لكن سفراء الدوق اشترطوا على الملكة ان تحلف على رؤس الاشهاد بان هذه الفتاة هي ابنة الملك انريك وعاميه أيضا ان يحلف بانه أبوها فعلا ومع ذلك بقي الخطيب مشتبهها حتى انه لم يهجم على النكاح وأخطبوها لامير آخر اسمه الدون انريك ثم لسوء ملكته كره الملك تزويجها منه فبقيت بدون عرس الى ما بعد مهلك الدون انريك الذي وقع في ١٢ كانون الاول سنة ٧٤



فانتقل الملك الى ايزابلا زوجة فرديناند وفي أوائل الامر كاد يقع بين الزوجين الشقاق لكون فرديناند يزعم انه هو الملك الوحيد لأنه لا يوجد رجل سواه من سلالة الدون انريك دو تراستامار، وايزابلا تزعم ان انتقال الامر الى النساء معروف في عادات مملكة قشتالة وهي أقرب وارث الى آخر ملك فلها الحق وحده في الملكة وكم ان جان من يفصل الخطاب فيكموا على الملك فرديناند وأيضاً انه بائناً الى أراغون فينشد أخذت ايزابلا تقدره البراهين فقرر ان يار جاء بان دعواها هذه ضرورية لمصلحة ابنتها إذ لو فرض أنها لم يزم ذكر أو كان حق المرأة ساقطاً في الامارة لزم أن ينتقل ذلك الى زوجه التي لم يكون أمناً فيكون قد اسقط ابنته من حقها، ثم استأجرت قاضيها الذي يدعي أن تملكه الى شيء وانها تقدم اسمه على اسمها في الملكة لئلا يحدثنا الحق في نصب الحكام والولاية، وهكذا قضى الأمر مالاً يراعى بينهما وتم ماتم على يدهما فكانت شدة التحامهما سبباً لانسلاخ التمسك عن بلاد الاسلام

وكان المركيز دوفيينه قد مات خلفاً لبيه وارثه عداوة ايزابلا من أبيه فتحرك مع الدون الفونس تورانديس بأساقا طائفة لاجل مناصبة الملكة وزوجها وأغريا ملات البرتغال بالتمسك بالملكة وبنوة جويانة المشكوك في نسبها فأطاعها ومع كونها بنته شقيقة أقدم على ذلك ملتصقاً من البابا الاسعاف في سؤاله وخطبها ومخل مملكة قشتالة داعياً لنفسه فاعصو صب حوله أضداد الملكين وكشرت الفتنة بينناهما وكثر العيث وحوصرت المدن وضيق فرديناند على قلعة زامورة فنهده الى صاحب البرتغال بقرب ثوروفان كشف البرتغال وقتل منهم جم وافر وسلمت قلعة زامورة وذهب

ملك البرتغال مستعمر خا لويس الحادي عشر صاحب فرنسا فلم يصرخه  
وخذله أحزاب خطيبته وراجع البابا نفسه في الرخصة التي أعطاهما في  
شأن زواجه بابنة أخته وقال انها كانت على غير ترو فنسخها بمنع لاحق  
ورأت تلك المسكينة أن زواجها من أحد أصبح عسيراً وان نسبها الى  
الملك انريك أصبح مسألة خلافية والقائمون بنصرتها قليلون فتبتلت  
راهبة في دير سانت كليردو قويمبرة وكانت تلقب بالبلتر اينجه

وكان يكثر في ممالك اسبانية لذلك العهد اللصوص وقطاع السوابل  
وقلما تخلو كورة من عيهم وفسادهم وربما كان لبعض أمراء البلاد يد في  
امدادهم فوجه فرديناندوايزابلا عزمها لاستئصال اللصوص ونظاماً عسكرياً  
خاصاً لتأثرهم وقطع دابرهم وسمياه هرمانداد وخصصا له مالا معيناً وعقدا  
عليه للدون الفونس أخي فرديناند من حظية أبيه جفري في أثر اللصوص  
ونكل بهم في كل سهل وجبل حتى لم يبق من هذه الدعارة الا القليل  
وفي هاتيك المدة هلك الدون جويان الثاني ملك أراغون وتولى  
مكانه ابنه فرديناند الكاثوليكي فضم أراغون وبلنسية وكالوننة وصقبة  
وميورقة الى قشتالة فبينما كانت ممالك النصرانية العظيمة تتحد في تلك  
الاقطار كانت مملكة الاسلام الوحيدة فيها تزداد فتقا على فتق ليقضي  
الله أمراً كان مفعولاً

## الفصل الخامس

في ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الاسلام والنصرانية  
كانت الثغور منذ القديم مواطن الامم المتناظرة، ومواقف الاقران  
من حماة الاقوام المتبارزة، وكما الشعوب المتحاجزة، ومقامات صدق  
المجاهدين، ومظان النخوة الجائشة بالرؤس للذب عن العرض والدين، ومنذ  
ظهرت دولة الاسلام بما شرع فيها من الجهاد لم تبرح صرابطة الثغور  
ومحافظة الدروب وبعوث الصوائف من اركان الملة وقواعد الدولة وأعمدة  
سرادق الخلافة، يتنافس في الوفاء بها والقيام عليها الاطول يداء، والابعد  
هماً، والاشد عزيمة، والارخي في المجدغاية، من خلائف الاسلام وسلاطينه  
وأمرائه التوحيد وأساطينه، ممن رفعوا في تعزيز الملة واجابة داعي الجنة  
شأن الجهاد، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقية من البلاد، فان كان  
للاسلام لواء خافق فوق رؤس بنيه فهو بقية ماعقد بأيدي الغزاة  
والمجاهدين، وان كان تحت أقدامهم مواقع للامتناع فهي نتيجة مواقع  
السيوف من رقاب المناهدين . ولما كانت الجزيرة الاندلسية، بموقعها من  
الاتصال ببر العدو الاوروبية، والموازاة لبر العدو المغربية، غير منفصلة  
عنه الا ببحر الزقاق الذي يتراءى الساحل من ورائه - تعد ثغر الثغور  
بين البرين الكبيرين، وموطن الرباط وممترك الثقاف من المنصرين  
المعظمين، استمر الجهاد فيها مائة سنة ونيفاً بين حماة الحنيفية والنصرانية  
منازعة الارض بالشبر، فاذا كان الاسلام هناك في عنجهيته والعرب تترامى  
الى الاندلس للاعتمار من جميع الاقطار، قد عصفت ريحهم بأمم الفرنج  
وأجفلت هذه بين أيديهم وأنهزمت من أوجههم وانتظمت دولة بني

أمية في ذلك الصقع أعظم ما كان العرب نضارة وأكمل عزاً وأبعد في العدو  
مغاراً مضت على الاسلام في الاندلس ثلاثة قرون كفت فيها نفسها مؤونة  
الجهاد، وقامت وحدها في وجه العدو الذي كان قد انضم بعد التخاذل  
واستسك بعد الاسترسال، الى ان انقرض حبل الخلافة المروانية، وتشعبت  
الكلمة وصار الامر الى ملوك الطوائف، فاستأسد الفرنج واقتحموا ثغور  
المسلمين وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحي فالتصرخ هو لاء اخوانهم  
من وراء البحر بحسب الانقطاع في تلك الجزيرة قد فاقهم مدد المرابطين من بني  
لمتونة واستجاش يوسف بن تاشفين المغرب فرمى اليه بأفلاذ كباده من زناتة  
وصنهاجة وغيرهما وأجاز الى الاندلس بحجافله فرد عادية انصارى واسترجع  
كثيراً من القواعد، ولم يلبث ان تأذن الله بانقرض أمم تلك الدولة وقيام دولة  
الموحدين بني عبد المؤمن فاقتدوا بسلفهم في الجهاد وأجازوا الى الاندلس على  
ظلماء من اهلها لنجدتهم، فصدموا تقدم العار وقلوا غربه، ولم يسمعوا الاسلام  
الحظ بطول انظمامهم، وامتداد الثامهم، فخامر دولتهم الضعف واستولى عليها  
الانقسام، وظهر في عقبها الفشل، وجاءت وتعة العقاب لعهد الناصر من  
امرائهم الطاعة الكبرى على الاسلام فلم تقم له بعدها قائمة محمد فيما وراء  
البحر، وانجلى أهله أمام العدو المنتقم الى سيف البحر، وحشروا في مملكة  
ابن نصر الذي ضم شملهم في غرناطة وجوارها، ورأى المسلمون ان الامر  
كاد يفلت من ايديهم وأن منزلهم هناك اصبح قلعة، وأن زياهم لتلك الديار  
أضحى قريب الاجل، كما يستدل على ذلك من كلام علمائهم وشعرائهم  
كقول أبي البقاء الرندي

قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء اذا لم تبق اركان

وكقول غيره

حثوا رواحكم يا أهل اندلس      فما المقام بها إلا من الغلط  
الثوب ينسل من أطرافه وأرى      ثوب الجزيرة منسولا من الوسط  
وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة الكبير من جملة  
نصيحته لأولاده

« ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القاق المهاده الذي لا يصاح لغير  
الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في المقار، فيصبح عرضة المذلة والاحتقار، وساعيا  
لنفسه أن تغلب المدو على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعو قاعن الانتقال  
امام النوب الثقال »

ولما ضعفت حامية الاندلس بعد ذهاب بني عبد المؤمن وضاعت مسالك  
المسلمين في الجزيرة وتسامع بذلك أهل المغرب نكروا للجهاد وسابق الى  
ذلك الامير أبو زكريا بن أبي حفص صاحب افريقية فأمدهم بالمال والرجال  
واعطوه بيعتهم ولما قامت دولة بني مرين واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحق  
واستبدت بسلطنة المغرب وكان عظيم الاستعداد في نفسه لا حراز تلك المثوبة  
وبلوغ هاتيك الرتبة وأهمه شأن ابن أخيه ادريس بن عبد الحق لما وقع  
بينهما من المنافسة واستأذنه عامر بن ادريس في الجهاد اغتنتهم هذه الفرصة  
وعقد له على ثلاثة آلاف من مطوعة زناتة وأجاز معه رحو ابن عمه  
ابن عبد الله بن عبد الحق فكان لهم في الاندلس مقام كريم في الجهاد ثم  
صارت الاجازة والجهاد شأن ذوي القرابة من ملوك المغرب المنافسين في  
الملك والمزاحمين في الدولة اغتناما للاجر والذكر وتوسلا الى قطع أسباب  
المنافسة بالغرابة والانقطاع وهوؤلاء مثل ابناء عم الملوك من بني مرين الملقبين

بالاعياص ومثل عبد الملك يغمراسن بن زيان وعامر بن مندبل بن عبد الرحمن  
وزيان بن محمد بن عبد القوي فامتلاّت الاندلس بأقوال زناتة واعياصهم  
وكان ممن أجاز معهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبو بن أبي بكر  
ابن حمامة ومنهم سليمان و ابراهيم اللذان كرم مقامهما في الرباط، ثم أجاز  
موسى بن رحو بن عبد الله مع أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق فولاه  
السلطان ابن الاحمر رئاسة الغزاة والمجاهدين، ثم انصرف الى المغرب فولى  
مكانه أخاه عبد الحق ثم انصرف فولى مكانه ابراهيم بن عيسى بن يحيى  
ابن وسناف ثم رجعا فرجعت امارة الغزاة الى موسى وبقي فيها الى أن  
هلك فوليها أخوه عبد الحق الى أن هلك سنة ٦٧٨ فوليها ابنه هو  
ابن عبد الحق بن رحو . وفي تلك المدة خرج عبد الحق بن عثمان من  
ولد محمد بن عبد الحق ثاني الامراء على بني مرين علي السلطان أبي  
الربيع المريني وأجاز الى الاندلس لعهد سلطانها أبي الجيوش بن محمد  
الفقيه وخاطب ملك المغرب سلطان غرناطة في اعتقاله فقبض عليه  
فهر من السجن لاحقا بالطاغية وعند ما ثار أبو الوليد ابن الرئيس أبي  
سعيد ودعا لنفسه وبويح بمالقة ووتعت الحرب بينه وبين ابن عمه سلطان  
غرناطة واخذ فيها هو بن عبد الحق أسيراً وسيق الى أبي الوليد أطلق  
سراحه اكراما لعمه أبي العباس بن رحو فرجع الى سلطانه فارتاب به وولي  
مشيخة الغزاة عبد الحق بن عثمان فاستدعاه من دار الحرب ثم ارتحل هذا  
إلى افريقية الى أن قتل في تلمسان. ولما انتزى أبو الوليد بن الرئيس أبي  
سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر على ابن عمه صاحب غرناطة  
كان شيخ زناتة بمالقة عثمان بن أبي العلاء من آل عبد الحق فانتصر به أبو

الوليد على ابن عمه ولما استتب له الامر عقد له على الغزاة من زناتة  
وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحق بن عثمان فالحق بوادي آش  
مع السلطان أبي الجيوش وصار حمو بن عبد الحق بن رحوم من جملة عثمان  
ابن أبي العلاء بعد ان كانت الرئاسة له وبعد صيت ابن أبي العلاء واستفحل  
امره وعات رايته وأتاح الله للمسلمين من النصر على يده ما لم يتوقعوه  
ولما مات أبو الوليد سلطان غرناطة دبويع ابنه صبيد النظر الوزير ابن الحروق  
استبد عليه ابن أبي العلاء شيخ الغزاة فوهمت الفتنة بينه وبين الوزير  
ونصب الوزير له كنفواً من ذوي قرباه يحيى بن عمر بن رحو وارتمل  
عثمان وبقي الى أن استبد بالامر السلطان محمد بن الأحمر ونكب ابن الحروق  
فاستدعى عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين ومات لسبع وثلاثين سنة من امارته  
عليهم وكان مكتوباً على قبره هكذا

«هذا قبر شيخ الحماة» و صدر الأبطال والكماتة، واحد الجلالة، ليلث  
الاقدام والبسالة، علم الاعلام، حامي ذمار الاسلام، صاحب الكتاب  
المنصورة، والافعال المشهورة، والمغازي المسطورة، امام الصفوف القائم  
بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، قاصم الاعاد، وأسد  
الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام المجاهد، الارضي البطل،  
الباسل الامضى، المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان، ابن الشيخ الجليل،  
الهمام الكبير، الاصيل الشهير، المقدس المرحوم أبي العلاء ادريس بن  
عبد الله بن عبد الحق. كان عمره ثمانيا وثمانين سنة، إنفقه ما بين روحة في  
سبيل الله وغدوة، حتى استوفى في المشهور سبعمائة راثنين وثلاثين غزوة»  
الى آخر ما هنالك

وقام برئاسة الغزاة بعد عثمان الغازي هذا ابنه أبو ثابت عامر وكثرت  
عصابته واشتدت وطأته حتى استبد على ابن الاحمر هو وقومه وهم الذين  
قتلوه بعد رجوعه فائزاً من جبل الفتح بعد أن قتلوا عاصما خادمه وبايعوا  
أخاه يوسف فقبلها منهم لكن على حذر في الباطن فلما وجه السلطان أبو  
الحسن بن مرين عزائمه الى الجهاد داخل ابن الاحمر في ازاحة الغزاة  
هؤلاء عن الاندلس فأجابوه وقبض على أبي ثابت أميرهم واخوته ادريس  
ومنصور وسلطان ، فرأخوهم سليمان فلحق بالطاغية ثم غربهم سلطان  
الاندلس الى افريقية، وأعاد امارة الغزاة الى يحيى بن عمر بن رحو، فكرم  
في الجهاد . قامه ، رحمت آثاره، وبقي فيها الى أن هلك السلطان أبو الحجاج  
ابن الاحمر وقام الامر ولده محمد، وأخذ له البيعة الحاجب رضوان، فقام  
يحيى بن عمر هذا في الشأن ، شارك في الدولة، فلما انتهز الرئيس أبو سعيد  
قائماً بدعوة ابن عمه اسماعيل أخي السلطان واغتصبوا منه الملك حسبما  
تقدم وأرسل الى المغرب مستجيراً بالسلطان أبي سالم بن مرين ومعه وزيره  
ابن الخطيب وقتلوا الحاجب رضوان لم يشقوا بيحيى بن عمر فاستدعوا  
لامارة الغزاة ادريس بن عثمان بن أبي العلاء وكان يرشلونة نخف وانهمزم  
يحيى الى دار الحرب ثم ترك فيها ابنه وأجاز الى سلطان المغرب لاحقاً  
بالسلطان محمد المخلوع فبقي في صحبته الى أن قبض الله له الرجوع على  
يد أبي سالم والطاغية فرجع يحيى الى امارة الغزاة وخلطه السلطان بنفسه  
وبقي على حاله الى أن وقعت المنافسة بينه وبين ابن الخطيب الوزير  
فأغرى السلطان به ويقومه فأشخصهم الى المشرق فركب يحيى الى  
الإسكندرية ثم عاد الى المغرب وعاد بعض ولده الى الاندلس غزاة على عادتهم



وأما ادريس ففر بعد رجوع المخلوع مع الرئيس أبي سعيد الى الطاغية باشبيلية فلما غدر الطاغية بأبي سعيد حسبما تقدم الخبر أودع ادريس السجن فلم يزل فيه حتى تحيل للخلاص بمداخلة أسير مسلم فلحق بأرض الاسلام واتبعوه فلم يدركوه وجاء الى السلطان محمد المخلوع فأكرمه واستأذنه في اللحاق بالمغرب فأسغفه وآل أمره الى الاعتقال في أيام السلطان عبد العزيز بن مرين وقتل خنقا بحبسه وتولى امارة النزاة بالاندلس علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو بن عبدالله بن عبدالحق وآثره ابن الاحمر أبو الحجاج لما منعه دونه ليلة لحاقه بوادي آش مفلتا من شرك النكبة بالحمراء كما سبق به النبأ فاستمر في رئاسته هذه الى أن توفي حتف أنفه سنة ٧٦٨

وقام برئاسة النزاة بعده الامير عبد الرحمن بن علي بن يفلوسن ابن السلطان أبي علي قلده اياها سلطان الاندلس لقرب نسبه من سلطان المغرب وكون هذه الخطة مخصوصة بأعياص بن مرين كما قدمنا فأهم ذلك صاحب المغرب لما خشي من عاقبة الترشيح ، وكانت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب مراسلات سرية فأفضى اليه بميله الى الافساد ما بين سلطان غرناطة وأمير زناتة في الاندلس فاشتغل ابن الخطيب ذلك طبق خاطره حتى حمل سلطانه على اعتقال الامير عبد الرحمن وبطانته فألقاهم في السجن واسترضى بذلك سلطان المغرب فلما نزع ابن الخطيب الى هذا السلطان وتبين لابن الاحمر احتياله في شأنهم أطلق سبيلهم وجرز لهم الاسطول فأجازوا الى العدو منازعين في الملك واستبدل الامير عبد الرحمن بقسم من أعمالها وغفار رسم هذه الخطة من الاندلس وصار سلطانها

يباشر أمور الغزو بنفسه وربما عقد على الغزاة لآحد أولاده وكان نحو هذه  
الخطمة من الجزيرة لسنة ٧٨٣ وأكثر السبب استبعاد امرأ الغزاة أبناء  
عم الملوك على سلاطين بني الاحمر ومقاد متهم إياهم الجبايات للتفريق على الجند  
ومع هذا فقد احتملوا دالتهم مدة مديدة لمقامهم في الجهاد وأثرهم في دفع  
العدو وأخيراً لما ضاقوا بهم ذرعاً رأوا الاحزم تحويل هذا الرسم الى  
أبنائهم فقلد محمد الغني بالله بن الاحمر ولده الامير يوسف مشيخة الغزاة  
وفي هذا التقليد يقول لسان الدين بن الخطيب : « هذا ظهير كريم فاتم  
بنشر الالوية والبنود، وقود العساكر والجنود، واجال في ميدان الوجود،  
جياذ البأس والجدود، واضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود، على  
الطائفين والعاكفين والركع السجود، عقد لهتمد به عمق التشريف  
والقدر المنيف زاكي الشهود، وواجب المنافسة بين مجالس السروج  
ومضاجع المهود، وبشر السيوف في الغمود، وأنشأ ربح النصر آمنة من  
الحمود، أمضى أحكامه، وانهد العز أمامه، وفتح عن زهر السرور  
والحبور أحكامه، أمير المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي  
الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوايد بن فرج بن نصر أيد الله  
تعالى أمره، وخلد ذكره، لكبير ولده، وساق أمده وريحانة حلدته، وياقوتة  
الملك على يده الامير الكبير، الطاهر الظاهر الاعلى، واسطة السلك  
وهلال سماء الملك، ومصباح الظلم الحلك، ومظنة العناية الالهية من مدير  
الفلك ومجري الفلك، عنوان سعده، وحسام نصره وعضده، وسمي جده  
وسلالة فضله ومجده، السعيد المظفر الهمام الاعلى الامضى، العالم العامل  
الارضى، المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج يوسف ألبسه الله تعالى من

رضاه عنه حللاً لا تخاق جدتها، الايام ولا تبلغ كنهها الافهام، وبلغه في خدمته المبالغ التي يسر بها الاسلام «  
(الى أن يقول) رأى والله الكفيل لنجح رأيه، وشكر سعيه، وصلة حفظه ورعيه، أن يجهد لهم اختياره، ويحسن لديهم آثاره، ويستنيب فيما بينه وبين سيوف جهاده، وإبطال جلادته، وحماة أحوازه، والآتاء ترازه، من يجري مجرى نفسه النفيسة في كل مبني، ويكون له لفظ الولاية وله أيدى الله تعالى المعنى، فقدمه على الجماعة لاولى كبرى الكتاب، ومقادة الجنائب، وأجمة الابطال، ومزنة الودق الهطال، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نساء الملوك نكرام، واءلام الاسلام، وسائر قبائل بني مرين، ليوث المرين، وغيرهم من أصناف القبائل، أولي الوسائل، ليحوظ جماعتهم، ويستخلص لله تعالى ولا يبه أيدى الله تعالى طاعتهم، ويشرف بأمارته مواكبتهم، ويزين بهلاله الناهض الى الابدار على فلك سعادة الاقدار كواكبهم، تقديماً أشرق له وجه الدين الخفيف وتهلل، واحس باقتراب ما أمّل، فللخيل اختيال ومراح والاسل السمر اهتزاز وارنياح، وللصدر انشراح، وللآمال مقدي في فضل الله تعالى ورواح، فلبتول ذلك أسعده الله تعالى تولى مثله ممن أسرة الملك أسرته، وأسوة النبي صلوات الله تعالى عليه أسوته، والملك الكريم أصل لفرعه، والنسب العربي محمّد لطيب طبعه، الخ

وقال في تقليد الامير سعد أخى الامير يوسف: و هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً، وعقد منه في سبيل الله تعالى لواء منصوراً، وأعطى الامم تدبه باليمن كتاباً منشوراً، (وما كان عطاء ربك محظوراً)، واطلم

صبح العناية المبصرة الآية بيهر سفوراً ويسطع نوراً، وأقر عيو نال المسلمين  
وشرح صدوراً، ووعدا لاهلة أرتصير بامداد شمس المهدي اياها بدوراً،  
وبشر الاسلام بالنصر المنتظر والفتح الرائق النور مواسط وثمراً،  
واتبع حمة الدين لواء الامارة السعيدة النصرية فأسعد بها آمراً وأكرم  
بها مأموراً، وأمر به وأضخى العمل بتتضاه وحسبه امير المسلمين عبدالله  
محمد ابن امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الحجاج ابن  
امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الوليد بن فرج بن نصر،  
اعلى الله رايته وساد رأيه، وشكر عن الاسلام والمسلمين سعيه، لقرعة عينه،  
ومقتضي حقه من العدو ودينه، وغصن دوحه، وآية لوحه، ودرة قلادته،  
ودري ادلاك مجادته، وسيف نصره، وهلال قصره، ولده الاسعد،  
وسليله امك المؤيد (الى ان يقول)

« حامي الحمى تحت ظل طاعته، وكافي الاسلام الذي يأمن من اضاعته،  
المحرز مزايا الاعمار الطويلة حظ الشهر في يومه وحظ اليوم في ساعته،  
الموقر المهيب المؤمل المعلم ابي النصر سعد، عرفه الله تعالى ببركة سعد  
بن عبادة جدّه، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وادعاه بمجده، ووزيره  
في حله ووقده، واجناه ثمرة النصر الذي كناه به، ووصل مبداه بسببه، فما  
النصر الا من تنده

(الى ان يقول) اختار لقيادته مغانبه المنصورة، وامارة غزواته المبرورة،  
اقرب الناس الى نفسه نسبا، واوصلهم به سببا، واحقهم بالرتب المنيفة،  
والمظاهر الشريفة ذاتا وأباً، وصرف اليه آماله واستعمل في أسنته يمينه  
وفي اعنته شماله، وعقد عليه ألويته الخافقة لعزة نصره، وراي الظهور على

اعداء الله تعالى جنى فمبدأ لهصره، وادار هالة قتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره ونبه نفوس المسلمين على جلاله قدره وقدمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتملة على الاشياخ من اولاد يعقوب كبار بني مرين، وسائر قبائلهم المكرهين،، الخ

وكانت رسائل بني الاحمر الى ملوك العدو تهري بالنفير والاستنجاد كلما بدأ للعدو كربة وأجلها ما كتب بقلم لسان الدين بن الخطيب أيام وزارته فنقل منها بعض الجمل إجمالاً لمعنى الحالة، ونأثر بعض الفقر المدالة على فقر الاندلس الى المغرب كلما أمن العدو في الاستعالة، فن ذلك ما كتبه من كتاب على لسان سلطانه الى ابن مرين

« ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل بها الاقوات المهيأة للانتساف، ويسكن ما ساء البلاد المسلمة من هذا الارجاف، وتفرغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته، حتى يظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته، ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أردناه، وشموخ الانف فيما أصدرناه، الا ما أشمنا من عزمكم على نصرة الاسلام، وارتقاب خفوق الاعلام، والنهوض الى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وان الارض حمية لله تعالى قد اهتزت، والنفرة قد غلبت النفوس واستفزت، واستظهر لنا بكتبكم اني تضمنت ضرب المواعد وشمرت عن السواعد، وان الخيل قد أطاقت الى الجهاد في سبيل الله الاعنة، وان شايها سدتها بروق الاسنة، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون، والاموال قد سمح بها المسلمون، وهذه الامور التي تمشت بقربها أو بعيدها أحوال الاسلام، والاماني المدة لتزجية الايام، ثم اتصل بنا الخبر الكارث بما كان

من خور العزائم المؤمنة بمدكورها، وتسويف مواعيد النصر بعد استشعار فورها، وان الحركة مهيئة الى صراخ الجبهة التي في ايديكم زمامها، واليكم وان تراخي الطول ترجع أحكامها، والقطار الذي لا يفوتكم مع العجلة، ولا يعجزكم عن الصولة، ولا يطالبكم ان تركتموه، ولا ينمىكم ان طرقتموه وعركتموه، فسقط في الايدي الممدودة، واختلفت المواد المحدودة، وخسئت الابصار المرتقبة، ورجفت المعاول الاشبة، وساءت الظنون، وذرفت الميون، وأكذب الفضلاء الخبر، ونهوا أن يعتبر، وقالوا هذا لا يمكن حيث الدين الحنيف، والملك المنيف، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم، وحمل النصيحة أعناقهم، هذا انقراض الذي يبعد، والقائم الذي يقعد، يأباه الله تعالى والاسلام، وتأباه العلماء الاعلام، وتأباه المآذن والمنابر، وتأباه الهمم والاكارب، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبي الذي اذا كانت باطلا فهو الظن، والله المن، وان كان خلافا لرأي ترجع، تنفق بقرب الملك وتبجح فنحن نؤفد كل من يقدم الي الله تعالى بهذا القطر في شفاعته، ويمد اليه كف ضراعة، ومن يوسم بصالح وعبادة، ويقصد في الدين بث افادة، يتطرحون عليكم في نقض ما ابرم، ونسخ ما أحكم، فانكم تجنون به على من استنصركم عكس ما قصد، وتحلون عليه ما عقدوهب العذر يقبل في عدم الاعانة وضرة الاستماعة والاستكانة، أي عذري يقبل الاطراح، والاعراض الصراح كأن الدين غير واحد، كأن هذا القطر الكلمة الاسلام جاحد، كأن ذمام الاسلام جامع، كأن الله غير راء ولا سامع الخ

ومن كتاب آخر في وصف ضيق المسلمين بالاندلس قوله « وان

تشوقم الى احوال هذا القطر ومن به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين

والفضل المبين، فاعلموا إننا في هذه الايام ندافع من العدو تياراً ونكابر  
بحراً زخاراً، ونتوقع - الآن وفي الله تعالى - خطوباً كبيراً ونعد اليد الى الله تعالى  
انتصاراً ونلجأ اليه اضطراراً ونستمد دعاء المسلمين بكل قطار استعداداً  
به واستظهاراً ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ اخطاراً وينشيء ريمح  
روح الله طيبة معطاراً فان القومس الاعظم قيوم دين النصرانية الذي  
يأمرها فتطيم ومخالفة لا تستطيع رمى هذه الامة الغربية المنقطعة منهم  
بجراد لا يسد طريقها ولا يحصى فريقها التفتت على أخي صاحب قسالة  
وعزمها أن تملكه بدله وتبلغه أمله ويكون الكل يداً واحدة على المسلمين  
ومناصبه هذا الدين واستئصال شأفة المؤمنين وهي شدة ليس لاهل هذا  
الوطن بها عهد ولا عرفها نجد ولا وهد وقد اقتحموا الحدود القريبة  
والله تعالى ولي هذه الامة الغربية وقد جعلنا مقاليد امورنا بيد من يقوي  
الضعيف ويدراً الخطب الخفيف ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم  
( الذين قل لهم الناس إن الناس قد جموا لكم فاخشوهم فزادهم إيماء وقالوا  
حسبنا الله ونعم الوكيل ) إلى آخر ما قال

وله من جملة كتاب عن سلطانه الى سلطان المغرب في ذلك المقصد:  
« وليعلم مقامكم وهو من إصالة النظر غني عن الاعلام ولكن لا بد من  
الاستراحة بالكلام والتنفث بنفثات الاقلام إننا إنما نجري امورنا مع  
هذا العدو الذي رمينا بجواره وبلينا والحمد لله بمصادمة نياره على تعداد  
أقطاره واتساع براريه وبحاره بأن تكون الامة المحمدية بالعدوتين تحت  
وفاق واسواق النفاق غير ذات تفاق والجاهير تحت عهد من الله تعالى  
وميثاق فهما تمرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عقد ووقع بينهما

في قبول الطاعة رد ساءنا واقعه وعظمت لدينامواقفه رسألنا بأن يتدارك  
الخرق رافعه لما نتوقه من التشاغل عن نصرنا وتفرغ العدو الى ضرنا»  
( الى آخر مقال وانعم في المقال )

وله في مثل ذلك عن سلطانه الى أحد أولاد السلطان أبي الحسن  
المريني قيل الى السلطان أبي فارس عبد العزيز وهو قوله :

« ان هذا القطر الذي تعددت فيه المحاريب والمنابر والراكم  
والساجد والذاكر والعابدو العالم واللفيف والارملة والضعيف قد انقطع  
عنه أرفاد الاسلام وشحت الايدي به منذ أعوام وقوبلت ضراره بالاعذار  
والمواعيد المسافرة للاعمار وان عرضت شواغل وقتن وشواغب ولاحن  
فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بجملته ولا يذهب المعروف بكليته

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يؤاسيك أو يسليك أو يتوجع  
ولو كانت الاشغاب تقطم المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح  
المقدس والدمك جبل الفتوح وهو منازل أخاه بسجلماسة ولا أمده ولده  
الساطان أبوعزن وهو براكش ( الى أن يقول ) ولا كالحسرة في الجبل  
باب الاندلس وركاب الجهاد : حسنة بني مرين وما أثر آل يعقوب وكرامة  
الله للسلطان المقدس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين  
والدمك الذي ترد على قبره مع الساعات والانفاس وفود الرحمة وهدايا  
الزلفة وريحان الجنة فلولا أنكم على علم من أحواله لشرحننا الجميل وشكلنا  
المثمل إنما هو اليوم شبح مائد وطلل بائد ولولا ان الله تعالى شغل العدو  
عنه بفتنة لم بصرف وجهه إلا اليه ولا حوم طيره إلا عليه ولكان بعدد  
أن يتخذ الصليب ذراً وأن يقر به عيننا والعدوة فضلاً عن الاندلس قد



أوسمها شرّاً وأرهب ما يجاوره عنراً نسأل الله أن لا يسود الوجوه بانفجع فيه ولا يسمع المسلمين الشككه ( الى أن يقول )

فمن يستدعي لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن حيث المآذن بذكر الله تملأ الآفاق وكلمة الاسلام قد سمت الربى والوهاد إنما الاسلام غريق قد تشبث باهدابكم يناشدكم الله في بقية الرمق وقبل الرمي تراش السهام وهذا أو ان الاعتناء واختيار الحماة وأعدادا لقوات قبل أن يضيق المجال وتمنع الموانع وقد وجهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم مقررآ الضرورة منهيها الرغبة مذكراً بما يقرب عند الله مذكراً للذمام الاسلام جالباً على من وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح الصدور وتسنى الآمال وتستدعي الدعاء والثناء فالؤمن كثير بأخيه ويبدالله مع الجماعة والمسلمون يد على من سواهم . انؤمن للمؤمن كالبنياز المرصوص يشد بعضه بعضاً والتعاون على البر والتقوى مشروع في الذكر الحكيم مذكور وحق الجار مشهور وما كان جبريل يوصي به في الصحيح مكتوب (الى آخره)

\*\*\*

وما زالت الاندلس تستجيش بالمغرب أو ان الضعف وملوك بني الاحمر يستصرخون بني مرين من وراء البحر إلى المائة التاسعة حيث صار السائل لا يجد مجيباً والصارخ لا يسمع . ايياً وتخاذل المسلمون عن النصرة وشغلوا في المغرب بشؤونهم الخاصة وفتنهم الناجمة عن مد اليد إلى اخوانهم في اسبانية بل انصرفت حبال آمالهم ببقاء ذلك القطر على الكلمة وأيقنوا أن سوف لا يبقى أحد في ذلك البر من الامة المسلمة فصارت ترد عليهم الاخبار وهم ساهون وتحذتهم الجمالية والركبان بما خلنوا

وراءهم من الفجائع والفظائع وهم لاهون ، وإذا نار بأحدم نائر للجهاد لم يجد علما ينضوي اليه ، ولا سندا يعول عليه ، ولا جماعة ينتظم فيها . ذلك بما أصاب المغرب من افتراق الكلمة وأحطاط الدول ، وتحول الاحوال الاول ، فلما سقطت الاندلس كانت اختها العدوة ناظرة اليها وهي تنشد

ألا رب يوم لورمتي رميتها      ولكن عهدي بالنضال قديم

وأما النصارى ففي بداية برازم مع المسلمين في الجزيرة الاندلسية كانوا يستنجدون لأخوانهم وراء جبال البيرانه فتخف إلى صريحهم امم الفرنج والامان والانكايز وربما نهض معهم امم اخرى من جميع أقطار النصرانية ولولا نجدات البرالكبير لاهل اسبانية اتحوات الجزيرة بأسرها إلى الاسلام ، وكان الفاصل بين الفريقين جبال البيرانه بدل أن يكون بحر الزقاق ، كما أنه لو لا شارل مارتل المروف عند العرب بقارله لسخر المسلمون قسما من أوروبا وربما كانوا وصلوا إلى القسطنطينية العظمى من طريقها حسبما كان يتخيل موسى بن نصير ، ولكن دول أوروبا خصوصا ما جاور منها اسبانية كانت لاتضن على هذه البلاد بدم ولا مال في مدافعة المسلمين تخلصا من غاراتهم إلى ما وراء الجبال وحصولهم في قلب اوروبا وكان نصارى اسبانية أنفسهم أهل شدة ومراس على الحرب ، وكان أمراؤهم عند القتال يجمعون من في اقطاعهم من المقاتلة وينضمون إلى الملك وبقي هذا شأنهم إلى أن علق آمالهم باجلاء المسلمين عن البلاد ، ووجدوا في حالة الجند من جهة المؤونة قصورا عن ادراك المرام ، فأرادوا انشاء مرابطة أشبه بمرابطة الاسلام ، لاشغل لها الا الصلاة والقتال وسبق إلى تحقيق هذا الوطر الفونس الباتليور صاحب أراغون فأنشأ جنديا سماها بنظام

المخلص وجعل لها قوانين وعلامات وقاتل بسنة آلاف من رجالها في غارته على بلاد المسلمين ، ثم ظهر نظام الفرسان الهيكليين الذي انشئ سنة ١١١٩ فلم تـمض بعـشرة سنة حتى بلغ من القوة والاستفحال المبالغ التي لا تصح الا للدول ، وسنة ١١٥٦ أنشأ إثنان من أمراء الاسبانيول أحدهما اسمه سويرو والثاني غرمان نظام مار جوليار الاجاص وذلك لكونهما بنيا حصناً في مكان مخصص بـار جوليان فيه غيضة أجاص تزل لهما عنها مطران طلمنكة وسنة ١١٥٧ بعد وفاة الامبراطور الفونس السابع حينما جمع الموحدون عساكرهم لمنازلة طليطلة خارت عزائم الفرسان الهيكليين الذين في يدهم قلعة رباح فنزلوا عنها المدين سانشو أو سانجه الملقب بالمأسوف عليه فأعلن هذا الامير ان من أراد من أمراء البلاد الدفاع عن قلعة رباح فهي له أقطاعاً بملاحقاتها فلم ينهض احد وبعثت الحمية راهبا من دير فيترو سمي فيما بعد مار ريموند وراهبا آخر اسمه دياغو فلكيز فطافا في البلاد وبالغا في التحريض والنهيز حتى جمعا عشرين ألف مقاتل في تلك القلعة وامتلات ذخائر فأنشأ لهم ريموند نظاما وقيدهم بروابط وسمى هذه الجندية الدينية بنظام قلعة رباح وجاءها التثبيت من البابا واستمسكت بقوانين ماربنوا وكانت علامتها الفارقة رداءً أبيض وقلنسوة مرسله من الرأس على المنكبين وبعد ذلك صارت علامتها صليباً أحمر على الثياب وفي هاتيك المدة تألف نظام رهباني حربي آخر يقال له نظام مار يعقوب السيف وثبته البابا اسكندر الثالث وجمعات لاصحابه علامات فارقة في الثوب وشكل الصليب وغير ذلك وكانت مدينة القنطرة في يد فرسان قلعة رباح فأسلموها الى فرسان مار يعقوب وصارت مركزاً لهم ومن هذه الفرق الرهبانية المرابطة أيضاً

فرسان مار جرجس القامه نظمهم الفونس الثاني ملك أراغون سنة ١٢٠١ في نواحي طرطوشة وسنة ١٣١٧ بعد استئصال الهيكانيين نأى في مونييزة من أراغون نظام آخر باسم مار جرجس فانضم اليه النظام الاول وصارا واحداً وكان لكل نظام من هؤلاء رئيس اسمه المعلم أو الاستاذ ويرتبه أعلى الرتب، ويتلوه القائد الكبير وينوب عنه اذا غاب، ويتلوه الكلافر، وهو دهقان القوم المكاف بإدارة الاملاك وحفظ الاموال وكان في نظام مار ياقوب مجلس مؤلف من ثلاثة عشر أخلاً يعقد ولا يحل المعلم بدون قرارهم ووجد في اسبانية نظام راهبات محاربات - هي بنظام - بيدات الفأس وأصل تأسيسه ان المسلمين بعد أن خسروا طرطوشة كروا لاسترجاعها وحاميتها قليلة فكادت تسقط لولا ما قيل من أن النساء هجمن نحو الاسوار وبنان أنفسهن حتى رددن العدو فتأسس من ذلك الوقت نظام جندي للنساء، وسنة ١٣٧٩ قلد جويان الاول سيف الفروسية مائة شاب من أبناء اذعيان وأعطاهم وسام الجملة وكان عقد الوسام عبارة عن سلسلة ذهب معلنة بها حمامة من الفضة في دائرة من الذهب وكان نذر اوائك الفرسان أن يكونوا أمناء انسااتهم وأما مقصد هذه الراهبات كلها فهو حرب المسلمين وغزوهم وقد وجد غير ما ذكرنا لكن هذه هي المشهورة وقد اتسعت سلطتها وانبطت قوتها حتى صار يخشاها الملوك وأصبحت تستبد عليهم استبداد غزاة المغرب على ملوك غرناطة، فلما ثل عرش غرناطة وتم مقصد فرديناند وايزابلا وأدى هؤلاء الفرسان خدمتهم عول الملك وامراته على إلغاء هذه المنظمات ونال من البابا اينوشنسيوس الثامن أمراً بإدارة هذه الراهبات وصارت منذ ذلك الحين الى نظر الملك

## الفصل السادس

في سقوط غرناطة والجللاء الاخير

وصلنا في ذكر دولة بني الاحمر الى أبي الحسن علي المتولي الملك بعد محمد بن اسماعيل والذي يفهم من بعض مؤرخي الفرنج انه هو ابنه البكر وفي النفع يقول انه هو أبو الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف بن محمد الغني بالله ولا يذكر كيف أفضت اليه الامارة بل جل مايقوله هنالك ان بني الاحمر ملوك الاندلس الباقية بعد استيلاء المدو على الجبل كانوا في جهاد وجلاد في غالب أوقاتهم الى زمان السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالب الاحمري واجتمعت الكامة عليه بعد ان كان أخوه أبو عبدالله محمد بن سعد المدعو بالزغل قد بويع بمالقة بعد ان جاء به بعض القواد من عند النصاري وبقي بمالقة برهة ثم ذهب الى أخيه أبي الحسن وانقضت الفتنة أه

وقال مؤرخو الفرنج انه لما ثار لزغل على أخيه وسرح أخوه الجيش في أثره فر هذا الى الدون انريك ملك قشتالة فتجاوز أبو الحسن حدود بلاده وأغار على بلاد الاسبانيول اكن روى دوليون قائد الثغور قابله بأخذ مدينة مونتجيقار ثم مات الدون انريك وتولى فرديناند وايزابلا فراساهما أبو الحسن في المرادنة فقبلا بها على شريطة أن يعترف سلطان غرناطة بسيادة ملك قشتالة فأجاب سفراء ابن الاحمر أنهم غير مفوضين بذلك فأشخص فرديناند وايزابلا سفراءهما بطلب الجزية واقتضاء الخضوع من صاحب غرناطة فلما عرضوا ذلك على السلطان أبي الحسن أبي قبوله كل

الاباء وقال لهم اذهبوا واخبروا من أرسلكم ان الملوك الذين كانوا يؤدون الجزية قد اتوا منذ طويل وان دار الضرب في غرناطة عادت لا تضرب فضة ولا ذهباً ولا تضرب الاسيوف وحراباً وحيث كان فرديناند وإيزابلا مشغولين بحرب البرتغال احتمالاً منه هذا الجواب وأجلاً الانتقام منه الى وقت آخر

وأما أبو الحسن فافتتح الحرب على النصارى ودم قلعة الصخرة التي كان الاسبانيول قد استولوا عليها في أيام فرناند الرشيد لما بلغه من ضعف حاميتها فتسلقت عساكره أسوارها ليلا ووضعت السيف في الحامية وسافت البقية مقرنين في الاصناد الى غرناطة وقفل أبو الحسن ظافراً منصوراً الى حضرته فخرج الاعيان لملاقاته ولكن عامة أهالي غرناطة بزعم مؤرخي الاسبانيول لم يحتفلوا بما صنعه أبو الحسن خصوصاً بسبي النساء فأظهروا الامتناع ووزعوا المآكل على الاسرى وقيل انه لما اجتمع الامراء والفقهاء لتهنئة السلطان بهذا الفتح اذا بصوت هائل ارتفع فيهم يقول الويل لغرناطة قد دنا أجاءها إن انقاض الصخرة ستقع على رؤوسنا فأرجف هذا الصوت جميع الحضور، وتطلعوا فاذا بشيخ طاعن في السن من طبقة الدراويش قد خرج يطوف في الاسواق ناعقاً بالخراب ولا نفاق الغراب، حتى أجزع الجميع، وتطير منه الرفيع والوضيع، وأما أبو الحسن فعده من جملة المسوسين ولم يلتفت اليه

وقال بعض اولئك المؤرخين أن مملكة غرناطة لعهد أبي الحسن كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة وسبع وتسعين قلعة عدا الابراج والحصون والقرى العاصرة، وورد في التاريخ العام للعلامة كنتوال الشهير ان

سلطنة غرناطة في تلك الايام كانت تحتوي ثلاثين مصراً وثمانين مدينة صغيرة وعدادا لا يحصى من الابراج والحصون والساكر، وقد قرر بعض المؤرخين عدد بقية المسلمين في الاندلس باربعة ملايين من النسم وقالوا ان السلطان ابا الحسن بن الاحمر داخلته الخيلاء وخامره العجب ببسطة سلطانه وكثرة جنوده ففي سنة ١٤٧٨ لما حضر الدين جان دوفيرا من فرسان فرديناند وايزابلا ومعه جماعة يتقاضى الجزية المعتادة من مولاي ابي الحسن احتفل السلطان بلقائه وظن في الاول انه قادم لمبارزة أحد فرسان المسلمين لما كانت جارية به العادة بين الفريقين من البراز والسجال في ألعاب الفروسية أيام الموائد فلما عرض له الامر أجابه الجواب السابق من أن الذي سبق لهم أن يؤدوا الجزية قد ماتوا والآذار ضربت باعدت لا تضرب إلا انصالا وحرابا فلم يتمكن الملك وزوجته من جواب ابي الحسن إلا بعد ثلاث سنوات لاشتغالهما بحرب البرتغال. وكان بين ملوك الاسلام والاسبانيول عهد على أن اسكل فريق أن يشن الغارة على أرض الفريق الآخر خفية بدون نشر بنود ولا قرع طبول بشرط أن لا تطول مدة غارته فوق ثلاثة أيام فعلم أبو الحسن أن قلعة الصخرة قبيلة الحامية وهي قلعة أمنع من عقاب الجو مبنية على قنة جبل لها طريق واحد منحوت في الصخر فقبل عيد الميلاد بأيام انتبه أهل الصخرة ليلا على صياح « المغاربة . المغاربة » فدخلوا القاعة وقتلوا الحراس وأسروا من سلم وساقوهم الى غرناطة وجرى ماجرى

وقال المقرئ في شأن ملك هذا السلطان ما يأتي

واستقل السلطان أبو الحسن بما بقي من ملك المسلمين بالاندلس وجاءه

الاعداء، وافتتح عدة أماكن ولاحت له بارقة السكره على العدو وخافره  
وطلبوا هديته وكثرت جيوشه فاجمع على عرضها بين يديه وأعد لذلك  
مجلسا اقيم له خارج الحمراء وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع  
عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة ولم تزل الجنود تعرض عليه كل  
يوم إلى الثاني والعشرين من محرم السنة التي تليها، وهو يوم ختام العرض  
وكان معظم المنزهين بالسبيكة وما قارب ذلك فبعث الله سيلا عرما على  
وادي حدرة بحجارة وماء غزير كافواه القرب عقابا من الله وتأديبا لهم  
لمجاهرتهم بالفسق والمنكر واحتمل الوادي ما على حافتيه من حوانيت  
ودور و ماصر وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق وبلغ تيار السيل إلى  
رحبة الجامع الاعظم ولم يسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد وكان بين  
رؤساء الافرنج في ذلك الوقت اختلاف عظيم فبعضهم استقل بملك قرطبة  
وبعضهم بأشبيلية وبعض بشرىش وعلى ذلك كان السلطان أبو الحسن قد  
استرسل في اللذات، وركن إلى الراحة وأضاع الاجناد وأسند الامر  
إلى بعض زرائه واحتجب عن الناس ورفض الجهاد والنظر في الملك  
ليقضي الله تعالى ما يشاء وكثرت المظالم والمغارم فانكر الخاصة والعامة ذلك  
منه وكان أيضا قد قتل كبار القواد وهريظن أن النعماري لا يغزون البلاد  
ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد وانفق أن صاحب قشتالة تغلب  
على بلادها وانقاد له الرؤساء المخالفون ووجدت النصارى الطريق إلى  
الافساد وذلك انه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من  
بنت عمه السلطان أبي عبد الله الايسر وكان قد اصطفى على امهمارومية  
له منها بعض ذرية وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية فخيف أن يقدم



أولاد الرومية على أولاد بنت عمه السنية وحدث بين خدام الدولة التنافر  
والتعصب لميل بعضهم الى أولاد الحررة وبعضهم الى أولاد الرومية وكان  
النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لا مدحودوه وضربوه ولما تم أمد  
الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الاولاد وتشكي  
الناس مع ذلك بأوزراء والعمال اسوء ما علموا به الناس من الحيف والجور  
فلم يصنع اليهم وكثر الخلاف واشتد الخطب وطلب الناس تأخير الوزير  
وتفانم الامر انتهى

وورد في تواريخ الافرنج أن السلطان أبالحسن كان متزوجا بامرأتين  
احدهما ابنة عمه واسمها عائشة الحررة والثانية ثريا اسبانيولية اسلمت كان  
أبوها قائد مرئوس وله من الاولى أبو عبدالله محمد ويلفظ في بلده بالتخفيف  
فيقال أبو عبد الله وحرقة الاسبانيول أبو عبدل ومن الثانية ولدان  
أحدهما سيدى يحيى الذي كان يريد أبوه أن يوليه عهدا كراما والدة الحظية  
وبهذه المناظرات انقسمت غرناطة الى قسمين ومال قسم من الرؤساء  
والاعيان نحو الامير أبي عبد الله واشتدت الفتنة التي مصدرها النساء وفي  
خلالها ارتكب السلطان أبو الحسن الخطأ في منازلة الصخررة لوقوع الفرقة  
في مملكته فلما بلغ خبر أخذها الملك فرديناند جزع جزعاً شديداً وأعمل  
في النفير وجمع مقاتلة الثغور، وبث الرهابين في جميع الاقطار يستنفرون  
فرسان النصرانية لقتال الاسلام، فأول من لبى الدعوة الدون لدرهق بوانس  
ليون الملقب بمركينز قانس وكان له في الاندلس أراض واسعة وحصون  
عديدة وعنده مقاتلة كثيرة، فاجمع الغارة وبلغه أن قلعة الحامة قليلة الحراس  
فارسل من جماعته رجلا حاذقا مقداما دريا باقتحام الثغور خبيراً بتساق

الجدران اسمه اورتغادو برادو فرادله في نواحي الحامة ليلة . دلهمة و طاف  
حول الاسوار وصعد القلعة وحين . كان وضع السلام وعاد مخبرا . وولاه  
بما شهد فجمع هذا اصحابه وساروا في ثلاثة آلاف فارس . اربعة آلاف ماش  
وكانوا في النهار يكمنون وفي الليل يسرون بدون جابية ولا ضوضاء  
حتى وافوا الحامة قبل انبلاج الفجر بساعتين فسار اورتغابا ثلاثمائة . قاتل  
وثلاثين من حملة السلام الى جانب القلعة فتسلقوها بدون عائق وقتلوا  
بعض الحرس وارتفعت الصيحة ومُلكت القلعة لكن أهل المدينة وان  
كانوا في الاغلب تجارا وصناعا فقد كانوا ذوي حفاظ وشدة بأس وبصائر  
في الحرب كسائر المغاربة فرشقوا المحاصرين بالنبال والحجارة وحملوا على  
القلعة فضيقوا عليها حتى خاف الاسبانيول أن يترجموها عنهم وتشاوروا  
في حرقها والخروج منها فنهاهم المركب عن ذلك وحرصهم على الثبات  
واستحرق القتل بين الفريقين وقاتل أهل الحامة نساءً ورجالا صغارا وكبارا  
قتال الاسود عن أشبالها لكن العدو تغلب عليهم فقتل بعضاً وأسر بعضاً  
ونهب البلدة ودمرها تدميرا

وأسرع فارس مغربي الى الحمراء يخبر السلطان أن النصارى قد دهموا  
تلك الليلة قلعة الحامة وحدث عراك شديد على الاسوار وانه عندما فارق  
المدينة كانت القلعة في يد النصارى فأرسل من غرناطة الف فارس لاجل  
المشاركة واستقصاء الخبر فوجدوا العدو قد تسلم القلعة والبلدة فزحف  
السلطان أبو الحسن بثلاثة آلاف فارس وخمسين الف راجل ولم يستأن  
ريثما يجرز جيشه بالمدافع والعدة وكان لدر كيز صاحب هو الدون الونزو  
القرطبي قدم لنصرة صاحبه فلما أحس بقدم أبي الحسن فر الى النقيرة فلم

يتعقبه السلطان ، ظن قاصداً الحامة وحصرها من كل جهة وركز الاعلام  
حواليها لكن حيث كان جيشه مكشوفاً للعدو أصبح هدفاً للاسهام فقتل  
منه كثيرون وارتدوا على أعقابهم وادرك ابن الاحمر خطأه بالزحف  
بدون آلات الحصار واكتنه لم يرجع عن كيده بل أمر بحفر الخنادق حول  
السور وواصل القتال فقتل جرح من المسلمين نحو الالفين

فأعمل المسلمون الحيلة في قطع المدد عن الحامة وكان لها نهر يسهبها  
فأدارود عنها بعد أن تقالوا عليه قتل اليأس واذ لم يكن فيها عيون ولا  
آبار إشتد الخناق بالاسبانيول ولم يبق لهم مورد سوى قناة صغيرة وعاليهم  
اذا وردوها أن يقاتل منهم فريق ويشرب فريق حتى يصح أن يقال ان  
كل نقطة ماء بنقطة دم

ثم سقطوا على بثر أغاثهم ماؤها قليلا ولكن بلغ منهم الضيق حده  
فأرسلوا بالصرينج الى ملوكهم فأصرخهم دوق مدينة سيدونيا من اشبيلية  
في خمسة آلاف فارس وخمسين الف ماش وظاهره رئيس فرسان قلعة  
رباح وتقدم فرد بناند بمحاشية غير وافرة وأرسل يقول للدوق ان ينتظر  
اجتماع الحشود فأجابه الدوق انه لا يمكنه الانتظار اكون لذين تحت  
الحصار في ضيق شديد واذ علم أبو الحسن بدنو الجيوش عزم على الهجوم  
الاخيرة وفي صباح يوم اجتمع نخبة من أبطال المسلمين وأسلكوا السور  
من ناحية برج عل ووضعوا السلام وقتلوا الخفراء ووصلوا الى السوق  
وكادوا يباغون الابواب وهم نحو سبعين رجلا فقط فأحاط بهم الاسبانيول  
لما طاة السوار بالمعهم فانضموا شبه دائرة رافعين في وسطهم راية النبي صلى  
الله عليه وسلم وظلوا يدافعون عن حوضهم دفاع الليوث حتى لم يبق

منهم سوى رجل واحد سقط وهو معتنق الراية النبوية فأصاب أبا الحسن  
اليأس من هذا الفشل وأتلم عن الحامة الى غرناطة ووصلها بعد الكثيف  
انتهى ما ذكره الا فرنجي شأن الحامة وهالك ما ورد في نفع الطيب بهذا الشأن  
وصح عند النصارى ضعف الدولة واختلاف القلوب فبادروا  
الى الحامة فأخذوها غدرًا آخر أيام الصلح على يد صاحب قانس سنة  
سبع وثمانين وثمانمائة وغدوا للقلمة وتحصنوا بها ثم شرعوا في أخذ البلد  
فلاوا الطرق خيلا ورجالا وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ونهبوا  
الحريم والناس في غفلة أيام من غير استعداد كالسكرى فقتل من قضي الله  
تعالى تمام أجله وهرب البعض وترك أولاده وحريمه واحتوى العدو  
على البلد بما فيه وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عند ما بلغهم  
العلم وكان النصارى عشرة آلاف بين ماش وفارس وكانوا عازمين على  
الخروج بما غنموه واذا بالسرعان من أهل غرناطة وصلوا فرجع العدو  
الى البلد فحاصروهم المسلمون وشددوا في ذلك ثم تآثر المسلمون خيلا  
ورجالا من جميع بلاد الاندلس ونازلوا السامة وطعموا في منع الماء عن  
العدو وتبين للعامة ان الجند لم ينصحوا فأطلقوا اليهم بأقبح الكلام  
فيم وفي الوزير وبينما هم كذلك اذا بالنذير جاء ان النصارى اقبلوا في  
جمع عظيم لا غانة من بالحامة من النصارى فأقلم جند المسلمين من الحامة  
وقصدوا ملاقاته الواردين من بلاد العدو ولما علم بهم العدو ولوا الادبار  
من غير ملاقاته محتجين بقاتلهم وكان يديهم صاحب قرطبة  
ثم ان صاحب اشبيلية جمع جنداً عظيماً من جيش النصارى الفرسان  
والرجال وأتى لنصرة من في الحامة من النصارى وعند ما صح هذا عند

العسكر اجتمعوا وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد  
والصلاح الرجوع الى غرناطة ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج اليه الحصار  
من العدة والعدد، فعند ما أوقع المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون  
وتشاوراني لإخلائها أو سكنائها، واتتقرا على الإقامة بها وحصنوها وجعلوا  
فيها جميع ما يحتاج اليه وانصرف صاحب اشبيلية وترك أجناده وفرق  
فيهم الاموال ثم عاد المسلمون لحصارها وضيقوا عليها وطمعوا فيها من  
جهة، ووضع كان النصارى في غفلة منه ودخل على النصارى جملة وافرة  
من المسلمين وخاب السعد بذلك بأن شعر بهم النصارى فعادوا عليهم  
وتردى بعضهم من أعلى الجبل وقتل أكثرهم وكانوا من أهل بسطة ووادي  
آش فانقطع أهل الناس من الحامة ورقم الاياس من ردها انتهى  
فأنت ترى قرب الروايات العربية من الافرنجية في مؤداها وقد  
آثرنا المقابلة بين القلين زيادة في التمهيص واسعانا في النصح لقلة تداول  
هذا التاريخ في العربية

ثم قال صاحب نفح اليبس في جمادى الاولى من السنة تواترت  
الاخبار ان صاحب قشتالة أتى في جنود لا تحصى ولا تحصر فاجتمع  
الناس بغرناطة وتكلموا في ذلك وإدابه قد قصد لوشة ونازلها قصد  
أن يضيفها الى السائمة وجاء بالعدد والعدد وأغارت على النصارى جملة  
من المسلمين فقلوا من لحقوه وأخذوا جملة من المدافع تكبار ثم جاءت  
جماعة أخرى من أهل غرناطة وناوشوا النصارى فأجأوهم الى الخروج عن  
الخيام وأخذوها فهرب النصارى وتركوا طعاما كثيرا وآلة ثقيلة وذلك  
في السابع والعشرين من جمادى الاولى من السنة المذكورة انتهى

وقال مؤرخو الافرنج ان فرديناند عقد مجلسا في قرطبة ليري ماذا يفعل بالحامة فأشار اكثرهم بك حصونها واخلائها لصويرة حفظها من طارقة المدوولزوم حياطنها دائما بحامية وافرة تقتضي نفقات باهظة فمارضت في ذلك الملكة ايزابلا وأصرت على ابقائها وجملت حمايتها لنظر قائد اسمه فرناند بورتو كريو ومع اربعمائة فارس والفر راجل وأجمع فرديناند على حصار لوشة وهي مرقع حصين على مقربة من الحامة فاستنفر جميع المدن وبالغ في حشد العساكر وبلغ ذلك المسلمين فراسلوا اخوانهم من وراء البحر فارسل فرديناند وايزابلا اسطولهما المنع اجازة للمدد واكتساح ارياف بر افريقية وسار من قرطبة وقد ترك أكثر نواده في استجة وإنما استصحب خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف ماش فنازل لوشة فشاهد من حصانة لوشة وصويرة مساكها ومنعة النهر المطيف بها ما عاله فادرك خطاه بسرعة الاقدام لكنه أرسل كتيبة من جيشه للنزول برودة محاذية للجسر يسميها المغاربة « صنتو أبو الحسن » وكان قائد لوشة رجلا يقال له علي المطار شيخنا عالي السن مناهز التسعين لكنه لم ينفد شيئا من صلابة جنانه ولا قوة ادراكه وهو حمو الامير أبي عبد الله ابن السلطان أبي الحسن وكان عنده ثلاثة آلاف فارس فرسل في الليل طائفة من جنده فكهنوا وراء « صنتو أبي الحسن » وعند الصباح خرج وهاجم المسيحيين فثاروا في وجهه فانهمز امامهم خديعة منه فطاردوه ملحين واذا بالاصوات ارتفعت من خلفهم فالتفتوا فاذا بالمغاربة مقبلين فرجعوا للمحافظة على خيامهم ففكر عليهم علي المطار وأرهم فيهم السيف وبقي يطاردهم ويستلحم منهم حتى تكاثرت نجاتهم فماد عنهم وقد قتل منهم جملة وافرة وفيهم من أكابر فرسانهم

لتزيق جيرون صاحب قلعة رباح الذي استشعر الاسبانيول فقدته كثيرا فلما رأى الملك فرديناند مارأى أيمن بلزوم الرجعة وتأعب للاقلاع واذ رأى علي المطار حر كته في الرجوع برز كالاسد اذا جاع وهجم على مسكر الاسبانيول فهزم منه جانباً فتداعى كاهل الفرار وارتفعت الضوضاء والصياح وبذل المسلمون فيهم السلاح فثبت فرديناند وبطانته ريثما أمكنهم نقل الخيام والمدافع والميرة لكنه كاد يلقى حتفه مرتين لولا تهالك الدون جان دوريرا في وقايته وما زال في ذلك المأزق حتى وصل مر كيزقانس وحال بينه وبين العدو فنجا الملك وفر الى بلاده وعلي المطار يطارده الى ريو فريو فلاحق بقرطبة مدحوراً كبير القلب

وعلى رواية اخرى أن السلطان أبا الحسن خف الى نجدة لوشة وانه في ٢٦ جمادى الاولى سنة ٨٨٧ الموافق ١٣ تموز سنة ١٤٨٢ هاجم مسكر فرديناند من الوراى بينما كان علي المطار قد نهى اليه من جهة المدينة وانه بذلك دارت الدائرة على الاسبانيول وهذه الرواية أقرب الى خبر نفع الطيب اذ فيه أن جماعة من أهل غرناطة ذهبوا الى لوشة وناولوا النصارى فاخرجوهم من الخيام

وقال آخرون أن أبا الحسن لما حضر بجيشه نجدة للوشة وجد فرديناند بجيشه قد جاز الدروب وانه لما بلغت أخبار لوشة حاوية الحامة هامت قلوبهم فتصدىم أبو الحسن فاسرع فرديناند باصر اخيم فارتد ابن الاحمر عنهم وقصد مدينة قانيت فاستولى عليها وقفل الى غرناطة فبلغه انها بايعت ولده أبا عبد الله محمد وتبعها كثير من مدن المملكة فتوجه الى النة التي حافظت على عهده هي ووادي آش وبسطة

قال بعض مؤرخي الافرنج انه في تلك الآونة استحكمت عري  
الخلاف في بيت ملك غرناطة وأخذ بنو سراج عشيرة من أعيان غرناطة  
أصلهم من قرطبة ( ١ ) بالخلاف مع بني زغبة واستفحل أمر أبي عبد الله  
نجل السلطان أبي الحسن ومالت اليه العامة بما نتموا على أبيه ذهاب الحامة  
وهي مفتاح غرناطة فلما قفل عنها المرة الاخيرة خائباً وجد الحاضرة مقفلة  
الابواب في وجهه فمال الى بسطة وهناك جمع خمسمائة رجل وحضر بهم  
الى الحمراء فقتل من التقاه في الدور والساحات ولما أصبح الصباح تكاثروا  
عليه فافتوا أكثر جماعته ففر شريداً الى مالقة. وفي هذه الحادثة يقول المقرئ  
انه هرب الاميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفاً من أبيهما  
أن يفتك بهما بإشارة حظيته الرومية ثريا واستقرا بوادي آش وقامت  
بدعوتهما ثم بايعتهما تلك البلاد المرية وبسطة وغرناطة ، وهرب أبوهما  
السلطان أبو الحسن الى مالقة

وفي روايته شيء من مخالفة الرواية الافرنجية لكن على اتفاق في  
النتيجة فانظروا أي زمن اختاره امراء غرناطة للشقاق والخلاف واذا أراد  
الله شيئاً هياً أسبابه

أما أبو الحسن فاصبح بمدانة قسم الملكة غير قادر على مناصرة فردينا ند  
قرنا لقرن ولكنه يراقب الفرصة للقيام بعمل يمكنه من قلوب المغاربة ويعيد  
عليه سلطانه فعزم على الغارة في أراضي دوق سبديونا وزحف بستة آلاف  
راجل و الف وخمسمائة فارس فلما حصل في بلاد النصراني بين جبل طارق

(١) رواية ستالي لان بول المؤرخ الانكليزي ان اصلهم من قرطبة فيكون  
بنو سراج غرناطة هم سلالة بني سراج قرطبة المذكورين في نفع الطيب



وقسطنطية سرح اربعمائة فارس نحو حصن الجبل وأرسل اربعمائة اخري نحو طريف فمادوا بغنائم لا تحصى ثم رفاً الى ميناء الحصن اسطول بتيادة كارلوس دوفيرا فالتس منه بطاره دوفرغاز أن يتولى قيادة الحصن مكانه ليخرج الى لقاء العدو وسار بسبعين فارسا الى جهة قسطنطية وكانت طلائع السلطان منفصلة عن جيشه فناوشها القتال فخرج اليه ثمانون فارسا وحمي الوطيس فقتل جماعة من أبطالهم وجرح دوفرغاز وعاد كل من المريقين الى مكانه فخيم أبو الحسن بساعة قسطنطية وأحرق بعض بيوتها ولم يتمكن منها ولكنه اعجب بشجاعة دوفرغاز فاستدعى اليه أسيرين من النصرارى وسألها ماهي وظائف قائد جبل طارق فأجاباه ان له على كل قطيع يمر بأرضه كبشاً فصاح أعوذ بالله من أن اعتدي على فارس مقدم كهذا وأرسل اليه اثني عشر رأس غنم عن الاثني عشر قطيعا التي عنده قائلاً لمن أمره بسوقها اعتذر له عني بجهلي الواجب فأجاب دوفرغاز الرسول قبل لي يدي جلالته وقل له اني أسيف من أنه لم يوجد عندي جند أكثر من هذا لا قوم بواجب لقاءه وأملني عند وصول الثلاثمائة فارس الذين أرسلت بطلبهم من شربش ان احتفل له بوليمة فاخرة ثم صرف الرسول مكرماً ولما بلغ أمراء الاسبانيول غزاة أبي الحسن عقدوا النية على أخذ الثأر واهتبلوا هذه الغرة من اشتغال المسلمين بالفتنة فيما بينهم فاجتمعوا في النقيرة تحت زعامة مركيز قانس الدون بطرة هنريكس وقائد اشبيلية الكونت دوسينغونتاو والدون الوتره دو كوردناز والدون الوترو دو اغيلار وغيرهم وبلغ عدد فرسانهم نحو ثلاثة آلاف مع رحالة كثيرة وجعلوا وجهتهم الجبال لوجود قطعان الضان فيها بالثرة وخيلت لهم أنفسهم

الوصول الى وادي آش والاستيلاء عليها بغتة لضعف حاميتها فساروا  
مجتهدين في إخفاء أثرهم ولكن بلغ خبرهم وادي آش وهي وان كانت حاميتها  
قليلة فكان عليها قائد هو جيش بنفسه ، أمة برأسه الا وهو الامير ابو  
عبدالله الزغل اخو السلطان أبي الحسن وكان أخاه أيضا في البسالة والاقدام  
لكنه أصدق وأبقى وأدرب بكبد المدرو وأبصر بمواقم الكزوم ، معنى الزغل عندهم  
الفتى الغض الشباب وكان هذا الاسم وحده يلقي الرعب في قلوب الاسبانيول  
فلما اشرف الاسبانيول من الجبل المطل على مرج مائقة ابتهجوا  
برؤية تلك الارض ابتهاج بني اسرائيل بأرض الميعاد واذ شعر بهم الاهالي  
جمعوا قطعانهم واذوا بحصون الجبال فاحرق الاسبانيول المنازل المهجورة  
واخذوا بشعاب تلك الجبال ، فتردى بعضهم في الاوعار ، فبصر بهم المغاربة  
من ابراجهم فخرجوا ونضحوهم بالنبل ورموهم بالحجارة وتصايحوا بهم  
من كل جانب ، وارتفعت الاصوات ، وتجاوبت الاصداء ، فوقع الرعب في  
قلوب الاسبانيول وأغاث بعضهم بعضا وانضوا الى مكان واحد وتشاوروا  
فيما يصنعون فاجمروا الرحلة وترك الغنائم فساروا في الوعر والمغاربة يمحطونهم  
سيلا دافقا من النبل حتى خارت قواهم وجاععدوا سحابة يومهم الى ان  
جن الظلام فحصلوا في واد عميق واذا بصوت قدم ملا الربى والوهاد  
« الزغل الزغل » فسأل صاحب انتياعر ما هذا ، فاجابه أحد فرسانه هذا  
صوت الزغل فلعله قريب ، فقال لفرسانه لنطلع هذا الجبل ذلك خير لنا  
من ان نذبح كالغنم في قعر الوادي ، فاخذوا صيدا والنشاب والحجارة في  
ظهورهم حتى استاحموا لاسيما الرجالة الذين كانوا يتشبثون باذنان الخيل  
فتهوي بهم وبفرسانها فيهلكون جميعا وما زالوا في هذا الضيق الى ان بلغ

کردنازقنة الجبل فالتفت فاذا به قد فقد حامل رايته وجمان أصحابه وانسبائه  
ورأى نفسه محاطا من كل جانب ثم تردى في مضيق حرج جدا وانتثر نظام جيشه  
أما مركيز قانس فسار من جهة أخرى ومعه الكونت دوسيفنتاز  
والوزودواغيلار فالتقوا به ماكر الزغل فتناجزوا وضاقر الزغل من هالك  
من ابطال الجبلين فانكشف الاسبانيول وانحن فيهم المسلمون قتلا واسرا  
وأذرعوا الفتك فتاوم المركيز مقاومة شديدة لكن سقط أخواه وولدا  
اخيه صرعى بجانبه ولما رأى الثالث من اخوته قد خر صريعا طار تلبه  
شعاعا وأجهش بالمويل ولم يتمالك من البكاء وقتل فرسه فقدم له فرس  
آخر والنمس منه أصحابه الفرار فساعدهم فيه وانهمز بفاهم الى النقيرة  
وأما الكونت دوسيفنتاز فبقي في الجبل مع جماعة وأرادوا الاطلاق  
بالمركيز فروا بجث القتلى من اخوانهم وفيهم سراة الاسبانيول وأمائل  
رجالهم ومغاوير ابطالهم فأصابهم جزع شديد وظلوا منهزمين الى النقيرة  
وتاه منهم جملة وافرة في الشعاب وأسره الجبليون حتى النساء واعتلوا  
منهم بحصن مالنة نحو مائتين وخمسين فارسا وأكثر من خمسمائة راجل  
ولما وصل مركيز قانس الى النقيرة مفلولا شريداً أشعث أغبر  
مخضبا بالدم عظمت النكابة في قلوب الاسبانيول لانه كان عظيم المكانة  
فيهم ولم يجسر أحد أن يعزيه بأخوته بل لزم غرفته كئيبا حزينا وانتشر  
خبر هذه الهزيمة الشنماء في البلاد فارتجت الثغور وساحت اليرات وهلمت  
القلوب حتى قلب فرديناند وايزابلا في وسط قصرهما أما المغاربة فطارت  
قلوبهم فرحا لا سيما عند ماشاهادوا أسراء الاسبانيول وأعيانهم مقيدين  
بالسلاسل تجلبهم فلاحوا الجبال وفي ايديهم راياتهم والكونت دوسيفنتاز

من جملة من ثقفوهم

وهالك ماورد في (الفتح) بشأرمذه الواقعة قال في صفر سنة ثمان وثمانين  
وثمانمائة اجتمع رؤساء النصارى وتصدوا قري مالقة وبلش في نحو الثمانية  
آلاف وفيهم صاحب اشبيلية وصاحب شريش وصاحب استجة وصاحب  
النقيرة وغيرهم فلم يتمكنوا من أخذ حصن ونشبوا في اوعمار ومضايق  
وخنادق وجبال واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة وصار المسلمون ينالون  
منهم في كل محل حتى بلغوا مالقة فقتل كبيرهم ومن بقي قتل أو اسر. وكان  
السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب وبقي أخوه  
أبو عبد الله بمالقة ومعه بعض الجند وقتل من النصارى في هذه الواقعة  
ثلاثة آلاف وأسر نحو الفين من جملتها خال السلطان وصاحب اشبيلية  
وصاحب شريش وصاحب النقيرة وغيرهم وهم نحو الثلاثمائة من الاكابر وغنم  
المسلمون غنيمة وافرة من الانفس والاموال والعدة والذهب والفضة انتهى  
وأما غرناطة فقبضت أبا الحسن على ما أصاب من الغنم والفوز وثار  
بأبي عبد الله ولده لاجل الجهاد فلبى الدعوة وعق عزمامو فوراً على البلاغ  
الغارة حدود قرطبة فحشد سبعمائة فارس وسبعة آلاف ماش وسار الى  
لوشة حيث وافاه جموه على العطار بجيش من الفرسان كاهم مغاوير ثم  
دخل أرض النصارى واكتسح بلادهم الى حدود اشانة  
وكان دلي العطار خبيراً بالارض لكثرة ما قاتل فيها في زمانه فابصر  
ناراً على علم فقال لصهره لقد أصبحنا مكشوفين فانسرع الى فتح لشانة فسار  
معه أبو عبد الله وكان الدون دياغودو قرطبة في حصن بانية وقد علم بقدم  
الغارية فخرج بمائتين وخمسين فارساً والفين ومائتي راجل لانجاد ابن أخيه

في لشانة وفي الطريق تذكر أنه نسي راية بانية التي هي شارة بيته فنشر راية  
قبرة وعند وصوله اتشمس به ابن أخيه مما اعتراه من خوف العدو وبرز  
الكونت لمنازلة العدو فتلاقيا وراء ربي وهضاب وقد أثقلت الغنائم حركة  
المغاربة وشوه - أبو عبد الله ممتطياً جواده الأشهب تحف به بطائنه  
الباهرة ولما ظهر لابي عبد الله جيش النصارى سأل حماد عن رأيهم فأجابته  
لست أعرف ياسيدي هذه الراية وأظن الاندلس كلها زاحفة اليها الاذلا يمكن  
أن أهل مدينة واحدة يتقحمون لقاءنا واشتعلت نار الحرب واذا بأحد  
القواد قد جاء الاسبانيول بمدد جديد وعزف بموسيقى ليطالية فقال علي  
المطار هذه الحار طليانية اعمل العالم كله أصبح ضدنا وكان الضباب كثيفاً  
فقم على المسلمين أمر العدو وظنوه ضئف ماها فكانوا يقاثلون رجوعاً  
حتى بلغوا ساقية هناك فوقف السلطان أبو عبد الله على ضفتها حتى عبرتها  
رجاله وبقي الحرس حواليه والقتال بينهم وبين الاسبانيول فانهمز الحرس  
وعبروا الماء وأصبح السلطان فريداً برأسه فترجل وتوارى وراء الصفصاف  
لئلا يعرفه الاسبانيول فحضروا اليه وامسكوه وظنوه كبيراً من كهراء  
المغاربة فعادوا به الى لشانة أما علي المطار فبث سائراً والعدو في أثره لكنه  
كان يكر عليهم فيبدد شمامهم ويستأنف سيره ولما وصل الخبر الى فرسان  
النقيرة اغتتموها فرصة لادراك الثر وسار الدون الونزو و اغيلا ربح جيش  
فلنقى بالمغاربة على ضفاف الشنيل فاقتملوا شديداً وزعموا أن علي المطار  
أبصر الدون الونزو فقصدته وطعمته بحربة فاثبتها في قنم من درعه ولم  
تصبه بضرر فانتضى حسامه ووثب عليه كالليث الذي قد شكك شبله فدفع  
الفارس الاسباني عن نفسه وبقي القرنان يتساوران ساعة تارة على ضفة

النهر وطورا في الماء وأنخن ذلك الشيخ العجيب جراحات فرق الدون لشخيوخته وعرض عليه التسليم فأباه فدهمه الدون بضربة على ام رأسه نخر صريما في النهر

قالوا : وكان مصرعه سببا في فشل المغاربة فمبروا النهر مفلولين وغرق منهم كثير وأما أبو عبد الله فأحضر لدي كونت قبرة فأعظم موصله وعزاه بما يناسب المقام قائلا له ان القضاء الذي قضى عليه هذه المرة ربما يقضى له مرة اخرى، ووصل سبدي غالب الغرناطي بالصرينخ الى لوشة فغرناطة وأخبر أن السلطان أبا عبد الله قد وقع في يد العدو وان العطار قد قتل بجزع المسلمون جزعاشديدا ومالت القلوب الى السلطان أبي الحسن واطير وامن بي عبد الله استشعره اسدق أموال المنحسين بحقه بأنه سيكون سقوط غرناطة على يده مما لقب لاجله بالشقيتواي الشقي ودخل أبو الحسن الحمراء واستقر ثانيا في كرسيه وانحازت امرأته الحرة الى محلة البيازين وانقسمت العاصمة شطرين فكتب أبو الحسن الى الملك فرديناندو الملكة إيزابلا أن يسلم اليه ولده وهو يسلمها الكونت سيفوتاز وسبعة نامراء آخرين فأبيا تسليمه خوفا من أن يقتله لاحذرا عليه بل خشية من اتقضاء الفتنة بينهما وارسلت امه من جهة اخرى تعرض عليهما رده اليها على وثيقة أن يعترف بسلطة ملك قشتالة ويؤدي جزية وافرة كل سنة ويقدم النفقات العسكرية ويرد اربعمائة أسير نصراني ويقدم سنويا سبعين رقيقا مدة خمس سنوات ويرهن على ذلك ولده الوحيد وأولاد اثني عشر بيتا من بيوتات المغاربة

وحيث كانت إيزابلا غائبة لم تحظ عائشة بجواب وخرج فرديناند

فشن الغارة على أراضي غرناطة وأبو الحسن ملازم مكانه لا يخرج اليه خوفا من أن يعود فيجد الابواب موصدة في وجهه كالعادة فكان نظير النمر الكاسر المحبوس في القنص وصيده بازائه وهذه نتيجة استبعاد النساء بالامور ودخولهن في الاحكام ثم عادت ليزابلافاقت مولاي ابا عبد الله على شريطة أن يعترف بسطانها وسلطان زوجها ويطلق من في جانبه من اسرى المسيحيين فخرج أبو عبد الله بحاشية وافرة لزارة الملك فردينند فلما قابلته انحنى لاجل تقبيل يده فأبى فردينند ذلك وانفضه بيده ولاطفه واكرمه قالوا وقد ام ابن سراج من غرناطة ومعه ولد أبي عبد الله وابناء الاشراف الغرناطين فاودعهم رهنا وحيء بالسطان أبي عبد الله الي غرناطة وسار فردينند في تشييعه بضع ساعات ولما وصل أبو عبد الله الى الحاضرة ثار به والده وأصحاب والده من جهة وانتصرت له والدته ومن اليها من اخرى فكان هناك في ذلك الوقت الضيق مشهد الحماية الاعظم وجرى من الامور المنكرة ما ليس في كتاب وامثلاث الاسواق بالمتناتين بعضهم ينادي باسم أبي عبد الله والبعض الآخر باسم والده أبي الحسن وكان أكثر ميل العامة الى أبي عبد الله فسالت الدماء وأصبحت حراء غرناطة اسما على مسمى الى أركل الناس من تقبيل بعضهم بمضا والعدو على الابواب، وسمعوا من اهدار دماء المسلمين أعظم ما كانت الحاجة الى ادخارها لدفاع العدو، وارتضى ابو عبد الله اخيرا بالخروج من غرناطة والانحياز الى المرية المدينة الثانية بعد تلك في الابهة والشأن وتشامخ البديان اسكن والدته حرسها الله لم تكن راضية عن ذلك بل قالت له ان الملك الذي لا يقدر ان يستقر في عاصمة ملكه لا يصح ان يسمى ملكا وكان بودها ان يبقى

ابنهما في الحمرأة ولو استمرت الفتنة وجري من الدم اضما ف ما جرى والحق  
ان لهذه المرأة ولضرتها الثريا اليد الطولي في تعجيل سقوط غرناطة  
\* ياربي مما تاجر النساء \*

على انه وان كان أبو عبد الله قد ارتحل عن غرناطة فقد بقي له في  
البيازين رجال كلما اغتاظوا من أبيه نادوا باسمه فأجمع أبو الحسن أخير  
على الغزو في بلاد العدو لعله يزداد تمكيننا وكان فرديناند بقسم كبير من  
جيشه في غزاة بعيدة فمقد السلطان على الجندي قائد مالقة وجعل معه اللواء  
رندة وهي حصن مشهور بالمنعة كان لذلك الوقت عش الدعارة ومركز  
قطاع السبل وأوى الفتاك، وأهله لا يألون النصراري خبالا، ولا يفترون  
عن مفاورتهم من حصنهم، وسجوتهم ملائى بأسراهم، وعليهم قائد يلق  
بهم اسمه حامد الزغبي من بني زغبة الموصوفين بالشدة والقسوة، وعندما  
طائفة من الأفرقيين من غماردة، ولم يكن في الدنيا أحسن من هؤلاء اذا  
ركبوا لانهم سريمو الكرة، عقبان عند الوثوب، شديدو الوطأة، اذا أقبلوا  
من معاصمهم اندفقوا على مروج الاندلس ولا اندفاق السيل المنهمر من  
الجبال، فاجتمعت الاجناد في رندة وكانت نحو أربعين الف ماش والف  
وخمسمائة فارس وزحفوا تحت قيادة قائد رندة وقائد مالقة وذلك في ١٧  
ايلول سنة ١٤٨٣ فانتشروا في السهول وامتلات أيديهم من المنائم وامتد  
الصريح بين رؤساء النصراري فجمع صاحبا قانس وبورتو جيشا كشيئا  
ونهما لمدافعة العدو وكان المسلمون قد أقاموا كمينين أحدهما عند مدخل  
سهل الاندلس والثاني حفافي نهر لوبرة فلما انتشروا في ارض العدو نهدهم  
اليهم جيش من اوتررة والتزموا الرجوع نحو لوبرة فطاردهم الاسبانيول



حتى وصلوا الى الكامنين فتأزوا بهم و حمل الجمع على الاسبانيول فهزموهم  
فأنجدهم بويرتو كبرو فتشددوا به و عادوا الكرة فثبت المسلمون في  
موافقهم لكن أسر قائدهم فذعره او نشطروا شطرين فتأثف الاسبانيول  
احدهما وأحوا عليه والنقى الآخرة بصاحر قانس فناوشه واذ رأى  
جواد أخيه المقتول في الوقعة السابقة تحت احد فرسان المغاربة ورأى  
الاسبانيول خيول اخوانهم القتلى في جبال مالقة تحت فرسان اعدائهم  
غلت في صدورهم وراجل الغيظ وثاروا لاخذ الثأر فحملوا على المسلمين  
حملة الرجل الواحد فكشفوهم و ضل حامد طريقه الى رندة فرده اليه احد  
التمسامة من النصارى

وكان عند صاحر قانس بعض العيون و الجواسيس اكثرهم من  
منه و سفارة فأخبره بذلك فحامية نصخرة فتمياً لقصدها و ستجش  
بيويرتو السابق الذكر وجويان المارز فبادر الاجابته و زحفوا في ٢٨ اكتوبر  
سنة ١٤٨٣ بمسماه فارس والف وخمسمائة ماش فبلغوها ليلا بدون ان يشعر  
بهم أحد و كمن اورتنفادو برادو المعهود بعشرة من أقرانه تحت السور  
ومعهم سلاحم وكان رجال الحصن قد خرجوا الى المدينة وناشبهم الاسبانيول  
القتال ريثما تمكن هؤلاء الكامنون من صعود الحصن فعند ما ايقنوا أن  
العدو أصبح فيه سقط في ايديهم واتفقوا مع العدو على الخروج بالامان  
وبعث السلطان أبو الحسن جيشا الى الحامة وكان قائدها الكونت  
طنديلة فذب عنها حسنا وفي احد ليالي الشتاء خر جانب من سورها  
نخاف الكونت ان يدري المسلمون فيتقحموا الثغرة فنشر غطاء كبيراً  
من النسيج وجعل وراءه الفعلة يشتغلون حتى اكمل بناء الحصن المتهدم

وفي تلك المدة احتشد أمراء الاسبانيول ثانية للغزو وزحفوا بستة  
آلاف فارس واثنى عشر الف راجل وعاليهم مركيز قانس وكونت قبرة  
وقائد القنطرة وصاحب صندياغو والوفى الونزودوا غيلار وويرتو كيريو  
وغونسالف القرطابي وغيرهم فاجتاحوا أراضي مالقة وحطموا زرعاها  
وأحرقوا البيوت المنفردة ونهض اليهم المالقيون فلم يفوزوا منهم بطائل  
وكان فرديناند قد استبدل بالآلات الحصار القديمة المدافع النارية  
الجديدة ونزل بها على البلورة ولم يكن لاهلها عهد بهذه الادوات الجهنمية  
فارتاعوا وسلموا بلدتهم صلحا وانحاشوا الى مالقة فلم يقبلهم أهلها ظنا  
بانهم جبنوا عن القتال وخاموا عن اللقاء ثم سير فرديناند بهذه الآلات  
جيوشا اكتسحت بسائط غرناطة فسأله أبو الحسن الهدنة فأبى وأظهر  
التعصب لابنه أبي عبدالله وبعث اليه بالمدد بمكانه من المرية وكان أبو الحسن  
قد بلغ من الكبر عتيا وكف بصره ولزم الفراش فنزل عن الحكومة  
والقيادة لاختيه أبي عبدالله الملقب بلزغل وكان له أمينا وبه رآهم أهاالي  
المرية على أبي عبد الله محمد وقاموا ببيمة عمه ولم يلبث ان حضر هذا اليهم  
بنفسه فافتتح قلعة المرية وفر ابن أخيه شريداً الى قرطبة مستغيثا بالملك  
والملكة واستوسق أمر غرناطة كلها الزغل وسار الى مالقة وحومت عليه  
الخواطر وانشرحت له الصدور وعقد به مغاربة اسبانية انواط الامال  
قال صاحب النفع بشأن الوقائع المتقدمة: ولما استقر السلاان ابو عبدالله  
ابن السلطان أبي الحسن بغرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغريسة  
تمرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها وأتى ابنه السلطان أبو عبدالله  
في جند غرناطة والجهة الشرقية والتقوا في موضع يعرف بالدب فكسر

السلطان أبو عبد الله . ولما سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بان  
عمه بمالقة غنم من النصارى اعمل السفر للزوا بأهل بلاده من غرناطة  
والشرقية وذلك في ربيع الاول من السنة الى ان بلغ نواحي لشانة وقتل  
وأمر وغنم فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعهم كبير  
قبرة ووالوا بين المسلمين وبلادهم في جباب وأوعار فأكسر الجند وأسر  
من الناس كثير وقتل آخرون، وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبد الله  
ولم يُعرف، ثم علم به صاحب لشانة وأراد صاحب قبرة ان يأخذه منه فهرب  
به ليلا وبلغه الى صاحب قشتالة ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد  
وتفائل به فقلما توجه لجهة أو يمث سرية الا وبشبه فيها ولما أسر السلطان  
أبو عبد الله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الاندلس وذهبوا لمالقة للسلطان  
ابي الحسن وذهبوا به لغرناطة وبايعوه مع انه كان أصابه مثل الصرع الى  
ان ذهب بصره وأصابه ضرر ولما تعذر أمره أقام اخاه ابا عبد الله وخلع  
له نفسه ونزل بالمنكب فأقام بها الى ان مات واستقل اخوه ابو عبد الله  
المعروف بالزغل بالملك بعده انتهى

وقد سار المؤلف رحمه الله في تاريخ هذه اوقائع كلها على قاعدة

الايجاز فيه البلاغة

ثم ان فرديناند اعاد الكرة سنة ١٤٨٥ خامس ابريل فحشد في قرطبة  
تسعة آلاف فارس وعشرين الف راجل وقصد بها مالقة لانها ميناء  
غرناطة ومنها كان يتسرب المدد من جهة البحر فابتدأ بفتح الحصون التي  
في طريقه وأشهرها ذكوان وأسرع حامد الزغبي لإغاثتها فوجد اهلها قد  
استأنوا وخرجوا منها . وفي النفع ان الف دارع من النصارى دخلوا

ذكوان عنوة فاظفر الله تعالى أهل ذكوان بهم فقتلوهم جميعاً ثم طلبوا  
الامان وخرجوا . فسار الى مائة نخرج اليه الزغل بالف فارس فرده  
وقتل من الفريقين فانطف صوب رندة بإشارة من كيز قانس لمنعة هذا  
الحسن وكثرة ما فيه من اسرى لمسيحيين وكان قائد رندة قد خرج  
للفزو وعاد بغنائم لا تسهي وعند ما وجد الاسبانيول منازلين حصنه  
بمث بالصريح الى أهل الجبال المجاورة فاسرعوا اليه واشعلوا الحرب واقدموا  
اقدام الآتي ولم تؤخذ رندة الا بسبب عين كان يستقي منها أهلها وينزلون  
اليها بدهايز طويل ولا ماء لهم غيرها فاما تمكن العدو من هذه العين  
لم ينفعهم الثبات وطلبوا الامان على شرط الاجازة الى أفريقية فأذن  
لهم وخرجوا ووجد في اسرهم عدد غفير من كبار الاسبانيول وابناء الامراء  
ثم عزم فرديناند على منازلة حصن مكين لما بلنه من ضعف الجند  
المرتب له وحصل التواعد بين الملك وبين كبير قبزة على المسير معا فبادر  
الزغل الى الجهاد وبرز الى ملاقاتها فلم يصبر صاحب قبزة عن ملاقاته  
وحده وناوشه باربعة آلاف فارس وستة آلاف راجل فلما انه بأسره  
كما أسر ابن اخيه لكن الزغل خير الشيقتو والفرق شاس بين أبوي عبد الله  
ابني الاحمر فوصل صاحب قبزة الى واد عميق وكمن فيه لكن القمر  
بنى عليه وخانه فافتضح امره للمغاربة وانها لواء اعليه بنبل متتابع فاستسلم  
جيشه وقتل أخوه وهلك جواده فامتطى جواد أخيه ولما رأى شدة  
فلك المغاربة باصحابه فر شريداً فطاردوه مدة واذرعوا في عسكره القتل  
فهلك في ذلك اليوم جملة وافرة من أمراء النصارى وابناء البيوتات  
الاسبانية وآب الزغل بالغنيمة

وساء جدا وقع هذه الواقعة عند الاسبانيول فاراد الملك محو  
أثرها وأجتم على مهاجمة حصن قبيل والحصن الذي بجانبه وهما مبنيان  
على صخرتين متناوحتين ترتبطان بجسر ولهما حامية شديدة تكثر  
المقاورة في أراضي العدو خصوصا جهة جيان وقائد الحصنين محمد بن  
يوسف بن سراج من رءوس فرسان المر - فوضع الملك المدافع الدارية  
الجديدة بازاء الحصنين وشرع يرسل عليهما البيران وأدار الحركة الدون  
فرنسيسكو راميرز أول مهندس في اسبانية لوتته واستمر إطلاق النار  
يوماً كاملاً حتى خرت الجدران وهالكت الأبطال ولم يجد ابن سراج  
فائدة في المقاومة بازاء هذه البيران المحرقة التي لم تكن عنده فسلم القلعتين  
على شرط الخروج الى غرناطة فأجيب الى ذلك

وكان قائد الحامية الدون غايتارز دو باديا لا خضر لديه مرة غربي  
من طبقة التجار الذين من عادتهم أن يلحقوا الجيش لشراء السلب طلب  
الكلام معه قائلاً كم تنقدي من المال اذا سلمت قلعة زالمة فاجابه وكيف  
يكون ذلك؟ قال ان لي فيها اخا أو عزاليه سرّاً فيمكن جنودك من دخولها  
ليلاً، قال له وهل تخون دينك وامتك لاجل المال؟ قال المرابي اني بدأت  
ديني ، امي وأمي أمة اسبانيولة وقائد زالمة رجل ظالم سلني مالي فأريد  
الانتقام منه فأرسل الدين رجلاً راسلوا الخائن فأنزل اليهم سلماً تسلقوا  
بها الحصن فذبحوا نصف رجاله واستولوا عليه

وكان أبو عبد الله ابن أخي لزغل قد جعل حاضرة ماسك بلش  
البلانكو وتقوى به حزه سكان البيازين وعادت الحال الى مسكنها بينهم  
وبين أصحاب الزغل ونخضبت غرناطة بالدماء من أبنائها وازدادت الحراء

حجرة مع جميع ما اشتق من هذا المصدر ونكثت قرحا على قرح . وبينما هم كذلك اذ بلغهم تأهب العدو لاكتساح البلاد فتكلم الناس في الصلح وانفقوا على قسمة المملكة بين الزغل وابن أخيه فعملوا الزغل غرناطة ومالقة وبلش مالقة والمرية وما يلحق بها وتركوا الباقي لعهدة ابي عبد الله وسألوه أن يقيم بلوشة لكونها ثغر المسلمين طمعا في دفع العدو عنها لمكان السلطان أبي عبد الله من الاتصال بالطاغية فسار الى لوشة وبعث الى فرديناند يسأله التجائف عنها فلم يجبه بل انه في ربيع عام ١٤٨٦ زحف الطاغية بجحفل جرار مؤلف من ١٢ الف فارس و ٤٠ الف ماش و ٦ آلاف من ممهدي الطرق وكان في جيشه كثير من مطوعة الفرنسيس وفيهم من المشاهير مثل غاسطون اليوناني ومن غزاة الانكايز وفيهم اللورد سكالس وكان معه آلات ومدافع تفوق الاحصاء بإدارة جنود ألمانيين بادروا لاجابة داعي الحرب المقدسة من اقاصي بلادهم فقبل الوصول الى لوشة استأذن مركزيز قادس من الملك أن يتبوا رابية « أبو الحسن » التي حقت فيها الهزيمة على الاسبانيول المرة السابقة والتمس كبير قبرة أن يكون في طليعة الجيش فأذن لكل بما سأل وخيم مركزيز قادس في أبو الحسن بخمسة آلاف فارس وأثنى عشر الف راجل وأخذ كونت قبرة باتباع الوادي طامعا في اسر ابي عبدالله وأما هذا فبرز الى القتال يطلب الموت وتقدم الصفوف يتافع ويكافح وما زال يخوض غمرات المنايا الى ان أصيب بجرحين كبيرين فالتزمت حاشيته أن يرجعوا به ولكن القتال بقي مشتدا وتبايع الفريقان على الموت وتناجزوا وتناجزوا واذا بفارس مغربي زميت المنظر شديد الروعة راكبا جوادا آدم كالليل الخالك قد

أحدق به أبطال من غمارة ووثب كالأسد الحاردي فاخترق مصاب الأسبانيول وهزم من لقيه فانتبه به بأس المسلمين وراجعوا بصائرهم ونهبوا عزائمهم وحملوا حملة الرجل الواحد فاخترق مصاب الأعداء على كثافة جوعهم وكان هذا الفارس هو حامد الزغبى فاكشف الأسبانيول من جهة الوادى وكاد صاحب قانس يقع فى الأسر فبادر الملك فرديناند ببقية الجيش والى جانبه اللورد سكالىس البطل الأنكازى ومعه غزاة الأنكازى يقاتلون بالفؤوس على عادة بلادهم ولم يكن ذلك مهوداً عند المغاربة فذعر وأوجرح الزغبى فاحتلوه الى المدينة وارتخت عزائمهم فكبصوا الى الأرباض وألح عليهم الأسبانيول فاشتد العراك وراجع المسلمون ضمايرهم وصدقوا الحملة فكشفوا العا ووجرح اللورد الأنكازى وحمل الى الخيام فنصب الطاغية مدافعه وأخذ يرمى البلدة بالنيران الدائبة فهدم أسوارها وحاول أهلها يرمي جدرانها وسد فرجها فلم يفلحوا وكل النساء والأطفال والشيوخ تحت نيران المدافع يصابرون على مر الحمام فيئس من ذلك المسلمون وحملوا على الأسبانيول فقتلوا منهم متتلة عظيمة واستمروا يفتكون بهم لياتين ويوما لىكن تهدم بلدتهم ووقفهم بازاء النيران المحرقة اضطرأهم أخيراً الى التسليم على شرط الأانصراف آمنين فاجيبوا الى ما سألوا وخرجوا الى رباغو على ثلاث ساعات من لوشة

وهالك ما رد فى النجح بشأن ما تقدم ببعض تصرف قال

« ثم انتقل ( أي الطاغية ) فى جماعى الأولى الى رندة وحاصرها وكان

أهلها قد خرجوا الى نصرة ذكوان وسراها فحاصر رندة وهدد أسوارها وخرج أهلها على الأمان وطاعت له جميع البلاد ولم يبق بغربى مالقة

إلا من دخل في طاعته وتحت ذمته وضيق بما لاقه وفرق حصصا عن بعض الحصون ليحاصر مائة وعاد الى بلاده

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحب غرناطة لتحصين بعض البلاد وبينما هو كذلك اذ بالخبر جاءه ان محلة العدو خارجة لذلك الحصن وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى على الحصن كانوا قد سروا اليه ليلا وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين فقاتلهم المسلمون من غير تعبيرة فاختلف نظام المسلمين ووصل النصارى الى خباء السلطان ثم التحم القتال واشتد وقوى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شر هزيمة وقتلوا منهم خلائق وقصر المسلمون خوفا من سلة سلطان النصارى اذ كانت قادمة في أثر هذه ولما رجعت اليهم الفلول رجعوا الفهتري واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات وجعلوا ذلك كله بالحصن ولم يحدث شيء بعد الى رمضان فتوجه العدو لحصن قبيل ونارله وهدأ سواره ولما رأى المسلمون ان الحصن قد دخل طلبوا الا ان يخرجوا باهوا لهم واولادهم وفر الناس من تلك المواضع واستولى العدو على عدة حصون مثل مشافرو حصن اللوز وضيق بجميع بلاد المسلمين ولم يتوجه لناحية إلا استأصاها ثم ان العدو دبر الحيلة مما هو عليه من القوة فبعث الى السلطان أبي عبدالله الذي تحت اسره وكساه ووعدته بكل ما يتمناه وصرفه لشرقي بسطة واعطاه المال والرجال ووعدته أن من دخل تحت حكمه من المسلمين فانه في الهدنة والصلح وخرج لباش فأطاعه أهلها ونودي بالصلح في الاسواق وصرحت به في تلك البلاد الشياطين وسرى هذا الامر حتى بلغ ارض البيازين من غرناطة



وكانوا من التمسب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يمتحنى وتبعهم بعض  
المفسدين المحبين تفريق كلمة المسامين وممن مال الى الصلح عامة غرناطة  
لضمف الدولة ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماستها بتقبيح وتخصين  
الى ان قام ربض البيازين بدعوة السلطان الذي كان مأسورا ووقعت  
فتنة عظيمة في غرناطة نفسها لما أراد الله من استيلاء العدو على تلك  
الاقطار ورجعوا البيازين بالحجارة من القلعة وعظم الخطب وكانت الثورة  
ثالث شهر ربيع الاول عام احدى وتسعين وثمانمائة ودامت الفتنة الى منتصف  
جمادى الاولى من العام وبلغ الخبر ان السلطان الذي قاموا بدهوته قدم  
على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزغل صاحب  
قلعة غرناطة بان العم يكون له الملك وابن أخيه تمت اياته بلوشة او بأي  
المواضع احب ويكونون يداً واحدة على عدو الدين وبينما هم كذلك اذا  
بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعدد وعدد ونازل  
لوشة حيث السلطان ابو عبد الله وضيق عليها الحصار وقد كنى دخلها جماعة  
من اهل البيازين بنية الجهاد واما ضدة وليهم وخاف اهل غرناطة وسواها  
من ان يكون ذلك حيلة لم يأت لنصرتهم غير البيازين ( انظر الى ما تجنيه  
الفرقة واختلاف النية من ثمرة التخاذل ) واشتد عليهم الحصار وكثرت  
الاقاويل بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة ودخل  
على اهل لوشة في ربضهم وخافوا من الاستئصال فطلبوا الامان في انفسهم  
واموالهم فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك وأخذ البلد في السادس والعشرين  
من جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وهاجر اهل لوشة الى غرناطة  
وبقي السلطان ابو عبد الله بلوشة فصرخ عند ذلك اهل غرناطة بانها ما جاء

لوشة إلا ليدخاها العدو وقيل أنه سرح له حينئذ ابنه الذي كان مرهوناً في الفداء ثم رجع صاحب قشتالة الى بلاده ومعه السلطان المذكور وفي نصف جمادى الآخرة خرج الى البيرة فهد بعض الاسوار وتوعد الناس فاعطاه أهله الحصن على الامازن فخرجوا وتقدموا على غرناطة وانتقل للصخرة فأخذها وحصن هذه الحصون كلها وشحنها بالرجال والعدة ورتب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة ثم عاد لبلاده وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بان من دخل في حكمه فهو في الامان واشاعوا أن ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب افرنسية فخرج لبلش وأطاعته ثم بعث لمن والاه من البلاد انه أتى بصلاح صحيح وعقد وثيق وان من دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه وان معه وثائق بخطوط السلاطين فلم يقبل الناس ذلك الا القليل منهم مثل أهل البيازين فلهجوا بهذا الصلح وأقاموا على صحته الدلائل وتكلموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح مع تمكن الفتنة والعداوة في القلوب فبعث له أهل البيارين انه اذا قدم بهذه الحجج اتبعه الناس وقاموا بدعوتهم من غير التباس فأتى على حين غفلة ولم يكن يظن اتيانه بنفسه. فدخل البيازين ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح فلم يقبل ذلك. انه أهل غرناطة وقالوا: ما بهد لوشة من قدم. ودخل ريبض البيازين بالرجال سادس عشر شوال سنة إحدى وتسعين ومائاً وعمره بالجرء واشتد أمر الفتنة وأمد صاحب قشتالة صاحب البيازين بالرجال والعهدة والبارود واشتد أمره بذلك وعظمت أسباب الفتنة وفشا في الناس القتل والنهب، انتهى وفي رواية المقرئ اختلاف مع الروايات الافرنجية في بعض المظان من تقديم وتأخير وتصغير وتكبير كما لا يخفى على من تدبر النقلين وقال

مؤرخو الاسبان يول: ثم زحف فرديناند نحو (ابلورة) الواقعة على ستة عشر  
الف متر فقط من غرناطة فضيق عليها ورمها بالنيران فسلمها سكانها  
وخرجوا وكان حصن متن فريد من أمنع حصون المغاربة وقد حفر الزغل  
حوله الخنادق وارسل من فيه من النساء والاولاد الى غرناطة فأناخ عليه  
فرديناند يرميه بالمحركات حتى اشتعل مخزن البارود. وفي النسخ يقول دار  
العدة وتهدمت المنازل وهلك الناس فطلبوا الامان وخرجوا الى غرناطة  
ودخل ملوك النصارى الحصن ووجدوا فيه جملة وافرة من أسرى  
المسيحيين هذا والزغل لا يتحرك من مكانه بالجرأ خوفاً من انتقاض أهل  
أثبيازين الذين كان لهم مع نساء القصر السهم الا وثر في اسقاط تلك السلطنة  
وزعموا أن قائدي متن فريد وايلورة كانا اخوين وكانا اخوين في  
البأس كما في النسب والمغاربة يحبونهما كثيراً لاقدامهما فبعد تسليم الحصنين  
تبدلت محبتهما قلى ، فيئسا من الحياة وشرعا يجندان في استعادة منزلتهما  
واستأذنا السلطان في نزال النصارى فمقدلها على جيش وافر وخرجا  
للجهاد فالتقيا بالاسبان يول عند جسر بينوس على مسافة ساعتين من غرناطة  
فكانت ساعة مؤرخة في وقائع حروب الدنيا ابدى فيها الاخوان من حسن  
البلاء وصدق الجلال ما لا يدخل تحت وصف فكانا كيفما حملا في مصاف  
العدواحتلت امامها الصفوف وتهاوت امامهما الابطال وكان مركز  
قادر الطليعة فاوشك أن يولي منهزما فاسرع لاغائته كونت قبرة  
فلم يقض أرباء فبادر الدون جويان ابن أخي الملك فلم يشف غليلا فوافاهم  
الطاغية الكبير بنفسه وبياتي جيشه فرد المغاربة بكثرة العسديد وبقي  
الاخوان المستميتان يقاتلان في مقدمة الجند وقد احاط بهما شرذمة من

انجاء الغارة الى أن وقعا صريعين الواحد بعد الآخر، فمظم الخطب فيهما، واشتدت النكاية بموتهما، وبكاهما اهل غرناطة بسيول الدموع وعاد فرديناند الى قرطبة بعد أن اجتاح مرج غرناطة واخفي على نضارته ولم يكديخلص الى بلاده حتى استؤثفت الفتنة في غرناطة بين الزغل وابن أخيه وكان ماكان من حضور ابي عبد الله الى البيازين وقيام دعوته فيها واستمرار القتال بين الفئتين أياما حتى قيل إن السلطانين تبارزا بانفسهما في اسواق غرناطة فلم يفرز أحدهما بالآخر

وذكر مؤرخو الفرنجة ان اخبار الاندلس كانت وصلت الى المشرق فارتج لها العالم الاسلامي ووافقت حصول الفتنة بين السلطان بايزيد الثاني وصاحب مصر فتهادنا ووقع الاتفاق على أن يرسل بايزيد اسطولا على سواحل صقلية لكونها تابعة مملكة أسبانية وان يجهز صاحب مصر بعوثا من جهة افريقية فلما أحس بذلك فرديناند وايزابلا اجما على سد الثغور البحرية كلها عن غرناطة قطعاً للامداد ولما كانت مالقة هي الثغر الاعظم وميناء الاندلس ومركز التجارة مع مصر والشام ومنها كانت تنسرب الاموال والاسلحة والجنود والخيول من تونس وطرابلس وسائر المغرب كان أول ما عمل فيه الاستيلاء على مالقة ولكن قبل النزول على مالقة عزموا على أخذ بلش القريبة منها ففي ربيع سنة ١٤٨٧ زحف الطاغية بشرين الف فارس وخمسين الف ماش قسمها قسمين احدهما بقيادة صاحب القنطرة والثاني قاده بنفسه وأخذ الاول بطريق الوادي وسار الثاني بطريق الجبل وامامه نحو أربعة الاف من الصناع وممبدي الطرق فلم يزل حتى أطل على مرج بلش وجناتها وهي من أزهى بقاع الارض

وابدع أقاليم الدنيا وقد ارتفعت حفايفها الحصون والابراج وهناك قوم من الجبليين اهل شدة ونجدة، فما خيم الملك حتى انقضوا عليه من وراء الصخور، انقضاض الذور من الوكور، فهزموا طائفة من جنده واستلحموا جماعة فقتل جملة وافرة من أبطاله وأصيب ابن دوق براغانس بجراحة ثم أرسل جنودا للمعاينة على الذخيرة الآتية بطريق الجبل فلم يتمكنوا من حفةظها واصابها المغاربة وابتعدوا في معسكره النكاية واخذوا يضرمون النيران في الليالي على رؤوس الجبال اشارة بعضهم الى بعض على حد ما قال وضعوا السلاح الى الصباح واقبلوا يتكلمون بالسن النيران وكبسوا معسكر الطاغية بيانا مرارا آخرة وانجموا من كل ناحية وهاجموا المعسكر وبعد قتال عنيف ارنذوا الى جبالهم هذا والحرب الداخلية لم تزل قائمة على سوقها في أسواق غرناطة فلما شاهد المسلمون ما هم عليه من الغفلة والاشتغال بمناظرة بعضهم لبعض أخرج ما كانوا الى الانضمام والوثام شددوا الكبر على السلطانين ونصحوا لهما بالعدول عن الشار الذي هما فيه فأبى أبو عبد الله التخلي لعمه عن الملك وأصر على المطالبة غير متأمل في عواقب هذه الحال التي ستترع الملك منه ومن عمه ومن جميع أهل بيته وولته في أرض عمرورها ثمانية قرون الا ان الزغل لم يبصر عن نجدة بلش فابقى في الحمراء حامية كافية لدفع ابن اخيه المشؤوم وخرج ايلابالفارس وعشرين ألف ماش، واجتمع اليه من أهل الجبال أعداء، وعلا الصوت في الرنى والوهاد، « الزغل الزغل » فوقع الرعب في قلوب الاسبانيول وكانت مدافع الطاغية في الطريق فحاول رضوان المكناسي استخلاصها فلم يفز بطائل وكتب الزغل الى قائد بلش يأمره انه عند ما يشاهد

النار ايلاً يخرج من احدى جهات المدينة وهو يقابله من الجهة الثانية  
وكان الرسول من المتمسكة فوقم الكتاب في يد فرديناند بخاف جداً  
وخافت الملكة اكثر منه ولكن أفادهما الظفر بذلك الكتاب عدم . توف  
قائد بلش على أمر الزغل فبقي في المدينة لا يبدي حركة وتقدم الزغل نحو  
معسكر الاسبانيول فلم يجدوا حداً خرج من البلدة فلم ينكسوا على أعقابهم  
بل اقتتلوا اقتتالا شديداً وانظر المناربة ان يخرج اهالي بلش لمساعدتهم  
فطال الامم ولم يبرز أحد فاصابهم الملح وتقهقروا وتقدم صاحب قانس  
فتبوا مرعباً عالياً ركب فيه ربحهم فاجتهد الزغل في ضم شملهم فلم يفلح فعاد  
بهم الى غرناطة، ولما طار الخبر اليها بما حل به من الفشل بايع أهلها ابن أخيه  
فضرب هذا اعناق اربعة من اعيان الغرناطيين انصار عمه ولما بلغ الزغل  
نهر شنيل اخبره بعض حواشيه أن الحضرة بايمت ابن أخيه فتحول الى  
المرية فالمنكب فوادي آش . ولما أصبح أهالي بلش وقد رأوا الزغل أقبل  
بمسكره عنهم وهت عزائمهم فعولوا على التسليم وعقدت شروط الصلح بين  
رضوان قائد البلدة وبين الكونت دوسيفونتا صاحب شريش الذي كان  
أسيراً في بلش وخرج أهل بلش باموالهم الى غرناطة وانطلق اسرى  
الاسبانيول وأطاعت جبال البشرات ونحو أربعين بلدة فيما قيل بنواحي  
مالقة وطلبوا حماية الطاغية وصار المسلمون في جميع هاتيك النواحي مدجنين  
وقال صاحب نفح الطيب بشأن الحوادث المتقدمة ما ملخصه « إن  
صاحب غرناطة بعث الى الاجناد والوفاد من أهل بسطة ووادي آش والمرية  
والمنكب وبلش ومالقة وجميع الاقطار وتجمعوا بقرناطة وتماهدوا وتحالفوا  
على أن يدموا واحدة على عدو الدين ونصرة من قصده الله و من المسلمين

وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك نخرج بمجملته قاصداً  
نواحي بلش وبعث صاحب البيازين وزيره الى مالقة والى حصن المنشأة  
يذكر ويخوف وبعده النسخة من عقود الصالح فقامت مالقة وحصن المنشأة  
بدعوته خوفاً من صاحب قشتالة وطمعاً في الصلح ثم اجتمع كبار مالقة مع  
أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة والسبب الحامل  
لهم على ذلك فلم يرجع أهل بلش عما عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الاندلس  
من اليهود وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلش مالقة ونزل عليها في ربيع  
الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها ولما صلح عند صاحب غرناطة  
ذلك اجتمع بالناس فاشاريها بالمسير لاغاثة بلش للعهد الذي عقده واتي  
أهل وادي آش وغيرها وحشود البشراة وخرج صاحب غرناطة منها  
في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة ووصل بلش فوجد العدو نازلاً  
عليها براو بحرا فنزل بجبل هناك وكثر لفظ الناس وحملوا على النصارى  
من غير تعبئة وحين حركتهم للحملة بلغ السلطان الزغل ان غرناطة بايتمت  
صاحب البيازين فالتقوا مع النصارى فشلين وقبيل الالتحام انهزموا  
وتبددت جموعهم مع كون النصارى خائفين وجلين منهم ولا حول  
ولا قوة الا بالله فرجعوا وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان  
فقتصدوا وادي آش وعاد النصارى الى بلش ودخلوا ربضها عنوة ولما رأى  
أهلها تكالب العدو عليهم وادبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الامان  
فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الاولى من السنة واطاعت النصارى جميع  
البلاد التي بشرقي مالقة وحصن قمارش ،، انتهى  
ثم ذكروا أن فرديناند أجم على حصار مالقة وكانت من قواعد

ساحنة غرناطة وميناء الاندلس وثغرها المحروس كما تقدم الخبر وهي مبنية في قعر واد خصيب فاتح فاه لجهة البحر تنمها الجبال والابراج والاسوار من البر والامواج المتكسرة على الاسوار من البحر وعلى رابية في أحد طرفي المدينة القصبة (دار الحكومة باصطلاح المغرب) فوق القصبة صخرة شاهجة عليها المنارة البحرية المسماة بالفار، ولها وراء السور ربضان أما المناوح منها للبحر فجنات معروشات وغير معروشات، ومنازل رحبات، وأما المقابل للبر فكان مشتبكا بالهارة متصل البيوت. وكان لما لقة حامية وافرة مجربون في الحروب ومعتادون لفناء الالهوال وأهلها من ذوي الحركة والنشاط والعمل والحزم أكثرهم تجار وفيهم عدد من ذوي اليسار وفي مقدمة هؤلاء التجار الموسرين رجل يقال له علي دردوق له عدة سفن تجارية تسافر الى جميع موالي الشرق وله في ثغر مائة الكلمة الية والرأي المقدم، فجمع هذا عصابة من كبار القوم وسار الى قائد القصبة وبين له عقم الدفاع وخلو المقاومة من كل جدوى، وان الاجدر بهم قبول دعوة السلطان أبي عبد الله حليف الطاغية، فرضي القائد وسار الى خيام الاسبان يول للمكاملة في شروط التسليم وترك القيادة لاختيه

وكان حامد الزنبي المشهور بلد العداوة للنصارى قائد موقع المنارة البحرية وعنده من بني غمارة طائفة كلهم علي شاكلته من شدة الباس وصعوبة المراس فطارت عقولهم عند ما سمعوا بما عزم عليه أهل البلدة واستنفر دا من كان باقيا من أهلها على عهد الزنل واستدعى حامد الخواص الى حضرته فحضروا جميعا ولم يتخلف منهم الا دردوق الآنف الذكر فقررُوا وجوب الدفاع ونقضوا ما أبرمه قائد القصبة بتمامه



وكان صاحب قانس قد عرف في بلش مالقة رجلا شهير من  
تجار المغاربة وعده بقتل ذؤابة حامد عن المقاومة فعرض الامر للملك فقوضه  
بالعمل وأركبه المركيز جواده وقلده سلاحه واردفه بمغربي آخر  
من انسابه بكتب يعرض فيها على حامد مدينة كوهين مع أربعة آلاف  
ذهب ان سلم قصر المنارة أو جبل نارو وان رضي بتسليم البلدة كلها كان  
جزاؤه أعظم وكان حامد يحترم مركيز قانس احترام الابطال بعضهم  
لبعض فاكرم الرسل واصفى اليهم لكنه رفض خيانة ملته ووطنه رفضاً  
باتا فكرر فرديناند الرسالة فكاد الاهالي يقبلون بالصالح لولا ما قال حامد  
للرسول وهو ،، اذهب وقل لسيدك اني قد سلمت مدينة مالقة لاجبها  
لا لأسدها ،، فعند ما يئس فرديناند منهم قدم المدافع وزحف بالجيش  
وقابلته أساطيله من البحر فاحرق حامد الارياض وسير ثلاث فرق  
لمصادمة العدو وذلك انه لما كان لا بد للاسبانيول من المرور بمضيق بين  
قصر المنارة والجبل امر الزغبي فرقة من جيشه باحتلال المضيق وفرقة  
أخرى باحتلال الصخرة المشرفة وفرقة ثالثة بالنزول بالجهة البحرية  
وانتشرت الحرب بداية في المضيق المذكور وتصارعوا قرناً لقرن  
وعولوا على القتال اكثر من الاسر وتلاحقت النجدات للمسيحيين فمعظم  
سوادهم واشتدت رطابتهم السكن المغاربة ثبتوا في مواقعهم وقلوا حدودهم  
فالزموهم الرجوع فنكصوا على أعقابهم ولما يقضوا وطرا وكان فرديناند  
مشتغلا بتركيب مدافعه وتصويبها مما اقتضي من المشقة ما لا يوصف فلما  
تم له ذلك رمى البلدة بالنيران وظهرته الحراقات من البحر وارتفع دوي  
المدافع ولكن المدينة قاومت مقاومة شديدة لمتانة أسوارها ومنعة مواقعها

ولم تؤثر النيران الا في برج واحد كبير تداعى اكثره للخراب فاهتبل  
النصارى فيه الغرة وتسلقوه فدحروهم المسلمون اول مرة وأهلكوا منهم خلقاً  
كثيراً فحملوا ثانية وصدقوا الحملة فزاحوا المسلمين وملكوا الحصن فتجمع  
المسلمون وحملوا عليه واحتفروا عند ركنه أخشاباً ووضعوا النار في الأخدود  
فحرق منه جانب وهلك بسقوطه جم غفير من الاسبانيول ففتحوا منه ثغرة  
لجهة معسكرهم يتسرب لهم بها المدد وبقي الفريقان يراوون القتال وينادونه  
يومين وليلتين وانكفأ المسلمون ولم يتمكنوا من الحصن واشتدت عزائم  
الاسبانيول باخذه ولكنهم لم يطعموا في مهاجمة المدينة لما فيها من الجيوش  
المدرية على القتال وطال بهم المقام فسثموا وتبرموا وخافوا العاقبة ووقر في  
نفوسهم من خوف الزغبى وطائفتهم ما آل بهم الى القنوط فقر منهم جماعة  
وافرة الى المدينة وانضموا الى المسلمين واخبروهم عن ضيق الحالة بالنصارى  
وبالفوا في الحكاية فثارت الحمية برءوس هؤلاء فاخذوا يندلقون على  
الاسبانيول اندلاق السيوف من الاغهاد، ويندلقون اندفاق السيول من  
الانجاد، فلا يلقونهم في مأزق، الا مزقوا شملهم كل ممزق

واتصل بفردينادان النصارى الخائنين بشروا طامداً بكون الملكة  
ترجت زوجها كثير ارفع الحصار عن مالقة فذهب الى تقطيع آمالهم باستدعاء  
الملكة الى المعسكر فجاءت وصحبته ابنتها وبعد وصولها راجع حامداً في  
التسليم فبه حامد الرسل وانكر الامر وترجاه بعض الخواص بالقبول  
فقيل انه قتلهم فامر الطاغية باطلاق المدافع فاطقت نيرانها دراكا وانفق  
ان حضر الملك والملكة الى معسكر صاحب قانس فحرب في حضرتهما

بعض مدافعه الكبار ولم ينشب ان ابصر الراية التي فقدتها في جبال مالقة وهي تخفق فوق برج قريب من جبل فارة أو المنارة فأثر ذلك في خاطره ولج في اطلاق النيران ثم تقدم بالجند نحو ذلك الحصن وطمع في أخذه فانها ل عليه الف مغربي من ذؤبان الجيش فذبحوا أجناده ذبح الشياه وهزموا من سلم منهم فلاحق المسدد للنصارى فاعدوا الكرة والتحم الفريقان وهلك منهما خلق كثير وتولى الصبر مقام المغاربة فكاد المركيز ينهزم ثانية وكادت رايته تقع أيضا في يد العدو لولا أن قائد تلك القطعة من جيش المسلمين ابراهيم بن زناته جرح في معصمة القتال فعاد به قومه الي الحصن وأرسلوا من هناك نباهم فنالت من الاسبانيول وتفقر عسكر المركيز وفشافيه القتل وهلك في هذه الوقعة أورتاغو ووبرادوا الفارس الشهر أول من تساق قلعة الحامة فكان يوما شديدا على الاسبانيول ومن ثمة أصبح الكفاح بين الفريقين يأس المرء من الحياة ومبايعة الارواح في أسواق المنايا وتمالكت المقاتلة وتكالب الجند بعضهم على بعض وشرع حامد يرمم المتهدم من أسوار المدينة حتى أنه عزم على بناء ست سفن حراقات بقصد الهجوم على اسطول الاسبانيول وأما الملك والملكة فاستجلبا لدخائر والافوات من جميع مدن اسبانيا وأمر ا ببناء ابراج من الخشب يسع الواحد منها مائة مقاتل تمشي على دواليب ولها سلم لاجل التسور والنزول وعقب ذلك محفر الخنادق ونقب الاسوار وحشر الهذه الغاية الفعلة والصناع واستكثر من العدة والآلة وقام العمل على قدم وساق وحامد لا يترك للمحاصرين راحة ولا يمهلهم ذواق بل يغاديهم النزال ويراوحهم حتى ملوا وامتلأت الخيام بالجرحي والمرضي ثم لم يلبث أهل

مالقة ان اكتشفوا الحفر التي اُداروها على جدران المدينة فحُبروا بازائها ونقبوا تحت الأرض الى أن اتصل بعضهم ببعض فكان الفعلة يتلاقون من المسلمين والنصارى في تلك الدهاليز ويتصارعون في بطن الأرض صراعهم فوق ظهرها الا أن الظهور كان للمسلمين هناك دثا وكان الاسبانيول يخرجون من اخاديدهم مدحورين ويهال على ما حنروه

ثم تجتمع المحصورون وحملوا من البحر والبر حملة واحدة واستمر القتال ست ساعات فلم يكشفوا العدو وعادوا الى مراكزهم وكان الجوع قد فشا في مالقة وانقطع عنها المد وسدت دنها للمسالك وفنيت في أهراتها الغلال فاشتد الضيق بالناس واجتمعوا عند علي دردوق واجمعوا على مراسلة الطاغية في أمر التسليم بشرط الامان دلى النفوس والنفائس وانفذوا بالرسالة رجلا آب اليهم بجواب شاف طبق ما يشتهون فشر به أصحاب حامد فرشقوه بالسهم فأصيب وانهمزم صوب مخيم الاسبانيول

هذا ولما رأى أهل وادي آش ما حل باهل مالقة من الضيق سألوا السلطان الزغل المسير لنجدتهم فسأدهم فيه وحشد جيشا وجهز له ما يلزم وبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله ابن أخيه فأرسل جيشا لمعارضة جيش عمه في الطريق اثباتا لآمانته وتأكيذا لصداقته لملوك النصارى، لم تأخذه رافة ببناء جلده وقضى الله بظهور أصحاب أبي عبد الله الملقب بالشقي فقفل جيش الزغل الى وادي آش وفرح أبو عبد الله فرحا جزلا بهذه النصر وتوهمت بالبشائر مع تفصيل الواقعة الى فرديناند وايزابلا وأسني الهدية لجأواباه شكراً وتمجيذا وظن أنه قضى بذلك وطراً لكنه أرغ عليه بهذه الفعلة قلوب المسلمين فال عنه كئيب من حزبه وخاف على نفسه فأرسل يستمد فرديناند

فأمده بالف فارس وعشرة آلاف راجل لاجل حراسته. لعمرى جدير  
بملك كهذا أن يكون آخر ملوك قومه

وفي هاتيك المدة وصل وفد من ملك تلمسان الى فرديناندوايزابلا  
بهدايا فاخرة وقد تضمنت رسالتهم الكلام في شأن أهل مالقة فاستقبل  
الملك وامرأته ذلك الوفد براً وترحيباً واقتصر على ذلك واشتد الجوع  
بأهل مالقة وأكلوا الخيل وهلك منهم سغباً خلق كثير

ثم ظهر من وادي آش رجل يدعى براهيم ويلقب بالصائتوأي الولي  
فما رأى رجوع عساكر الزغل عن نجدة مالقة أخذ يطوف في أسواق  
وادي آش منادياً إن الله أوحى اليه كيفية خلاص مالقة فسألوه عن كيفية  
خلاص مالقة فاجتمع حوله اربعمائة رجل من أولى النجدة وساروا بصحبته  
الى تلك المدينة فرأوا أوفق مكان للدخول جهة معسكر المريكيز صاحب  
قادس فهجموا عليه فمهم من قتل الخفراء ومنهم من ألقى بنفسه في البحر  
ثم تسور جدران البلدة فبلغ منهم مائتان المدينة وانهمزم الباقون

أما الصائتو فلم يغش الكريهة بل دلف اليه لاسبانيول فوجدوه  
ساجداً قائماً لا يتحرك فأخذوه الى المريكيز فسأله عن حاله فأجاب أنه ولي  
الله وإن الله تعالى قد كاشفه بفتح مدينة مالقة فسأله عن كيفية ذلك فأجاب  
انه نهي عن كشف ذلك السر الا لملوك فارس له المريكيز الى الملك والملكة  
وكان فرديناند قد طعمهم ونام فلم ينبهوه وقادوا المغربي الى سرادق المريكيز  
موياء والدوق النارودو برتغال فتشابه هذان عليه بالملك والملكة لما رأى  
من اجلال الجند لهما وما شاهد من الرياش الفاخر في فسطاطها فطلب ماء  
ليشرب وبينما هو يمد يده لتناول القدح اذا استل من تحت جنبه شفرة

فاجأ بها الدوق بضربة فصرعه ثم أراد أن يثني على المريكيزة فاخطأها ووقع  
خنجره في نضائد الديباج فوثب عليه الجنود وقتلوه واخشوا المثلة في جسده  
وطرحوه الى أهل مالقة فاخذها غمارة وغسلوها ودفنوها بكل اكرام ثم  
ذبحوا أحد كبراء الاسبانيول المأسورين عندهم وناطوا بجثته بذيل خمار  
وسرحوه بها الى معسكر المسيحيين

فارتاب النصارى من ذلك وزادوا عدة الحرس على فسطاط الملوك  
وامروا جميع المدجنين اي المغاربة الخاضعين بالانصراف من المعسكر  
ولم يمت ابرهيم الولي حتى قام في مالقة ولي آخرو ادعى مثل دعواه ونشر  
راية فرفعها حامد فوق الابراج تشديدا للمحصورين

وفي تلك المدة حضرت النجدات الوافرة لمعسكر الطاغية فكان  
ماورد من قبل دوق مدينة سيدونيا ماخلا الجيوش مائة سفينة دخلت  
جون مالقة موقرة بالميرة والكرام واكثر من عشرين الف ذهب من  
النقود، وعند ذلك راجعت الملكة اهل مالقة في امر التسليم فرفض  
حامد كل الرفض ومنع انمقاد الصلح فعزم المسيحيون على الحملة العامة  
والوقعة الفاصلة

وكان عند المدينة جسر ذو اربع قناطر على كل من طرفيه برج شاهق  
فتولى قائد المدفعية الاكبر فرنسيسكو راميرز افتتاحه فخر اخذود انحمت  
الارض وجعل منه مسربا الى أحد البرجين وتقدم بالجيش ووضع البارود  
في الاخذود وقذف بيران المدافع فاصاب الشررا أثناء المعركة البارود الذي  
في الدهليز نغرت طائفة من البرج وقتل من حماته جماعة وفر البقية فاستولى  
عليه الاسبانيول وناشوا الحصن الثاني

وكان الجوع قد عض أهل القلة بناه حتى طلبوا لحم الخيل فلم يجدوه  
فاكلوا الجلود وطبخوا الورق بالزيت وهلك منهم خاق كثير والتجا جماعة  
الى معسكر النصارى مؤثرين الرق على الموت جوعاً فعند ذلك توجه على  
دردوق جماعة من أعيان البلدة الى حامد فوجدوا عنده الدرويش المار  
الذكر فقالوا له اننا نتوسل اليك بالله وبرسوله أن لا تصر على مقاومة عقيمة  
من الجدوى فان أسوارنا دون أسوار رندة وقد تهدمت رندة  
ولان رجالنا ليسوا بأشد من رجال لوشة وقد سلمت لوشة وليس لنا  
في غرناطة كبير أمل فان سلطانها أبا عبد الله تابع للملك النصارى وان الزغل  
عمه طريد منها شريد في وادي آش فما تنتظرون ساؤنا وأطفالنا يهلكون أمامنا  
جوعاً فأجابهم حامد علينا به هجمة اخيرة فلا تثبطوا عزائنا عنها وخرج في  
اليوم الثاني رافعا راية الدرويش ووراءه ابراهيم الزناتي وجماعة غمارة ورتب  
المصاف وصعد الذاء والاولاد على أعالي الابراج لمشاهدة الواقعة الاخيرة  
وتراحت الصفوف وجاءت الهجمة على معسكر صاحب قلعة رباح ومعسكر  
صانتياغوا فصدق المسلمون الحملة وهبت الريح المبشرة تخفقت لها راية  
الدرويش وحمي الوطيس وتسابقت غارة الى تسنم الجنة وقالت بما يعرف  
من بأسها وصدق جلادها فانكشف الاسبان يول وطاردتهم المغاربة بالقتل  
والاسر واذرعوا الفتك فوق العرب في قلوبهم وتداعوا من كل ناحية  
للفرار وبينما الامر كذلك اذ خر الدرويش صريعا بجرا أصابه وسقطت  
الراية فتطير المسلمون وتزل بهم الهلع ورجعوا أدراجهم فلما رآهم النساء  
مدبرين ارتفع عويلهن ونادين بالويل والشبور ولبث حامد سائراً الى معقله  
مع قومه التماريين وانقطع أمل المالكين وعولوا على التسليم فراسلوا الملوك

ماتمسين الامان على النفوس والنفائس فلم يجابوا اليه وقيل لهم ان ابا  
الرافة قد مضت فراجعوا في ذلك فأجيبوا بالاعراض أيضا حينئذ أرسلوا  
الى الملك يقولون له انهم غزموا أن يشنقوا ألفا وخمسمائة أسير مسيحي  
فوق السور ويجمعوا نساءهم وذراريهم في القاعة ويحرقوا البلد ويخرجوا  
منه بالسيف مقاتلين الى آخر نفس من حياتهم فمئنها حسبوا لذلك  
حسابا ورضوا منهم التسليم على ذلك الشرط ودخلوا مالقة رتبوا والحصون  
وبقى الزغبى ممتنعا في مكانه الا أن جماعة جنحوا الى التسليم من الجوع  
والتزم أن يتابعهم فبعث الى فرديناند بذلك فاجابه انه لا يناله الا ما ينال  
أهل مالقة فلما استسلم غدر به وأخذ هو وأصحابه أرقاء وحينما سأله عن  
سبب مقاومته الشديدة أجابه أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني ووطني  
وساطاني ولو طار عني جندي ما أسلمت السلاح أبدا فغضب الطاغية وأمر  
به فحمل على الادم

وعند ما دخل مالقة حول المسجد الاعظم كنيسة واقام بالقصبة  
واقامت الملكة بجبل فارة ويمد فتح المدينة اطاع غربي البلاد  
كاهل وخضعت شوكة اهلها وجدع مارن عزم وسكنت سورة بأسهم،  
واما السلطان أبو عبد الله فبعث يهنيء الملك والملكة بهذا الفتح ولم يكن  
هذا المسكين يدع فرصة لاظهار امانته إلا ويتهزها فلم تنفعه تلك  
الامانة الا حينما كان مظاهرا للطاغية على عمه، وللاسبانيول على قومه،  
حتى اذا خارت قرى مناظره واستسلموا الى العدو وظن الامر قد استتب  
له نزلت الصاعقة على رأسه وأخذ من حيث كان يرجو الامن وختم به  
ملك آباءه، وشقيت مئات من الالوف بشقائه، ولم ينبج من المحنة سكان



البيازين الذين ظاهروه على غيه، وشاركوه في فساد سمييه  
وتأمل فيما قال المقرئ بشأن حصار مالقة تجده منطبقاً على الرواية  
الفرنجية لولا شدة الاختصار قال وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح  
وأطاعوا صاحب البيازين وأتى إليها النصارى بالميرة ولما نزل باش بعثوا هدية  
لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شريش الذي كان  
مأسوراً عندهم فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فارة وهو حصن  
مالقة بدعوة صاحب وادي آش وارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة ونازلها  
براً وبحراً وقائمه أهلها قتالاً عظيماً بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم وطال  
الحصار حتى أداروا على مالقة الخنادق من البر، والسور والالجفان من  
البحر ومنع الداخل إليها ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار  
وحاربوا حرباً شديداً وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض وضيقوا عليهم  
بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام فأكوا المواشى والخيل والحمر وبعثوا  
الكتب للعدوتين وهم طامعون في الإغاثة فلم يأت إليهم أحد (ولكن عهدي  
بالنضال قديم) وأثر فيهم الجوع وفشا في أهل نجدتهم القتل ولم يظهروا  
مع ذلك هلعاً ولا ضعفاً إلى أن ضعف حالهم ويثسوا من ناصر أو منغيث  
من البر والبحر، فتكلموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممن سواهم فموتوا  
على ما صدر منهم وما وقع من الجفاء وقيل لهم لما تحقق العدو التجاهم: تؤمنون  
من الموت وتمطون مفتاح القلعة والحصن والسايطان ما يعاملكم إلا بالخير  
إذا فعمائم وهذا خداع فلما تمكن العدو ومنهم أخذهم أسرى وذلك أواخر  
شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ولم يبق في تلك النواحي موضع إلا  
وملكه النصارى انتهى

وفي هانيك الايام خرج الزغل بمساكره من وادي آس منقضا  
كالصاعقة على الاسبانيول فأجلب على الاطراف وشن الغارات في  
البسائط وقتل وأثنى وسي وغنم وعاد بالاسرى والغنائم الى وادي  
آس ثم جمع فرديناند حشوده كلها في مرسية في ربيع ١٤٨٨ وزحف بها  
على ديار الاسلام فدخل في طاعته نحو ستين بلدة الا المرية فان سالما قائدها  
هزم جيوش الطاغية فال الى بسطة وكان الزغل قد وصل اليها ووضع كميننا  
في واديهما فزحفت طلائع الاسبانيول فصد مها الزغل صدمة رثيال وبعد  
مقاتلة شديدة أخذ يتقهقر حتى أصبح الكمين من ورائها فلما حصلت بين  
الجيشين كر الزغل من ناحية ونفر الكامنون من أخرى وانقضوا على  
الاسبانيول انقضاض النسور فانهم بحد السيف ولم يسلم منهم الا الطويل  
العمر فقدم الملك فرديناند للكر فصدمه الزغل صدمة جديدة وعلا الصياح  
في الربى والوهاد «الزغل الزغل» فهامت قلوب الاسبانيول فانهزموا ومنحوا  
القوم اكتافهم فتمتع بهم المغاربة بالقتل والاسر فاهلكوا منهم خلقا كثيرا  
واجات الواقعة عن مصرع الدون فيليب الارغواني من كبار امراء اسبانية  
وغيره من الامراء ولم يرجع الزغل عنهم حتى وافاه المدد فانصاع فرديناند  
الى نهر قريب و فرق كتابه على المدن والحصون فخرج الزغل ودم هذه  
المدن فلم يدع فيها اسبانيوليا فيه عين تطرف وافنى خلائق لا تحصى في  
قلعة نزار

وكان قائد قلعة قنار معتمداً على متانة جدرانها ومر كزه من قمة الجبل  
محاطا بالاهوي والاوودية فغاب عنها فدهمها الزغل والسيف، شهور بيده  
فانهزم. الاسبانيول من وجهه ولا ذرا طراً بالحصن وكان لهم قائد مقدم

اسمه جوان دوافلوا فأحسن البلاء وأحكم التدبير فلم يتمكن الزغل من الحصن فأدار حوله الخنادق وهدم جانبا من السور وأوشك أن يدخل الحصن عنوة لو لا ما أمطروه من الذشاب والحجارة وقذفوا عليه من الاقفاط والزفت وبقي القتال خمسة أيام متوالية لم يسيغوا فيها الريق حتى يشمت الحامية ومالت الى التسليم فأندرهم القائد بان الزغل يفحش فيهم العقوبة والانتقام بما هو مهود من قسوته فاعتبروا قوله وفضلوا الموت تحت الحصار على الموت صبراً بين يدي العدو وما زالوا في الضنك الى أن نفس من خناقم بويرتودو كرىو بنجدة وافرقة فأحرق الزغل المدينة وقفل الى وادي آش

ثم إن مغاربة المرية وطبرنة وبرشنة خرجوا واغاروا على مرسية وجهاتها وثار كثير من المغاربة الذين عاهدوا العدو، وفي هاتيك الايام هطت أقطار غزيرة وجاءت سيول جارفة هدمت كثيراً من البنيان في مملكتي قشتالة واراغون واشتدت عواصف البحر فتحطم كثير من السفن ولما أقبل ربيع سنة ١٤٨٩ عرض فرديناند جيوشه في جيان فبلغت ١٣ ألف فارس و ٤٠ ألف رجل فزحف بها قاصداً مدينة بسطة موطناته نفسه على ابادنة ملك الزغل فاعمد الزغل قوته لمصادمته لكنه لم يتجرأ أن ينهد اليه بنفسه خوفاً من أن يشد عليه ابن أخيه من الورااء فيقع بين عدوين كبيرين ليس أدناهما اليه بالاقبل عدوانا فسرحت الى بسطة جميع الاجناد التي يستغنى عنها في وادي الاشات واستنفر العامة الى الجهاد فامتلات برشنة وطبرنة وقلاع البشرات بالخيل والرجل ورنت الاودية بعمقعة السلاح وصليل البوارق وكان ابن عم الزغل سيدي يحيى الناصر بن سالم في المرية

وكان قائد مجربا مقداما والزرغل فيه مزيد الثقة فاستدعاه من مكانه وأرسله الى بسطة بعشرة آلاف من شجيمان المغاربة فتقوت بسطة بهذا العدد وبلغ مقاتلتها عشرين الفا عليهم ثلاثة من اكابر قواد الاندلس الاول محمد ابن حسن من أبطال عصره المشاهير والثاني حامد أبو حلى قائد الجند المخيم ببسطة والثالث قائد قيجار وكان من روس القراد وكانت القيادة العامة لسيدى يحيى ولكن علو الرأي كان لمحمد بن حسن لمزيد خبرته وبلائه وسداد آرائه وانحائه

وبسطة بلدة حصينة واقعة في واد خصيب متسع الارضاء طولها ثمانى مراحل وعرضه ثلاث يسمي الهوية محاطة بسلسلة روابي اسمها جبل الكحل ويسيل في وادها نهران يسقيان أرضها والمدينة مبنية في السهل لكنها محصنة من أحد طرفيها بوعر الجبل وبقلعة متينة ومن الطرف الآخر بسور مكين عليه أبراج شاهقة ولها ريبض الى جهة السهل فيه حصون وأبراج وفي مقدمة هذا الريبض غرطة أشجار مسافتها مرحلة مشتبكة السرح فينانة الدوح كأنها أجمة واحدة تدور عليها المياه باقنية متشعبة تسقي جميع غياضها وفيها مئات من الابراج متفرقة في البساتين فكانت هذه الغرطة بما فيها من اشتباك الشجر وكثرة مجارى المياه وعدل الابراج والحصون تجعل مقرب تلك المدينة في غاية الصعوبة

فعند ما قصد جيش الطاغية نزال بسطة اخذ أهلها يتأهبون للمقاومة ويمدون ما استطاعوا من قوة فخصدوا زروعهم قبل أن يستترك الحب في السنبله وادخروا المؤونتهم جميع ما وصلت اليه أيديهم فكانت ترى اقاطيع المواشي تباعا داخله من الابواب والبهاائم موقرة اجمالا من

المؤن والميرة والسلاح والكراع من كل نوع فيمكن أن يقال على وجه التقريب ان بسطة أخذت عدة لحصار خمسين شهراً ولما اتاخذت عساكر فرديناند بسلاحه الموقع اشتدت الحركة في البلدة وازدادت الجلبة من قرع الطبول وتقليب السلاح وجاء فرديناند فضرب خيامه في الوادي بين البساتين وبعث الى أهل المدينة يدعوهم الى التسليم على شروط موافقة لهم ان انقادوا الى ذلك منذ البداية ويؤكد لهم أنه لا يرفع الحصار ولا يفرج عن البلدة ابداً حتى يتمكن منها، فعمد قواد المغاربة مجلساً حربياً وتشاروا فيما يجاوبون به ملك الاسبانيول وكان سيدي يحيى قد استاء من انذار فرديناند فاراد أن يجاوبه بان حامية بسطة لا تسلم ابداً ولكنها تقاومه حتى تنفى جميعاً تحت انقاض السور فأجابه محمد بن حسن ان لا فائدة لنا من هذا الجواب فلنجتهد ان يكون في فعلنا ما ينتض اعلان الطاغية وازتريد فصاحة العمل على فصاحة القول وهكذا فقد أرسلوا الى الملك فرديناند جواباً في غاية اللطف والايجاز يشكرونه فيه علي عرضه التسليم بشروط خفيفة لكن يعتذرون له عن الرفض بكونهم اؤتمنوا على المدينة ليحافظوا عليها لا ليسلموها

فعند ما أخذ الملك جوابهم شحذ غرار العزيمة وعود على التضييق والاخذ بالخنق فتقدم بحملته صوب السور لاجل تمكين الحركات من البلدة وأوجف بخيله ورجله وتغافل الاسبانيول في البساتين ليتخذوا مركزاً ينعمون فيه المغاربة من الخروج وانتشروا في أطرافها وكان الشبان الاغرار منهم متقدمين كأنما يوفضون الى اعراس الا أن أهل الخنكة والتجربة كانوا يرون في كل خطوة بين تلك الغياض خطراً، وأما صاحب

صانيتاغو فحث أصحابه وتقدم بهم ووعدهم عن الله بالانصر ويناهاهم على هذه الحال اذ ارتجت الارحاء بقرع الطبول وأصوات الهجاء واندفعت فرقة من المغاربة يقودها سيدي يحيى بنفسه لصد الاسبانيول عن التقدم فالتقت المئتان في مشتبك تلك الغياض مبالطة بالسيوف ومناضلة بالسهام ومطاعنة بالحرايب لكن طبيعة ميدان الحرب من جهة التفاف الشجر وتقطع البساتين بالاقنية وكثرة الابراج والبيوت جعلت الريح للمغاربة الذين كانوا يتناولون مشاة حال كوز الاسبانيول ركباناً، زد على هذا كون أولئك أخبر بالارض وثناياها وزواياها وادرب على الكر والفر، فلما رأى قواد الاسبانيول ذلك أوعزوا إلى كثير من الخيالة أن يترجلوا ويقاتلوا على أرجلهم فمندها استحر القتل وحى الوطيس، ولم تكن معركة عامة، بل مجتمع معارك متفرقة، إذ كل بستان أصبح ميداناً للمركة، وكل روضة صارت موطناً للنزال، وعاد كل من المقاتلة لا يبصر إلا لذي حواليه ولا يعلم بالبعيد عنه، وعادت القيادة وقرع الطبول عبثاً، لار كلامن الجند مشغول بنفسه متجرد دأقرنه، وفي بعض الاماكن كان الاسبانيول هم الظاهرين وفي غيرها كان العدو للمغاربة وربما انهزمت فئة من وجه فئته فتبعها فسقطت على فئة ظافرة فانضم اليها شمل المهزمين وجادوا الكرة، وقد يقصد بعضهم الفرار من شدة الهول فيقع في جهة العدو ولا يدري إلا وهو فيهم ذلك من عدم تمييز العدو من الصاحب في مشتبك تلك الغياض وانصرف جهد كل من الفريقين إلى احتلال تلك الابراج النائمة في وسط البساتين ووضعت في كثير منها النار فامتد الحريق وارتفع الالهيب وخرت الجدران وعلت الاصوات كقيام الساعة وازداد مشهد القتال هولاً وروعاً. هذا

وفرديناند ينتظر بذهاب الصبر نتيجة المصاف وهو في غابة القاق والجزع لا يلم شيئا مما وراء هاتيك الاشجار الحاجبة لنور الشمس فكان يسرب البعوث وتنجذات الي المواقف التي يخشي فيها الدائرة على تومه واجلت المركبة عن مهلك الدون جويان دولاره من أفراد ناشئة الاسبانيول وأعيانهم وأحبهم إلى قلب الملك ، وكان قد اقترن حديثا بالدونة كاتالائنة دو أوريا من أبداع فتيات عصرها

وأما من الجهة الثانية فكان القائد محمد بن حسن وحوله جماعة من القواد مراقبين حركات القتال من فوق الاسوار مدة اثني عشرة ساعة استمرت فيها المناجزة وكانت كثافة ورق الاشجار تحول دون رؤية التفاصيل فلم يكن يرى الا بريق الخوذ ولا يلح سوى لعاذ النصال، ثم أخذت فقد الجرحي فارفع عريل النساء وكانت ضجة هائلة عند موصل جثة رضوان ذي الفرغى من متمسمة النصراري الذي صار من اعظم قادة المسلمين ثم أخذ المغاربة يتقهقرون الى جهة المدينة وأور فرديناند بنقل خيامه الي هاتيك الجهة وعندها طار محمد بن حسن الى نجدة سيدي يحيى واجتهد أن يزحزح الاسبانيول عن مراكزهم الجديدة لكن هجوم الظلام، حال بينه وبين المرام، فوقف متربصا مكانه ولم يبدع للعدو راحة الليل بطوله، ولما أصبح الصباح كان مشهد القتال هائلا فالارض مغطاة بجثث القتلى تنبئ بلسان حالها عما احتملت من الحرب وأهوالها وهكذا أصبحت تلك الحائل وهاتيك الحدائق مجرد الدوالي ومجرى السوابق

ثم از فرديناند ادرك حرج الموقف الذي ضرب فيه خيامه وشدة الخطر الحائق، فاجمع على تقويض خيامه منه لكنه قدم طائفة من جيشه تشاغل العدو

الى أن يتمكن من إعادة المعسكر إلى محنه الاول فاغار سيدي يحيى بقوة جسيمة من الخيل والرجال فلم يفز من المعسكر بطائل يذكر لكن رجوع المحلة الى المكان الاول جعل المغاربة في منجاة من سوء عند الكر والفر نحو المدينة فعقد الملك مجلساً مؤلفاً من كبار القادة واستشار فيما يفعل فأشار عليه مركيز قانس بترك الحصار مؤقتاً بزعمه ان المدينة محصنة مكثفة في الميرة والذخيرة والسلاح وعدد المقاتلة لا يمكن افتتاحها الآن والجيش في تربصه أمامها معرض للمرض وإذا جاء الشتاء تعذر القتال وسالت الاودية وازمن رأيه أن يعتاض عن الاصرار على منازلة بسطة باجتياح الكورة وافساد زرعها واطلاق الغارة على المدن والقري المجاورة إلى ان تكون تهيأت فرصة أخرى. وأما الدون غوتيارو دو كوردناس امير لاره فذهب إلى أن رفع الحصار عن بسطة يتخذ العدو دليلاً على الضعف ويزيد المغاربة جرأة ويستأسد به الزغل وربما يكون سبباً لا تتقاض أهل غرناطة على أبي عبدالله وميلهم إليه فهو يرى الافراج من سفه الرأي، وكان الملك متردداً بين أن يقلع أو أن يقيم تارة يتصور المشاق التي ستحيط بمسكره خصوصاً في جلب الذخيرة فيعمل على رأي صاحب قانس وطوراً يتأمل فيما يترتب على الانصراف من استغلاظ أمر العدو فيميل إلى رأي أمير لاره، وبلغ الجند ما كان من تشور الملك واهتمامه وعزمه على الرحيل ضناً براحتهم فقاموا يطلبون الإقامة في ساحة البلد إلى أن يتم لهم فتحه ولما تضاربت الآراء بعث الملك يسأل الملكة رأيها بمكانها من جيان وكانت بينهما برؤم مرتبة ذات مراكز يقوم أصحاب كل مركز منها بقطع المسافة التي تخصه بحيث تصل الرسالة في عشر ساعات فاجابته انها تترك قضية الإقامة أو



الظعن إلى رأى الملك ووزرائه لكن فيما لو أريد الاستمرار تستعين الله في  
تقديم جميع ما يلزم للجيش من المؤونة والمال إلى أن تكون البلدة قد أطاعت  
فاجمع حينئذ فرديماند على الاقامة وعند ما بلغ الجند عزيمة الملك ارتقم  
ضجيج السرور كأنهم أصابو غنما أو أحرزوا فتحا

والتصل بسيدي يحيى ماهو واقع من المراء في أمر الحصار فعمل النفس  
بالآمال وترقب الفرج برحيل الملك لكن محمد بن حسن لم يكن يصدق  
ذلك واذا بمركة فجائية في صبيحة يوم كادت تحقق رجاء سيدي يحيى فان  
الخيام قوضت والآلة أنهضت والمدافع تماورها النقل وخيل أن قد  
شالت نعامة الاسبانيول وخمدت لهم بارقة النصر ولذا بالطاغية قد قسم  
جيشه شطرين فجعل مركز قانس على أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف  
راجل وأصحابه بالدون الونزو دواغيلار ولويز فرديناند ربويرتو كاريو  
وغيرهما من مشاهير أبطالهم جعل معه المدافع وسيره إلى الجهة المقابلة للجبل  
واتخذ الملك لنفسه قيادة القسم الثاني وهو مؤلف من ستة آلاف فارس وجيش  
من المشاة كثيف وعدد من الجلبين واستظهر بجماعة من عظماء المملكة  
مثل الكونت دو تنديلا وصاحب صانتياغو فأقام كل فريق على طرف  
من البساتين وخرّب أو ثاده هناك فنظر محمد بن حسن قائد بسطة فقال  
أما إنه لم يزل بينهما حاجز من الشجر لكن لم يكفد يخرج منه هذا القول  
حتى ملاء الفضاء صوت انقمار الاشجار واعمل الاسبانيول الفأس فطارت  
قلوب المغاربة شعاعا بما أصاب بساتينهم وتصايحوا للهانمة دون القطع  
والتحطيم فاشتبك تتال أياما وتعددت الوقائع وانصرفت السكرات راسمات  
الپشر دون الشجر، ورخصت الارواح في سبيل الادواح، واستمرت،

المناوشات أربعين يوماً تمكن خلالها الاسبانيول من استئصال تلك الغياض وابداء هاتيك النضرة بملاحقة العمل والصبر على هجمات العدو، وازيل الحاجر الذي كان بين المحتين وعطلت بسطة من حلاها وعريت في آن واحدمن جنة زهتها ومجنة وقايتها. ثم جعل الاسبانيول من احدى المحتين الى الثانية ممرا وضربوا دونه السدود ورتبوا مجاري المياه وبنوا الابراج على الجوانب بحيث أصبح من المحال أن يحال بين المحتين، ثم طمع فرديناند في منع الماء عن بسطة وقال بمض الاسبانيول ممن أرخ الوقائع ان الماء ضروري لهؤلاء أكثر من الخبز لانهم على اضطرارهم اليه لاجل الشرب يحتاجون اليه لاجل الوضوء والغسل واسقاط الجنابة مما تأمر به دياتهم ولا يحتاج اليه من الاسبانيول. وكان لبسطة عين تجري من قمة «أبو الحسن» وراء البلدة وكانوا يتبركون بماؤها فلما احسوا بما أجمع عليه الاسبانيول خرجوا تحت جناح الليل وأقاموا عندها من الحصون ما يعصمهم من كل غارة وفي خلال هذا الحصار خطر لبعض فتيان الاسبانيول شن الغارة على نواحي وادي آش وكان في مقدمتهم فرنسبكو ودوبازان وأنطونيودوكويفا بجمعا نحواً من ثلثمائة فارس ومثي راجل وسارا مستترين بجناح الليل آخذين بشباب الجبل حتى وافيا قرى الوادي قبل تحق الفجر فاسروا من صادفوه من اهلها وأنهبوا مالها وحطموا زرعها وساقوا نعامها كل ذلك في لحظة وقفلوا غائبين قبل أن يشعر بهم أحد فطار بعض رعاة المواشي الذين خلصوا من شرهم واعلموا بهم الزغل فسرح في أثرهم ستمائة من نخبة فرسانه ورجالته فادر كوهم في طريق انصرافهم ولما التقت العين بالعين وجد الاسبانيول أنفسهم دونهم في العديد والقوة فتصوروا ترك الغنيمة والرضى بالاياب

لكن فرنسيكوا دوازان وانطونيو دو كوينفا لم يوافقاهم على الفرار بحجة  
أن المشاة الذين معهم لو فروا لاستحجمهم العدو وان المقاومة هي التي  
لهم في تلك الحال فاختلفت الآراء بينهم وأراد القواد حسم النزاع فأمروا  
حامل الراية أن يتقدم فتوقف وكاد القوم يولون الادبار فتقدم فارس من  
الحرس الملكي اسمه هرناندو بيرز دلباغار قائد حصن سالار ورفع منديلا  
كان متلنما به على حسب عادة أهل الاندلس وعقده برأس الحربة ونادي  
أصحابه فدبت الحمية برءوسهم وكروا بقلب واحد وصدقوا الحملة فانكشف  
العدو دون انتظار وقتل نحو ثمانمائة من المغاربة وأسروا جماعة وقفلوا  
ظافرين فكافأ الملك هرناندو المذكور بلقب فارس وأجاز له رفع ذلك  
المنديل في موطن قتاله

وبينما كان الزغل ينتظر اياب أصحابه بالنعيمة اذ رآهم راجعين فرقا،  
مغلوبين حزقا، فرأى الاقدار معاكسة له والدهر قد قلب ظهر المحن بما كان  
يترامى اليه من أخبار بسطة وهلاك قسم كبير من حاميتها واشتداد الكظام  
بأهلها، ولم يكن في وسعه أن يخف اليها بذاته خوفا من أن يقتحم تلك الفرجة  
ابن أخيه من غرناطة فيسلبه ملكه فكان يبعث اليها بالمدد بعد المدد لكن  
الاسبانيول كانوا يلاقون الامداد فيفلونها قبل الوصول الى المدينة ومع  
ذلك بقيت حالته أجمل من حالة ابن أخيه السلطان أبي عبد الله لأنه حفظ  
لنفسه هيبه سلطان ذي صولة وصاحب درلة

وأما ابن أخيه فكان ملكا تابعا للملك قشتالة وحزب القتال في  
غرناطة لم يكن ليساوي بين المجاهد المرابط المناغر والخائن الخاضع  
الخانع لغير أهل الدين ، واخبار بسطة كل يوم تنكأ قلوبهم ، وتفت في

أعضائهم ، حتى تمشت المراسلات فيما بينهم في الوثوب على الحمراء وقتل  
أبي عبد الله والنقور من غرناطة حزبا واحدا الى وادي آس ومنها الى  
بسططة الاقراج عن المحصورين ، لكن لحسن بخت أبي عبد الله وسوء طالع  
الاندلس عرف هذا الملك بالمايدة فضرب أعناق رؤساء الحركة ورفع  
رؤسهم فوق جدران الحمراء ، فانزل بذلك الرعب في التلوب ، ولم يبق في  
غرناطة عزق ينبض لثورة ، واحس فرديناند بما كان في عزم الغرناطيين  
فارداد خذره وضاعف القوة ووضع المحارس وبث العيون والروادوا أخذ  
يظهر لاهل بسطة كل يوم من القوة بمظهر جديد ، وهم ينتظرون النجدة ولا  
يحضروا لصريخهم أحد حتى يشسوا وغاب عليهم القنوط فاراد محمد بن حسن  
أن ينبه على أمرهم يحيي آمالهم ، فقال لسيدي يحيى لمزم أن يظهر لأمرو انالم من  
ولم نزل على عز منا وقوتنا جمة ما جيو شهرها وخرجا بقوة عظيمة فالتقاها فرديناند  
بجموعه وهدرت طبول الحرب وتراحت الصفوف من كل جانب واستمات  
ككتائب المسلمين فانكشف الاسبانول ووقع الخلل في مصافهم ، ولم تم عليهم  
الجزية لو فرة أعدادهم وسعة محلتهم فقتل المسلمون بالغنائم ودخلوا البلد ظافرين  
ومن ثمة أخذوا يرسلون الجنود من جهة الجبل فيبطون السهل كأمح البصر  
تويتمون الموشى ويعودون بها الى بسطة ، وجرى خلال ذلك وقائع متفرقة  
شديدة امتاز فيها بين الاقران الدون الونزودرا غيلار

ومما يروى أن أحد قرسان الاسبانول المسمى مارتين غالة وشاهد  
الغيب الشمس فارسامغرييا شديد الصورة باهر الفلك يحمل على الاسبانول  
رقلية في وجهه فارس الاجدله ، ولا يساوره قرن الاصرعه ، فتدبى غالندو  
بأرارة فتصاولا وتجاولا ساعة فجرح المغربي في وجهه وانقلب عن صوته

فقبل أن يقحم الاسبانيولي جو اده ليفتك به كان المغربي نهض على رجليه واستل حربته فاعجله بجرح في رأسه، ومع كونه على رجليه وكون قرنه راكبا كاد لشدة بأسه وخفة حركته يورده حته لولا اسراع رفاق الاسبانيولي بنجده. فعندها أخذ المغربي يتقهقر ويبدأ ويبدأ إلى أن صار بين أصحابه. فسئل عنه فأذا به من عشيرة بني سراج. ولما كان الوجه في أكثر هذه المبارزات الفردية المغاربة شدد الطاغية في منع قومه عن قبول هذا البراز وحظر عليهم المناوشات الخاصة لعله اليقين ان المغاربة اقوم من كل شعب في الارض على هذا النوع من القتال وانهم أدرى بالارض وأهدى فيها سبيلا قالوا وبينما كان الاسبانيول يحصرون بسطة اذ شوهد في المعسكر اثنان من أجلاء رهبان الفرنسيسكان الواحد منهما ذو هيئة وهيئة ووقار عظيم راكب جوادا كريما بسرج مذهب والآخر متصاغر متضائل يسعى وراء الاول راكبا مكة بسرج خالٍ من الزينة، وكان دائما مطرقا في الارض ماشيا القصد خافض الجناح، فلما شوهد هذان القسيسان في الجيش تكلم الناس في مجيئهما، على انه كان معهم واداً حضور الرهبان في هاتيك الحروب المقدسة، فطالما اجتمعت الخوذة والقلمسوة تحت راية واحدة فظن من البداية أنهما من الرهبان المجاهدين لكن فهم أخيراً أنهما قادمان من الاراضي المقدسة برسالة مهمة. أما صاحب الوقار والتصدروا النعمة فهو الاب انطونيو ميلان رئيس دير الفرنسيسكان في بيت المقدس كان ممثليء الجسم جهير الصوت طلق اللسان ذأساليب خطابية كمن تعود ان يقول في الناس ويسمع له الناس، وأما رفيقه فكان صغير القدم مختصر الجرم مصفر اللون ابن الحديث خفي الاشارة خافت الصوت وكان من النواضع وخفض الجناح على ما ينبغي أن

يكون عليه من اتعنى الى مثل دعوته، وتلبس بمثل حلاته، لكنه كان من أهم رهبان  
الدير وأحسبهم وأدربهم، كان اذا رفع نظره من الارض انقذحت عيناه شراراً  
فيما يظنه الانسان أودع من الورقاء، اذا هو أدهى من الحية الرقشاء  
وكان هذان الراهبان آتيين من عند سلطان مصر في ذلك الوقت  
الملقب قبل الافرنجة بسودان مصر لانه كان الاتفاق بين هذا السلطان  
وبين السلطان بايزيد الثاني صاحب القسطنطينية على إصراخ مملكة  
غرناطة ووضعها فيما بينهما اوزار الحرب اجتماعاً على مظاهر الملة وتفرغاً للجهاد  
ثم أوفد صاحب مصر هذين الراهبين بكتاب منه إلى ملوك قشتالة وإلى البابا  
والى ملك نابلي منكر أعليهم ما هو واقع من العذاب على مغاربة غرناطة الذين هم  
من بني ماته وجلده بينا عدد كبير من المسيحيين راتعون في ممالكه في مجامع  
الراحة والامان . تتمتعون بالاكهم وحقوقهم ناعمون بحريتهم الدينية فهو يلبح  
في الافراج عن مسلمى الانلس وتمكينهم من الاملاك التي اغتصبوهم  
اياها وأجلوهم عنها، والافانه يحو بنداب السيف جميع النصرانيون الذين هم في  
ممالكه ويخرب . ما ابدهم ويحمل كنيسة القيامة في القدس قاعاً صفة صفا . وكان  
خبر هذا الانذار قد ذاع بين مسيحي الشرق فأقض مضاجعهم وروع قلوبهم  
وصاروا ينتظرون خلاص مسلمى الغرب لئلا يؤخذوا بجريرة المعتدين عليهم  
فالتقى فرد بناند ذينك الوافدين برآ وتجلة كعادته من ملاقاته رجال  
الدين وخلاهما مراراً مستقصيا منهما ملياً عن أحوال النصرانية في المشرق  
وكان الوافدان قد عاجا برؤمة لدم اليا بابا كتاب سلطان مصر  
فكتب اليا بابا معهما الى ملوك قشتالة يستشير فيما يجب أن يجاوب على خطاب  
صاحب مصر وكتب بمثل ذلك . ملك نابلي وتوخى في كتابه تخطئة ملوك

قتتالة ولو من طرف خفي فيما هم مباشره ومما جاء فيه انه لو لئن كان  
المغاربة مخالفين في المذهب فليس من الجائز الاساءة اليهم بدون سبب عادل  
وانه ان كان ملوك قشتالة لا يصبرون على أدنى أساءة من مسلمي اسبانية  
فليس من اللائق بمقامهم أن يأتوا أقل عمل من شأنه أن يجر على النصرانية  
وبالا - الى آخر ما ذكر من هذا القبيل مما نقله بعض الاسبانيول وعقبه  
بالطن في ذلك الملك والقدح في أماتته للنصرانية واتهامه بالعصبة مع  
صاحب مصر، الا أن بترو باركالا يزور كوب ملك نابلي ظهر الخلاف  
في هذه المسألة إلى نقص في حميته الدينية بل لما رب سياسية بأنه كان يمتد  
انه ان تمكن فردينا من فتح غرناطة أمكنته الفرصة وتهيأت له الوسيلة  
للادعاء بملك نابلي انه تابع لمملكة أراغون  
أما فردينا فاجاب ذلك الملك جرابا في غاية اللطف والرشاقة أتى  
فيه على تفاصيل تلك الحرب وبين له وجوه الحق في غشيانها وختم كتابه  
بتسكين روعه من جهة نصارى المشرق مؤكداً له أن الاموال التي بدفونتها  
هي الجنة الواقية لهم دون ما يتهدده به سلطان مصر من استئصالهم وحثت  
إلى البابا يعرض له أسباب الحرب وهي تنحصر في ثلاثة الأول استرجاع  
أرض تملكها المغاربة بالسيف والثاني مجازاتهم على سوء المعاملة التي عاملوا  
بها المسيحيين والثالث انها حرب مقدسة يقصد بها اعلاء مجد الكنيسة  
وبعد أن أقام الراهبان الوافدان بالرسالة مدة بمحلة الملك يقصان على  
قواد الجيش أخبار المشرق شخصاً الى جيان لمقابلة أنظم الملكات كشافة  
الا وهي الملكة إيزابلا فاستقبلتهما من البر والاحتفاء بما يفوق الاطراف  
وعينت لديرهما في بيت المقدس احساناً سنوياً نحو الفدوكا وعند انصرافهما

سليتها غشاء باهر النفاسة ، طرزاً بيدها الملوكية لوضعه على القبر المقدس  
قال الكاتب الانكليزي الشهير واشنطون أرفن: ولم يذكر الاب  
أغاييدا مؤرخ هذه الوقائع نتيجة الرسالة التي وفد بها ذاك الراهبان  
وهي انه فيما بعد أزعج فرديناند وايزابلا المؤرخ الشهير بطرة مارتير  
انغريا سنيراً الى الشرق لدى صاحب مصر أو بحسب قولهم السودان لاعظم  
قائدي من الحنق والمهارة بتلك السفارة ما أقنع به ذلك الملك الشرقي  
واستجلب به ميله وفاز منه بايثار غرضه وحصل على أوامر برفع كثير  
من المغارم عن زوار القدس الشريف ولبطرة المذكور رحلة شهيرة في  
بلادهم ضمنها جما من الفوائد والنوادر ( ١ )

هذا وبقي الحصار مستمراً على بسطة وتغير فرديناند وايزابلا ينهت  
الى آفاق اسبانية فتكثف الجيوش وتتوارد المقاتلة من كل فج ولم يكن  
البناء كاه في جمع الاجناد بل بازاحة علمهم ، توفيراً قوتهم ، ولم تنحصر النفقة  
في الجيش المقاتل وحده بل كان يلزم الملك وامراته تسريب ل ذخيرة لجميع  
المدين التي دخلت في حوزتهما وكماية حماة الماسبق أخذها من الاكتساح  
والعيث الذي غادرها كجرف العير فرتبت الملكة الوفا من البهائم لنقل  
الاقوات وجمعت عليها خفارة وافره لصدد غارت المغاربة في الطريق  
واقامت توصل الامداد صباح مساء ولما فرغت خزينتها من النقدا سئعات  
بايمان البلاد والبطارقة فقدم كل منهم ما وصلت اليه يده من النقد وبعضهم  
قديم ما عنده من الحلي والجواهر وباع الاساقفة آنية الكنائس واستنزفوا

( ١ ) لا يوجد حل لهذه المسائل الا بوجه واحد وهو ان الشرقيين اكرم اخلاقاً  
من الغربيين وان قاعدة « اذا ملكت فأسجج » لا تعرفها اوربا



مافي خزائن الاوقاف من الكنوز ونبرع التجار بمبالغ طائلة من المال وجاد كثير من العشائر الاصيلة بذخائرهم وتقاسمهم وأخيراً أرسلت الملكة نفسها حليها وآنية تقصر الثمينة الى برشلونة وبلنسية وباعتها لاجل شراء الاقوات والميرة ولإزاحة عليل المساكر

وبينما كانت قطر الحيوانات ترد تبعا موقرة بالذخيرة والطعام إلى مخيم الملك فرديناند - وقوة الاسبانيول تمتاز يومافيرما بازاء بسطة كانت الاقوات ابتدأت تنفذ في البلدة والمجاعة تمض الحامية بناها، لكن بقي لاهل بسطة أمل في الفرج بهجوم الشتاء وتراكم الامطار وحسبوا أن لا بد من أن السيول المتحدرة من الجبال تضطر الطاغية للظمن بمحنته وبينما هم يتدلو زبهذا الامل إذا أخذ الاسبانيول يبنون بيوتامن الخشب مسقوفة بالاجر حتى كمل لهم نحو الفييت على هذه الصورة لاقامة الامراء والقواد، واتخذ الاجناد لانفسهم بيوتامن الطين موطدة بفروع الاشجار ومغطاة بالخوص، وصارت المحلة عبارة عن مدينة قائم في وسطها بناء كبير لنزول الملك يخفق فوقه علما أراغون وقشتالة وقد عول فرديناند على اختطاط هذه المحلة توقيام من السبل وقطعا لامل للمغاربة من الافراج الا أنه لم يكديتم بناءها حتى عصف إعصار شديد مسحبه مطر مدارر وسيل أني قدم جانب من البيوت وهلك خلق كثير من الجند والخيل والماشية وفسدت الاقوات والذخيرة وارتاع الجيش وخافوا الهلاك ولكن أسعدم الطالع بافلاح المطر نغفت وتيسرت الحركة وأرسلت الملكة بعوض عماس نقص من الزاد وبعثت ستة الاف رجل لترميم الطرق التي أضرت بها السيل وإقامة المعابر عليها وأعاد الملك بناء البيوت التي تهدمت في المحلة ورجع

الاطمئنان إلى قلوب الاسبانيول

وخاف الطاغية تكرر الاعصار والفرق وتفشى المرض في جيشه  
فراسل أهل بسطة في التسليم على أن يؤمنهم في أنفسهم ونفائسهم فبعث  
إليه محمد بن حسن بجواب لطيف العبارة سلمي المعنى وكانت أخبار السيل  
وما لحقه من الضرر بمسكر فرديناند قد وصلت إليهم مع المبالغة  
فطمعوا في رحيله وتشددت عزائمهم وبرزوا للقتال فحدثت عدة مناوشات  
هلك فيها جملة وافرة من رجالات الفريقين وحدثوا أن في إحدى هذه  
الوقائع خرج نحو ثمانمائة فارس وأنى راجل فاعتلوا صربا وراء المدينة  
ركبوا فيه ريمح الاسبانيول فتنارشوا ساعة واستوت الهزيمة على هؤلاء  
فتبعوهم وقد فقد منهم جملة إلى أن حصلوا في محلة كونت تنديلة وغونسلاف  
القرطبي فصدقوها الحملة فتداعى رجالها للفرار وثبت الكونت وصاحبه  
في موطنهما اذ وجدا الثبات أدنى إلى السلامة من الهرب فانضم اليهما من  
صبر من الجند وصدوا المغاربة فأوقفوهم ولكنهم كادوا يختلون في مصافهم  
وتحق عليهم الغلبة واذا بالونزردوا غيلا رو كونت ادرينه وجماعة من رجالاتهما  
قد أقبلوا فتلقوا الصدمة وتكاثروا فارتد المغاربة نحو المدينة وجرى على  
هذا النمط عدد من الوقائع لم تحقق فيها راية ظفر تام لاحد وكانت شررة  
المغاربة في القتال تزداد بازدياد بأسهم وخنائهم وكان الامير سيدي يحيى  
دائما في مقدمة جنده لكن فراغ الخزائن من المال وتنادى القوت قطعاً من  
آماله وتذاكر مع محمد بن حسن في الحالة فاجمعا على استمداد الاهالي  
وبينا لهم تعذر المقاومة مع إعواز القوت فتشارر أهل بسطة ببعضهم مع  
بعض وجمعوا ما عندهم من الحلي والآنية من ذهب وفضة ودفعوها للمحمد

ابن حسن قائلين له «خذ هذه فاضربها نقداً أو فبعضها أو فارهنها واستحضر  
ملا لقوت العسكر» وقالت نساء بسطة بعضهم لبعض «هل يليق بنا  
أن نتبرج وتزين بهذه الحلي حالة كون بلادنا خراباً ورجالنا محتاجة الى  
القوت الضروري» ثم جمن ما عندهن من العقود والاساور وسائر الحلي  
ودفعنهم المحمد بن حسن قائلات له «خذها ودافع بها عن ديارنا وعيالنا فان  
افرج عن بسطة لم نحتج الى الزينة لاجل اظهار فرحنا وان اخذت بسطة  
فاي حاجة للاسير بالحلي والجواهر» .

فتمكن محمد بن حسن بهذه الاعانة من مداومة الدفاع ونمي الى الملك  
ما فعل أهالي بسطة وما تجدد عندهم من النشاط فعمد الى مقابلتهم بما يوهن  
عزائمهم وكتب الى الملكة يدعوها الى المعسكر فبينما محمد بن حسن يشدد  
حمية البلدة ويبسط لهم الامل برحيل الملك اذ سمع قرع الطول فشخصت  
الانظار الى جهة محلة الاسبانيول فاذا بالملكة قادمة بجيش يحف به ابطانه  
عظيمة باهى الملابس وعلى يمينها كريمتها البرنسس ليزابلا وعلى الشمال  
الكردينال الاكبر في اسبانية ووراءها جماعة من عقائل اسبانية المريات  
فلما شاهد القائد محمد هذا المشهد فت في عضده والتفت الى أصحابه قائلاً  
« يا اخواني أصبح تسليم بسطة مقرراً »

وقد كان موصل الملكة ليزابلا من الابهة والوقار ما اثر في خواطر  
المغاربة أنفسهم وعزم بعض رجالهم أن يهاجموا موكب الملكة لادن وصوله  
فمنهم الامير سيدي يحيى حرمة لمقام الملكة وأطل جميع سكان بسطة من  
السطوح والمآذن والابراج لمشاهدة وصول الموكب وكان احتفالا فائقا  
وعلت فيه السكينة جمع الجوانب وعند ما أيقن المسلمون أن الملكة والملكة

لا يرحلان إلا بتسليم بسطة مالوا الى التسليم وتمشت زجالات الاسبانيول  
بالصلح فحضر الدون غوثياردو كردناس واجتمع بالقائد محمد بن حسن  
وقال له باسم الملك انه ان سلم أهل بسطة الآن يكونون آمنين على أنفسهم  
وأموالهم وحرية اعتقادهم وإلا فان أصروا على المقاومة لم يأمنوا أخيراً الا على  
دم ولا على مال ولا على دين محمد، وذكره بما أصاب مدينة مالقة فراجع  
سلطانهم الزغل في ذلك وكتب له سيدي يحيى كتاباً وأرسل به القائد  
محمد بن حسن فلما وصل الى وادي آش وجد السلطان منقطعاً في جهة من  
قصره يتأمل في سوء بخته وما آلت اليه الاحوال فسأله عن حال بسطة  
فأجابه تفهم من هذا الكتاب ودفع اليه كتاب سيدي يحيى فقرأه حتى أتى  
على آخره وعرف اضطرار البلد للتسليم وما عرضته عليهم الطاغية من  
الشروط الموافقة ولم يخالج صدره أقل ريب في كلام سيدي يحيى لما كان عليه  
من الثقة فيه والتمويل عليه وخالطه بنفسه كأنهما شخص واحد فتنفس  
الصعداء وتوجع ملياً وأخذ يفكر فيما يعمل مطرقة ساعة ثم أمر فحضر  
الفقهاء والشيوخ وتشاوروا فيما يفعلون فاجلى المجلس عن تندرلداد بسطة  
بشيء فاستدعي الزغل قائد بسطة محمد بن حسن وقال له اذهب الى ابن  
عمي سيدي يحيى وقل له لا ينتظر مني نجدة لاني لا أقدر على تلبيةه بشيء  
فليفعل ما يبدو له فعاد القائد بالجواب وكان أمراً تضيماً لان قواد بسطة  
تصالحوا مع فرديناند على أن يدخل البلد وينال الجميع الامان ويخرج من  
جاء في صريح بسطة من فرسان المغاربة بخيابهم وامتعتههم الى حيث شاءوا  
ويكون تسليم البلدة والقلمة في ستة أيام وأما أهل بسطة فاهم الخيار بين  
أن يرحلوا بأموالهم أو أن يقيموا بالربض متمتعين بأموالهم وحريةهم

الدينية وخلع الملك فرديناند على القواد وأكرمهم وأنعم عليهم واختص  
بإيثاره الامير يحيى وأدناه ونال هذا من الحظوة لديه ولدي الملكة ما أكد  
لهما صداقته وتعلق قلبه بالملكة بما بهره من جاهها ولطفها ورضانتها فأخذ  
يسعى في خدمتها ويتزلف الى مرضاتها بانواع المناصحة وحبب اليه حبها  
النصرانية فيقال انه تنصر سراً وقد أطنب المؤرخ أغاييدا الاسبانيولي  
في وصف تلك النعمة وعد هذه من فتوحات فرديناند وذهب بعض  
مؤرخي العرب بحسب قول واشنطون أرفن الى أن الطاغية استغوى هذا  
الامير باجزال الصلات واسناء الجوائز وتوسيع الاقطاعات ولكن  
أغاييدا يقول ان ذلك كان حكمة منه لاجل بسط يده وانفاذ كلمته فيما  
يمود باستمالة كثير من قومه الى النصرانية وانه بتصدياقه بسطوة الامير  
يحيى على المغاربة صدر أمر الملكين بابناء مسألة تنصره مكتومة الى أن يكون  
قضى بواسطته أوطاره كذلك دخل القائد المجرب محمد بن حسن في خدمة  
فرديناند واقتدى به كثير من فرسان المغاربة

وكان تساييم بسطة في رابع ديسمبر سنة ١٤٨٩ بعد حصار ستة أشهر  
وعشرين يوماً ووجد فيها نحو خمسمائة أسير نصراني وهلاك تحت أسوارها  
من عساكر الطاغية عشرون ألفاً قيل منهم سبعة عشر ألفاً اتوا بالامراض  
والباقون هلكوا في القتال واقتدى ببسطة غيرها من المدن كالكب  
وطبرنة وكثير من حصون البشرات ودخل أهل تلك الجهات جميعاً في  
ذمة الطاغية وادتنى في البداية بأحسن معاملتهم واجزال "مطاء في قوادهم  
سياسة منه لاستئمانه جمهورهم اليه ورضاهم بسطانه

وكان من هؤلاء القواد رجل يقال له علي بن الفخار في يده عدة من

المواقع والحصون فحضر في جملة القواد الذين سلموا مفاتيح حصونهم وانقلبوا بالصلوات والجوائز وكان شامخ الانف شديد الزماتة والوقار فلما وصل الدور اليه خاطب الملكين بحرية الرجل العسكري وان كان لم يستطع اخفاء بأسه وانكساره فقال لهما « أنا رجل مسلم قائد لحصون طبرنة وبرشنة قد تسلمت هذه الحصون لاجل محافظتها لکن الذين عهد إلي بقيادتهم فقدوا كل نهضة وقوة وعانوا لا يطالبون سوى الامان فهذه الحصون أصبحت أيها الملوك العظام لكم متى شئتم ابسثوا من يستلمها » فأمر فرديناند في الحال باعطائه مبلغا طائلا من المال جزاء هذا التسليم الجزيل القدر فامتنع من أخذه منكراً ذلك انكاراً شديداً وقال لهما أنالم آت لا يبيع ماليس ملكي بل لاسلم ما جعلته الاقدار الالهية ملكا لكما وايکن يقينا عند جلالتكما انه لو وجد من يسعفني كما يجب لكان الموت هو تمن هذه الحصون بدلا من الذهب الذي يعرض علي »

فأعجب الملكان بانفة هذا القائد وشهامته وأمانته وتمنيا أن يكون منتظماً في جملتهم ويدخل في خدمتهم فأبى خدمة أعداء ملته وقومه ولما يتسامنه قالت له الملكة إيزابلا إذا لا يوجد لك حاجة نظهر لك بقضائها مالك في جانبنا من الاعتبار، أجاها بلى حاجتي عندكم أنني تركت في المدن والحصون التي سلمتها كثيراً من ني ملتي البائسين الذين لا يتيسر لهم الرحيل عن أوطانهم بنسائهم وأطلقهم فأرجوا أن تعطوني وعداً ملو كياً بمحابتهم واطلاق الحرية لهم في دينهم وأملاكهم، فوعدها بذلك ثم، قالت له الملكة وهلا تطلب شيئاً لنفسك قال كلا سوى الاذن في الاجازة بخيلي ومتاعي فأراد الملكان أن يجبراه على قبول صلتهما من المال مع الخليل الثمينه الارجوج

لا يقصد المكافأة بل على سبيل الهدية فانكر أن يصيب هذه النعمة وذاك الوفير في زمن يؤس قومه وخراب وطنه ثم أخذ تذكرة الاجازة من الملك فرديناند واستصحب خيوله وخدمه وامتمته واسلحته والقي على بلاده نظرة الوداع كاسف البال بادي الكتابة لكن بدون أن تسقط له دمة ولا يترطب له جفن وركب جواده قاصداً البحر لاجل الاجازة الى افريقية

وقال في فتح الطيب بشأن بسطة وحصارها الطريل « وفي عام أربعة وتسعين خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب واستولى على ما هنالك من الحصون ثم نازل بسطة وكان صاحب وادي آش لما تبين العدو محلته بعث جميع جنده وقواده وحشد أهل نجدة تلك البلاد من وادي آش والمرية والمنكب والبشرات فلما نزل العدو بسطة أتت الحشود المذكورة ودخلوها ووقمت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تقهر العدو عن قرب بسطة ولم يقدر على منع الداخل والخارج وبقي الامر كذلك رجب وشعبان ورمضان ومحلات المسلمين زلة خارج البلد ثم ان العدو شد الحصار وجد في القتال وقرب المدافع والآلات من الاسوار حتى منع الداخل والخارج بعض منع واشتت الحال في القعدة والحجة وقل الطعام وفي آخر الحجة اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا الا القليل وكانوا طامعين في اقتلاع العدو عند دخول فصل الشتاء واذا بالبدو بنى وعزم على الاقامة وقوي اليأس على المسلمين فكلوا في الصالح على ما فعل غيرهم من الاماكن وظن العدو أن الطعام لم يبق منه شيء وأن ذلك هو المرجى لهم للكلام وفهموا عنه ذلك فاحتالوا في إظهار جميع أنواع

الطعام في الاسواق وابدوا للمدبر القوة مع كونهم في غاية الضعف، والحرب خدعة، فدخل بعض كبار النصارى للتكلم معهم وهو عين ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس وعند تحققتهم بقاء الطعام والقوة أعطوهم الامان على انفسهم دون من اعانهم من أهل وادي آش والمنكب والمرية والبشرات فان دفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الامان وإلا فلا، فلم يوافق أهل البلد على هذا وطال الكلام وخاف أهل البلد من كشف الستر فاتفقوا أن تكون العقدة على بسطة ووادي آش والمرية والمنكب والبشرات ففعلوا ذلك ودخل جميع هؤلاء في طاعة العا و على شروط شرطوها وامور أظهرها لبعضها للناس وبعضها مكتوم وقبض الخواص مالا وحصلت لهم فوائده. وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين ثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة وملاكوها ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عايه الشرط والالتزام وقالوا لهم من بقي بموضعه فهو آمن ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالما ثم أخرج العدو المسلمين من البلد وأسكنهم بالربض خوف الثورة «

وكان الزغل قابعا في كسر بيته من وادي آش يسمع كل يوم صريحا ويرن في اذنه كل ساعة صدى ويل، وبلاده تسلم الواحدة بعد الاخرى الى العدو، زلة قدرتها كسه اطراداً، والضربات تنهال عليه دراكاه، وفي هذه الحالة قدم عايه ابن عمه سيدي يحيى عدوا في ثياب صديق، وبميدان في صفة قريب مشارك في الهم والدم، ولم يكن الزغل علم بتنصره اذ بقي ذلك سرا فارتاح جدا الى رؤية ابن عمه في ذلك الوقت الضيق ولما أقبل عليه عانقه لزاما وضعه الى صدره وبه همه فأخذ سيدي يحيى توطئة لما يترخى من خدمة الطاغية يبين له اليأس من الحالة وعقم الدفاع من الفائدة لما هو مقدر



من سقوط مملكة غرناطة بين أيدي النصارى، وان المنجمين لم يكذبوا فيما حكوه عن أبي عبد الله الشقي وان السقوط سيكون على يده وانه لما أسر في لشانة كان تبادر للظن انها هذه الواقعة التي أشار اليها المنجمون وان النحس قد انقضى فظهر الآن أن ليس المقصود واقعة مفردة بل وقوع المملكة بأسرها، فحيث كان أمر الله قدراً مقدوراً لزم التسليم لمشيئته تعالى واذ وقع القضاء، فليس الا التسليم والرضى. فاطرق الزغل ساعة وهو غريق في لجاج الهواجس والاشجان، ذاهب من التأمل والتأمل في بحران، ثم رفع رأسه وكبر وحوقل وقال ليس من القضاء مفرد. (لن اصيبنا الا ما كتب الله لنا) تالله لو لم يكن سقوط غرناطة قدراً لكان سناني وحسابي زعيمين بحفظها فقال له سيدي يحيى وماذا استقر في عزمك الآن هل أجمعت تسليم المدن الباقية لك الى ابن أخيك أبي عبد الله حليف النصارى فلما سمع الزغل ذلك اضطرب كله وقال له كلا بل أفضل ان أرى رايات العدو خافقة فوق هذه الابراج من أن أسلمها لهذا الشقي فاغتتم سيدي يحيى فيها النرصية، وأخذ يرغبه في التسليم ويحثه له الانحياش الى الطاغية والدخول في ذمته، الى أن حصل أخيراً على موافقته، فانقلب الى الطاغية بما أراد وتقرر تسليم المرية ووادي آش وسائر البلاد التي في يد الزغل وأن يكون الزغل لقاء ذلك حليفاً للملكين ويقطع أرضاً واسعة في البشرات مع نصف الملاحه ويلقب بملك اندرش ويكون الفامدجن رعية له، ويتمتع بدخل أربعة ملايين مراويد. هذا الى مواعد كثيرة

وتقرر بينهما على أن يكون التسليم في المرية في سبع عشرة خلت من ديسمبر تحرك الملك فرديناند من بسطة بقسم من جيشه وتبعته الملكة

بالقسم الآخر ماراً بالمدن والحصون التي دخلت في طاعته فلما صار على مقربة من المرية لقي السلطان ابا عبد الله الزغل خارجاً في ملاقاته مع الامير سيدي يحيى وجماعة من الخواص ولم تخف على وجه الزغل علامات الغيظ الشديد والاسف البالغ وكان ظاهراً على خضوعه التكاف وفي مقادته الصعوبة وكان لسان حاله يحدث بان خضوعه انما كان للتقدير لا لله ولا للبشر

على انه لما اقترب الملك فرد بنانند ترجل الزغل وتقدم اليه وهوى على يده كمن يريد استلامها فتجافى الملك عن ذلك حرمة للقب السلطنة وانحنى اليه فعانقه وأشار اليه باستئناف الركوب وأجل في مكالمته ولما تم له استلام البلاد لحق الزغل بارضه في جبل البشرات حيث انقطع يحشو على رأسه تراب الذل

وحيث توخينا نصحا بالنار يخ وامعانا في تمحيص الروايات مؤاخاة النقل الا فرنجي بالرواية العربية تتبع ما قاله بهذا المقام أيضا صاحب النفع وهو، ثم ارتحل العدو للمرية واطاعته جميع تلك البلاد ونزل صاحب آش للمرية ليلقاه بها فلقيه واخذ الحصون والقلاع البروج وبايع له السلطان ابو عبد الله على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحب فوعده بذلك وانصرف معه الى وادي آش ومكنه من قلعته أوائل صفر من العام المذكور واطاعته جميع البلاد ولم يبق غير غرناطة وقرهاها وجميع ما كان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طرفة عين وجعل في كل قلعة قائداً نصرانياً وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم مالا من عند صاحب قشتالة اكراما منهم بزعمهم فتباً لعقولهم وما ذلك منه إلا توفير

٢٩ - خلاصة تاريخ الاندلس

لرجالہ وعدتہ ودفعم باتي هي أحسن ثم أخذ برج الملاحه وثيره وبناه  
وحصنه وشحن الجميع بالرجال والذخيرة وأظهر الصالح والصحة مع صاحب  
وادي آش وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكرامته وخذاعا  
ودهاء « انتهى

وأما صاحب غرناطة الشيقتو فلما وصل اليه خبر نزول عمه على حاكم  
الطاغية طار فرحاً وظن انه بالغ امنيته وانه من الآن فصاعداً أمن النزاع  
واصبح بدون مناظر وتمكن ساطانه بتمكين ملك الاسبانيول الذي هو  
حليفه الى غير ذلك من الاماني الكواذب التي قلما تخطر الا في بال امثاله  
ممن يضيعون ميثما أضع وكاد يأمر بالزينة لبشرى خذلان عمه لولا أن وزهره  
يوسف ابن كاشة نبهه من غفلاته وأصحاه من نشوته وقال له أفق فان  
الزوبعة كانت في أفق واحد فسننتقل الى أفق آخر مع هذا لم يقنع لحماقتة  
وسخفه وأمر فاسرج له جواده وخرج للزهة فسمع باذنه كلام السوء  
في حقه وأيقن بغضب العامة منه اذ كانوا يعتبرون الزغل هو السلطان  
المجاهد المرابط الحامي ذمار الملة وانه ماسيق الى ماسيق اليه الا اضطراراً  
بمظاهرة ابن أخيه للعدو عليه فأسرع ابو عبدالله الاوبة الى قصره وأرسل  
الى فرديناند يستدعي نجاته خوف الانتقاض فاجابه فرديناند يطلب  
النزول له عن غرناطة ويذكره بالمهد الذي عقده معه بمد أسره بأنه عند  
ما يتمكن من وادي آش رية بسطة يمكنه الحراء من وهوذا قد تمكن  
فيتقاضاه الوفاء بالمهد الذي عاهده إياه فاجابه ابو عبدالله ان ذلك قد كان  
منه ولكن حيث أصبحت غرناطة مجمعا لجالية المسلمين من جميع أقطار  
الانديلس وملجأ للشذاذ والمشردين من المدائن التي دخلت في حوزة

الاسبانبول وقد غات في صدور الجميع سراجل الاحنة واستوفزوا للاخذ  
بالثار فان داخلهم في طاعة الملك فرديناند الآن انتقضوا عليه واستهدف  
للخطر المحيق فهو يلتمس المهلة لاجل سكون ثائرهم وانطفاء وقدتهم ومن  
تمة لا يبقي مانع من القيام بما عاهد عليه

فلم يقنع الطاغية من جواب أبي عبدالله وقلب له ظهر المجن وكشر  
له عن ناب المداوة وارسل الى أعيان غرناطة والقواد يعرض عليهم تسليم  
القلاع والنزول عن الحمراء وهو يفي لهم في مقابلة ذلك بشروط الامان  
ويعاملهم بما عامل به أهل وادي آش والمرية والا فان حدثتهم انفسهم  
بالمقاومة وأصروا على الجفاء سار معهم سيرته مع اهل مالقة فمال جماعة  
التجار وارباب الاشغال الذين يدور نجاحهم على السكون الى رأي التسليم  
وتابعهم فيه من خاف في عياله مغبة الحرب وعاقبة الخذلان ولكن كانت  
غرناطة لذلك العهد قد غصت بالطرودين والموتورين الواردين عليها من  
كل اوب قدماً الضغن قلوبهم وغلا الثار في صدرهم ووطن اليأس نفوسهم  
على الاستماتة وقد شحنت بالمقاتلة واحلاس الحرب وانجاد الغارة ممن  
ولدوا على صهوات الجياد، ونشأوا في معامع الجهاد، وممن لا حرفة لهم سوي  
الغزو والمرابطة، وكان فيها آخرون وان لم تكن الحرب حرفة لهم يرتزقون  
منها فان همهم العربية تأبى لهم وحميتهم الاسلامية ترأبهم من أن يستسلموا  
للعدو صاغرين ويروا غرناطة الحمراء قبة الاسلام في الاندلس العهد الاخير  
وحضرة العز ومتبوءاً المنمة مئين من السنين والمصر الذي يمجج بجموع  
المؤمنين قد رطبها الطاغية بقدم استيلائه، وقادشه مهازمام استعلائه

واتفقت تواريخ الافرنج على انه كان واسطة عقد هذه الطبقة المجلي

في حلبة الفراسة الامير موسى ابن أبي الفسان من سلالة الملوك شاباً بعيد  
الهمة كريم السجية، أبي النفس باهر، القوة مستر فيكشروط التواء جاء ما  
بين صباحة الوجه وضبارة الخلق غاية في بهاء الطلعة ونفاذ العزيمة حداً في  
عزة النفس وزكاء الطبع، كان لا يوجد أدرب منه في عصره بفنون الفروسية،  
ولا أحسن منه اعتماداً لصهوات الخيل، ولا ألبق ولا أرشق حركة بالأعاب  
السيف والترس، وتقليب السلاح بأنواعه، كان اذا برز في ميدان ترك أمره  
فتنة لحسان غرناطة ومداراً لحديث الانداسيات واذا شهد الكريهة قذف  
مشهده الرعب في قلوب الاسبانيول وطالما نصح المسلمون باسمه

وكان موسى قائماً على السلطان أبي عبد الله هوادته مع النصارى  
ولين جانبه لهم فمند ما وصل الى غرناطة رسل الطاغية رشاع ما طلبه من  
تسليم الحضرة والنزول عن الحمراء قام هو وتلك الهيئة المائلة الى الحرب  
مستنفرين أئمة للجهاد مستبغين في حث المهتم وتنشيط العزائم وتحذير  
القوم عواقب الخضوع من فقد الامن على الاعراض والدماء والاموال،  
وأعمل موسى في الاحتشاد وبالغ في النفير فبادرت جمهرة المسلمين الى  
اجابة دأبيه وطمعت في استئثار الجنة، ونفرت فتيان غرناطة تريد الموت  
في سبيل الذب عن دمار الدين، وتطيع من موسى سيداً كانت تغضب له  
أوفهم اذا غضب ولا يدره ن لم غضب فكيف وقد غضب للدين، ونهر  
لحماية عرض المؤمنين، فأرسلوا الجواب الى الطاغية قائلين له انهم بفضلون  
الموت على تسليم مدينتهم و يوعده ان شاء الاجلاب بما استطاعوا من قوة  
فلما أيقن فرديناند بما أجمعوا عليه اطلق الغارات على الاطراف  
وجعل ذلك الى نظر كونت تنديلا قائد ثغر جيان، رشرع في التأهب

والاستعداد للحركة، وقام موسى بن أبي الغسان من الجهة الثانية وقد حفر  
به فتیان سراًة غرناطة وتبايعوا على الموت تحت لوائه ونفرت فرسان المسلمين  
من كل أوب، وماجت أسواق غرناطة وساحتها بالحشود، وملاً الآفاق  
صهيل الخيول وموسى روح الجهاد ومحط الآمال قبلة الخواطر وحياة  
نفوس المشاغبين، واسمه الرعب الحريق بأقاصي الثغور

فلما أخذ الاسبانيول يشنون الفارات خرج الاءير موسى فرسانه فوالى  
عليهم الهزائم، وصارت خيولهم وسراياهم تعدد النسيب، وتدخل غرناطة دخول  
الظافر، مما أعاد الى خراطم انقوم ذكر الأيام الماضية رحبتهم بعود عز  
الاسلام وایام غلبته على تلك الاقطار، ومضى شتاء تلك السنة على هذه الحال  
وأقبل الربيع فقاتل الطاغية عايناً أن نمنح هذه السنة كور غرناطة وفي التي  
بعدها انهاجم البلد بمد أن يكرن قل النوب وانقح المدد، فحضر بخمسة آلاف  
فارس وعشرين ألف ماش وأخذ يكاسح مرج غرناطة البديع النصير المنقطع  
النظير معه من أمراء بلاده ذرق مدينة سيدوناة ومر كيزقادس ومر كيزفيلنه  
والدون الونزو دواغيلار وغيرهم من رموس قوادهم فشمال تلك المروج عينا  
وتخرىباو بعت النار في جميع ارجائها حتى غطى الدخان الافق وأظلم جو غرناطة  
من دخان شجرها هذا وأبو عبدالله لايجسر على الخروج من حرائه خوفا  
من فتك العامة به، لقولهم انه، وسبب هذه المصائب، لكن موسى قسم فرسانه  
الى عدة كتائب وعقد على كل كتيبة لواحد من آحاد القادة وأطلق الفارات على  
أطراف معسكر الاسبانيه ل فأنغ فيهم السباية، وربما عمدا لكثرة حشودهم الى  
الخدعة والمكيدة أحيانا، ففي إحدى المرات بانما كانت قطعة من  
الجيش الاسبانيولي سائرة في سفح جبل إذ لقت بجماعة من المغاربة

تقهقروا أممهم فطمعت فيهم حتى نشبت بين صخور فاندفق عليهم المغاربة من وراء الجندل فاستلحم الاسبانيول وفر منهم جماعة وصبرت جماعة بقيت تقاتل في أرضها واذا بجبل الاسلام قد أطلت منقضة انتقاض العقبان فخصمت في وسط الاسبانيول وحى الوطيس وكان مركزه فيله وأخوه الدون الوزو دوشيكو في بهرة المعمة فما غنم أن جرح المركيز وخر الدون الوزو صريعاً وبجانبه اصطفان دوسوزون من صيابة القواد وضاق الخناق بالاسبانيول وشاهد الملك أن الوجه المغاربة وأن جماعته هالكرن لا محالة فأمرهم بالرجوع فلم يترثوا في تلبية أمره وانكفوا خاسرين بعد دفاع شديد ولما رأى فرديناند أن مناجزة المغاربة خصوصاً في هذه المناوشات الخاصة تمود غالباً بالخسران على عسكريه أصدر أمره الصارم باجتناّب القتال معهم والاعتماد على العيث في بلادهم واكتساح أراضيهم واستئصال أسباب القوت ليأخذ غرناطة بالجماعة بدل الحرب

وكان على مسافة مرحلتين من غرناطة حصن يقال له حصن رومة من فوق هضبة مشرفة على المرج وكان في مكانه أعز من الابلق يقصده المتجئون من المغاربة والشذاذ منهم وقل العساكر اذا انهزمت وهو شجراً في حلوق الاسبانيول فلما كان الطاغية نازلاً على مرج غرناطة ازدادت يقظة حراس الحصن وفي صبيحة يوم بينما كانوا ينظرون الى بعيد مراقبين حركات الطاغية اذ تراءى لهم عمائم عجراة واسنة مغربية ولم يكن غير قايل حتى وصل حذاء القصر نحو مائة وخمسين مغربياً معهم قطيع من المواشي مسرعين مهطمين وتقدم منهم عريف عليه سياء الشرف والنباهة فالتمس الدخول قائلاً انهم كانوا في غارة ببلاد النصارى وقد غنموا منهم

وقفوا لكن البصارى تطاردهم فهم يخافون ان يدركوهم في الطريق قبل  
أن يدركوا غرناطة ففي الحال أسرع الخفراء الى فتح الابواب ودخل  
هؤلاء المغاربة وأظهروا الاطمئنان وفرحوا بهم الا أنه ما كاد ينتشر حراس  
الحصن في باحاته حتى علت صيحة بغتة فأسرع كل الى سلاحه مذعورا  
فوجدوا القصر في يدهؤلاء الدخلاء فاستنابوا الى الخضوع وعلم بعد ذلك  
أن سيدي يحيى السابق الذكر مع ولده قدما من الجبل بجماعة من المدجنين  
لخدمة الطاغية فاعملا الحيلة في الاستيلاء على هذا الحصن استزادة من  
الزلفي لديه وبهذه الوسيلة تمكنا منه وبعثا بالخبر الى فرديناند فارسى  
وشحنه بالمقاتلة، واما حامية الحصن فان سيدي يحيى اتقى عليهم واطلق سراحمهم  
فانصرفوا الى غرناطة ولم ينفعه عند الغرناطيين ابقاؤه على حياتهم مع خيائته  
في أمر الحصن فاهالت على اسمه اللعنات كالمطر الصيب كما انه من الجهة الثانية  
لم يحمل عمله كاه على الخلوص التام فقد قال الاب اغايدا الاسبانىولى في  
تاريخه : ان طلاق سراحمهم دليل على أن نصرانيته لم تكن كاملة بل لم  
يزل في قلبه بعض ذرات من الاسلام « وهذه غاية المناقته ان يخلصوا  
من كل فئة

ثم أوغر صدور الغرناطيين حنق آخر ائمة من الاول وهو من عمل  
مولاي أبى عبدالله الزغل ملك اندرش الذى كان معتزلا فيها متسليا بهذا  
اللقب عن احزانه وأوجاعه وكان المسلمون إلى ذلك الحين ينظرون  
اليه نظرم الى رجل مظلوم مخذول وصل الى الحالة التي وصل اليها اضطرارا  
وتسييرا وزجه فيما هو فيه كنود ابن أخيه وقعود بني ملته عن نصره



ففي أحد الايام سافت الزغل عمائته في بغض ابن أخيه الى النزول من اندرش بمثى مقاتل والانضمام الى عسكر الاسبانيول فلما رأى المسلمون راية الزغل بين رايات ملوك النصارى تحمقوا انحياشه للطاغية فألقوه بسيدي يحيى في المنزلة عندهم وعلت عندهم مكانة ابن أخيه حينئذ ونوذي باسمه في الاسواق وهتفت الاصوات بالدهاء له وعتدت به الآمال فنغمه عمل عمه ونشط السلطان ابو عبد الله للحركة واعمل في الجهاد بما رأى من اقبال قومه عليه

وبعد أن لبث الطاغية شهراً كاملاً يبيت في صرج غرناطة حتى أخنى على نضارته قفل الى قرطبة من طريق الجبل فماتواى عن العين حتى نهض ابو عبد الله متقلداً سلاحه وامتلى جواده ونفر واستنفر فالتفت عليه فرسان غرناطة وخفت اليه سكان جبال البشيرات الموصوفون بشدة البأس وماجت ساعات الحضرة بالحشود وتبايع الناس على الموت وتبارى الفرسان في ميدان النزال يقدمهم الامير موسى بن أبي الفسان وهو روح النهضة وسيف المزيعة والفجر الصائح بليل الملة

نخرج السلطان من الحمراء في ١٥ حزيران ودم حصن همدان على بضع مراحل من غرناطة وهو من أعز حصون النصارى يحرسه مائتان وخمسون مقاتلاً من أبطالهم معموداً عليهم لفارس مغوار اسمه مندودو كويشاده فأناخ بساحته السلطان ستة أيام وست ليال يفاديه القتال ويرأو حه حتى هلك أكثر حاميته وسلم الباقرن فدمر السلطان الحصن وجمعه دكا وارسل الاسرى الى غرناطة

ثم استولى أبو عبد الله على حصن مارشنة وحصن بلدة من حصون

النصارى وشاع بين المسلمين أن السلطان أنحن في النصارى وافتتح من معاقلمهم وأن الكرة مأمولة، فتويت عزائمهم ولاحت لهم بارقة الامل وانتقض الخاضعون منهم للطاغية ناشرين راية ابي عبدالله واخذ خيالة غرناطة يغزون أرض النصارى من جهة ثرغجيان ويفنمون منهم الا انه مرة بينما كان بعضهم عائدین بغنيمه وافرة كمن لهم كونت تنديلة في أحد الاودية فذعروا وقتل منهم خمسة وثلثون فارساً وأسر نحواً من خمسين واستعاد الكونت الغنائم وبقيت سرايا الفريقين يغزو بعضها بعضاً فرأى السلطان أبو عبدالله ان بقاء الحال على هذا المنوال لا يزيد قوة وانه بعد أن جرى ماجري من حطم الزروع وقطع الاشجار ونسف العمران حول عاصمته لا بد أن يؤخذ بالجوع ان لم يؤخذ بالحرب ففكر في فتح طريق بينه وبين البحر والاستيلاء على فرضة بحرية يتسرب منها اليه المدد حيث كانت جميع موالي الاندلس في ايدي النصارى فوجه عنايته نحو شلوبانية وهي مدينة كانت ممدودة عند العرب من أحصن مدن الارض وأصعبها مرتقى وكان ملوكهم يستودعون فيها خزائنهم وكنوزهم وكان الطاغية لذلك العهد قد جعلها لنظر الدون فرنسيسكو راميرز دو مدريد قائد المدفعية الاكبر لكنه كان عند زحف أبي عبدالله اليها غائباً في قرطبة ينوب عنه في القيادة أحد فرسانه فانتهز الفرصة سلطان غرناطة ونازل شلوبانية بجيش جرار وكان أهاليها من المدجنين فلما رأوا رايات الاسلام قد اقبلت انضروا تحتها وخلصوا طاعة العدو ورأت حامية البلدة من النصارى انها لا تقدر على مدافعة ابي عبدالله فاعتصمت بالقلعة فدخل المدينة واستولى عليها وامتنعت عليه القاية فنازلها وطمع في منع الماء عنها وامتد الصريح في الجوار بان المسلمين

٤٠ - خلاصة تاريخ الاندلس

منزلون شلوبانية فالتلات قلوب نصارى الساحل رعباً وكان الدون  
فرنسيسكو انريك قائد بلش مالقة فجمع جيشاً فيه فرناندو بيرز ولبلغار  
صاحب المنديل وحضر لا غانة قلعة شلوبانية فوجد المدينة في ايدي المسلمين  
نقيم تجاه القلعة فاشتد به ازر الحامية والنساب فرناندو سرا بسبعين من  
اشداء رجاله فاساقوا القلعة من باب صغير قبل أن تمكن العدو من الشعور  
بهم ولم يلبثوا أن حضر الى الميناء اسطول فيه جنود و مؤن لا غانة  
النصارى فنزلوا في مكان حصين على شاطئ البحر ولما نزل المسلمون القلعة  
صاروا بين عدوين فارتدوا عنها وعزل ابو عبد الله على أخذ ميناء حرة  
الذي كان ساهمه الى النصارى سيدي يحيى السابق الذكر فيما تضاف به اليهم  
من الخمة الا انه بلغه كون الملك فرديناند زاحفاً به ساكره فهاجم القلعة  
الهجوم الاخير فلم يفر منها بطائل فاقطع عن شلوبانية اعداء الى غرناطة  
واشتفى في مسيره بالعيث في الاراضي المختصة لسيدى يحيى والانتقام من  
جماعته ورجال عمه الزغل ودخل الحمراء بمغانم كثيرة تسلى بها عن فشله  
امام شلوبانية ولم يكدر يستقر في قعده بالحمراء حتى وصل الطاغية بجيش  
مؤلف من سبعة آلاف فارس وعشرين الف راجل بتصد اغانة شلوبانية  
فلما بلغه اقلاع ملك غرناطة دنيا مال الى المريج فالتقى جهاته تخريباً  
وتدميراً واستأصل أشجاره وافسد زرعته حتى قيل انه لم يبق فيه غصنة اخضر  
ولا نعمة تسرح ، فبنا هو مريج اخضر ، اذا قلب قفراً اغبر ، ودافع اهل  
غرناطة سن حياضهم ورياضهم فلم يجدهم دفاعهم ، لا انتشار العدو في بقاعهم ،  
والترامهم الا كماش في . ينتهم محافظه على اسوارها  
وفي تلك الايام كشف النصارى مكيدة دبرها اهل وادي آش والمرية

وبسطة فانهم راسلوا السلطان ابا عبد الله أن يزحف الى مدتهم وهم يفتكون  
بجامياتها ويفتحون له ابوابها فبلغ ذلك مرهين ذه فيانه نخب الى وادي آس  
بقرة وافرقة، بحجة انه يريد أن يمرض الاهالي في مكا، فسبح اخر جهم خارج  
الابواب ثم أغلق الابواب في وجوههم وأبلغهم أنه محظور عليهم سكني  
المدن، نعم أذن لهم بالدخول مثنى مثنى أو ثلاث ثلاث لاجل نسايتهم  
واولادهم وحيث صاروا بدون مأوى اتخذوا مضارب واكواخا في  
الارباض والبساتين وأوصلوا الشكر من هذه المعاملة فأجيبوا باز عليهم  
الانتظار الى أن تتحقق براءتهم، يصدر أمر الملك بشأنهم فلما حضر الملك  
فردينا ندوفاً عليه وشكر الديه، معاملة تواده لهم خلافاً للعهد التي أعطاهم  
اياها فاجابهم بما معناه يا أصحابي بلغني ان كيداً هتاد تدبر بان تتلوا عمالي  
وجنودي وتشتركونا مع ملاء غرناطة في قتلي وقد تحققت تدبير هذه المكيدة  
فيما بينكم فمن منكم تثبت براءته يعود الى منزله ومن دخل في هذه الدسيسة  
فاني لأسامحه لاني كما أحب الرحمة أحب العدل أيضاً، وها أنا ذا الآن  
أجعلكم في الخيار فاخترتوا الاخف عليكم إيماناً وتوكلوا من هنا جالين عن  
البلاد بعيالكم وأموالكم وأنتم آمنون سالمون في أنفسكم وتفسكم واهالأت  
تسلموا الى رؤساء الفتنة الذين كادوا لي كيدهم. قال المؤرخ غايدا وهو  
من النعصب والتعالم بالمقام الذي لا يخفى « ولما كان أكثر أهل وادي  
آس مشتركين بهذه الدسيسة آثروا الرحيل بنسايتهم وأطفالهم »  
ثم خير فردينا ندوفاً الى بسطة والمرية هذا التخير نفسه تحلصاً منهم  
ففضلوا الاجازة الى افريقية ومن بقي منهم لا ذبيعض القرى والساكر  
لأجسين اثوب الذل ألوانا وأشكالا

وكان السلطان أبو عبد الله الزغل قد يئس من الحالة التي آل إليها وتكآده الهم واشتدت عليه وطأة الاحزان مما جرى له من فقد الملك ، وانتشار السلك ، والنزول عن عرش سلطنة الى رتبة شيخ قرية بل كان أهل أندرش ابتداءً ينشرون عليه وبعد لحاقه الاخير بجيش الطاغية أصبح اسمه ممقوتاً عند كل المسلمين ، وصار رديفاً للعنة اللاعنين ، فضانت مذاهبه وعول على الرحيل من الاندلس ، فقدم على الطاغية وطلب منه المساعدة في الاجازة وعرض عليه شراء أملاكه الواسعة بثمن بخس وكانت نحو آمن ثلاث وعشرين بين مدينة وقرية في وادي أندرش والهورين فاعطي بدلها خمسة ملايين من السكة المعروفة بالمراويد ووهب حصنة في الملاح وأماكن اخر لابن عمه سيدي يحيى وشد حقايبه وأجاز الى افريقية

فلما وصل الى افريقية أخذه سلطان فاس والقاء في السجن وبعد ذلك سمل عينيه بدعوى إنه كان السبب في بلايا مسلمي الاندلس وذهب غرناطة من اليد استصفي أمواله واستبد بخزائنه ولعل هذا هو السبب في نكبته ثم خلى سبيله فروى مؤرخو الفرنجة أنه التجأ الى أمير باش غمارة وكان صديقاله فاشبعه من جوع وآواه من قفر واطف مصيبته بقدر الاستطاعة حتى إذا مضى هذا سبيله لم يبق له مغيب ولا ناصر فهوى ثانية في وهدة الذل والفاقة ، وقيل إنه آل أمره أخيراً الى أن يستعطي في الاسواق ويطوف وعلى ثيابه رق غزال مكتوب عليه « هذا سلطان الاندلس العائر الجد » وهذا يخالف لرواية نفح الطيب كما ستري عند ذكره جواز الزغل

هذا وبعد أن عطى فرديناند مروج غرناطة من حلالها زحف في

حادي عشر نيسان من ذلك العام باربعين الف راجل وعشرة آلاف فارس  
لحصار المدينة واستصحب في هذا السفر جميع عظماء قواده مثل لتريق  
بونس دو ايون ومر كيز قانس ومعلم صانيتاغو ومر كيز فيلنه وكونت تنديله  
وكونت قبرة واورنيه والدون الونزودواغيلار، وانعقدت العزائم على التضييق  
بالبلدة ومزاولة الحصار الى أن يتم تسليمها ولانه لا افراج عنها هذه المرة  
وكانت الملكة ايزابلا مع ولدها البرنس جويان وابنتيها جويانه ماريه وكاناليه  
في حصن كونت تنديله تبعث بالمدد والذخيرة الى المعسكر

فلما رأى السلطان أبو عبد الله من شرفات الحمراء جيوش الطاغية  
مقبلة وقد غطى عجاجها الفضاء وسد الافق عقد مجلساً مؤلفاً من أعيان غرناطة  
ورؤسائها فاجتمعوا كاسفي الببال نادبي سوء الحال وتخوف بعضهم عواقب  
الحرب من نزول المعرات في بيوتهم فأشاروا على أبي عبد الله بتسليم مقاليد  
أمره الى كرم فرديناند أملاً بأن ذلك يعود بشروط صالح مقبولة

وسئل الوزير أبو القاسم عبد الملك أن يبين مقدار الباقي من الطعام  
والذخيرة لاجل الحصار فأجاب أن الباقي يكفي، وونة بضعة أشهر ما عدا  
الذي في مخازن التجار ومنازل الاغنياء لكن أي فائدة من ذلك اذا كان  
حصار النصارى لا ينتهي، ثم سئل عن عدد المقاتلة فأجاب إنه عدد عظيم  
لكنه ماذا ينتظر من جيش معظمه من سكان المدن يرغون ويريدون في  
أماكنهم حتى اذا دلف اليهم العدو سكنت ثائرتهم وانطفأت حمرتهم

فلما سمع موسى بن أبي النسان هذه الكلمات نهض قائلاً «أي باءت  
بنا الى اليأس فان دم الابطال من عرب الاندلس فاتحي هذه الديار يجري  
في عروقنا وعندنا قوة وافرة وجيوش معودة مجربة في الوقائع لانرتاب

في إقدامها إذ لدينا عشرة من الف شباب يمكنهم أن يداوموا عن دورهم وأسوارهم  
أعظم قوة واكتشف جيش، فأما الطعام فلا نختار في أمره ولدينا عقبان من  
الجياد المسومة نظير بها إلى ديار المدجنين الذين استسلموا للصاري وإلى  
بلاد العدو فنعمرد بالغنائم والانتقال»

فثبت كلام مرسى عزائم القوم ووطنهم على الدفاع وتيزعت القيادة  
فعهد إلى الوزير أبي الفاسم بتجنيد الجناد وتفريق الوثورة والسلاح  
وإلى الأمير موسى بقيادة الخيالة وحفظ أبواب المدينة والمهاجرة ومعه زعيم  
رضوان ومحمد بن زاهدة وإلى عبد الكريم الزغبى قادة آخرين بالمحافظة  
على الأسوار وإلى قواد القصبية والأبراج الحمر بالدفاع عن الحصون

وأخذ الغرناطيون بالتأهب للجهاد فلم يكن يسمع إلا فرع طبول،  
وسليل أسنة وصهيل خيول وانتظمت الفرسان بقيادة موسى كواكب يتقدمها  
شهاب ثاقب، فكان أنجاد الغارة وإحلاس القتال يعجبون به يداوموا واقدامه  
وكانت العامة تحوم عليه ها تفتين بالدعاء مهلايين، كان طائفة العجزة من الشيوخ  
والنساء يداومون عليه ويباركونه، متقدين أنه حامهم والجنة الواوية ونهم،  
ولما قرب النصر إلى من المدينة أحكم المغاربة أقتل الأبواب وجعلوا  
وراءها السدود والسلاسل وأوثقوها بالأغلاق المتينة فجاء موسى وأمر  
برفعها كلها قائلاً: قد عهد إلي رالي خيالي حراسة هذه الأبواب وستكون  
أجسادنا سدوداً من دونها وجعل عند كل باب حرساً وافراً وكانت خيله  
دائماً حاضرة للنزال، ومقاتلته على أوفاز للحرب، فإذا دنا لعم وانقضت عليه  
كالصواعق والخشت فيه النكاية، فكان في أفعال موسى فضلة على أقواله  
قال الكاتب الشهير واشنطون أرفن «فلو وبد عند الغرناطيين عدة رجال

مثل موسى أو كان ظهوره في بداية هذه الحرب لكان تأجل سقوط مدينة  
غرناطة وبقي المسلمون مدة مديدة بعد ذلك متبوتين أبراج الحمراء  
هذا ونظر فرديناند الى حالة غرناطة ومن فيها من جوع المسلمين  
المنضوية اليها من سائر الاندلس تغلي في صدرهم الاوتار غلي النار في  
المراجل وفيهم من ذؤباز الرمال وابطال النزول عديفوق الاحصاء فرأى  
أن أخذ البلد بالسيف من قبل الاحلام، واعتمد أن يأخذها بالحصر  
والتضييق كما أخذ مدينة بسطة فقطع عنها المرد واجتاح جبال البشرات  
وصار يقبض على كل قافلة نارلة صوب غرناطة فكان موسى يشن الغارة في  
خيله على مسكره فيغنم ويفتك ويعود بالسلب فأمر الملك اتقاء غارات  
موسى بجنر خنادق واقامة اسداد حول الخيم وجعل الخيم أقساما أربعة  
على شكل مربع وبينها الاسواق والدكاكين

وبعد أن تم ذلك على هذا المنوال استدعى امرأته الملكة ايزابلا فحضرت  
باولادها وأقاربها وذلك دهاء منه لقطع آمال الغرناطيين من الرحيل  
عنهم حتى يمكوه من بلدتهم. وكان لقدمها في المعسكر ضجة فرح عظيمة  
أما المغاربة فلم ترتخ عزائمهم بذلك وقال لهم موسى « ان علينا الدفاع عن  
الارض التي تحت أقدامنا لانه إذالم تبقى لنا ذهب ملكنا رحمت اسماؤنا »  
ولما رأى موسى أن الملك فرديناند لا يناوشهم القتال منتظراً تسليم البلد  
بالحصر والتضييق وقام الميرة أخذ يرسل فرسانه لمبارزة فرسان النصارى  
قرنا لقرن فلم يكن يمضي يوم الا ويقع فيه عدة مبارزات بين شبان الطائفتين  
فرأى فرديناند أن هذه المصارعات الشخصية تسد أثارت جأش المغاربة  
وقويت عزائمهم وافقدته عدا من فرسانه فامر جيشه بعدم قبول البراز



وعيرهم المسلمون بذلك فلم يخالفوا أمر الملك، فقال المسلمون « أي فضل الملك يحاول أن يخضعنا باضعاف أجسادنا ويفر من لقاء أرواحنا » ومنذ ذلك الحين شرع فتية المسلمين يحركون شبان الاسبانيول للانزال بما يمكن من الوسائل فكان بعضهم ينقض على معسكر فرديناندو ويده حربة يثبتها في أقصى معسكرهم وعليها السمة وربما كتب مع اسمه بعض الشتائم تحميسا للاسبانيول لكن هؤلاء كانوا يحتملون هذا الذل إطاعة لأمر الملك الى انه في أحد الايام أغار فارس مغربي اسمه طرفة مشهور بقوة جسمه وثبات جناحه لكن شجاعته أميل الى التوحش وغازظ الكبد مما هي الى النخوة والحمية فآثرت ربحه في الارض أمام فسطاط الملك والملكة ورجع كالبرق الخاطف فجدا الحرس في أثره فلم يدركوه ودخل المدينة فنظروا الى الرمح فوجدوا عليه رقبا مكتوبا عليه بعض الشتائم عرفوا أن المقصود بها الملكة فعممت نكابة هذا الفعل في قلوب الاسبانيول وكادت فتياهم تتميز من الفيظ من هذه الجرأة وفي الليلة التالية جمع فرناندو بيريز دابلغار نخبة من الشبان وسرى تحت الظلام الى أحد أبواب المدينة فوجد الحرس نائمين اهدم توقعهم مثل هذا الهجوم فدخل بجماعته وقام كل الى سلاحه فتمكن الاسبانيول من الباب وحفظوه ريثما كان فرناندو قد أوغل في وسط المدينة راكضا جواده الذي يسابق الريح حتى وصل الى الجامع الاعظم فآثرت في بابه لوحا كان معه مكتوبا عليه اسم « مريم المذراء » ورجع مسرعا فوجد قومه ثابتين في مراكزهم فخرجوا وافرين وما انتبه أهل غرناطة لهذه الضجة وجدت العساكر من كل نواحي البلد حتى كان الاسبانيول قد صاروا بقرب مضاجعهم

ويقال إن هذا الجامع بعد دخول الاسبانيول الى غرناطة تحول الى كنيسة باسم السيدة مريم وإن الامبراطور شاركان منح دابلغار هذا وذريته الحق في دفن أمواتهم بتلك الكنيسة

وكان بعد معسكر الاسبانيول عن المدينة بحيث لا يمكن منها سوى لمحتمها العامة فارادت الملكة ايزابلا أن تشاهد تفاصيل البلد وقل صبرها عن ذلك فهبياً مركيز قانس بطانة كافرة واحراسا متعددين وسير قطعة من الجيش بين خيل ورجل وسار الملك والملكة وأولادهما وأمراء أسبانية بانغر الزينة وأنفس المراكب وقصدوا مزرعة يقال لها « الزينة » في حدود الجبل شمالي غرناطة مشرفة على حمرائها وأجمل أحيائها فلما قاربوا المحل تقدم مركيز فيله وكونت أورينه والدون الونزودوا غيلار بجنودهم وربطوا أعالي القرية ووقف مركيز قانس وكونت تنديله وكونت قبره والدون الونزو وفرناند بمجموعهم حذائها ودخل الملك والملكة أحد بيوت القرية حيث أعد المسكان لجلوسهما وحف بهما الامراء والاساقفة ينظرون الى غرناطة الحمراء متأملين كيف تتحول قريبتا مساجدها كنائس وما آذنها معالق للنواقيس

ولما رأى المغاربة إصطفاف جيش الاسبانيول كأنما يريدون القتال رأوا من الذل الاحجام عن مناجزتهم فامضت هنيئة حتى شوهدت سرية من فرسان غرناطة قد خرجت من المدينة بالمدد الكاملة والاسنة اللامعة وعلم انها فرسان موسى بن أبي الفسان فصدر أمر الملكة لمركيز قانس باجتنب القتال لانها لا تريد أن يراق بمقدار نغمة الطائر من الدم في سبيل نزهتها فالتزم المركيز السكون ولم يعلم المغاربة الدب فيه أخذوا

يتحشون بالاسبانيول ويدعونهم الى النزال والملك يمنع قومه من الاجابة  
وألح بعض سرعان المسلمين حتى صاروا في مصاف النصاري يهزون أسنتهم  
ويحركون حفاظ أعدائهم وهؤلاء ساكنون في مواطنهم وإذا بفارس زميت  
الهيئة مفتول السواعد غريب الصولة عظيم البطشة قد تقدم ووراءه جماعة  
فعرف بالقرينة انه هو طرفة الذي اهان الملكة حسبا تقدم ونظر الاسبانيول  
فاذابه معلق بذيل جواده اللوح الذي كان دلباغار قد ركزه في باب الجامع  
الاعظم يافيه من الكتابة فلما رأى الاسبانيول هذه الاهانة غاب صوابهم  
وصاع رشدهم واسرع أحد ابطالهم المدعو كارسيلاسو فاستأذن الملك  
في النزول لمبارزة هذا الذي اهان السيدة مريم فاجابه الى ذلك اجلالا  
لمقام الطلب فعاد كارسيلاسو وتقلد سيفه وتأتب بدرعه واعتقل سنامه  
وامتطى حصانه ونزل لمبارزة الفارس المغربي فتساور القرنان بمشهد من  
الجيشين الشاخصة أبصارهما وكان المغربي بحسب رواية مؤرخي الفرنجة  
اسد ساعد وأعظم خلقاً وأوثق اضلاعاً وأحسن ركوباً من خصمه ولذلك  
كان النصاري خائفين على فارسهم وفي الصدمة الاولى ترحزح كارسيلاسو  
عن صهوته وكاد يهوي لولا انه تمكن حالا من لجام حصانه وعاد مستويا  
على ظهره فاخذ المغربي يدور حوله منوثباً به دوران الباز الاشهب حول  
فريسته وكان جواده طائعاً له وخيل للناظرين عند كل ضربة يضربها ان  
رأس الاسبانيولي قد طار عن جثته اوفاق شطرين لكن كارسيلاسو  
بسرعة حركته اتقى ضربات طرفة تارة بالذكوس بجواده وأخرى بالدرق  
يحمي بها ومع هذا فكانت كلوم البطلين قد غطتهما بالدم وخارت قوى  
الاسبانيولي ولحظ ذلك طرفة منه فوثب عليه وأهواه عن سرجه ولما

حصلا على الارض صرعه على ظهره ثم ركم فوق صدره واخترط خنجره  
وهم ان ينجره به فصاح كارسيلا سو صيحة رج بها الفضاء ولم يكن الا  
كالبرق حتى سقط المغربي قتيلاً وعلم أن خصمه وجاء في احشائه بدمية كانت  
معه وقام من تحته وقد علا ضجيج النصارى من شدة فرحهم بنجاة فارسهم  
ونسبوا المدد جاءه من السيدة صريم العذراء التي انتصر لها، وقدر وعيت في  
هذا البراز قواعد الفروسية فلم يتعرض أحد من الفريقين لنجدة ابن جلدته لكن  
المغاربة لما رأوا سقوط فارسهم هاجت احقادهم فامر موسى بقطعتين من  
مدافعه فاخذتا ترميان النار على صفوف الاسبانيول فاقتتل مصافهم فقال  
موسى لرؤساء جنده عليكم بالمهاجمة ولا تضيعن الوقت في المبارزات الشخصية  
ثم وثب كالغضنفر الطاوي وتبعه جماعة من خيل ورجال وحملوا حملة الرجل  
الواحد على صفوف النصارى فشطروها وأوقعوا بها فلما رأى مركز قائد  
ذلك لم يجد محلا لطاعة أمر الملكة في التزام السكون وأمر بالقتال واستحضر  
الطعن والضرب من كل الجهات. قال مؤرخو الفرنج ان الملك والمملكة وجميع  
حاشيتهما من الاساقفة والامراء لما حى الوطيس جثوا على ركبتهم بمكانهم  
من السطح المشرف على ميدان الحرب مستغيثين بمريم العذراء وان استغاثتهم  
قد صادفت القبول فان الشدة التي حمل بها المغاربة لم تلبث ان انحلت ووقع  
الرعب في قلوب رجالهم فولوا الادبار واجتهد موسى كثيراً مع خياله في  
ضم شاملهم فلم يفلح لان أكثرهم انهزموا الى الجبال وبلغ بحسب زعمهم  
عدد من قتل وأسر وجرح من الفرناطيين نحو الالفين وهذه المعركة تسمى  
بمناوشة الملكة ويقال انه بعد ان بردت البلاد للظاغة ابنت ازابلا ديرا في  
قرية ،، زبية ،، باسم مار فرنسيسكو لم يزل الى الآن وفي حديقة الدير

شجرة غار ( شجرة النصر ) مغروسة بيد الملكة نفسها  
وكان مرج غر ناطة لم يزل باقيا منه نطاق اخضر يحيط باسوار المدينة  
فاعتزم فرديناند ان لا يذع هناك غصنا أخضر ولا عذبة مورقة (١) واخذ  
يستعد لنقل محله صوب البلدة وبينما هو في ذلك اذ حصل حريق في خيمة  
الملكة وكانت من ابدع النسايط في النصرانية وامتد لسان النار في  
المسكر فلم يكن الا كلا ولا حتى أصبحت تلك المدينة المتحركة هباء منثوراً  
ولكن لم يصب احد باذى وظن النصارى في البداية انها مكيدة من المغاربة  
بقصد أن يزحفوا اليهم اثناء اشتغالهم بالحريق فأعد مركز قانس ثلاثة  
آلاف فارس وتقدم بها نحو المدينة صدىً للغارة فلم يبرز أحد وانما شوهدت  
الروس المعممة منطلقة من شرفات الاسوار نحو الحريق وظن المسلمون  
ايضاً أن للنصارى مأرباً في احراق معسكرهم وان في طي ذلك كيداً والصحيح  
أن الملكة كانت أمرت احدى جواربها بنقل المصباح من جانب سريرها  
الى جهة أخرى فوضعتة الجارية في مكان آخر بقرب الستار وهب عليه  
نسيم فاتصل اللهب بالنسيج وحدث ما حدث

وكان فرديناند عارفاً بطباع المغاربة يخاف أن يحدث هذا الحريق  
في قلوبهم جرأة ويقوي لهم أملاً فلم يصبح الصباح حتى عبأ جيشه  
وزحف به نحو الاسوار محتاحاً بقية البسائين التي كانت محيطة بالمدينة فبرز

(١) الذين يزورون اسبانية في هذه الايام يقولون ان جميع هذه المدن  
التي كانت زاخرة العمران في زمان العرب لا تزال منحطة قليلة السكان وان كل  
تلك الجنان لم يتجدد منها الا القليل مع انه مضى على خرابها نحواربمئة سنة  
وصدق بعض مؤرخي الافرنج في قولهم ان اسبانية بعد العرب صارت  
جسماً بلا روح

السلطان أبو عبد الله من حرائه بنخبة جيشه يذب عن حوضه ويذود عن روضه في مواطن كاد الجبان فيه يساوي الشجاع، واوشك الهيابة أن يلقي السباع، اذ كان بنو الاسلام هناك يقاتلون في الدفاع عن أعراضهم واوطانهم الاخيرة، ويناضلون عن أعز ما عندهم تحت أعين نسائهم واطفالهم وشيوخهم المطلين عليهم من مشارف الابراج والمنازل، ولم تكن هناك واقعة واحدة بل انتشرت المعارك بمدد الغياض والبساتين ففي كل حديقة معترك، وعند كل غيضة مشتبك، ولم يبق من الارض قدم الا اريق عليه دم، وكانت خيل موسى تجول في الميدان مشددة من عزائم المغاربة حتى لو كان منهم جريح معفر بالتراب وشاهد مرور موسى انتفض قائما وذهل عن جراحه وكم من صريع انتفت صرير موسى فقرت به عينه ودعاه له وحياه وهو يفارق الحياة

وملك الاسبانيول بعض الابراج بقرب البلد اسكن بعد أن اذيقوا مر الكفاح، وتساقوا كؤوس الحمام مساقاة لراح، والى أبو عبد الله في هذا المراك بلاء تحدث به الركبان، ولكن رجالته نكصت على الاعقاب وكاد يقع في أيدي الاعداء لولا انه نجح بفرسانه بخفة الحركة وظل قافلا الى المدينة تاركاً في وسط الممعة موسى الذي بذل جهد الاستطاعة في ضم شمل المشاة وكان يناديهم معنفاً يائماً، ويحرضهم على الجهاد في سبيل حرمهم ودمهم، ولكن غلب الجزع على قلوبهم فلم يجيبوا مناديا ولا ابوا داعياً، وتراجعت المشاة كلهم صوب المدينة فثبت موسى وفرسانه وانصب الميزان بينهم وبين العدو بأسره ولم يمتهم فتور ولا ملال، ولكن قتل منهم جملة وافرة وأنخن البافون جراحاً، فاخذ موسى يتفقهم بهم مدافعاً إلى أن بلغ

المدينة فدخاها وأغلق الابواب وجعل وراءها الاثقال والسلاسل قائلا  
إنه عدم الثقة في المقاومة المعينة لحراستها وأمر بان لا يخرج المشاة مرة  
أخرى من المدينة لملاقاة العدو

وكانت مدافع غرناطة النارية قد ففرت أفواهاها فرزأت طلائع  
الاسبانيول فأمر فرديناند برجوع الجيش بعد أن أحرق آخر ما أحرق  
بغرناطة من الخضرة وغادرها تختنق بدخان أشجارها، وكانت هذه الواقعة  
الاخيرة التي خرج بها المغاربة للقاء الاسبانيول دفاعا عن مدينتهم الفيحاء،  
وشهد سفير فرنسا الذي كان هناك من باهر شجاعتهم وإقدامهم واقتحامهم  
حياض المنايا ما ملأه عجبا. قال المؤرخ واشنطون ارفن الانسكايزي  
« ان هذه الحرب حربة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر بما تخللها من باهر  
اثبات والاصرار فان النكبات توالى فيها على المغاربة مدة عشر سنوات  
بدون انقطاع فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الاخرى وفنيت رجالاتهم  
قتلا وأسرا وقتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج بل عن كل صخرة  
كانما هم ينتظرون الفتح ولم يجدوا مكانا تثبت فيه أقدامهم ولا جدارا يمكنهم  
رمي السهام من ورائه الا وابتصموا به ينازعون العدو ووطنهم المحبوب  
حتى اذا لم يبق لهم الا عاصمتهم مقطوعا عنها عن كل مدد غير طامعة في  
أدنى غوث نازلا على أسوارها أمة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها  
كانما هم يترقبون معجزة يرسلها الله في حقهم » وقال غيره من المؤرخين  
القدماء « إن مقاومتهم الشديدة ندل على الالم الذي كانرايشرون به لفراق  
مرج غرناطة الذي كان لهم فردوسا ونعما فبذلوا أقصى ما عندهم من القوة  
محاماة عن أعلق الارضين بقلوبهم لا يفصلهم عنها الخذال ولا ادبار سمع ولا

اثخان جراح حتى ولا الموت نفسه، بل لبثوا يناضلون عن محاب قلوبهم  
ومواضيع أشجانهم الى أن سقط في أيديهم وأبى السعد أن يخدمهم «  
وبرهان ما قاله هؤلاء المؤرخون من الإفرتج قول شاعر ذلك العصر في  
المصر سيدي محمد العربي العقيلي عند ما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة ذلك

بالطبل في كل يوم وبالنفير نراع  
وليس من بعد هذا وذاك الا القراع  
يارب خيرك يرجو من هيض منه الذراع  
لا تسلبني صبرا به لقلبي ادراع

وهو الذي قال فيمن تنصر من المسلمين :

فان يرتفع عند النصارى بالابتداء فكم عندنا من حرف حبل يجره  
هذا وبعد ان دارت الدائرة الاخيرة على جند غرناطة وخاب الامل  
وخان الجد لزم المسلمون البلد لا يأتون بحركة وانا انتظروا اقلاع  
الطاغية وتبرمه بالحصار بعد حريق الخيام فكان منه ان شرع ببناء  
معسكر من الحجر بدل الاطم والابخية ولم يكن الا قليل حتى قامت  
هناك مدينة عامرة باسواق وحوانيت مقسومة بشارعين عظيمين  
يقسمانها على شكل صليب فيتكون منها أربعة أحياء وفي الوسط رحبة  
فسيحة لاجتماع الجيش وللمدينة أربعة أبواب تناوح مهاب الرياح  
الاربع ولما تم بناؤها أطلق عليها اسم « صنتافي » أو مدينة الايمان المقدس  
ولم يكد يستقرها سكانها حتى دارت فيها الحركة التجارية فما كان يرى الا  
قوافل نازلة اليها وصاعدة منها بينما كانت غرناطة البائسة غريقة في لجة  
مقطوعة الامداد ثم لم تلبث أن فشا فيها الجوع بانقطاع الوارد من الميرة



والمرافق وكانت قافلة من الطعام وقطمان وافرة من الغنم قد استولى عليها صاحب قانس وهي نازلة من جبال البشرات الى غرناطة زاد الحال تقدم فصل الخريف وهجوم الشتاء فاشتد الخناق باهل غرناطة وأحسوا بالهجز عن المناصبه وتذكروا جميع أقوال الماجمين عند ولادة ملكهم وما قيل بشأن سقوط غرناطة ليلة أخذ قلعة الصخرة وانقطع قرع الطبول وتفخ الابواق وسكنت جلبة الحرب في تلك المدينة وغلب على الجميع اليأس حينئذ عقد أبو عبد الله مجلسا في الحمراء حضره أكابر قواد الجند وحماة الحصون وأعيان المصر وفقهائه وسألهم عن رأيهم في اسلام البلد فقام أبو القاسم عبد الملك حافظ البلدة وبين لهم الحالة السيئة التي آلوا اليها فقال «إن اهرأنا قد خلت من المؤونة أو كادت ولا نتظر الآن شيئا في الطريق بل الذي كان وارداً لاجل الخيل صار قوتا للخيلة أنفسهم وربما أكلوا الخيل نفسها ناهيك انه من السبعة الآلاف من رؤوس الخيل التي كانت عندنا برسم الرباط لم يبق سوى ثمانمائة رأس وان في مدينتنا مائتي الف نسمة كلها تطلب الخبز»

فقال اعيان البلد ان اهل غرناطة أصبحوا غير قادرين على المقاومة واحتمال المحاصرة ولاي شيء يجب استمرار المقاومة مادام العدو غير مقام عنا ولا راض إلا منا إلا يا حدى الخطتين اما التسليم وأما الموت فاشتدت كآبة أبي عبد الله مما سمع واطرق ساعة وتأمل في وجوه العمل وفكر في أنه لو وصل اليه على الاقل مدد من صاحب مصر أو ملوك المغرب لامكنه الثبات ومع هذا فقلاهما يتمكن من الثبات الى أن توافيه النجدات من وراء البحر نظر ألا تقطاع الزاد ولذلك ارتخت عزائمهم وديان

عليه اليأس ورأى الجمهور منه ذلك فمولوا على التسليم واصفقوا على  
الدخول في ذمة الطاغية ، حينئذ قام موسى معارضا وحده اجاعهم قائلا  
«لقد عجلتم في الكلام في امر التسليم فان وسائلنا لم تنقطع ولم يزل عندنا بقية  
قوة عظيمة الفعل شديدة التأثير وطالما كانت سبب الفتح الا وهي  
الاستمانة فلنستنفرن العامة الى الجهاد ولنساحنهم ونقتحم صفوف العدو  
حتى نخالط اسنتهم وانني لحاضر ان مضي في هذا السبيل واتوغر في كسيف  
جمع الاعداء وخير لي مرارا ان أعد فيمن استأكلهم الدفاع عن غرناطة  
من أن أعد في الاحياء من بعدها»

فلم تحرك كلماته منهم ساكنا ولم تثر عزما ، لان اليأس كان قد استولي  
عليهم ، والاعتقاد بان المصير هو الى ما نأبأ به لمنجمون من السقوط ودلت  
عليه الحوادث من البوار اصبحت عاما عندهم ، فكانوا امرع الى طلب المراجعة  
من الماء الى الحدور ، ولما رأى أبو عبد الله ان هذا هو استعداد القوم جنح  
مهم الى التي بتفونها وتقرر اشخاص الوزير أبي القاسم عبد الملك الى  
الطاغية لعقد شروط الصلح

فلما قدم أبو القاسم على الملك والملكة رحب به واكرما موصله واحالاه  
في المذاكرة على غونسلاف القرطبي وفرناندو دو صفر كاتب أسرار الملك  
فيبعد المراجعات الطويلة تقرر الامر على انه ان مضت سبعمون يوما ولم  
يرد في اثناها مسدد للمفاربة يتسلم الاسبانيول غرناطة وان جميع أسرى  
النصارى يطلق سراحهم بدون فدية

وأن أباء عبد الله وخواص رجاله يملفون بين الامانة للملك والملكة  
ويؤمن لهم في جبال البشترات اقطاعات معلومة لاجل معيشتهم وان سكان

غرناطة يصبحون رعية للملك الاسبانيول لكنهم يحفظون املاكهم  
واساحتهم وخبولهم ولا يسلمون سوى مدافعهم، وتكون لهم الحرية التامة  
في أمور دينهم، ويتعين لهم قضاة من أنفسهم يحكمون بمقتضى قواعد كتابهم  
تحت سلطة ولاية منصوبين من قبل ملك الاسبانيول ويصير ائفاءهم  
من الضرائب مدة ثلاث سنين وفي ختامها يدفعون للملك الاسبانيول  
الجزية التي كانوا يدفعونها للملكهم بدون زيادة، ومن شاءوا منهم الاجازة  
الى بر افريقية في خلال هذه المدة تعطي لهم الرخصة بالسفر مع عيالهم  
واموالهم بدون رسم مرور من أى ثغر شاءوا من ثغور البحر

واتفقوا على تسليم اربعمائة شخص من ابناء البيوتات المغربية تبقي  
رهائن عند الطاغية الى أن يتم تسليم البلد وفيهم نجل سلطان غرناطة  
هذه خلاصة الشروط التي قرأها الوزير ابو القاسم بمحضر الملا من  
اهل غرناطة وبين يدي سلطانه بعد عودته من معسكر النصرى، فلم يبق  
واحد ممن حضر الأجرش بالبكاء ولج بالمويل، ففاضت شؤون المآتي،  
وبلغت الارواح التراقي، وتصاعدت الزفرات من الجميع الا الاير موسى  
ابن ابي الفسان فانه بقي ثابت الجأش عصي الدمع، والتفت نحو الجمع وقال لهم  
« دعوا يا وائنا البكاء والنحيب للنساء والاولاد فنحن رجال ولنا قلوب  
لا لاجل ذرف الدموع بل لاجل سفك الدماء واتي لارى عزائم هذه  
الامة قد ارتخت وقطعوا امامهم من نجاة هذا الملك فوالله لقد بقي علينا  
اشرف الخطتين وهي الموت - فانت اذا في سبيل استقلالنا والانتقام  
من عدو غرناطة فامنا الارض تتلقى ابناءها في أحشائها غير مقيدتين  
بسلاسل اليهودية ولا قدر الله أن يكون اشراف غرناطة صاروا يخافون

## الموت في الدفاع عنها

ثم سكت موسى وعات المجلس السكينة فالتفت ابو عبد الله نحو الحاضرين واخذ يمدق في وجه كل منهم فلم يقع نظره الا على وجوه علتها الكآبة وظهرت عليها دلائل اليأس وأبصر الجميع مطرقين كأن على رؤسهم الطير، فصاح حينئذ «الله اكبر لا اله الا الله محمد رسول الله؛ باطل اجتماعنا في مما كسة الارادة الالهية، فقد كتب في اللوح المحفوظ اننى اكون شقيا وان هذا الملك يذهب من يدي» فصاح الوزراء والفقهاء «والله اكبر لا حيلة في قضاء الله»، وارتفعت الجلبة بالتكبير والحوالة من كل جانب لكن وقع الاجماع على قبول الشروط ولما رأى موسى أن جميع الحضور متفقون على امضائها قام من بينهم غاضبا والتفت نحوهم قائلا «يا قوم لا تنشوا انفسكم ولا تتسلوا بالحما ولا تظنوا أن ملوك النصارى وافون بمواعيدهم لكم وانهم كرام عند المقدرة كما هم فتاكون عند القتال؛ فوالله إن الموت الاحمر هو أهون مما تتوقع، وانما نحن مستقبلون أهرا أيسره اكتساح الأوطان وفضيحة العيال وانتهاب الاموال وقلب المساجد وتدمير المنازل، هذا عدا السوط والنار والنطم والنفي من الارض والظنى في اعماق الجبوس إلى غير ذلك مما نحن صائرون اليه

فمن العجز أن تموت جبانا فاذا لم يكن من الموت بد  
أما أنا فوالله دون أن اشهد ذلك « (?) قل هذه الكلمات وخرج محل الاجتماع واجما مطر قائم طاف بقاعة الاسود وسائر ابهاء الحمراء بدون أن يكلم أحداً من الحشم الواقفين في الابواب ودخل منزله وتقلد سلاحه الكامل وأمر فأسرج له جواده الكريم فركب وخرج من

من باب البيرة الى حيث لم يسمع لها بعدها خبر ولم يوقف له على أثر  
قال المؤرخ واشنطون أرفن هذه رواية مؤرخي العرب في شأن غيبة  
هذا البطل لكن اغايدا روى في انتهاء أمره غير ذلك فقال « كان في أكثر  
العشيات يجتمع غصبة من فتية الفرسان الاسبانيول سائرین للنزهة حناني  
الشنيل ففي إحدى المرات أبصروا عند العشاء فارساً مغربياً أخذ يدنو منهم  
دارعاً مرخي القناع وحصانه مثله مغطي بالزرد ، كانوا دارعين مثله تحت  
المقافر لانهم في أيام الهدنة لم يكونوا يحملون الأملحة الدفاع فلما شاهدوا  
هذا الفارس المجهول متقدماً نحوهم بهيئة منكورة نادوه كي يقف عنده  
ويعرف بنفسه

أما هو فلم يجر جواباً بل ظل حاملاً عليهم ومن أول طعنة بسنانه شك  
فارساً منهم فرماه عن صهوة ، ثم دار حول الباقيين شاهراً السيف فاذرع  
الضرب ، وتلاحقت ضرباته فلم ترتفع له يد إلا بحتف ، ولم يقم له حد إلا في  
مقتل ، وكان الظاهر عليه انه مستميت مولع بالفتك يقاتل للاشتفاء لالملاء ،  
ويرغب في المنايا لا في الجراح ويهوى الموت لا البقاء الى أن كب نحو نصف  
الخيالة الذين التقوه صرعى على وجوههم بنياصل ضرباته ، وقواصم طعناته  
قبل أن يصاب بجراحة ذات خطر لشدة تلاحم زرده وسبوغ درعه لكره  
أصيب في الآخر وخر جواده من تحته وخيل أنه وقع في اليد فاول فرسان  
النصاري أن بمسكوه مسك اليد ابقاء على حياته بما بهرهم من فتكه وادهمهم  
من اقدامه لكنه بقي يقاتل وهو على ركبته بمنجرجر من خناجر فاس كاز في يده  
ولما رأى قواه قد خارت واصبح لا يستطيع اطالة الدفاع وخشى أن يؤخذ  
اسيراً ذهب الى النهر فرمى بنفسه في الماء حيث غاصت به درعه في الحال ،

وكان هذا الفارس المجهول هو موسى بن أبي الغسان وقد عرف جواده  
بعض المنتصرة المغاربة ممن كانوا في مراكب الاسبانيول. قال ارفن ومع هذا  
فلم تزل هذه الحكاية مفتقرة الى زيادة التأكيد

•

أما شروط تسليم غرناطة فقد سردها المرحوم ضيا باشا في تاريخه  
للانلس وهي خمس وخمسون مادة تتضمن تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق  
وفي طيها من عهد المحاسنة والملاطفة والمراعاة والمحافظة على أعراض القوم  
وعقائدهم وديانتهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم ما لا ينبغي به إلا نصه  
وقد تكرر في المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين  
ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة، وعدم التعرض لامورهم الشرعية  
بل إعادة ذلك إلى فقهاءهم والمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملازمهم  
وأن يبقى هذا العهد معمولاً به في الاعقاب وأعقاب الاعقاب .

وفي المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين وصراكمهم ومواسيتهم  
إلا الاسلحة النارية فتقرر أخذها

وفي المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة بامواله  
وامتمتته وفيما بعدها أجازته على نفقة دولة قشتالة من أي مرسى أراد  
وتسهيل معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل ، وإذا لم يتهاً البيع ووكل  
صاحب الملك وكيلا تعتبر وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وإيصالها  
اليه بمكانه وراء البحر

وورد في المادة الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى

جانبا بدون رخصة الفقهاء

وورد في المادة الخامسة عشرة إعفا السلطان أبي عبد الله وسائر أمراء المسلمين وقوادحهم وفقهائهم من الضرائب والرسوم وإقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا العهد ملوكهم وأن تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعا وورد في المادة السادسة عشرة والتي بعدها ما يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين حتى ولا الملك والملكة ومن خالف ذلك من النصارى يجازى بشدة

وفي المادة الخامسة والعشرين إذا فر أحد من أسرى المسلمين المعتقلين في سائر الممالك ووصل الى غرناطة فقد نجا ولم يكن لأموري شرطة غرناطة أن يمسكوه لكن ذلك الامتياز مخصوص بعرب الاندلس لا يتناول أسرى المنرب

وفي المادة الثلاثين أن من أسلم من النصارى قبل هذه الكائنة فلا تجوز معاملته الا بالحسنى ولا يرى أقل تحقير ومن خالف ذلك ينال من الجزاء شدة

وفي المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحي

وفي المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجا بنصرانية وأسلمت لا تجبر على الرجوع الى دينها الاصلى والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها

وفي الخامسة والثلاثين لا يرد المسلمون شيئا مما غنموه أثناء الوقائع التي جرت الى يوم تسليم البلد وفي التي بعدها لا يعاتبون على شيء مما مضى من تحقير الاسرى أو اهانتهم

وفي الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى في  
مجلس مؤلف من قائدين أحدهما مسلم والآخر مسيحي  
وفي الثالثة والاربعين تعاد جميع أسرى المسلمين في مدة ثمانية أشهر من أي  
بلاد وجدوا فيها من اسبانية وفي مدة خمسة أشهر ان كانوا في بلاد الاندلس  
وفي التي تليها ذكر إطلاق سبيل ابن الدرامي المأسور عند غونزالف  
هرنانديز وعثمان أسير كونت تنديله ورضوان أسير صاحب قبرة  
واعادة الفقيه ابن محي الدين ورفاقه الذين غابوا على اثر حادثة ابراهيم بن  
سراج ابنا وجدوا

وفي السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة في مواني  
الاندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع رسوم بشرط عدم نقل أسرى  
من النصارى

وفي الثانية والخمسين عدم استخدام شرطة من النصارى لمراقبة  
شؤون المسلمين بل تكون شرطتهم من انفسهم

وفي آخر هذه المماهدة تهب الملك فرديناند وامرأة صاحبا ممالك  
قشتالة واراغون وليون وصقلية ان يحافظا على نص شروطها حرفا بحرف  
وبجريا جميع أحكامها من خاص وعام وكلي وجزئي بكمال التدقيق وبدون  
ادنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الاسباب وان تبقى على شكاتها وهيئتها  
ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها الى الابد، ولا يمكن احداً من خلفاء الملوك  
المشار اليهما ولا خلفاء خلفتهما ولا حفيدتهما ولا اولادهم الى ما شاء الله  
ان ينقضوا اقل حكم من أحكامها او يبدلوا حركة من حركاتها واعطى  
الامير بها الى الامراء والوزراء والقواد والاجناد والرهبان والرعية من



حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير ، وأعلن أن من يجتري على  
خلال بشيء مما تضمنته هذه المعاهدة يجزى جزاء من اقدم على افساد  
البراءات الملوكية او تقليد الحجج والسندات بدون ادنى تأخير  
وانسم الملك فرديناند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على  
دينهم وشرفهم برعايتها الى الابد على الصورة المبينة وكتبت على رق غزال  
محلي ومطرز تحريراً في ثلاثين من كانون الاول سنة احدى وتسعين  
واربعمائة والالف من الميلاد

وحررها فرناندو وصفره بأمر الملكين وأمضاها الملك فرديناندو  
الملكة ايزابلا وأولادهما الدون جان والدونة وايزابلا الدونة حنة والدونة  
ماريانة والدونة كاتالينة ورئيس أساقفة أشبيلية الدون دياغو هرتادو رئيس  
أساقفة صانتياغو الدون الفونس و كبير فرسان صانتياغو المسمى بالدون  
الفونس أيضا والدون جان كبير فرسان القنطرة والدون الفارو زعيم رهابين  
ماريو حنا والدون بيروغو ترالس كردينال إسبانية ورئيس أساقفة المملكة  
والدون هنري كبير حكومة أراغون ومن أبناء عم الملك والدون الفونس  
من أبناء عمه أيضا والدون الفارو مدير دائرة الملكين والدون بترو فرناندز  
وثيس جند قشتالة ويليهم نحو أربعين دونا كاهم من أبناء السلالة المالكة  
وأساقفة البلاد وامراءها واعيانها وقوادها

وكتب ايضا معاهدة اخرى لسلطان غرناطة ابي عبد الله بن ابي  
الحسن. تتضمنه اربع عشرة مادة فيها تسليمك الاقطاعات والاراضي والبلدان  
التي وهبها اياه الملك كان مميئا كل منها بذاته والتعهد باعطائه اربعة عشر  
مليوناً وخمسمائة قشمة. من السكة المعروفة بالمر اريد عند دخولها قلعة الحمراء

واقرار ملكيته لجميع المقار الموروث ، واعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم  
واداء المكوس عما يجلب من الامتعة برسته ، وانه في اي وقت شاء يبيع هذه  
الاراضي والاملاك يشتريها المملكان كلها بقيمتها العادلة وان لم يشأ يبيعها و اراد  
النقلة الى المغرب فالو كيل الذي يعينه عليها يستوفي له حاصلاتها ويوردها  
عليه في اي جهة كان مما وراء البحر وفي اي وقت عول على الاجازة تنقله مع رجاله  
وعياله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً ولا يطالب بشيء ولا يكون مسؤولاً  
عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ولا يسترد شيء مما غنمه وجميع  
هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجري أيضاً في حق والدته وشقيقاته  
وزوجته وزوجة مولاي ابي نصر والمهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ  
الاولى الا انني وجدت اكثر المؤرخين يؤرخون امضاء المعاهدات في  
٢٥ كانون الاول وفق ٢٢ المحرم سنة ٨٩٧

•

ولما كان الاسبانيون قد اعطوا المغاربة مهلة سبعين يوماً لاجل التسليم  
بنا على امل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظاً  
وسهرراً وجعل الجيوش محيطة بقرناتة احاطة السوار بالمصم وجمع الاساطيل  
وبثها في مراسي الاندلس وفي فريضة الحجاز منعاً لكل مدد وارد فلم يطل  
احد وان اطل فلم يغن شيئاً لان سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين  
متشاغلين بفتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضاً فضلاً عن أن الذي اصبح  
مقررأ في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل بحفظ مملكة الاندلس وتجديد دولة  
الاسلام فيما وراء البحر الى جهة المدية الاسبانية وان الجهاد في هذا  
السنهليل عبث وهذا الامر كائن لا محالة فتركوا الامور وشأنها وأهل

غرناطة يعملون أنفسهم بعمل وعسى ، ولكن ابتداءً الجوع بعضهم بانيابه  
فرأى أبو عبدالله ان انتظار آخر المدة ممالا يكون له نتيجة سوى زيادة  
الضييق والمجاعة ولا رجاء في ورود اقل مدد ، ولو كان في حيز الامكان  
لظهر ، أو كان في قيد الحياة تنفس : فشاور الرؤساء فاشاروا بالتسليم قبل  
انقضاء الاجل المضروب

وفي العشرين من كانون الاول أرسل وزيره يوسف ابن كاشة مع  
الرهائن الملك فرديناند وأصحابه بفرسين كريمين وسيف ثمين على سبيل  
الهدية فبثه مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلد قبل مضي الامد . وفي  
اليوم التالي ظهر درويش اسمه حاد بن زارة فأخذ يطوف الاسواق  
منادياً بالجهاد مستنفرًا العامة الى الدفاع قائلاً لهم إنه سيرد اليهم نجدات من  
البشرات ومن بر العدو وان الامل عظيم بالفرج لكن الملك أبا عبدالله  
والرؤساء خائفون وكثر هذا القيل والنال في البلد وصبوا اللعنات على ابي  
عبدالله ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن ، شأن كل أمة غلبت وشأن  
أمة اليونان اليوم بمدان قهرتها الدولة العثمانية وجاست عساكر مولانا  
السلطان الاعظم خلال بلادها فقام كثير منها ناقلين على الملك  
جورج وولي عهده ولولا صلتهما النسبية مع ملوك أوروبا لطردوها  
اليونان أو فتكوا بهما (١)

فثار نحو عشرين الفاً من أهل غرناطة وتقلدوا أسلحتهم وخرجوا

(١) هذا كان في حرب اليونان للاترك أيام السلطان عبدالحميد ولكن في

الحرب الاخيرة بين الترك واليونان قام هؤلاء على اسرتهم الملوكية وطردوها  
كلا بخفي مماحق كلمتنا هذه

الى الاسواق بضوضاء. ملأت الفضاء عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمروا يوما كاملا وقسما من الليل بهذه الحركة وإذا باعصار قد عصف بشدة فألزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف ،  
وفي اليوم التالي خرج أبو عبد الله بن الحمراء محفرا فبرؤساء البلد وخاطب الأمة قائلا لهم « لا ذنب الا لي ، انا الذي عقت والدي وجلبت الاعداء على المملكة ، لكن الله قد أخذني بجرائري ، وانزل النعمة كما على رأسي وها أنا ذا الآن قبات بهذه الماهدة لاجلكم يا قومي ضنا بدمكم أن يراق وباطفالكم أن يموتوا جوعا وبنساءكم وذراريكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظا لاموالكم وأملاككم وحريةكم وشريعتكم وديانتكم في ظل ملوك اسعد طالعا من أبي عبد الله المشؤوم » فأثرت رقة كلامه في خواطر القوم وسكنت سورة حقدهم ، واستاتت نعومة خطابه ما خشن في صدورهم . فانفضوا إلى امكتهم وفي الحال ارسل ابو عبد الله الى الملكين يمرض عليهما التسليم في اليوم التالي حذرا من تجديد الحوادث فرضيا بذلك وتأهبا للدخول الحمراء كما ان اباعبد الله واسرته وحشمه احيوا الليل في التأهب للخروج وقد غسلوا ابهاء الحمراء بدموعهم وملأوا نواحيها بنواحيهم وزموا حقايبها بما فيها من الذخائر والاعلاق واحضروا لها البغال وقبل أن تبليج الفجر انساب حريم أبي عبد الله وأهل القصر من أحد الابواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المغاربة الذين لبثوا متمسكين بعروة سلطانهم إلى الآخر وساروا من أحد الاحياء المتنزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية ، أما عائشة الحرة والدة أبي عبد الله فكانت تتجلدة وتجملة ، وأما اراءه وسائر جوارى القصر فقد قرح البكاء ما يقين وخذد

الدمع خدودهم، ولما وصل الموكب الى احدى القرى التي على طريق  
البشرات وقف ينتظر وصول أبي عبد الله وعند مطلع الشمس جاءت فرقة  
من الخيالة والمشاة يصحبها هرناندو دوتالافيرة مطران أفيلا ودخلت  
من أحد من أبواب المدينة حيا كان وقع عليه الاتفاق فالتقاها السلطان  
أبو عبد الله، قال للمطران المذكور « امض واستلم هذه الحصون التي  
صيرها الله الى يديكم عقابا للمغاربة على أعمالهم » ثم تقدم للملاقات الملكين  
وتقدمت المساكن فدخلت الحمراء وكان فرديناندوايزابلا ينتظران رؤية  
اعلام اسبانية فوق أبراجها فمضت مدة وانظراهما شاخصة فلم يريا شيئا  
وخشيا وقوع حادث لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفت راية  
الصليب فوق أبراج الحمراء « حيث لم تزل خافقة الى الآن » وبجانبها  
راية ماريمقوب وعلا هتاف المساكن فلما رأى الملاك ذلك بمكانهما على  
ضفة الشنيل خرا جائيين على ركبهما واقتدى بهما جميع الامراء والقواد  
والجنود شكراً لله تعالى على ما امن به وبعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير  
حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان  
أبي عبد الله الشقي فلما وقعت العين على العين اراد السلطان الترحل اجلالاً  
للملكين فنمأه فهوى على يد الطاغية ليقبلها فلم يمكنه، فرديناند من ذلك وقيل  
أن الملكة أيضاً أتت ان ترسل له يدها وانها احسنت عزاءه وسلمته ابنه  
الذي كان مرهونا فضمه الى صدره واخذ يقبئه كأن الشقاء زاد من تعلق  
أحدهما بالآخر، ثم سلم ابو عبد الله، فاتيح البلد الى الملك قائله « هذه  
المفاتيح هي آخر ما بقي من ساطان العرب في اسبانية خذها فقد اصبح  
لك ملكنا و.تاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبلها بالرافة

التي وعدت بها التي تنتظرها منك » فأجابه فرديناند « لاشك فيما وعدنا به وعسى ان يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك في عدوتنا » ثم دفع فرديناند الماتيج الى الملكة فدفعتها الى ابنها البرنس جويان هذا اعطاها لكونت تنديله الذي كان قد عين قائداً للمدينة ولساثر مملكة غرناطة ثم انفصل ابو عبد الله عن المالكين قاصداً لقر الذي عين له في وادي برشانة وسار الطاغية وامرانه نحو المدينة واصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ولم يدخلها يوم تسليمها بل انتظرا ان تتبوها جميع العساكر اما سلطان غرناطة السابق فلما وصل الى مرقب عال على مسافة رحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن في عينه اجل منها في تلك الساعة فأخذ يتأمل في ابراجها وقلاعها ومنازلها الضاربة في السماء ومرجها النضير والمنقطع النظير، ووقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه وهم يتأملون سكونا قد أبكمهم الحزن وأخرسهم الهم، ولما بالداخل قد ارتفع فوق القلعة ودوي صوت المدافع ليذانا بان المدينة دخلت في حوزة الاسبانيول وانقطعت منها دلالة الاسلام، فعندها خفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه دون البكاء فصاح « الله اكبر » وفسح مجال الدمع، واستمطر ماء العيون، جذت بالنايب فقالت له أوه عائشة الحرة المشهورة بالشدة « عليك ان تبكي بكاء النساء، ما عجزت أن تدافع عنه دفاع لرجال » وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ، فاجتهد وزيره يوسف بن كاشة في تعزيتة فلم يقبل قلبه المزاء، وبقيت ثؤون عينه فائضة وزفراته متصاعدة، وهو يقول « أي شقاء مثل شقائي » وقد سمي الاسبانيول تلك الذروة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والحبيب « بآخر

## حسرات المغربى

ولما وقف فردينفاند عن دخول البلد خرف الغيلة الى أن تكون  
عساكره احتلت المواقع جميعها ارسل مركيز فيلانة ركنت، تنديلة بثلاثة  
آلاف فارس وجيش من المشاة مصحوبين بالامير سيدي يحيى الذى سماه  
النصارى بمدتصره بالدون بدرو دو غرناطة وعين للنظر في أمور المغارة  
وبابنه الذى أطلقوا عليه اسم الدون الونزوا دو غرناطة وكان أميراً الاسطول  
فتبواوا جميع الابراج ونشروا فوقها الاعلام الاسبانية

ولم يدخل الملكان المدينة الا فى سادس كانون الثانى وكان الاحتفال  
بدخولهما باهراً وظلا سائرين الى مسجد غرناطة الاعظم فحواه كنيسة  
وأقيمت الصلاة شكرياً لله تعالى على هذا الفتح المبين وأقبل الامراء  
والنواد وعظماء الاسبانيا يول على الملكين يقبلون ايديهما ويهنئونهم على هذه  
النعمة التى اختصها الله بها وكرمها باحرارها. وبعد الخروج من الكنيسة  
سار الى الحمراء الموصوفة فالقيا عافوق. اكان يتصور انها من اتقان الصنعة ونخامة  
البنيان ورحابة الساحات ولطافة الرسوم والنقوش وأعجبا بما فيها من  
الزخرفة التى تنقطع من دونها الايدي، والتأنيق البالغ حده، سواء فى الابهاء  
والمقاصير، أو النوافر والصحاريج، أو المداخل والتماريج، إذ يتحير الناظر  
ما بين مرمر مسنون وعسجد مصون وسواري كانها مفرغة فى أحسن  
انقواب، وسقوف كانها السماء زينت بالكواكب، فاتخذ الملكان لها عرشا  
فيها وجلسا لتهنئة حيث جاء أهالي غرناطة والبشرات يقدمون لها  
واجب الاجلال ويقبلون ايديها صاغرين، ووجد فى غرناطة يوم دخول  
الملكين اليها خمسمائة أسير من الاسبانيا يول

هكذا انتهت تلك الحرب التي استمرت عشر سنين لم تفتر فيها الوقائم، ولا نشفت الدماء ولا انقطعت المصارع وبنهايتها انصرم حبل الاسلام في بلاد الاندلس، بعد أن استتبت دولة فيها سبعمائة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزم لذريق على ضفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة، والله وارث الارض ومن عليها

وهناك ما قال صاحب نفع الطيب عن الوقائع المتقدمة الى حين التسليم نذله ببعض اختصار تابعا لما تقدم من روايته

« ثم بعث ( أي الطاغية ) في السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الجراء كما يمكنه عمه من القلاع ويكون تحت اياته ويعطيه مالا جزيا على ذلك وأي بلاد شاء من الاندلس يكون فيها تحت حكمه قالوا واطمعه صاحب غرناطة في ذلك فخرج العدو في محلاته لقبض الجراء والاستيلاء على غرناطة وهذا سر بين السلطانين فجمع صاحب غرناطة الاعيان والكبراء والاجناد والفقهاء والخاصة والعامية واخبرهم بما طلب منه العدو وأن عمه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه وليس الا احدي خصاتين الدخول في طاعته أو القتال فانفق الرأي على الجهاد ونزل صاحب قشتالة على مرج غرناطة وطلب من أهلها الدخول في طاعته والافساد زرعهم فاعلنوا بالمخالفة فافسد الزرع وذلك في رجب سنة ٩٥ ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة ثم ارتحل العدو عند الاياس منهم ذلك الوقت وهدم بعض حصون واصلح برج همدان والملاحه وشحنها بما ينبغي ثم رجع الى بلاده وعند انجرافه نزل صاحب غرناطة الى بعض الحصون التي في يد النصاري



ففتحها عنوة وقتل من فيها من النصارى واسكنها المسلمين ورجع لغرناطة ثم أعمل الرحلة الى البشرات في رجب المذكور فاخذ بعض القرى وهرب منها من النصارى والمرتين أصحابهم ثم أتى حصن اندرش فتمكن منه واطاعته البشرات وقامت دعوة الاسلام بها وخرجوا عن ذمة النصارى وهناك عمه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملة وافرة فقصدهم في شعبان من غرناطة واستقر عمه بالمرية وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات إلى برجه ثم تحرك عمه مع النصارى إلى اندرش فاخذوها لرمضان وخرج صاحب غرناطة لقرية همسان وكان برجها العظيم مشحونا فحاصره وتقب أهل غرناطة البرج الأول والثاني والثالث ثم البرج الكبير وهو القلعة وأسروا من كان بها وهم ثمانون ومائة واحتوا على ما هنالك من عدة وآلات حرب وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب فلما وصل حصن شلوبانية اخذه عنوة بعد حصاره وامتنعت القلعة وجاءتهم الامداد من مالقة بجزء فلم تقدر على شيء وضيقوا بالقلعة فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بجملته لمرج غرناطة فارتحل صاحب غرناطة عن شلوبانية وجاء غرناطة ثلاث شوال بوصل العدو إلى المريج ومعه المرتدون والمدجنون وبعد ثمانية أيام ارتحل لبلادهم بعد هدم برج الملاحة وبرج آخر وتوجه إلى وادي آش فاخرج المسلمين منها وهدم قلعة اندرش ولما رأى ذلك السلطان الزغل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد بادر بالجواز لبر العدو بجاز إلى وهران ثم اتلمسان واستقر بها وبها نسله إلى الآن يعرفون ببني سلطان الاندلس

ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها واخذها واسر من

كان بها من النصرارى . وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ خرج  
العدو بمحلاته الى مرج غرناطة و افسد الزرع ، دوخ الارض وهدم القرى  
وكانوا يذكرون انه عزم على الانصراف فاذا به صرف المهمة الى الحصار  
والاقامة و صار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة اشهر  
غير ان النصرارى على بعد والطريق بين غرناطة والبشرات ، متصلة بالمرافق  
والطعام من ناحية جبل شلير الى ارض تمكن فصل الشتاء و نزل الثلج فانسد  
باب المرافق و انقطع الجبال و قتل الطعام و اشتد الغلاء و اتولى العدو  
على أكثر الاماكن خارج البلد و منع المسلمين من الحرث و السبب ضاق  
الحال و عظم الخطب و ذلك أول عام ٨٩٧ هـ و طمع العدو في الاستيلاء  
على غرناطة بسبب الجوع و الغلاء دور الحرب فقر ناس كثير من  
الجوع الى البشرات ثم اشتد الامر في صفر من السنة و قتل الطعام و تفاقم  
الخطب فاجتمع ناس مع من اشار اليه من أهل العلم و قالوا انظروا في أنفسكم  
و تكلموا مع سلطانكم فاحضر السلطان أهل الدولة و أرباب المشورة  
و تكلموا في هذا المعنى و ان العدو يزداد دمه كل يوم و نحن لا مند لنا و كان  
ظننا انه يقلع عنا في فصل الشتاء نخاب الظن و بني و أسس و أقام و قرب  
مننا ، فانظروا لانفسكم و اولادكم ، فاتفق الرأي على ارتكاب اخف الضررين  
و شاع أن الكلام وقع بين النصرارى و رؤساء الاجناد قبل ذلك في اسلام  
البلد خوفا على نفوسهم ، على الناس ، ثم عددوا مطالب و شره ، طارادوها  
و زادوا أشياء على ما كان في صلاح و ادي آس منها أن صاحب رومة يوافق  
على الالتزام و الوفاء بالشروط ، و ذكروا أن رؤساء اجناد المسلمين لما خرجوا  
للكلام في ذلك امتن عليهم النصرارى بمال جزيل ثم عقدت بينهم لوثائق

على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا اليها وافقوا عليها وكتبوا  
 البيعة لصاحب قشتالة فبذلها منهم ونزل سلطان غرناطة بن الحمراء  
 « وفي ثاني ربيع الاول من سنة ١٨٩٧ استولى النصارى على الحمراء ودخلوها  
 بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمس مائة من الأعيان رهنا خوف الغدر  
 وكانت الشروط سبعة وستين منها تأمين الصغير والكبير في النفس ولاهل  
 والمال وابتداء الناس في اماكنهم ودورهم وبيعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم  
 على ما كانت عليه ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم — وأن تبقى المساجد  
 كما كانت والاقواف كذلك وان لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يفتكوا  
 احداً — وأن لا يولى على المسلمين نصراني ولا يهودي — وان يفتك جميع من  
 أسر في غرناطة من حيث كانوا خصوصا اعيانا نص عليهم ، ومن هرب  
 من أسرى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل له للملكة ولا لسواه والسلطان  
 يدفع ثمنه للملكة ومن أراد الجوز لا بدوة لا يمنع ويجوزون في مدة عينات  
 في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر  
 مالهم وكرام — وأن لا يأخذ احد بدينب غيره — وأن لا يقهر من أسلم على  
 الرجوع فنصارى — وان من تنصر من المسلمين يوقف يابا ويحضر له حاكم  
 من المسلمين ، آخر من النصارى فان ابي الرجوع الى الاسلام تمادى على  
 ما اراد ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب ، لا يؤخذ ما سلب من  
 النصارى أيام العداوة ولا يكاف المسلم بضيافة اجناد النصارى ولا يسفر  
 لجهة من الجهات — ولا يزيدون على الفارم المعادة وترفع عنهم جميع المظالم  
 المحيثة ولا يطلم نصراني للسور ، ولا يتطلم على دور المسلمين ، ولا يدخل  
 مسجدا من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصارى آبا في نفسه وماله ولا يجعل

علامة كما يجعل اليهود (١)، أهل الدخن — ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ومر ضحك منهم يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة وان يوافق على كل الشروط صاحب روية ويضع خط يده. وامثال هذا مما تركنا ذكره. وبعد انبراه ذلك بدخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد. ولما سلم ذلك اهل البشرات دخلوا في هذا الصلاح، شاملهم حكمه على هذه شروط ثم أمر العدو ببناء ما يحتاج اليه في الحمراء واصلاح سورها وصار يجتف الريانهاراً ويبيت بمحاته ليلا الى ان اطمأن من خوف العدو فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبراً بما يرومه انتهى

وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الاسبانيول انقطع السلطان ابو عبد الله بن الاحمر في ارضه بوادي رشانة حيث وفر له الطاغية الاقطاعات وكذلك لوزيره يوسف بن كاشة الذي لزم بابه فاقام مدة هناك ذاق اثناءها طعم الراحة وانتفض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط، لكن الامر لم يطر به حتى عاد يذكر ماضي ملكه وعائلته. ويح الى غابر حمرائه، فتثور فيه الاشجار، تستشعر فؤاده الاحزان في هائلك المدد يدع الملكان وسيلة الاستعمالها لاجل صباهه عن دين آباءه وادخاله في النصرانية فاختفت مساعيها، وبقى لهما مشغولاً من جهته اذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتقاص مساعي لاندلس تحت رايته والتمافهم حواليه، ففي سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كاشة سرا في ابتياع اراضي مولاه بثمانية آلاف دوكان الذهب فتمت الصفقة وانعقد البيع

---

(١) اصل الاصل: ولا يحسن علامة الخ. او. ولا يحسن له علامة كما يجعل لليهود ادهم مصححة

بدون علم ابي عبدالله وبدون أن يعتني فرديناند بسؤال يوسف عن سند  
الوكلة بن نقده المال فحمله البغال وسار الى الدشرات فلما وصل بين يدي  
مولاه نثر الدنانير أمامه قائلاً له

« رأيت يا مولاي أن بقالك هنا معرض للخطر فان المغاربة أهل  
اقدام وثار، وحيلة أثار، ولا يبعد أن يشوروا صرة رافعين رايتك وتعزى  
ثورتهم اليك فتقع في المقيم لمتعد، وما دمت في هذه البلاد يخطر في بالك  
انك كنت أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الامارة، لذلك رأيت  
الانجح في حقك بيع اراضيك وهو ذاتها اليك يمكن لك أن تتملك به  
اراضي واسعة جداً وراء البحر»

فلما سمع أبو عبدالله هذه الكلمات استشاط غضبا واخترط سيفه  
وكاد يضرب به رأس وزيره فاسرع هذا الى الفرار من حضرته وبقي أبو  
عبدالله وحده يتأمل في هذه المسئلة ويقلب من وجوهها فلم يلبث أن ذهب  
مابه وعاد اليه سكونه واستدل أن هذه الصفقة لم تكن لتجري لولا رغبة  
فرديناند في زياله هناك وان الحق قد يكون مع وزيره يوسف، فاجمع  
الرحلة وشده حقابه وجمع أمواله وكنوزه وتحمل الى أحد الثغور حيث  
شبهه كثيرون من قومه داين له بالتسهيل . فلما ركب السفين وغابت عن  
عينيه حبال غرناطة انهملت منها العبرات، تصاعدت من صدره الزفرات،  
وتزل بمليلة ومنها سار الى فاس نزى على سلطانها متلفها على ماسلف، وفي  
بعض تواريخ لا فرنج انه توفي قتيلا في إحدى الوقائع مع سلطان فاس سنة  
١٥٣٦ اي بعد ٤٤ حولاً من فراقه اسبانية ولذلك قال فيه احد المؤرخين انه قتل في  
سبيل الدفاع عن مملكة سواه بعد ان جبن عن ان يقتل في الدفاع عن سبيل مملكته

واما النسخ فيقول في نهاية أمره ما يأتي « ثم احتال ( أي الطاغية ) في ارتحاله ( أي أبي عبد الله ) لبر العدو و اظهر ان ذلك طلبه منه المذكور فكتب لصاحب المرية انه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لاحد ان يمنع مولاي ابا عبد الله من السفر حيث اراد من بر العدو ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه و فاء بما عهد له فانصرف في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر ونزل بمليلة واستوطن فاسا وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء وبلاء »

ويقول بعد ذلك « والساطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقضت بدولته مملكة الاسلام بالاندلس ومحيت رسومها ، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الامير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الفتي بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم الانيقة ، و سلطان دولتهم على الحقيقة ، أو هو المخلوع الوافد على الاصبغ المرينية بفاس ، العائد منها للملكة و أرفع الصنائع لرحمانية العاطرة الانفاس . وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان اسمعيل قاتل سلطان النصارى دون بطريرج غرناطة ابن فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصاري الخزرحي رحمه الله تعالى جميعا . وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرا عما أسلفه ، متلفها ، على ما خلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الاندلس رأيتها ودخلتها وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ودفن بازاء انصلي خارج باب الشريعة وخلف

ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد، وعقب هذا السلطان الى الآن بفاس وعهدي بذريته بفاس الى الآن سنة ١٠٣٧. يأخزون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويمدون من جملة الشحاذين، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انتهى

وأما قوله في رسالته الى سلطان فاس التي أنشأها له أبو عبد الله محمد بن عبد الله العقيلي وهو « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها وأعطى من أمانه المؤكد به خطه بايمانه ما يقنع النفس ويكفيها، فلم نر ونحن من سلالة الاحمر مجاورة لصفرة. ولا سوغ لنا الايمان الاقامة بين الايمان والكفر » الى آخر السجع - فهو من قبيل التغالي والتعزز إذ لولا احتيال فرديناند عليه ما فارق أوطانه والله أعلم

( حاك مسلمي الاندلس فيها )

بعد ذهاب ملكهم

وانذكر حالة بقية مسلمي الاندلس بعد ذهاب ملكهم فيها فنقول. ورد في تاريخ « الاسلام في اسبانية » تأليف ستانلي لانبول ما حصله « لان آخر أنفاس أبي عبد الله على تلك الربوة لم يكن باآخر حر أنفاس المسلمين في تلك الديار، بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء، وافتتاح عهد انتقام وابتلاء، وان أسقف غرناطة الاول هرناندو دوتولا فيره كان رجلا حليما عادلا أحسن معاملة المغاربة وأبي الجور عليهم تعلم العربي وكان يصلي به وعلى يده ارتد ألوف من المغاربة الى النصرانية. قيل ان ثلاثة آلاف تنصروا في يوم واحد الا ان الكردينال كسيميناس الذي كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعتسف السبيل ومال الى العنف والاكراد وأساء معاملة

المسلمين وحمل للملكة ايزابلا على ما بقي نقطة دهما في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم وأكراههم على التنصر، فأثار ذلك ساكنهم، وأخرج كامنهم، وفي إحدى المرات حبست امرأة بن البيازين لشأن من هذا القبيل فثار سكان البيازين وتخصنوا وحملوا السلاح وكادوا يفتكون بالجند وأوشك الدم ان يسيل بحمدة الكردينال كسيميناس

إلا ان المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل ربح البيازين بالسكينة والانس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكواهم، ثقلها منهم بالاستماع والاحتفال وهدأ روعهم وأعاد طائر الامن الى وكره وحجب الدماء يومئذ، على أن كسيميناس المشهور لم يزل يغوي الملكة حتى أصدرت أمرها بإكراه المسلمين على إحدى الخطتين الجلاء أو النصرانية وذلك بأهم كانوا يذكرون المسلمين بأهم سلالة النصراني في الاصل فأقوات المساجد وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزبد الحطب وأذيق المسلمون السداب اشكالا وألوانا ففضل عامتهم فراق دينهم على مراق ووطنهم الا ان شعلة من الحمية الاسلامية بقيت تنمغ في جبال البشترات حيث حتمهم أوعارهم من مضطهادهم

وأول جيش ارسل اليهم تحت قيادة الدون الونزو دو اغيلار البطل الشهير انهزم هزيمة شنعاء وذلك في سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من عشيرتهم في حرب المسلمين فازداد انتقام الاسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت طنديلة على قوجار وهدم كونت سمرين جاما على جماعة النجاوا اليه من المسلمين بنسائهم وبأطفالهم وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال



فن بقي حيا من الثوار فر الى مراکش ومصر والبلاد الممانيّة وانتهت الثورة  
الاولى في الجبال

ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب والمسلمون  
المتنصرون يعمدون اولادهم ظاهراً فاذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد  
ماء المعمودية واذا تزوج أحد الموريسك ( لقب المتنصرة من المغاربة ) أجرى  
القسيس عقداً لا كيل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلاميّة  
وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونوهم على اختطاف  
اولاد النصارى ويأتون غير ذلك فلو كانت تحت حكومة عاقلة قويمة ترعى  
عمرها التي واثقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق  
ولكن حكام الاسبان يولم يكونوا أهل عقل ولا عدل وكانوا يزدادون  
بتماذي الايام شراً، وتابث الاوامر ان صدرت باكره المغاربة على ترك  
أبستهم المخصوصة بهم ولبس البرنيطة والسراويلات الاسبانية وحظر  
عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداءً بغالبيهم في احتمال الاقدار، ثم منعوهم من  
التكلم بالعربية وصدر الامر بأن لا يتكلموا بغير الاسبانية، بأن يغيروا  
اسماءهم ويسيروا سيراً سبانية ويسموا أنفسهم اسبانية، وكان تصديق  
الامبراطور شران كان هذا الامر الفظيع في سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر  
من اعتماده اجراؤه بالفعل لكن عماله اتخذوه ذريعة لاستنزاف اموال  
الموسرين من المغاربة وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجرب هذه المسألة ولما  
صار الامر الى فيايب الثاني شدد في انفاذ الاوامر بحق الموريسك وسنة  
١٥٦٧ عزز الامر الصادر بشأن تغيير الزي واللغة باستيثاق غريب لاجل  
منع النظافة التي هي من سنن الاسلام وذلك بأخذ يهدم حمامات الحمراء

للبيدعة فالطرائق التي أخذوا بها لتكثير أحوال تلك الامة هي اشد من ان  
يحتملها أى قبيل كان ، دع ساذن المنصرر وعبد الرحمن وانباء سراج ،  
ولذلك لم يطل الزمن حتى استتار انشروا واشتعلت الفتنة وثار فرج ابن  
فرج من نسل بنى سراج بجماعة بن ذوى الحميين من غرناطة قاصداً الجبال  
قبل أن تتمكنت المامية من تسقيهم ونودت بهر نندو دو فلور من نسل  
خلفاء قرطبة ، اسكا على الاندلس تحت اسم محمد بن أمية رعت الثورة في  
اسبوع واحد كل انحاء جبال البشترات ووقع ذلك سنة ١٥٦٨

ولما كانت هذه الجبال من أصعب نصارى الارض مرتقى وأوعرها  
مسلكا ، كان تدويخ سكانها من أصعب ادسور منالا ، والفتنة فيها بعيدة  
المرمى ، فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافظ تاريخها بحوادث لا تحصى  
من القتل والندى والتعذيب والاستباحة والاستيال من الجانبين ، لكنه  
ايضاً حافل بوقائع يندر في تاريخ الفرونية وكتب الحماسة الظفر بامثالها  
وتبقى على صفحات السير نغماً للثروف والامم وكانت المغاربة هناك في  
موطنهم الاخير والموقف الذي يحولون فيه ادراك انثار على نحو مئة سنة  
قضوها في البلاء العظيم ، والهون الذى ليس له نظير ، فهربوا جميعاً منادين  
باخذ انثاروا اقتضاء الاوتار قرية بعد قرية . وهدموا الكنائس وأهانوا ما فيها  
وفتكوا بالنسيين وعذبوا النصارى الذين وقعوا في أيديهم ، واعتصم  
الذين نجوا بالمعقل والابراج ودافعوا دفاعاً شديداً . ونازركيز مونتيجارة  
قائداً في غرناطة فعمد الى المسالة وأخذ الملاية . كادت لوقة تنطفئ لولا  
ما عاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء في يدس الببازين من المغاربة  
قبل ان ذبحهم وقع بغير علم المر كيز ، لكن الموريسس لم يبلوا العذر ونشروا  
٤ - خلاصة تاريخ الاندلس

لواء انشورة، وصار ابن امية ميراً بالفعل على جميع جهات البشرات، الا أنه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بمض اعوانه وقتلوه وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحماسة اسمه عبدالله بن ابوه

فارسلت دولة اسبانية لتدوينخ الثوار اللدون جون الاوستري اخا الملك وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال في شتاء سنة ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ واتى من الفظائع، ما بخلت بانداه كتب الوقائع، فذبح النساء والاطفال أمام عيذه، وأحرق المساكن ودمر البلاد، وكانت علامته « لاهوادة » وانتهى الامر باذعان الموريسك لكنه لم يطل واستأنف مولاي عبدالله بن ابوه الكرة، فاحتال الا-بانيول حتى قتلوه غيلة، وبقي رأسه منصوباً فوق احد ابواب غرناطة ثلاثين سنة. وأخس الااسبانيول في قمم الثورة بما اقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان حتى اهلكوا من بقية العرب هناك خلفاً كثيراً، وخنع الذين نجوا من الموت لكنهم وقعوا في الرق وسيقوا مماليك وعبداناً ونفي جملة منهم، فاخذ عددهم يتناقص. ولما كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين الباو الذين أخذوا منهم في معمة الفتنة صاروا إلى الاستعباد، والبافون أخرجوا من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطرق تعباً فمنهم من أجاز إلى بر العدو وطافوا هناك سائين لاجل قوتهم الضروري ومنهم من لجأ إلى بلاد فرنسا حيث استقبلوهم براً وترحيباً واحتاج اليهم هنري الرابع لاجل دسائسه في مملكة اسبانية ولم ينته اخراجهم تماماً إلى سنة ١٦١٠ إذ وقع الجلاء الاخير ولم يبق في تلك البلاد مسلم بعد أن وليها الاسلام ثمانية

قرون. ويقال إن عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة  
غرناطة إلى السنة العاشرة بعد الألف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين وان  
الذين خرجوا لآخر مرة نحو نصف مليون .

واما الاسبانيول المساكين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا أنهم يخربون بيوتهم  
بايديهم ، بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة مع أن اسبانية، كانت  
مركز المدنية ومبعث اشعة العلم قر ونا ، وقلما استفادت بقعة أوروبية من  
حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد، فلما غادرها الاسلام  
انكسفت شمسها وتسلبت نحسها، وان فضل مسلمي الاندلس ليظهر في هجوية  
هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة وسقطت هذه الامة في سلم الاجتماع ،  
يمد أن خلت ديارها من الاسلام انتهى كلامه ملخصا

واستشهد في حاشية هذه الجملة بنقل يش لك درجة هذه الحقيقة وهو  
أن لملك حول مدينة غرناطة ضياعا واسعة ومزارع التزموا بيعها سنة  
١٥٩١ بسبب كونهم يخسرون عليها أكثر من خلتها ، مع أن هذه البقاع  
كانت امهد العرب حدائق ، غناء وغياضا ، ذات افياء وموارد ثروة رخاء  
وقال واشنطون ارفن في تاريخه لفتح غرناطة مامعناه ملخصا : انه  
بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستتبة تماما  
مدة سنوات إلى أن وقع من اجتهاد رؤساء مذهب الكاثوليك في حمل  
المسلمين هناك على النصرانية ما أيس مغاربة الجبال المتشددون في دينهم  
فثاروا برؤساء الدين وقبضوا على اثنين من هؤلاء الدعاة في مدينة دارين  
وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل ان النساء والاولاد قتلوهما  
قبضا بالعصي وشدخا بالحجارة وإلهم أحرقوا جثتيهما فانتقم النصارى

من هذه القعدة بان اجتمع منهم نحو ثمانمائة فارس وساروا الى عمري المغاربة  
يخربون ويبيثون ، واعتصموا غاربة بالجلال وانتشرت الفتنة في الجبال كلها  
لكن وسطها كان في جبل بر يجه المصاقب للبحر ، فلما اتصل الخبر بالملك  
فرديناند أصدر أوامره بتقل الغاربة الساكنين في جهات الثورة الى قشتالة  
وأعطى الامر سرا بان من يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه ثم رمى  
تلك الامة بالناثد الشهير الذي تزودوا به مع جيش وهو الذي قضى  
معظم شبابه في قتال الغاربة فالترب من بلادهم حتى هرع جملة وافرة  
منهم الى رندة للدخول في النصرانية وجر الباقون منهم تحت قيادة فارس  
اسمه المهري سائقين نساءهم ، أطبلهم الى حيث يتمذر السلوك من تلك  
الاعوار ورباطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فالتقى  
الجمعان أمام بلدة مونارد وانتشب القتال فيقال ان الدرن الوزو مع ابنه  
الدون بطرو وثلاثة من شجعانه صدقوا الحملة على المغاربة فازاحوم  
وتلاحقوا في الهزيمة بتبعهم الجند يسعون وينهبون ولما اتلأت أيديهم  
بالغنائم كر عليهم النهري بمائة من أبطاله دعوات الصرخة فارتجت لها  
جوانب الاودية ، دعر الاسبانيول فتداعروا للفرار وثبت الوزو في  
مكانه يحرفهم ويضربهم من شتى شام فعبير معه جماعة وولى الاكثرون  
ودخل الظلام وخيم الغسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطره ابن  
الوزو فامره أبوه بالرجوع فاصر على البقاء بجانب أبيه فأمر اتباعه بمحمله  
الى معسكر كونت أورينه فاحتله له مائة من الجراحا ولبث الدون بمائتين  
من رجاله يناضلون حتى فتوا عن آخرهم  
وتحصن الدون بين صخرين يتقي بهما فبصر به النهري فقصده

واستحر الصراع وألح الفهري وطمع في قرنه وكانا متماثلين في ثبات الجنان مع قوة الاضلاع وتوثق الخلق فصاح الوزو بخصمه « لا تحسبن نفسك وقعت على صيد هين فأنا الدون الوزو دواغيلار » فاجابه المغربي « انت كنت انت الدون الوزو فاعلم اني أنا الفهري » ثم كوره حريعا ومات بموته مثلك الفراسة الاسبانية وانيولى وانموذج الغشمشمية في الاندلس واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانية ولم ينكفوا حتى لاح الصباح فاجلى المعترك عن قتل الدون فرنسيسكو دوراميز المدريدى الذى كان قائد المدفعية الاكبر وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة لكن مصرع الدون الوزو دواغيلار انسى الاحزان جميعها وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رندة فسكنت بحضوره النائرة واشترى بعض المغاربة ارواحهم بخازوا الى افريقية، واحتتمى آخرون بالندرة افرانجية، وأما أهل البلد الذى قتل فيه الدعاء فسلكوا في سلسلة العبودية وبحث الملك عن جثة الدون فوجدوها بين مائتي جثة من الاسبانية فيها أجساد عدد من الامراء والكبراء فحملوها الى قرطبة في مشهد حافل، بين مدام كالسحاب الهواطل، ودفن في كنيسة مار هيبوليتو، وندبه الاسبانية دهرأ طويلا » انتهى كلامه بمجمل

•••

وذكر المؤرخ الفرنسي الشهير فيكتور دروى في تاريخه ما يأتى ما خلاصا « ان اسبانية تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة ربتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم فى الحرب وكان لذلك العميد سكان الجزيرة اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود فعول فرديناند على

توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تميزاً للدولة فانشأ ديواناً جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذي يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم وكان هؤلاء في البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المنتصرين ظاهراً الباقيين في الباطن أمراء الحمد (صلى الله عليه وسلم) ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كالبدع الدينية أيضاً

وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد ان سلبوهم أموالهم وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لملك الحادثة عدد من خرج منهم ٨٠٠ الف (قلت منهم جماعة وافرة بأزمير وأقوام بالاستانة هاجروا اليهما في تلك الكائنة ومنذ خمس سنين اتفقوا بعيد مضي الاربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العلية أكثر وافيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التي هي كهف المطرودين) والقسم الاكبر منهم هلكوا وعذبوا بما لم يعذب به أحد من العالمين، وسنة ١٤٩٩ صدر أمر بسلب المغاربة حريتهم الدينية التي تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالي في سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانية بوحدها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كانت العرب واليهود أهم عملها

وذكر مرة عند كلامه على شركان انه أكل مقصد فرديناند فأكره مغاربة بلنسية على التنصر وأهل غرناطة على ترك زيهم والتكلم بغير لغتهم وقال بمناسبة فيايب الثاني انه اضطهد المغاربة وضيقت عليهم حتى اتزموا الثورة سنة ١٥٦٨ وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال ايذانا بالخروج وكان يمكنهم بما أمسكوه من مخائق جبالهم الثبات طويلاً لو امتدت اليهم يد

معمونة من اخوانهم أهل افريقية ففرق فيليب شملهم وبددهم في مقاطعته ولم  
تمض سنون عشر حتى صاروا كلهم أرقاء

\*

ثم لنذكر بحسب عادتنا في المقابلة كلام المقرري في هذه الوقائع الاخيرة  
وهو ببعض تصرف « ثم ان النصارى نكثوا اليهود ونقضوا الشروط  
عروة عمروة ابن آل الحمال لملهم المسامين على النصر سنة اربع وتسعمائة  
بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا  
على جميع من كان أسلم من النصارى ان يرجعوا قهراً للنصرانية ففعلوا ذلك  
وتكلم الناس ولا قوة لهم ثم تعدوا إلى أمر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جدك  
كان نصرانيا فأسلم فلترجع نصرانيا، ولما فحش هذا الامر قام أهل البيازين  
على الحكام وقتلوه وهذا كان السبب للتنصر قالوا ان الحكيم خرج بن السلطان  
ان من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا ان يتنصر وبالجملة فانهم تنصروا عن  
آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم  
ذلك وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرها فجمع لهم  
العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم بتلا وسبيا، الا ما كان من جبل بلانقة فان  
الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم قتلته عظيمة مات فيها صاحب قرطبة  
( هو الوزو دواغيلار ) وأخرجوا على الامان إلى فاس بعيالهم وما خف من  
أموالهم دون الدخائر

ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يمد الله في  
خفية ويصلي فساد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم  
كثيراً بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها



من الحديد و قافوا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقبض الله تعالى لهم  
ناصر آلى ان كان لإخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب أعوام (١) سبعة  
عشر و الف فخرجت ألوف بنفاس و ألوف آخر بتلسان من وهران و جمهورهم  
خرج بتونس فتسلط عليهم الاعراب و من لا يخشى الله تعالى في الطرقات  
و نهجوا أم و الهم و هذا ببلاد تلمسان و فاس و نجا القليل من هذه المضرة

و أما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم و هم لهذا العهد عمروا  
قراها الخالية و بلادها و كذلك بتطاون و سلا و فيجة الجزائر و لما استخدم  
سلطان المغرب الاقصى منهم مسكر أجزارا و سلكوا سلا كان منهم من الجهاد  
في البحر ما هو مشهور الآن و حصنوا قلعة سلا و بنوا بها القصور و الحمامات  
و هم الآن بهذا الحال و وصل منهم جماعة الى القسطنطينية العظمى و الى مصر  
و الشام و غيرها من بلاد الاسلام و هم لهذا العهد على ما وصف ، و الله و ارث  
الارض و من عليها و هو خير الوارثين » انتهى

قلت و أشهر الائمة الذين أدركهم عهد الاستيلاء على غرناطة و رحلوا  
فيمن رحل الى الشرق قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الازرق  
صاحب التآليف الجليلة منها (بدائم السلك في طبائع الملك) حذافيهما حذو ابن  
خلدون و قد دخل مصر بعد الارتحال عن وطنه و استنهض عزائم السلطان  
قايتباي لاسترجاع الاندلس قال المقرئ فكان كمن يطلب بيض الأنوق ثم  
حجج و رجع الى مصر و جدد الكلام في غرضه فدافع و دعه عن مصر بقضاء القضاة  
في بيت المقدس فتولاه بنزاهة و صيانة وله نظم بديع منه قوله

تألمات من حسن الربيع نضارة      و قد غردت فرق الغصون البلابل  
حكمت في غصون الدوح قسا فصححة      لتعلم ان النبات في الروض باقل

وقوله

تعجبت من يانم الورد في سنى وجنة نبتها بارض  
ولم لا يرى وردها يانما وقد سال من فرقها العارض  
ومنه قوله عند نزول الطاغية بمرج غرناطة

مشوق بخيمات الاحبة مولع تذكره نجد وتغريه املع  
مواضعكم يالا ثمين على الهوى فلم يبق للسلواز في القلب موضع  
ومن لي بقلب تلتظي فيه زفرة ومن لي بجفن تنهمي منه ادمع  
رويدك قارب للطائف وموضعا وخل الذي من شره يتوقع  
وصبراً فان الصبر خير غنيمة ويافوز من قد كان للصبر يرجع  
وبت واثقا باللطف من خير راحم فالطافه من لمحة العين أسرع  
وان جاء خطب فانتظر فرجاله فسوف تراه في غد عندك يرفع  
وكن راجعاً لله في كل حالة فليس لنا الا الى الله مرجع

أما لرجوع الى الله فهو أحق الحقائق وأما انه لا بد من انكشاف الخطوب  
فهذا خطب الاندلس لم ينكشف إلا بتقلص ظل الاسلام من تلك الديار،  
وطالما ارتقب أهلها اللطائف فلم تطل عليهم إلا البلياً الكبار، حتى آل  
أمرهم الى الحريق بالنار ذلك بقدر من الله (١) إنا لله وانا اليه راجعون

(١) تكرر في هذا التاريخ ذكر القدر وهو هنا في موضعه فان القدر  
والمقدار أن تكون الوقائم بقدر اسبابها وعللها وجارية على نظام سنن الله  
المطرودة في الخلق - وأما ما تقدم من الاعتذار عن الخضوع للاعداء بالقدر  
وكونه خضوعاً له لا لهم فانما يصح في حال المعجز التام عن كل عمل في جهادهم  
ولم يكن كل اولئك المعتذرين بالقدر كذلك، ولا سيما ذلك السلطان الافين الظالم  
القباض فيجب ان يعلم المسلم ان بدعة الاعتذار بالقدر عن المعاصي وعن القيام =

ثم ان الاندلسيين المطرودين النازلين ببرالعدوة انتقموا من الاسبانيول  
ومن طوائف الفرنج عما اذيقوه من العذاب بمجاهد البحر الذي أشار اليه  
المقري حيث انهم انتظموا في سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد  
المغرب أيام كان أهلها يلقبون بملوك البحر وكانت دول اوروبا بأسرها  
تدفع لهم الجزية وتواصل الى والي الجزائر الهدايا دفعا لئلا السفن المغربية  
عن سفنها فكان من قطع المغاربة خصوصا الاندلسيين منهم السبل البحرية  
على بحارة الاسبانيول وغيرهم من السبي والاسر والعيث الذي أتوه على  
شواطئ اوروبا لاسيما اسبانية ما ألف له الاوروبيون تواريخ خاصة به  
وهو يدل على استحكام الاحن في صدورهم وفي الواقع لانرى عداوة طال  
أمرها وتوقدت جمرها كالعداوة التي بين المغاربة والاسبانيول



وقد اتفق الكتاب على أن الاندلسيين الجائين عن بلادهم الى برالعدوة  
احتملوا معهم على أيديهم صناعة الانداس وفي صدورهم هم أهلها، ونقلوا  
ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة الى حيث ألفوا عصا تسيارهم، فاخذت

= بما يجب من حقوق الامة العامة كالجهاد وعن الاستسلام للأمراض والمصائب  
وعدم الاهتمام بدفعها بالادوية مثلا - هي اقتل البدع لهذه الامة وقد توسل  
بها بعض المستعمرين لاقتناع الشعوب الاسلامية الجاهلية بالرضا بسلطة الاجنبي  
بحجة أنها بقدر الله ، وانما الواجب مقاومة الاقدار بالاقدار كما قال الخليفة  
الثاني عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين امر بعدم دخول الشام لوجود  
الوباء فيها فقيل له أتفر من قدر الله ؟ ( قال ) نفر من قدر الله الى قدر الله . وقد  
كان للذي سأله سؤال الانكار أبو عبيدة (رض) فقال له : لو غيرك قالها ؟؟  
وكتبه مصحح الطيم .

عنهم فنون، وشاعت بواسطتهم صنائع، وانتشرت بسببهم فوائدها، وكانوا هم  
رثاءة حالهم وتشريدهم من بلادهم صفر الايدي الا من زهيد المتاع يمثلون  
حيثما حلوا قطعة من الاندلس ولا يزال على بيئاتهم وأزراع معايشهم وسائر  
شؤونهم وما أخذهم مسحة اندلسية تمتاز بالذوق، وتدل على الاصاله في  
التمدن، حتى ان الكاتب فليكس دوبوا الافرنسي الذي ساح الى اواسط  
افريقية في العام المنصرم عثر على قبيل في جوار ننيكتو يقال لهم الاندلس  
حقق بما أخذه من أخبار اصول تلك القبائل أنهم من جالية الاندلس كما  
يدل عليهم اسمهم، وذكر أنهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقاً وأعلى طبقة في  
المدنية من القبائل المجاورة لهم، ولهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة  
والنقش — الى غير ذلك، والظاهر أنهم مترامون الى السودان عن  
مراكش وسبجان من بيده تصاريف الامور

## خاتمة

لا تزال آثار العرب حية في اسبانية تشهد بفضل هذه الامة وتنطق  
بامتزاج الاسلام مع الحضارة، وان كثيراً من الاماكن في تلك البلاد  
خصوصاً غرناطة وقرطبة واشبيلية بل بالنسية وطليلة قد يظن الداخل  
اليها أن المسلمين لم يغادروها الا منذ عهد قريب، وقد اندمج كثير من  
الايضاع العربية في البناء بالهندسة الاسبانية كما اختلط اللسان  
الاسباني لي بالعربي وتولدت من هذا الاثران ألفاظ خلاسية سرمد منها  
الفاضل المحقق أحمد أفندي زكي (١) جمهوراً في رحلته الى الاندلس المنشورة

(١) هو الآن الاستاذ العلامة احمد زكي باشا المصري

## في جريدة الاهرام

وقد اتفق المحققون من مؤرخي الافرنجة أن اسبانية كانت مجاز العلم من الشرق الى الغرب ومبعث أشعه العرفان أفاضها العرب فاستنارت بها اوروبا واهتدت بها طويلا وقد تركوا هناك آثارا في الصناعة والزراعة والبناء وانغم ما بقي عنهم منها مبانئهم التي لا تزال الى الآن بهجة السياح ودهشة الناظرين ، على انهم في أيامهم لم يتركوا فرعا من فروع العلم ولا شعبة من شعب التمدن الا ضربوا فيها بسهم وكانوا فيها القدوة لغيرهم فاشئت من طب وجراحة وصيدلة وفلسفة ومنطق وطبيعة وهيئة ورصد وحساب وجغرافية .

ومن أشبونة خرج الاخوة الغرورون هائمين في بحر الظلمات طمعا في الوصول الى بروراه يمدون اليه على ما ذكر الشريف الادريسي في كتابه ( نزهة المشتاق ، الى اختراق الآفاق ) ونشره هذا العاجز في الجرائد اجابة لبعض السائلين عن ذلك من أهل أميركا ، وكانت عندهم مباديء في المنون العسكرية والملاحة وعناية جزيلة بمخزائن الكتب وحمل العلم وتأليف الاندية العملية واختراع الآلات وهم الذين أدخلوا الى اوربا الكاغد والبارود من الصناعة ، على ما أدخلوه من النباتات والشجر الجديد في الزراعة ، وبالاجمال فكانوا حملة العلم وانموذج الامم المتعدنة في القرون الوسطى ، وكانت اسبانية لعهدهم جنحة الله في أرضه ، ونكتة معمور الدنيا بطوله وعرضه ، وغابت شمسها من بعدهم ، وأوحشت لفقدهم

وقد ذكر لافاله على وجه الاجمال مدينة الاسلام باسبانية وأتى على

بيان مزاياهم في الصناعة والزراعة والفن والبناء، ووصف قصر اشبيلية  
وجراء غرناطة وجامع قرطبة، وأطال في خصائص الهندسة العربية  
والزخرف الشرقي، ثم تكلم على أسلحة الاندلسيين وقرر أن العرب هم  
أول من استعمل المدافع النارية في اوربا وانهم هم الذين هدوا الاوروبيين  
الى صناعة البارود وعرفوهم بصنعة اخرى أشد تأثيراً على الاجتماع  
الانساني وهي عمل الورق، قال وانهم في جميع الفنون فاو المسيحيين وبلغوا  
الدرجة التصوي من الحضارة حينما كان اقرانهم واقوفين في حنادس  
الجهالة والبربرية، فكانوا فوقهم في العلم ومثلهم البأس، وكانوا حكماء في  
المجالس، أشداء في المآزق، فان قيل فان كانت الحال على ما وصفت فلماذا  
سقطوا...؟ قلنا انهم ظلوا مدة ثمانية قرون لم تنقطع بينهم الفرقة والشقاق  
الذي كان يمزقهم كل ممزق، وانه أعوزهم روح الوثام والاتحاد الذي به  
قوة الامم وفلاحها

ولا أتعرض الآن لتفصيل ما انطوي تحت هذه التضاعيف مما  
يستغرق المجلدات الكبار لا سيما وإن قيل هذه الرواية قد طال طولها  
أخاف عليه انتقاد القراء، والسبب فيه اني لم أستحضر التأليف بتمامه قبل  
طبعه وانما كنت أوله وأنشره متتابعا، فحرصت أن لا يفوتني فيه شيء  
أعتقده مهما وصلت الى الاطلاع عايه يدي القاصرة اياي كتابا مستوفى  
في بابيه، ويكون قد نفع الغليل في هذا السبيل، وجمعت أكثر اعتمادي في  
متأخر المدة على الكاتب الانكليزي اللغة واشنطون ارفن مع المقابلة بينه  
وبين غيره ومزاوجة النقل الافرنجي دائما مع الرواية العربية من نفع الطيب  
البي لم أطلع على سواها في هذه اللغة عن هذا التاريخ كما لا يخفى. ولا

يبعد اني ان حقت أشياء فوق ما كتبت بهذا الذيل مما يتعلق باخبار  
غرناطة أضفت الى هذا الكتاب في الطبعة التالية

ولا ينس القارىء للبيب اني نيهته الى غرضي في مقدمة الذيل وهو  
التنقيب عن أخبار الحقة لآخرة من نزول المسلمين بملك البلاد لان  
هذه النظمة هي أشد الاقسام احتياجا الى هذا المعزز من تأريخهم، واتي  
لا أستحسن مذهب الكتابة فيما طال تعاور الاقلام اياه بلغة قوم، وصار  
التأليف فيه زيادة أعداد، واضاعة مداد

ومن الغريب أن هذا التاريخ فضلا عن ندوره بالعربي لمن أجدر  
المطالعات بالوع لما جاء فيه من سير الابطال، وأوصاف مراطن النزال، وما  
تبطنه من غريب الوقائم الحاكية موضوع القصص ومولود الخيال، مما  
لا يمتري قارئه اللال،

ولا أكرم القاريء الذي هو خليق بان لا يخفى عليه ذلك بشفوف  
بصره ولطف حسه أن الامر غير خال في هذا الاملاء أيضا من ترعة  
جنسية، وحنوة عصبية، وهفوة للفؤاد وراء آثار بني الجلدة، مما  
تستشعر فيه، رضاء هذه النفس العظيمة لسر، البعبدة، هوي الغرض،  
الغريبة شكل هم، وتوفر به اللذة والراحة لهذا الوجدان الداخلي السائح  
في أثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها، على ترجيح الاقرب فالاقرب، وقد  
طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه والميل للاتصال بابناء أبيه  
فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التي هي جزء من هذا المجموع لما يحس من  
أن اقرب أنواع الدم الى دمه هو الجاري في عروق قومه، فهو يحن اليهم،  
ويحنو عليهم، ويتألم لآلمهم، ويمتد بزهم، وتراه اذا غابت أشخاصهم استأنس

بآثارهم بعد الاعيان، وارتاح الى مواطنهم ورغب في الدوس على مواطنيهم  
أقدامهم ولو بعد أزمان . وقد عهدنا الذي يصاب بعزير أو بذني قرابة  
يختلف الى قبره ، يشفي بالبكاء عنده حرارة صدره ، واذا ظفر بقطعة من  
ملبوسه أو مفروشه ، أو برقعة من خطه ، احتفظ بها ، وغالى في قيمتها ،  
وجعلها مدار أذنه ، في خلوات نفسه ، وروح حياته ، في منتبذ مناجاته ،  
وبناء على هذه القاعدة أولع الخلق بحفظ آثار الغابرين ، وتطلعوا بغريزة  
فيهم الى معرفة سير السالطين ، ووقفوا على الاطلال الدوارس ، وبكوا على  
الدمن البوالي ، كأنما يجدون عندها همودهم مع آبائهم ، ويشدون لديها  
معهم عروة وفائهم .

ومن هذا المأخذ انبعث الشعور بالميل الى احتذائهم ومحاسنهم  
في سيرهم ، واقتصاص الخافي والباقي من أثرهم ، تصديقا لقول نبينا  
صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى  
لو دخلوا حجرة ضرب لدخلموه » (١) فياليتنا تتبع الآن سنن من  
قبلنا ونقتدي بسلفنا ونبني بناء اوائلنا ، ونعتبر بحمراء غرناطتنا ، وخضراء

(١) الحديث في مسند الصحيحين وتمتته أن الصحابة (رض) سألوه (ص)  
صمن قبلهم فقالوا يارسول اليهود والنصارى ؟ قال « فن ؟ » وفي رواية انهم  
فارس والروم وكلتاها بمعنى والمراد أنهم بعد الاهتداء بالاسلام والاعتصام به  
سيبتدعون في دينهم ويتفرقون شيئا بعد اتحادهم كما فعل من قبلهم من الامم  
المجاورة لهم فيحل بهم من عقاب الله ما حل بأولئك ، وكذلك وقم ، وما حل  
بهم في الاندلس من الشراهد عليه . ولكن المؤلف أراد أن يعظ المسلمين من  
طريق آخر على طريق أسلوب الحكيم فتمنى لو اتبعوا سنن سلفهم الصالح فيما  
أصلحوا فيه قبل فساد أمرهم . وكتبه مصحح الطبع



دمننا ، ونأمل في سالف عزاها وسابق أمرها ونجتنب الفرقة التي آلت الي  
فقدتها ، ونسأل رسومها عمامضى من نعيمها ، فهي رسوم ان لم تجبك حواراً ،  
اجابتك اعتباراً ، فلا يكون دائماً من شأننا ان نتباهى بمجد الاوائل  
ونفاخر بالعظم الرميم ، دون ان نقتص اثر الآباء ونحبي ذكر القديم ، ولا  
يبقى من نصيبنا في المجد الا حديث سمر ، ومجرد ذكر ، وما أحسن ما قال  
شوقي شاعر المصر

و ذات دلال من بني الروم حولها      اذا ما تبدت اخوة سبعة مرد  
عنيت بها حتى النقينا فجزها      فتى عربي ملء بردنه مجد  
ف قالت أطيب بعد عسر وشدة      فقلت نعم مسك الاحاديث والند  
عطلنا من النعمى وطوق غيرنا      تداوات الايام وانتقل العقد  
وما ضاعت الدنيا علينا وحسنها      ولكن عن أغصانه رحل الورد

هذا وكان الفراغ من كتابة هذا التأريخ ليلة السبت الواقع في

السادس والعشرين من المحرم سنة خمس عشرة

وثمائة بعد الألف الموافق ٢٦ من حزيران

سنة ١٨٩٧ والمرجو ممن ينظرون فيه أن

يرتقوه بعين الرضا والحلم . ويرخوا

ذبل الستر على ما يمشرون فيه من

الوهم ، والله سبحانه المسدد

الى الحق انه تعالى

من وراء العلم

# كتاب

أخبار مصر

في انقضاء دولة بني نصر

أعني آخر دول الاسلام في الاندلس وهو تكملة لكتاب

مختصر تاريخ الاندلس

أو ذيل الذيل لرواية

آخر بني سراج

( تنبيه ) طبع عن النسخة الوحيدة المطبوعة في أوربة ولم يعرف اسم مؤلفه

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المبدىء المعيد، المذئىء المبيد، الفعالم لما يريد، الذى جرت  
أحكامه بمشيئته السابقة فى جميع العبيد، من اعزاز واذلال، وإدبار واقبال،  
واكثار وإقلال، وهداية واطلال «كل ميسر لما خلق له» وجار على ما كتب  
له، سبحانه وتعالى (لا يستل عما يفعل وهم يسئلون) نحمده سبحانه وتعالى  
على كل حال، ونشكره على جميع نعمه التى لا تحصى شكراً كثيراً دائماً لا  
ينقطع بانقطاع الايام والليال ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك  
له المنفرد بالعزة والجلال ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمد عبده ورسوله  
خاتم النبيين والارسال (١) صلى الله عليه وعلى آله والصحب والآل (٢)  
صلاة دائمة لا تقاد لها ولا زوال

﴿ اما بعد ﴾ فهذا كتاب اذكر فيه نبذة من بعض تاريخ ما وقع  
فى مدة الامير أبى الحسن على بن نصر بن سعد بن السلطان ابى عبدالله محمد  
ابن السلطان ابى الحسن بن الملوك النصريين ومدة ابنه محمد وأخيه محمد  
ايضاً رحمهما الله، وكيف استولى العدو على جميع الاندلس فى تلك المدة،

« ١ » لانعلم الارسال تأتي جمعا لرسول وانما يجمع رسول على رسل وارسل  
ورسلاء ويمكن ان تكون بالكسر مصدراً لارسل اي ارسال الرسل وأن  
تكون جمعا لرسول محركة وهى الجماعة من كل شيء وأصلها القطيم من  
الابل والغنم يرسل الى المرعى ثم صمموه فى الاستعمال فقيه معنى الرسالة والارسال  
وفى الاساس : وجهت رسلي ارسالاً متتابعة : رسلاً بعد رسل

« ٢ » لعل كلمة آله كانت سبق قلم لانها هى التى يسبق اليها الدهن  
ليكثر استعمالها فلما كتب الآل لاجل السجع لم يفتن لها فیرجها

وعولت في ذلك على الاختصار والاقتصار ، وتركت التطويل والاكثار ،  
لان باعي في التأليف قصير ، وبضاعتى في الفصاحة مزجاة ، وسميته بكتاب  
( أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ) وانه الموفق للصواب وهو  
حسبنا ونعم الوكيل ،

قال المؤرخ عفا الله عنه لما استقام ملك الاندلس الامير ابى الحسن  
علي بن سعد ودانت له جميع الاندلس ولم يبق له معاند وذلك بعد خطوب  
واحداث وكوائن جرت له مع ابيه ومع قواده بمد موت ابيه فى أخبار  
وكوائن يطول ذكرها وذلك أنه كان محجورا للقواد لم يكن له من الملك  
الاسمه فاراد أن يقوم بنفسه ويزيل عنها الحجر فانفرد بنفسه عن قواده  
وانفرد معه بعضهم ووقعت بينهم حروب واحداث ، وذلك أن قواده  
لما اعتزل عنهم أخذوا أخاه محمد بن سعد وكان اصغر منه سنًا فبايعوه  
واشتعلت نار الفتنة بينهم فظهر الامير أبو الحسن التوبة للناس ووعدهم  
ان قاموا بدعوتهم أن يصلح شأنهم وأن يظهر الاحكام وأن ينظر فى مصالح  
الوطن ويقيم الشريعة ، فمالت اليه الرعية وأعانوه على أنواع من مراده  
وغيرهم ، الى أن أظفروه الله بهم وذلك بعد حروب كثيرة وقمت بينهم وذلك  
ان أخذوا محمدًا نفلت من أيدي القواد الذين بايعوه وسار الى أخيه ابى الحسن  
واجتمع القواد كلهم فى مدينة مالقة فحاصروهم فيها حتى أطاعوه فاخذهم  
وقتلهم كلهم وانقضت الفتنة وخذت زارها ودانت له جميع الاندلس  
ولم يبق له فيها معاند ، وهو مع ذلك يغزو بلاد الر م المرة بعد المرة حتى  
غزا غزوات كثيرة وأظهر الاحكام ونظر فى مصالح الحصون ونهى الجيش  
بفهاينه النصراني وصالحته برا ومجرأ وأكثر الخير وانبسطت الارزاق

ورخصت الاسعار وانتشر الامن في جميع الاندلس وشملتهم العافية في تلك المدة وضرب سكة جديدة طيبة

ثم أنه أراد أن يميز (١) الجيش وأن يظهر للناس مامعه من الفرسان ليزيدهم في المغارم فهياً موضع الميز بمدينة الحمراء من غرناطة بالموضع المعروف بالطبلة عند باب العد « فبني مكاناً لجلوسه وأصلح العاريق والرحبة لجمال الخيل وندب الفرسان

ثم ابتداء يوم الثلاثاء التاسع عشر لذي حجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة فكان أهل غرناطة يخرجون كل يوم الرجال والنساء والصبيان للسبيكة وما حول الحمراء يتنزهون وأقبلت فرسان الاندلس بأجمعهم من شرقيتها وغربيتها فكان يميز كل يوم عليه طائفة منهم الي يوم الثاني والعشرين بمحرم فاتح عام ثلاثة وثمانين وثمانمائة بموافقة السادس والعشرين لشهر ابريل الجمي فكان من قضاء الله عز وجل وقدره في ذلك اليوم المهرجان الكبير والنزهة العظمى، واحتفلت الناس وخرج جل أهل البلد من رجال ونساء وصبيان وشيوخ وكهول وجاء كثير من أهل القرى من حوز غرناطة للنزهة فاجتمعوا في السبيكة من الحمراء وما حولها واستلأت تلك المواضع من خلق كثير واقبلت الفرسان وساروا يتألفون في السبيكة وذلك في وقت الضحى فبينما الناس كذلك وإذا بسحابة عظيمة قد انشأها الله في السماء فارعدت وابتقت وانتشرت من ساعتها بقدره مكون الاشياء على السبيكة وما قرب منها وعلى غرناطة وما حولها وعلى وادي هدارة وجاءت بمطر عظيم ولم ينزل المطر يزداد ويعظم ويكثر حتى صار كالأنهار العظام وجاءت

السيول من كل ناحية وعظم امرها رعين الناس المهلاك من عظم ما رأوا من شدة  
المطر وكثرة السيول واحتل السيل الطرق واحولها وانقطع الناس وحال  
الليل بينهم وبينه فلا تسمع إلا بكاء الصبيان وضجيج السوان وأصوات  
الرجال بالدعاء الى الله تعالى والابتهالك الى أن ارتفع المطر وجاء في وادي  
هداره الذي يشق غرناطة سيل عظيم احتمل ما على شفتيه من الاشجار  
العظام من الميس والدردار والجوز واللوز وغير ذلك من الشجر العظام  
الثابتة في الارض ودخل البلد واستحل ما على شفتيه من الثور والخوانيت  
والمساجد والفنادق ودخل الاسواق وهدم البناء المشيد ولم يبق من  
القناطير الا الاقواس ذهب بما كان عليها من البنياز وجاء السيل بتلك  
الاشجار العظام التي امتلعت فتراكت في البلد في آخر قنطرة منه فسدت  
مجري الوادي فتراكم السيل والشجر في قلب البلد وعان أهل البلد المهلاك  
ودخل السيل تياراً القيسارية حتى دخل بعض سواقيها ووصل الى  
رحبة الجامع لاعظم والى القرافير والساعة والحدادين وغير ذلك من  
الاسواق والدور فلطف الله تعالى بالبلد واهلها فنهض الليل بقوة تراكه  
بالقنطرة والسور وخرج ذلك كله خارج البلد وكان هذا اليوم من أعظم  
الايام شاهد فيه كل من رآه قدرة القاهرة بها الملك العلام سبحانه وتعالى  
ولم يسمع المعمرون بمثله

(قال المؤرخ عفا الله عنه) ومن وقت هذا نزل العظيم بدءاً ملك الامير

أبي الحسن علي في الانتكار والانتفاص وذلك انه اشتغل بالذات  
والانهماك بالنساء والمطربات وركن الى الراحة والشهوات وضع الجند  
وأسقط كثيراً من نجدة الفرسان وثقل القارم ومكس الاسواق ونهب

الاموال وشح بالمطاء الى غير ذلك من الامور التي لا يثبت معها الملك .  
وكان له وزير يوافقه على ذلك ويظهر للناس الصلاح والعمق وهو بعكس  
ذلك وكان الامير ابو الحسن علي المذكور تزوج ابنة عمه الامير الايسر وكان له  
منها ولدان محمد ويوسف فمن جملة انهما انه اصطفى عليهما رمية اسمها ثريا  
وهجر ابنة عمه واولادها . نه فادرك ابنة عمه من الغيرة ما يدرك النساء على  
ازواجهن ووقع بينهما نزاع كثير ومال الاولاد محمد يوسف مع امهم وغالطت  
العداوة بينهم . وكان الامير ابو الحسن شديد الغضب والسطوة فكانت الام  
تخاف على اولادها منه فبقوا كذلك مدة وهو مشتغل بالذمة منهمك في شهوته  
ووزيره يضبط المغارم ويثقلها ، ويجمع الاموال ويأتيه بها ، ويعطيها من لا  
يستحقها ويمنعها . مستحقها ، ويهمل كل من فيه نجوة وشجاعة من الفرسان ،  
وقطع عنهم المروف والاحسان ، حتى باعوا ثيابهم وخيامهم وآلات حربهم  
وأكلوا ثمنها ، وقتل كثيرا من أهل التدبير والرأي والرؤساء والشجعان  
من أهل مدن الاندلس وحصونها

فلم يزل مستمرا على حاله راجل الجيش في نقص والملك في ضعف ، الى أن  
انقضى الصلح الذي بينه وبين النصارى فلم يشعر أحد حتى دخلوا مدينة  
الحمة وذلك انهم طرقوها ليلا على حين غفلة من أهلها فدخلوا قصبها  
وكانت خالية فلم يكن بها الا عيال قائدها فلكوا القصبية والناس نيام  
مطمئنون فلم يشعر أحد الا والنصارى قد هبطوا من القصبية على البلد  
بالسيف والقتل والسبي الشديد حتى نزل من نذأجله وهرب وفر من  
قدر على الفرار واستولى النصارى على البلد وجميع ما كان فيه من الرجال  
والنساء والصبيان والاموال وكان ذلك في التاسع من شهر المحرم عام سبعة

وثمانين وثمانمائة فيباغ أهل غرناطة ما فلت النصراري باخوانهم المسلمين فاجت الرعية وقالوا لا صبر لنا على عيش بعد هذه المصيبة العظمى لما أن تفك اخواننا أو نموت دوزنهم، فاجتمعوا مع الامير أبي الحسن ووزيره فجعل الامير والوزير يعجزانهم عن المسير وبتربصان ويقولان نأخذ أهبتنا ونعمل على حال الحرب فلم تزل بهما العامة حتى أخرجوهما فتقدم صدر الجيش فوجدوا النصراري قد أخرجوا من البلد ما سبوا من الرجال والنساء والصبيان والاموال وهم قد أوقروا الدواب بذلك وهم عازمون على المسير إلى بلادهم فلما رأوا خيل المسلمين قد أقبلت عليهم حطوا الاحمال ودخلوا البلد وتحصنوا بالاسوار ثم أقبل المسلمون بمحلتهم وقربوا منهم فقاتلوهم قتالا شديداً بجد وعزم وقلوب محترقة حتى دخلوا بعض الابواب من البلد وكسروه وحررقوه وتعلقوا بالاسوار وطمعوا في الدخول اليه فبينما هم كذلك اذا بالامر من الامير أبي الحسن والوزير بالرجوع عن القتال فأبى الناس عن الرجوع (١) فقالا لهم اذا كان غداً ندخل عليهم أول النهار لان الليل قد دخل علينا فترك الناس القتال ورجعوا الى محلتهم وبات النصراري يصلحون شأنهم ويمنعون أسوارهم ويفلقون نقابهم (٢) فلما أصبح نظر المسلمون الى البلد فاذا هو على صفة اخرى من المنعة والتحصين والاستعداد فصعب عند ذلك على المسلمين الدخول والدنو منه

ثم أنهم عزموا على حصاره والاقامة عايه واقبلت وفود المسلمين من

(١) أبى يتعدى بنفسه وقد عداه بمن بتضمينه معنى امتنم

(٢) «نقاب» هو الثقب والجمع انقاب ونقاب



كل أرض الانداس واجتمع على ذلك البلد محلة عظيمة وفتحوا الاسواق  
للبيع والشراء وجابوا لاسواقهم كل ما يحتاجون اليه من الاطعمة والعلف  
والزاد وغير ذلك وحاصروهم حصاراً شديداً ومنعوا لهم الماء والحطب  
والداخل والخارج والعامّة بعزم وجدوا اجتهدا نية صادقة وقلوب محترقة  
والوزير يعد الذس بالدخول والقتال وعداً بعد وعد ويقول عن قريب  
نأخذهم عطشا وهانحن نعمل الحيلة في الدخول عليهم ، والتقصير والتفريط  
والغش يبدو منه شيئا بعد شيء ، حتى تبين لعامّة الناس وخاصتهم ولاح  
لهم كالشمس وظنوا بهم ظنون السوء وكثر الكلام القبيح بينهم فعند  
ذلك هاج شيطان الفتنة بينهم وتحدث الناس بعضهم مع بعض في  
مسائل غشهما للمسلمين

فبينما الناس كذلك في إساءة ظنهم أميرهم ووزيرهما فإذا استعملا  
حيلة وكتبا مزورة أتهما عن بعض من نذعهما من ناحية المسلمين  
المجاورين بلاد الكثرة دمرهم الله ياملهما أن الطاغية ملك النصراني جمع  
جمعا عظيما وحشد حشردا كثيرة وعزم على نصرة أصحابه المحصورين في  
بلد الحامة وهو قادم عن قريب ولا طاقة لهما بملاقاته فحين أعلمهم الوزير  
بما ذكر وخوفهم .. تبط في أيدي الناس وأمرهم بالرحيل والاقلاع عن دار  
الحرب فرحل الناس كرها باكين متأسفين بحسرة وندامة بجمعة يالها من  
حسرة ، وانصرف كل واحد الى وطنه ثم أنهم أقاموا بعد ذلك أشهرا  
قلائل وأمر الامير ابو الحسن بالمسير الى بلد الحمة مرة ثانية فسار الناس  
اليها ، وأقبلوا من كل أرض بالانداس ونزلوها بمحلتهم مرة ثانية  
وحاصروها فلم يقدروا على شيء فانصرفوا عنها وتركوها

فلما وائى العدو دمره الله ان المسلمين قد عجزوا عن أخذ الحمة وأنصرة  
من فيها من الاسارى وقع له الطمع في بلاد الاندلس فأخذ في الاستعداد  
والخروج اليها فلما كان شهر جمادى الاولى من عام الناريخ المذكور قبل هذا  
خرج صاحب قشتالة بمحلة عظيمة وتصدد مدينة لوشة فنزل عليها بمحلته  
وكان قد اجتمع فيها جملة من نجدة رجال غرناطين سمعوا بخروجه  
اليها فلما قرب من البلد خرج اليه الرجال والفرسان فقاتلوه قتالا شديداً  
وردوه على عقبه وقتلوا كثيراً من النصارى وأخذوا لحم من تلك المدة  
التي قربوا بها انقاطاً وغير ذلك من عدة الحرب ثم ان الامير ابا الحسن  
أمدم بقائد من غرناطة يقود جيشاً من الفرسان في تلك الليلة فاشتد عند  
ذلك عصبية المسلمين وقويت فلو بهم فلما أصبح ورأى النصارى الزيادة في  
المسلمين مع ما نالهم في أول الليل من الهزيمة والتل وأخذ المدة داخلهم  
الرعب واشتد خوفهم وأخذوا في الارتحال عنهم، فخرج اليهم المسلمون  
فقاتلوهم قتلاً شديداً فانهمز النصارى وتركوا كثيراً من أخبيتهم وأمتعتهم  
واطعمتهم وآلة حربهم وتركوا من الدقيق شيئاً كثيراً فاحتوى المسلمون  
على ذلك كله وانصرف العدو مفلولاً مهزوماً الى بلده وكان ذلك في السابع  
والعشرين لجمادى الاولى عام سبعة وثمانين وثمانمائة

وفي هذا اليوم بلغ الخبر لمن كان في لوشة ان ابني الامير ابي الحسن  
محمد ويوسف هربا من القصبية خوفاً من أبيهما وذلك أن شياطين الانس  
صاروا يوسوسون لأمهما ويخوفونها عليهما من سطوة أبيهما ويفعونها مع  
ما كان بينها وبين مملوكة أبيهما الرومية تريا من الشحنة فلم يزاوا يفعونها  
حتى سمحت لهم بهما فاحتالت عليهما بالليل وأخرجتهما اليهم وساروا بهما

الى وادي آس فقام اهل وادي آس بدعوتها ثم قامت غرناطة أيضا بدعوتها واشتعلت نار الفتنة ببلاد الاندلس ووقعت بينهم حرب وكواثن اعرضنا عن ذكرها لقبحها لان الامر آل بينهم الى ان قتل الوالد ولده ولم تزل نار الفتنة مشتتة وعلاماتها قائمة في بلاد الاندلس والعدو دمره الله مع ذلك مشتت بلجيلا في أخذ الاندلس الى أن ساعده الزمان ووافقته الاقدار ، فلما كان شهر صفر عام ثمانية وثمانين وثمانمائة اجتمع من زعماء النصرارى واقنادهم (١) جمع عظيم ولم يكن معهم ملكهم وقصدوا قرى بلش وشرقية مالقة يريدن أخذها وفسادها فلما وصلوا تصالح أهل تلك الجهات واجتمعوا دون فرسان وصاروا يعرضون للنصارى في المضايق والمخائق والاعوار ويقاتلونهم فيها حتى قتلوا منهم خلقا كثيرا فلما رأى النصرارى ذلك جعل الله الرعب في قلوبهم ووقع فيهم الخذلان فانهزموا في تلك القرى والمخائق والاعوار وصاروا يتهاقون فيها تهافت الذبان والمسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ولم تغن عنهم كثرتهم ولا عدتهم شيئا باذن الله ، وكان في وقت هذه الكائنة الامير محمد بن سعد بمدينة مالقة فلقبهم فقتل وأسر منهم خلقا كثيرا وولوا مدبرين ، وأسر منهم ما يذيف على أنفي اسير فيهم جماعة من قوادهم واقنادهم ، وهرب باقيهم وتركوا خيلهم ودوابهم ورجالهم واتعتهم فاحتوى على ذلك كله المسلمون

---

(١) العرب في ايام الحرب الصليبية وحروب الاندلس حصلت لهم اللغة بألفاظ افرنجية عربوها على هوى نطقهم من جملتها لفظة كونت وهو من القاب الشرف عند الافرنج دون البرانس فنطق بها العرب كند بضم الكاف وسكون النون وقند بالقاف وجموها على أقناد كما ترى

وحملوه الى مدينة مالقة فجمعوه بها على أن يقسموه على كل من حصر  
الوقية (١) المذكورة فحصل كله بأيدي الظلمة فلم يظهروا فيه حقاً لاحد  
من حضر الوقية المذكورة فلم ينتج لهم منه شيء وكان عليهم وبالاً ،  
وكانت هذه الكائنة في الحادي عشر لصفرة عام التاريخ المذكور قبل هذا  
وفي شهر ربيع الاول من عام التاريخ خرج الامير أبو عبدالله محمد  
ابن علي بأهل غرناطة ومن حولها من الحصون والقرى الى بلاد الروم  
فبينما هم في أرض اللسانة راجعون بالغنيمة إذ خرج عليهم جمع من  
النصارى ليس بالكثير فانهمزم المسلمون أمامهم واتبعهم النصارى يقتلونهم  
ويأسرونهم حتى لحقوا الامير محمداً فدخل في غمار الناس واختفى بينهم  
وجعل يقاتل مع المقاتلين حتى أسر مع من أسر من المسلمين ولم يعرفه  
النصارى وكانت هزيمة شنيعة قتل فيها ناس كثير وأسر آخرون واستولى  
النصارى فيها على كثير من الخيل والسلاح والدراب والمتاع ، وأشنع  
ما كان فيها أسر الامير أبي عبدالله محمد لانه كان سبباً هلاك الوطن فجمع  
النصارى كل ما أخذوا للمسلمين من أسارى وأمتعة وحملوه الى حصن  
اللسانة ولم يعرفوا الامير حتى عرفوا به فاخرجوه من بين الاسرى  
وعظموه وأكرموه وحملوه الى حصن اللسانة الى صاحب قشتالة فمظمه  
واكرمه وعلم أن به يصل الى ما يريد له من اخذ بلاد الاندلس ، ثم عاد  
ملك غرناطة الى الامير ابي الحسن علي بن سعد وإلا فان الفتنة لم تنقطع  
ولم تخمد نارها وكان الامير ابو الحسن قد أصابه مرض شبه الصرع  
وأصيب في بصره وأصابه خدر في جسده وعاقبه الله بانواع من البلاء

وعزل عن الملك رحمل إلى مدينة المنكب فاقام فيها حتى مات واستولى  
على الملك بعده أخوه محمد بن سعد ومع ذلك قد استطال العدو على الاندلس  
وقوي طمعه فيها

فلما كان شهر ربيع الآخر من عام تسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلة  
الى غربية الاندلس فقصد حصن قرطمة وحصن دكوبين فقاتلها حتى استولى  
عليهما، وفي السنة التي كانت قبل هذه كان ايضاً استولى على حصن المره  
وحصن الشيطانين، وفي العشر الاول من جمادى الاولى عام التاريخ  
المذكور قبل هذا خرج العدو أيضاً فقصد مدينة رندة فقاتلها قتالاً شديداً  
وقرب اليها عدته وانفاطه حتى هدم بعض اسوارها فلما رأوا مالا طاقة لهم  
به طلبوا الأمان وخرجوا مؤمنين (١) بما همم فلما استولى العدو على مدينة  
رندة دخلت تلك الجهات كلها في ذمته غير قتال من

وفي التاسع عشر من شهر شعبان عام التاريخ المذكور قبل خروج  
الامير محمد بن سعد (٢) باهل غرناطة إلى حصن السكان لبناء بعض  
سوره لانه بلغه أن العدو خارج اليه فخرج بجيشه وعامة أهل غرناطة  
ليصالحوا من شأنه ما تهدم فبينما هم في الحصن بلغهم أن العدو خارج يريد  
الحصن وهو متوجه نحوه وظهر آخر النهار لم يمين غبار محلة انصارى

---

(١) بفتح الميم مع شدها من التأمين

(٢) هو الملقب بالزغل بحركة ومعناه بلعة عامة الاندلس الصغير ولا يأنى

الزغل بمعنى الصغير فيما أعرف وإنما أخذوه فيما يقاوم من زغل الصبي امه رضعها  
وهو فصيح وأزغلت الام ولدها أرضعته وأزغل للطائر فرخه زقه والأزغول  
أيضاً بمعنى اللطفل هو من هذه المادة ويجوز أن يكون أصل الزغل الزاغل  
اسم فاعل أو الزغل بكسر وسطه للمبالغة

في أرض القلعة فلم يلتفت الأمير ولا وزيره لذلك ولم يعملوا حساب الحرب ولم يعملوا بياتهم على البعد فباتوا تلات ليلية طمئنين وهي الليلة الثانية والعشرين لاعتبان فلم يشعر أحد من المسلمين الا والنصارى قد اختلطوا معهم عند الفجر وكذلك النصارى لم يشعروا بالمسلمين حتى اختلطوا معهم وانما أدلجوا اليه بسجوا على الحصن فلما التقى الجمعان أعلنت الاصوات بالصياح والضجيج وضربت الصاري أطبالهم والبوقات وانصبوا الانفاط ووقع القتال بين الفريقين واشتد القتال حتى وصل النصارى إلى مضرب الأمير وارادوا أخذه فثبت الله تعالى المسلمين وصبروا صبراً جميلاً ووقعوا على مضرب أميرهم محتسبين لله تعالى فلم تكن الاهنية حتى هزمت النصارى وولوا الادبار تبعمهم المسلمون يقتلونهم كيف شاؤوا حتى قتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم قصرُوا في الطلب مخافة أن يدرهم جيش العدو لانهم كانوا قبليين نحو النكاليين يريدون قتله وأخذه وكان ذلك صدر المحلة قد اقبل بالعدة والانفاط والبارود والنفوس وغير ذلك فاحتوى المسلمون على جميع ذلك وارتسلوا بنية يومهم راجعين إلى غرناطة فرحين بنصر الله تعالى حامدين شاكرين فدخلوا غرناطة بقية النهار وكانت هذه الغزوة من الغزوات المشهورات (قل المؤلف عفا الله عنه) فلقد حدثني بعض الفرسان النجباء من أهل الشجاعة والاقدام في ذلك اليوم ونحن في الطريق راجعون إلى غرناطة قال كنت في أول الفرسان ونحن نتبع النصارى فكنت استبق إلى بعض المواضع فاجد النصارى مقتولين ولم نر احداً سبقتي ولا ندري من قتلهم ، فلما خيب الله سعد العدو وكسر حدة عدل عن المسير إلى حصن المكاليين فاقام إلى شهر رمضان من العام

المذكور وتوجه بمحاة نحو حصن قنبيل فنزل عليه بمحلته وأنصب انقاطه  
وقاتله قتلا شديداً حتى هدم بعض اسواره فلما رأى المسلمون مالا طاقة  
لهم به خافوا أن يدخل عليهم عنوة فطلبوا منه الامان ، وخرجوا مؤمنين  
بما كان معهم وأعطوه الحصن فلما استولى العدو على الحصن المذكور أخلى  
المسلمون حصن ارنية وحصن مئافر وحصن اللوز وصارت كلها للنصارى  
وفي هذا الشهر ايضا استولى العدو على حصن صالحه من حصون باش  
ثم ان العدو دمره الله مروح الامير محمد بن علي نخرج الى بعض حصون  
الشرقية ووعد بالصلح ان أطاعوه فقامت بدعوته تلك الحصون طمعا في  
الصلح ثم ان شياطين الانس صاروا يغوون الناس ويزينون لهم ويعدونهم  
ويطمعونهم في صلح النصارى الى أن مالت الى كلامهم طائفة من اهل  
ربض البيازين من ارباض غرناطة ووافقهم جل اهل الربض طمعا في الصلح  
لانهم كانوا سيارة وبادية فقاموا بدعوة الامير محمد بن علي فعند ذلك اشتملت  
المتنة بين ربض البيازين وبين غرناطة واميرها محمد بن سعد ووقع بينهم  
القتال والحرب ونصبوا على البيازين الانقاط ورجعهم بالحجارة من سور  
القصبة القديمة ورموا عليهم بالمنجنيق واهل ربض البيازين يدافعون  
ويقاتلون (١) وينتظرون قدوم الامير محمد بن علي عليهم وهو مع ذلك  
يرسل اليهم من الشرقية وهمدمهم بالتسديم عليهم وهم في قتال وحصار  
وشدة مدة من ثالث شهر ربيع الاول عام احدى وتسعين وثمانمائة الى

---

«١» هذا يؤيد الروايات التي أوردناها في ذيل آخر بنى سراج نقلا عن  
تواريخ الاوربيين ومن تقع اطيب من كون أولئك الناس لبثوا الى آخر ساعة  
من ملكهم والعدو محقق بهم يقاتل بعضهم بعضا وكيف يكون الانقراض الا هكذا

اليوم الخامس عشر لجمادى الاولى عام التاريخ المذكور فبينما أهل البيازين ينتظرون قدوم الامير محمد بن علي عليهم اذا به سار إلى مدينة لوشة ووقع الصلح بينه وبين عمه الامير محمد بن سعد أمير غرناطة في حبه على أن يسلم لعمه المذكور في المعركة ويكون هو من تحت يده وأرسل إلى البيازين بذلك وأدخلهم في الصلح فبينما هم كذلك إذا بصاحب قشتالة دمره الله أقبل بمحلاته على مدينة لوشة فنزلها لأمير محمد بن علي وومه جماعة من أهل نجدة البيازين حين سمعوا بقدوم النصارى عليها تحصنوا بها مع أميرهم محمد بن علي المذكور فحاصرها العدو حصاراً شديداً ونصب عليها انقطة وعدته وقرب اليها بجيشه وآلة حربه حتى دخلوا ربضها وهدموا بعض أسوارها بالأساط وقتل كثير من نجدة الرجال واشتد عليهم الحصار فلما رأى أهل لوشة ما لا طاقة لهم به من شدة الحصار وكثرة جوع النصارى وتأخير أهل غرناطة عن نصرتهم طلبوا الأمان واتفقوا أن يخرجوا مؤمنين بأموالهم وأولادهم وخيابهم وسلاحهم وروايتهم رجميع ما يقدرون على حمله فاجابهم إلى ما طلبوا ووفي لهم به فأخلوا البلاد ورحلوا إلى غرناطة بما معهم واستولى العدو على مدينة لوشة في السادس والعشرين من جمادى الاولى عام احدى وتسعين (١) وثمانمائة ولم يسرح صاحب قشتالة الامير محمد بن علي بل حبسه عنده ليستاصل به بقية الاندلس

فلما كان النصف الأول من جمادى الآخرة عام التاريخ المذكور خرج ملك الروم بمحلاته دمره الله فقصد حصن البيرة فنزل عليه ونصب أنقطة وعدته فلما رأوا ما لا طاقة لهم به من شدته اتتال والحصار طلبوا منه الأمان

---

«١» أنت المدد هنا وفي مواضع تأتي وذكره في مواضع سبقت والتقاعده مروفة ولعل الاختلاف من تصرف النسخ أو الطبع. وكنته مصحح الطبع



على أنفسهم وخيابهم ودوابهم واسلحتهم وجميع ما يقدرون عليه من أمتعتهم  
فاجابهم الى ما طلبوه . انه ووفى لهم به فخرجوا وأخلوا له الحصن وصاروا  
الى غرناطة

ثم انتقل اليه و الى حصن مكابن فنزل عليه بمحنته وقرب منها بعدته  
وانقاطه وقاتلهم قتالا شديدا وعدم بعض الاسوار بالانقاط وكان له  
انقاط يرمي بها صخوراً من نار فتصمد في الهواء وتنزل على الموضع وهي  
تشتمل ناراً فتهلك كل من نزلت عليه وتجرقه (١) فكان تلك من جملة ما  
كان يخذل في أهل المواضع التي كان ينزل عليها

فلما رأى أهل حصن مكابن ما نزل بهم من البلاء وأن لا طاقة لهم  
به طلبوا الامان كما فعل أهل حصن البيرة وخرجوا مؤمنين بأموالهم ووفى  
لهم بما طلبوه . انه

فلما سمع أهل حصون قلنبيرة ما حل بمن جاورهم من الحصون  
خافوا على أنفسهم فطلبوا من اعدوهم الله الا ان على أنفسهم وأموالهم  
وأن يعطوه الحصن من غير قتال ففعل لهم ذلك وأعطوه الحصن ثم رحلوا  
الى غرناطة بأموالهم وأمتعتهم وأولادهم

وتوجه اعدوا الى منتفريه فنصب عليه عدته وانقاطه وقاتله قتالا  
شديدا فلما رأوا ما لا طاقة لهم به لم تنبذ الحصن شيئا ذعنوا وطلبوا  
الامان مثل طلب أهل الحصون المنتفريه فأجابهم الى ما طلبوا وخرجوا  
مؤمنين بما معهم من الامتعة قاصدين مدينة غرناطة أيضا

وكذلك اتفق بحصن الضحة أيضا واستولى في هذا الشهر المذكور على  
جميع هذه الحصون وصارت بيدهم رقبة بها غرناطة وأخذ في بناء هذه الحصون

وتمنيهما وتمحصينها واصلاح شأنها وإشعاعها بجميع ما تحتاج اليه من طعام  
وعدة ورجال وغير ذلك ليضيق على اغرناطة

ثم إن العدو دمره الله تعالى ارتحل الى بلاده فبقي فيها بعض أشهر  
وسرح الامير محمد بن علي وأمره بالخروج الى حصون الشرقية كيدا منه  
ومكرا ليعمل الحيلة على تلك الجهة؛ فخرج الامير محمد الى حصن بلس من  
حصون شرقية الاندلس فقام بدعوته ودخل ثم جعل يكتب الى المواضع  
ويرسل الكتب ويعدم بالصالح مع النصارى ان أطاعوه فلم يقبل منه  
ولم يقم بدعوته أحد، فلم تزل شياطين الفتنة يوسوسون ويمدون الى أن  
وجدوا في ريبض البيازين من غرناطة طائفة من أهل الشر والفساد فقبلوا  
قولهم ووعدهم أن يقوموا بدعوته ان كان له صلح مع النصارى بأخفوا  
حديثهم ولم يظهروه، ثم ان حصون الشرقية قامت بدعوته طمعا في الصالح  
مع النصارى وبقي الامير محمد بن علي يكتب الى المواضع والقرى ويخبرهم  
ان معه صلحا مع النصارى صحيحا فلم يقبل منه احد ذلك فلما راي اهل  
البلد لم يقبلوا منه اتفق رايه ان يسير بخاصته الى ريبض البيازين فأخذ من  
خاصته ومن (?) يثق به وخرج عن حصون الشرقية قاصداً ريبض البيازين  
من غرناطة فدخل ريبض البيازين على حين غفلة من عمه محمد بن سعد امير  
غرناطة ولم يشعر به احد حتى دخل واجتمعت معه تلك الطائفة المذكورة  
قبل وانضاف اليه آخرون فاشتدت عصابته وغلظت شوكته وامر مناديه  
ان له صلحا مع النصارى صحيحا فقام اهل البيازين بدعوته ولم يقبل منه  
اهل غرناطة ما ذكر من الصالح وانه ليس بصحيح، فاشتعلت نار الفتنة بين

اهل ربض البيازين وبين اهل غرناطة واشتد ضراؤها وبلغ العدو ما امله  
ليقضي الله امرآ كان مفعولا

وكان دخول الامير محمد بن علي ربض البيازين في السادس عشر  
لشوال عام احدى وتسعين وثمانمائة فتمصب اهل غرناطة مع اميرهم محمد بن  
سعد علي اهل البيازين وتمصب اهل البيازين مع اميرهم محمد بن علي ووقع  
الحرب والقتال بينهم وصاروا يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا  
ثم ان العدو دمره الله امد امير البيازين بالرجال والانفاط والبارود  
والقمح والعلف والبهاثم والذهب والفضة وغير ذلك ليشد بذلك عضد الفتنة  
ويقويها ولم تزل الحرب متصلة بين الفريقين فلما كان اليوم السابع والعشرون  
من المحرم عزم امير غرناطة فتح ربض البيازين عنوة بالسيف فنذب اهل  
غرناطة وغيرها من احوازها وقال لهم ان هؤلاء القوم قد حلت دماؤهم  
واموالهم لنصرتهم بالنصاري فمالهم الا بالسيف وندب اهل بسطة واهل  
وادي آش ومن حولهم وامرهم بالهبوط على طريق الفرغ والدخول على باب  
فج اللبوة في ذلك اليوم وفتح اهل غرناطة باب الحديد وباب انيدر ونقبة  
باب قشتر ونقبة باب البنود وباب البنود ونقبة ربض البيضا وباب الدفاف  
نخرجت عليه طائفة وطامت على الوادي فدخات على باب الشمس ودخلت  
كل طائفة على جهتها وذلك كله في ساعة واحدة فلطف الله تعالى باهل  
البيازين نخرج لكل جهة من هذه الجهات طائفة منهم فدافعوهم وقتلوهم  
وردوهم على اعتابهم منهزمين فخلوا بلدهم وسدوا ابوابهم وبنوا نقبهم  
ولم تزل الحرب متصلة بين الفريقين والعدو دمره الله يدبر الحيلة عليهم  
فلما كان النصف من شهر ربيع الثاني (٩) عام اثنين وتسعين وثمانمائة خرج الطاغية

بمحلته الى أرض المسلمين فقصد الى مدينة باش مالقة وكانت على ذمة أمير  
غرناطة فنزلها فلما سمع أمير غرناطة بنزوله على مدينة باش ندب أهل  
غرناطة ومن أطاعه من أهل الجهات وترك طائفة تقاتل أهل البيازين  
وخرج يريد نصرة أهل باش وذلك يوم السبت الرابع والعشرون  
لربيع الثاني (١) من عام التاريخ المذكور قبل فلما صار قريبا منها وجد العدو  
سبقة بالنزول عليها وداربها من كل الجهات فقصد الامير حصن متميس  
فنزله بمحطته وأقام به بعض ايام فطلبه الناس ان يسير بهم نحو العدو  
للقائه فتوجه بهم نحو فرتيبهم وكان ذلك عشية النهار فدخل عليهم الليل  
بالطريق فيانماهم سائرون إذ قامت كرة ودهشة فانهم زموا في ظلام الليل من  
غير لقاء العدو ولا قتال فرجعوا مهزومين مفلولين الى محلتهم فباتوا يئسهم  
تلك فن غدأتهم الخبر ان العدو استخلص مدينة باش فسقط في أيديهم  
وانهم زموا من غير قتال ومر كل أحد الى وطنه

وقصد الامير محمد بن سعد غرناطة فأخبر في طريقه ان غرناطة قامت  
بدعوة ابن اخيه محمد بن علي ودخل البلد وماكه وقتل القواد الذين كانوا  
بالبلد يقائلونه فلما سمع عمه الامير محمد بن سعد ذلك رجع الى عقبه (٢)  
يريد البشرية فسار بمن هنالك الى وادي آش فدخاها بمن معه وكان قيام أهل  
غرناطة بدعوة أمير البيازين محمد بن علي يوم الاحد الخامس من جمادى  
الاولى عام التاريخ المذكور قبل فدخل البلد ونزل في القصبة القديمة واستولى  
العدو دمره الله على باش يوم الجمعة العاشر من جمادى الاولى عام اثنين وتسعين  
(١) تكرر هذا في قوله والمنقول ربيع الآخر ويظهر ان قول المولدين ربيع الثاني من  
عصر المؤلف أو ما قبله «٢٥» انها يقال رجع أو نكص على عقبه وكتبه مصحح الطبع

وعمائة ولما استولى العدو دمره الله على بلش دخلت في ذمته جميع القرى التي تلي بلش وقرى جبل متميس وحصن قارش وخرج أهل بلش من بلادهم مؤمنين وحملوا ما قدروا على حمله من اموالهم وذلك بعد قتال شديد وحرب عظيم فمنهم من جوزه العدو الى أرض العدو ومنهم من اقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار الى ارض المسلمين التي بقيت بالانديلس

فلما استخلص العدو بلش وما حولها سار بمحلته نحو مدينة مالقة فنزل عليها وقاتلها قتالا شديداً وحصرها وأحاط بها من كل جانب ومكان برأ وبحراً فتحصن أهل مالقة ببلدهم واطهروا ما كان معهم من السلاح والعدة والانفاط وكان جملة من نجدة الرجال فقاتلوا الروم قتالاً شديداً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً والعدو يفتح عليهم ابواباً من الحرب والحيل والمسلمون يحرسون بلادهم ويغالبون عدوهم ويقتلون من قرب اليهم وهم صابرون محتسبون مدة طويلة حتى ضيق عليهم ودور على المدينة سوراً من تراب وسوراً من خشب وحقيراً مانعاً عنهم الداخل والخارج في البر ومنع أيضاً في البحر بالمراكب الداخل والخارج وشد عليهم القتال والحصار وهم مع ذلك صابرون محتسبون ويقاتلون اشد القتال ويمنعون ولا يظهرون جزعاً ولا هلعاً ولا يطمعون العدو في شيء مما يرويه منهم حتى نفذ ما عندهم من الاطعمة والزاد وأكلوا ما كان معهم من المواشي من خيل وبنغال وحمير وكلاب والجلود وورق الشجر وغير ذلك من الاشياء التي يمكن أكلها حتى فني ذلك كله وأثر فيهم الجوع أثر أعظماً ومات كثير من نجدة ( ١ )

« ١ » أي من أنجاد رجالهم وجم نجدة على نجدة لم أجده وانما جمع نجد بمعنى شجاع على أنجاد وان كان المفرد هو النجيد فتجمع على نجد بضم نين ونجداء ولعله أراد بنجدة جمع ناجد فأجراها مجرى فاعل وفعله

رجالهم الذين كانوا يوالون الحرب والقنال فحينئذ اذعنوا وطلبوا الامان فاحتال عليهم العدو حتى دخل البلد بمكر ومكيدة وأسرهم وسبي نساءهم وأولادهم واخنوي على جميع أوالهم وفرقهم على أهل دخلته وقواده وكان مصابهم مصابا عظيما تحزن له القلوب وتذهل له النفوس وتبكي لمصابهم العيون فاننا لله واناليه راجعون

وكان استيلاء العدو على مدينة مالقة في أواخر شعبان عام اثنين وتسعين وثمانمائة فحين خلصت للعدو دمره الله مدينة مالقة وبلش وجميم الغربية ولم يبق للمسلمين في تلك الناحية موضع واحد ارتحل الى بلاده من قشتالة وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج نحو حصون الشرقية وكانت في صاحبه فاستولى على تلك الحصون كلها غدرًا ومكرًا من غير قتال ولا حصار ولا تعب وصارت جميع حصون الشرقية في قبضته وتحت ايلته ثم رجع الى بلاده من قشتالة

وفي شهر رجب سنة اربع وتسعين وثمانمائة خرج العدو دمره الله بجلبه وعدته وقصد نحو حصن موجر فحاصره وقتله قتالا شديداً أياما قلائل فاستولى عليه واستولى أيضا على الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة وقصد مدينة بسطة فنزل قريبا منها فوجد بلدا مقيما بالخيل والرجال والعدة والطعام فكما قرب من البلد وأراد قتال المسلمين رجع خائبا خاسرا وقتل خلق منه كثير ولم يقدر يمنع داخلها وخارجها كما فعل بغيرها من المدن وكان يدخلها كل من جاءها من نجدة الرجال فبقي محاذيا لها شهر رجب وشعبان ورمضان والمسلمون قائلون ببلدهم غالبون لعدوهم فكما أراد العدو من البلد قومه ووردوه على عقبه خائبا خاسرا لم يقدر على نصب نبط ولا عدة من آلة

خزبه فلما كان شهر شوال شد عليهم الحصار وعمل على البلد سودا من خشب  
وحفيرا عظيما وجعل على ذلك الرجال والحراس لئلا يدخل داخل من انجاد  
الرجال الذين يأتون لنصرتهم واعانتهم على عدوهم ولا من يجلب لهم الطعام ولم  
يمبأ المسلمون بما صنع بخر جوز من النقب ويهبطون من على الاسوار ويقتلونهم  
في محلتهم في مسلك يسلكونه حتى قتلوا منهم خلقا كثيرا ويحملون المسلمين  
الواردين بخيلهم واسلحتهم وأمتعتهم كما شرط عليه قواد البلد فساروا الى  
مدينة وادي آش وأخلوا البلد للنصارى وخرجوا الى الارياض بما معهم  
من أموالهم وأمتعتهم مؤمنين ولم يتركوا شيئا الا شقف (١) البلد خاصة  
ثم أن ملك الروم دبره الله جعل في البلد قائدا من قواده وحاكما ورتبه  
وأشحنه بما يحتاج اليه من أطعمة وزاد وآلة حرب وارتحل من بسطة  
يريد مدينة المربة فلم يمر على حصن دلا قرية إلا ودخل في ذمته وتحت  
طاعته من غير قتال ولا حصار

ثم خرج الامير محمد بن سعد من مدينة وادي آش تابعا لصاحب  
قشتالة فلما لحته بايمه وأدخل في ذمته وتحت طاعته على أن يعطيه مدينة  
وادي آش وكل مدينة وحصن وقرية كانت تحت طاعته وملكه فاجابه  
الى مطلبه ورجع معه الى وادي آش وهو فرح مسرورا فدخلها العدو  
وقبض قصبتها واسترلى عليها في العشر الاول من شهر صفر عام خمسة  
وتسعين وثمانمائة ودخل في ذمته جميع فرسان الامير محمد بن سعد وجميع  
قواده وصاروا له عونا على المسلمين وطروعا له جميع البلاد والقرى والحصون  
التي كانت تحت طاعته من مدينة المربة الى مدينة المنكب الى قرية البذول

فقبض صاحب قشتالة ذلك كله من غير قتال ولا حصار ولا تمب ولا نصب فاننا لله رأنا اليه راجعون وجمعنا في كل قصبه قائداً نصرانياً مع جماعة من النصارى يحكم أهل ذلك الموضع وفي هذا الشهر المذكور خلاصت جميع بلاد الأندلس لصاحب قشتالة ودخلت تحت طاعته وتدجن (١) جميع أهلها ولم يبق للمسلمين في الأندلس غير مدينة غرناطة وما حولها من القرى خاصة وزعم كثير من الناس أن الأمير محمد بن سعد وقواده باعوا من صاحب قشتالة هذه البلاد والقرى التي كانت تحت طاعتهم وقبضوا منه ثمنها وذلك على وجه الفرصة والانتقام من ولد أخيه محمد بن علي وقواده لأنهم كانوا في غرناطة ولم يكن تحت طاعتهم غير غرناطة وكان في صلاح العدو فاراد بذلك قطع علائق غرناطة لنهك كما هلك غيرها

فلما صارت هذه البلاد كلها تحت ذمة العدو ولم يبق لصاحب قشتالة سوى غرناطة التي هي في صلاحه ورأى أن الإسلام دثر من جميع بلاد الأندلس وقع طاعته وتفض ما كان بينه وبين صاحب غرناطة محمد بن علي من الصلح (٢) فاخذ برج ملاحه غرناطة وبرج قرية همدان وكانا برجين كبيرين حصينين فزادهما تحصناً وتمنيماً وأشحنهما بالرجال وما يحتاج اليه من آلة الحرب ليضيق على أهل غرناطة لأنهم كانوا قريبين منها فضيق بذلك عليها أشد الضيق

« ١ » معلوم أن المدجنين هم المسلمون الذين دخلوا تحت حكم النصارى في الأندلس وقد اشتق المؤلف منه فعل تدجن  
« ٢ » ما أشبه الليلة بالبارحة وما أقرب هذه الأفعال من سياسة الدول المستعمرة اليوم في اغرائها أحد امراء الإسلام بقتال جاره حتى إذا قضت وطرها من جاره قلبت مظهر المجن لهذا الذي كان يظن أنها حالفته



وفي هذه السنة وهي سنة خمس وتسعين وثمانمائة بعث ملك  
النصارى الى صاحب غرناطة محمد بن علي يسأله أن يعطيه مدينة الحمراء  
من غرناطة ويترك للا مير محمد المذكور سائر البلد والدخول في ذمته كما  
دخل فيها سائر الاندلس وظن أن ذلك يتم له فاطمعه الامير محمد بن علي  
في ذلك فخرج صاحب قشتالة مسروراً بمحلته لقبض مدينة الحمراء غرناطة  
ولانزهة فيها وخرج معه النساء والصبيان بقصد انزهة ولم يظن أن في  
مدينة غرناطة مدافعاً له ولا مقاتلاً ولا ممانداً

حين وصل خبر خروج صاحب قشتالة وأنه قادم على غرناطة حسبما  
ذكر جمع أمير غرناطة خاصته وعامته وأخبرهم برأده وما طلب منه وإنما  
خروجه ليدخل البلد على الصفة المذكورة واستشارهم في ذلك فاجتمعوا على قتاله  
ومدافعتهم عنهم بما أمكنهم حتى يفتح الله عليهم أو يهلكوا عن آخرهم وتعاهدوا  
مع أميرهم أن يكونوا أبدأً واحدة على قتال عدوهم فباع ملك النصارى مقالمتهم  
وهما اتفقوا عليه فساء ذلك وغمه جمع جميع جيوشه ونزل بمحلاته صرح غرناطة  
وجعل يقطع الطرق ويفسد الزرع وغيره فخرج اليه فرسان المسلمين من أهل  
غرناطة يقدمهم القواد برز الامير مع الرجال قريبا من البلدة لولوبهم واثقة بالله  
يسألون من الله سبحانه النصر والمعونة على عدوهم وخرج مع ملك الروم في محلاته  
جماعة من المرتدين الداخلين في ذمته من أهل الحصون والقري والمدن (١)  
يدلون على عورات المسلمين ويحرضونه على قتالهم وكان خروج الروم في أول  
رجب من سنة التاريخ فكما أرادوا الدنوم من البلد وفتحوا الكرب باباردهم الله

«١» قد ورد فيما نقلناه عن تواريخ النمر نجة وعن المقرئ طرف من خبر هؤلاء

المرتدين

على أدبارهم مهزومين . فلولين بنصر الله ومعونته وفرسان المسلمين صابرون  
محتسبون حتى قتلوا من الروم خلقا كثيرا فإلما عين ملك الروم انه لا طاقة له بالذنو  
من غرناطة وان بها حامة من الارسان والرجال ممنوعوها من كل جهة ومكان  
وايدهم الله بعزيز نصره ولم يتركوه يجذف فيها فرصة ارتحل عنها بعض ابناءه من  
الغيظ وذلك في النصف من شهر رجب عام تاريخه رهدم برج غويو وزاد  
اشحانا للبرج من المرتدين أهل القرية وشرذمة أخرى من النصارى وشيا  
كثيرا من الطعام والعدة وآلة الحرب وعمر أيضا برج الملاحاة وشحنه  
بمثل ذلك ورحل إلى بلاده من قشتالة فبعد ارتحاله بايام قلائل خرج أهل  
غرناطة مع أميرهم محمد بن على إلى قرية البذول وقاتلوا من بهام من النصارى  
والمرتدين حتى فتحها الله تعالى ودخلوها عنوة وفتح الله ذلك الالميم  
كاه ودخل في ذمة المسلمين فرجم أهل غرناطة إلى بلادهم فرحين  
مستبشرين بنصر الله تعالى (١) فبعد وصولهم وردت عليهم ارسال من  
قبل قرى البشيرة يطلبون من الامير محمد أن يقدم عليهم بجيش المسلمين  
ليدخلوا في ذمته فخرج اليهم من غرناطة في بقية رجب المذكور بجماعة  
المسلمين من أهل غرناطة فتمصد قرية الانجرون من قرى البشيرة  
فتزل هنالك وانجلي من كان هنالك من النصارى والمرتدين

فلما كان شهر شعبان من سنة التاريخ بعث من بالبشيرة إلى الامير  
بغرناطة يعلمه ان هذه الجهات التي بقيت مع النصارى بعثوا أن يقدم الامير

(١) وترك الامير وزيره بجماعة انجاد الفرسان يقاقل من بقي . . . من

النصارى والمرتدين . اه من حاشية الاصل المطبوع

محمد بن علي عليهم ليدخلوا في ذمته فبرح (١) الامير على أهل نهمدة فرسان  
غرناطة وخرج بهم في العشر الاول من عام التاريخ يريد البشرية فقصده حصن  
اندرش وكان به الامير محمد بن سعد وجماعة المرتدين فلما سمع بقدم  
الامير محمد بن علي بجيش أهل غرناطة خرج بمن معه من المرتدين هاربا  
مهموما الى مدينة المرية ورجع كثير ممن كان معه الى المسلمين ودخل أمير  
غرناطة بمحلته حصن اندرش وارجعت تلك الجهات كلها الى الاسلام كما  
كانت أولا من غير حرب ولا قتال وسمع من كان ببرجة ودليل بذلك  
فهربوا ورجعت ايضا تلك الجهات كلها الى المسلمين فرتب الامير محمد بن  
على هناك قوادا وفرسانا وارتحل نحو غرناطة فدخاها في نصف من شعبان  
عام خمسة وتسعين وثمانمائة بمن معه من جيوش المسلمين وعاليتهم فرحين  
مستبشرين بنصر الله تعالى وتأيدته

فلما كان العشر الاول من شهر رمضان عام التاريخ أتت طائفة من  
المرتدين والنصارى فغابوا على حصن اندرش فلما كود وفر منه من كان به  
من فرسان المسلمين لانهم كانوا شرذمة قليلة واتاهم مالا طافة لهم به وفي  
السادس من شهر رمضان عام التاريخ خرج ملك غرناطة بمحلته نحو قرية  
همدان يريد فتحها وأمر باخراج العدة وآلة الحرب وكان بالقرية المذكورة  
جماعة من فرسان النصارى دمرهم الله والمرتدين من أهل القرية وكان  
ملك النصارى بنى حول برجها بنيانا عظيما منيعا بأنواع من بناء الحرب  
وخذعته وحصن برجها تحصينا منيعا وأشحنه بكثير من الطعام وآلة

(١) أهل المغرب يستعملون رح عليه بمعنى نادى وهو من البراح بمعنى

الامر البين والجر

الحرب والمنعة يظهر لمن رآه أن لا طاقة لاحد بأخذه لما يراه من تشييد  
بنائه وتحصينه وتشعب أسواره وظن أهل غرناطة أنهم لا طاقة لهم  
بأخذ ذلك ولا فتحه فحين نزل أهل غرناطة مع اميرهم بقرية همدان فتحصن (١)  
من بها من الصارى والمرتين بحصنهم ودارت بهم جيوش المسلمين من  
كل جانب بالقتال الشديد حتى قربوا من السور الاول فجعلت كل طائفة  
من المسلمين تقبا حتى دخلوا معهم في الحزام الاول ثم في الثاني ثم في الحزام  
الثالث حتى الجئوم الى داخل البرج وذلك بعد محاربة وقتال شديد  
واستشهد فيه جماعة من المسلمين رحمهم الله تعالى فحين وصل المسلمون الى  
أصل البرج أخذوا في تقبه فجعلوا ينقبون ويدعمون بالخشب الى أن تقبوا  
فيه تقبا كثيرا فلما رأى من في البرج أن النقب قد كثر خافوا من اهدام (٢)  
البرج عليهم ويهلكوا (٣) فاعطوا البرج واذعنوا للاسر فأسروا عن آخرهم  
ومن معهم من المرتدين واحتوى المسلمون على ما كان في البرج من الطعام  
والعدة والاموال ونحو مائة وثمانين أسيراً

ثم أقبل الامير بمحطته راجعاً الى غرناطة في اليوم الحادي عشر  
لرمضان المعظم عام التاريخ وفرح المسلمون بما منحهم الله وفتح عليهم فرحاً  
شديداً فأقام الامير بها الى الثامن عشر من رمضان المذكور عام التاريخ  
ثم نأى مناديه في كافة أهل غرناطة من خاص وعام وكبيرهم وصغيرهم

١٥ « كذا ولعل أصله تحصن لانه متعلق حين وما بعد ان ولا يمل فيما قبلها ، اه

مصصح الطبع

(٢) يقال هدم البناء وهدمه بالنشديد ولم ينقل وأهدمه فلعله تحريف (٣) وفي

نسخة ويهلكون

أمرهم بالاستعداد والخروج الى مدينة المنكب يريد فتحها فخرج بعد صلاة الجمعة من ذلك اليوم بمحلتهم فجاز على قرية البذول فأمر بهدم برجها ثم سار نحو الساحل فاجتاز حصن شلوبانية فتحصن من بها من النصارى والمرتدين بمحصنهم وقاتلوا المسلمين فزحفت اليهم جموع المسلمين وقاتلهم قتلاً شديداً حتى دخلوا الحصن والجثوم الى القصبه فتحصنوا بها ودار بهم المسلمون من كل جانب ومنعوا لهم (١) الماء وضيقوا عليهم في الحصار حتى نفدت الخيل والدواب من شدة ما لحقهم من العطش فأقام عليهم المسلمون بقية رمضان وهم طامعون في فتح الحصن واذا بخبر جاء الامير أن طائفة الروم خارج بمحلتهم نحوهم يريد غرناطة في ثالث شوال عام تاريخه فأقاموا بها نحو ثلاثة أيام أو أربعة واذا بملك النصارى أقبل بمحلتهم ونزل مرج غرناطة ومعه طائفة من المرتدين والمدجنين يدونهم على عورات المسلمين ويعينونهم عليهم فجعلوا يقطعون الذرة والكرمات ويفسدونهم والمسلمون على قلتهم وضعفهم صابرون على القتال محتسبون لله تعالى يقتلون من الكفار خلقاً كثيراً حتى منعوهم عن فساد كثير من الذرة والكرمات التي بالفحص (٢) فأقام نازلاً عليهم نحو ثمانية أيام وأمر باخلاء برج الملاحه وبرج رومة وهدمها وارتمل يريد بلاد قشتالة فر في سيره على برج اللوزات فأمر بهدمه ثم انطلق الى مدينة وادي آش فاخرج من كان بها من المدجنين ولم يترك بها ولا في ارباضها أحداً منهم فخرجوا من مدينتهم

«١» لعل أصله ومنعوه فانه يقال منعه الشيء ومنعه منه وعنه . اهـ مصحح الطبع

(٢) الفحص الرض

أذلة صاغرين ففرقوا على القرى وأمر بهدم قصبة أندرش وثقل (١)  
أولئك المرتدون الذين كانوا بها وأميرهم محمد بن سعد ولم يبق لهم عند  
صاحب قشالة جاه ولا حظوة فمنهم من جاز مع الأمير محمد بن سعد لعدوة  
وهران ومنهم من رجع إلى المسلمين ومنهم من أقام مع النصارى

تم ارتحل ملك الروم إلى داخل بلاده لأمر مهم حدث له هنالك وفي  
أواخر شوال تغلب المسلمون على أندرش وما يليها ودخلت في ذمة المسلمين  
ثم صار المسلمون إلى حصن مرشانة فحاصروا من كان بها من النصارى وقتلوه  
حتى نزلوا للأسر واسترجعت تلك المواضع والجملات للمسلمين فلما رأى  
أهل قرية فزيلة استرجاع من جاورهم الإسلام أرادوا القيام على من في  
قصبتها من النصارى فخادهم النصارى بالكلام وبعثوا إلى صاحب وادي  
آش فقدم عليهم بمن معه من النصارى فأحاط بقريتهم من كل جانب  
ومكان وقتلوه قتالا شديداً ودخلوا عليهم القرية وهبط من كان في  
القصبة من النصارى وقتلوا كثيراً من رجال المسلمين واستولى النصارى  
على جميع ما كان بالقرية من الرجال والنساء والصبيان والأموال وساروا  
بهم إلى داخل بلادهم مأسورين

فلما رأى أهل قرية سند وادي آش ما اتفق لأهل قرية فزيانة خافوا  
أن يتفق لهم كذلك فبعثوا الأمير غرناطة يستنصرونه ويطلبون منه أن يسير  
إليهم بأهل غرناطة وديارهم فيرفعون ما معهم من الامتعة والأموال والزرع  
وغير ذلك فخرج إليهم أمير غرناطة بأهل البلد في الثالث عشر لذي القعدة

(١) ثقل القوم انكسروا وفي لغة العامة بالشم تفرقوا. وفي اللسان

وقيل القوم يغلبهم فلا هزمهم فانقلوا وتقللوا، وهم قوم قل : منهزمون

عام التاريخ يريد انصرتهم ورفعهم من قراهم فنزل بقربة ونجر فاقام بعض ايام  
ثم ارتحل من قرية ونجر الى قرية شريش من قرى وادي آس فنزل  
هنالك واقام بها نحو ثمانية ايام وبعث لدواب غرناطة وما يليها من القرى  
وصاروا ينقلون الزرع من قرى وادي آس ويحملونه الى غرناطة فحملوا  
منه زرعاً كثيراً الى غرناطة وونجر وأمر الامير محمد بن علي باخلاء تلك  
القرى واربحالهم عن آخر عم باهاتهم ونسائهم وصبيانهم وما قدروا على حمله  
من أموالهم وزرعهم ومواشيهم وكان في تلك القرى من القمح والشعير  
والذرة شيء كثير لا يطاق على وصفه فيبلغ الامير محمد بن علي أن النصارى  
دمروهم الله قد جمعوا له فارتحل من قرية شريش راجعاً الى قرية ونجر  
ثم دخل غرناطة آخر النهار في الثالث والعشرين لذي القعدة عام تاريخه  
ثم ان النصارى دمرهم الله لما رأوا أهل تلك القرى قد فروا بانفسهم الى  
أرض المسلمين واخلوا قراهم (أظهروا لهم الامان من رجوع الى قريته أمن  
فرجم كثير الى قراهم) وركنوا الى قول النصارى ودخلوا في ذمتهم ولم  
يزالوا يرجعون الى مواضعهم حتى لم يبق منهم في أرض المسلمين الا القليل  
وفي الثاني عشر لجمادى الآخرة عام ستة وتسعين وثمانمائة خرج ملك  
قشتالة بمحلاته الى خص غرناطة وكان ذلك بموافقة العشر الآخرة من شهر  
أبريل المجي والزرع أخضر فافسدوا زرعها ودوخوا أرضها وهدموا  
قراها ثم سار الى قرى الاقليم فافسد زرعها وهدم قراها وقتل ناساً وأسرى  
آخرين وعاد الى خص غرناطة ونزل بمحلاته بقربة عتقة ثم شرع في البناء  
هنالك مسوراً (١) كبيراً في ايام فلائل وسماه شنتني وصار يهدم القرى ويأخذ  
(١) ضبط بفتح الميم مشددة ولامه مفعول لعل سقط من النسخ أي فبنى مسوراً

ما فيها من آلة البناء ويجمعه على العجل (١) ويحمله الى ذلك البلد الذي بني  
ويعني به وهو مع ذلك يقاتل المسلمين ويقاتلونه قتالاً شديداً وحارب ملك  
الروم أبراج القرى الدائرة بقرنطرة وأخذها ولم يبق عليه الاقرية الفخار  
فلم يزل يلح عليها ويجلب عليها بخيله ورجله ويطمع أن يجذبها فرصة فلم  
يقدر على شيء حتى قتل له عليها خلق كثير من الروم ووقعت عليها ملاحم  
كثيرة بين المسلمين والنصارى لان المسلمين كانوا ياحزون على حمايتها خوفاً  
أن يملكها الروم فتكون سبباً لخلاء قرى الجبل واحصار البلد فلم يزالوا  
يدافعون عنها ويقتلون من قصدها حتى قصر عنها العدو لكثرة ما قتل  
له عليها من خيل ورجال

ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى كل يوم تارة في أرض  
الفخار وتارة في أرض بليانة وتارة في أرض رसानة وتارة في أرض طفير  
وتارة في أرض يسمور وتارة في أرض الجدوي وتارة في أرض رملة أفلوم  
وتارة في أرض الربيط وتارة في وادي مننتيل وغير ذلك من المواضع التي على  
قرنطرة وفي كل واحدة من هذه الملاحم أئمن ناس كثير من انجاد المسلمين  
بالجراحات ويستشهد آخرون ومن النصارى أضعاف ذلك والمسلمون في ذلك  
صابرون محتسبون وانقون بنصر الله تعالى يقاتلون عدوهم بنية صادقة وقلوب  
صافية ويمشي منهم لرجال في ظلام الليل لمحسلة النصارى ويتعرضون لهم في  
الطرقات فيغنمون ما وجدوا من خيل وبغال وحمير وبقروغنم ورجال وغير  
ذلك حتى صار اللحم بالبلد من كثرة رطل بدرهم ومع هذا لم تزل الحرب متصلة  
بين المسلمين والنصارى والقتل والجراحات فاشيان في الفريقين بسبمة أشهر



انى أن فنيت خيل المسلمين بالقتل ولم يبق منها الا القليل وفي أيضا كثير  
من نجد الرجال بالقتل والجراحات وفي هذه المدة المذكورة انجلى كثير  
من الناس الى بلاد البصرة لما نالهم من الجوع والخوف وكان الطريق للبصرة  
على جبل شامير وكان يأتي للبلد من البصرة على ذلك الطريق خير كثير من  
القمح والشعير والذرة والزيت والزبيب وغير ذلك من الفواكه والسلم  
وما زال حال البلدي ضعف ويقل من الطعام والرجال الى أن دخل شهر  
المحرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة ودخل فصل الشتاء والثلج نازل بالجبل وقطع  
الطريق من البصرة فقل الطعام عند ذلك في أسواق غرناطة واشتد الغلاء  
وأدرك الجوع كثيرا من الناس وكثر السؤال والسدوساكن في بلده  
ومحلته وقد منع الفحص كله ومنع المسلمين من الحرث والزراعة وقطع  
الحرب في هذه المدة بين الفريقين فاما دخل شهر صفر من عام التاريخ  
اشتد الحال على الناس بالجوع وقلة الطعام وأدرك الجوع كثيرا من الناس  
الموسرين فاجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة والفقهاء والامناء  
والاشياخ والعرفاء ومن بقي من انجاد الفرسان ومن له نظر بغرناطة وساروا  
الى أميرهم محمد بن علي فاسأموه بحال الناس وما هم عليه من ضعف وشدة  
الجوع وقلة الطعام وان يدهم لد كبير لا يقوم به طعام مجلوب فكيف  
ولم يجلب اليه شيء وان الطريق الذي كان يأتيهم عليه الطعام والفواكه من  
البصرة انقطع وان انجاد فرسانهم هلكوا وفتنوا ومن بقي اتخن بالجراحات  
وقد امتنع عنهم الطعام والزرع والحرث وان رجلاهم هلكوا في تلك الملامح  
واخواننا المسلمون من أهل عدوة الغرب لم يأتنا أحد منهم ولا عرج على  
نصرتنا واغاثتنا وعدونا قد بنى علينا وسكن معنا وهو يزداد قوة ونحن

تزداد ضعفها والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا وهذا فصل الشتاء قد دخل ومحنة عدونا قد تفرقت وضمفت وهو قد قطع عنا الحرب وان تكلمنا معه الآن قبل منا واعطانا كل ما نطلب منه وان بقينا حتي يدخل فصل الربيع تجتمع عليه جيوشه مع ما بلحقنا نحن من الضعف والقلة فان يقبل منا ما نطلبه منه ولا نأمن نحن على أنفسنا من الغلبة ولا على بلدنا فانه هرب من بلدنا ناس كثير يدلونه على عرراتنا ويستعين بهم علينا. فقال الامير محمد انظروا ما يظهر لكم وما تتفقون عليه من الرأي الذي فيه صلاحكم، فاتفق رأي الجميع من خاصة وعامة أن يبعثوا لملك الروم من يتكلم معه في أمرهم وأمر بلادهم، وزعم كثير من الناس ان أمير غرناطة ووزيره وقواده كان تقدم بينهم وبين ملك الروم النازل عليهم الكلام في اعطاء البلد الا انهم خافوا من العامة وكانوا يحتالون عليهم بلاطفونهم فحين أوهم بما أضروا عليه أغروهم من حينهم ولاجل ذلك قطع الحرب بينهم في تلك المدة المذكورة حتى وجدوا لذلك الكلام مسلكا مع العامة فلما بعثوا لملك الروم بذلك وجدوه راغبا فيه فأنعم لهم بجميع ما طلبوا منه وما شرطوا عليه

ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك الروم: يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبياهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرّمون الا الزكاة والعشر لمن اراد الإقامة ببلدة غرناطة، ومن اراد الخروج منها يبيع اصله بما يرضاه من الثمن لمن يريد من النصراني والمسلمين من غير غبن، ومن اراد الجواز لبلاد العدو بالغرب يبيع اصله ويحمل امتعته ويحمله في مراكبه الى اي ارض اراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة من ثلاث سنين، ومن اراد الإقامة من

المسلمين بغير ناطة فله الامان على نحو ما ذكر. وكتب لهم بذلك كتاباً وأخذوا عليه عهداً ومواثيق في دينه من غاظة على ان يوفي لهم بجميع ما شرطوه عليه فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على اهل غرناطة فلما سمعوا ما فيها اطمأنوا اليها وانقادوا لطاعته وكتبوا بيعتهم وارسلوها لملك الروم صاحب قشتالة وسماحوه في الدخول الى مدينة الحمراء والى غرناطة فعند ذلك امر امير غرناطة محمد بن علي باخلاء مدينة الحمراء فأخابت دورها وقصورها ومنازلها واقاموا ينتظرون دخول النصارى لقبضها فلما كان اليوم الثاني لربيع الاول عام سبعة وتسعين وثمانمائة اقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء واقام ببقية الجيوش خارج البلد لانه كان يخاف من الغدر وكان طلب من اهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهونا من اهل البلد ليطمئن بذلك فاعطوا خمسمائة رجل منهم واقعدهم بمحلته فحينئذ قدم كما ذكرنا فلما اطمأن من اهل البلد ولم ير منهم غدرًا سرح جنوده لدخول البلد والحمراء فدخل منهم خلق كثير وبقي هو خارج البلد واشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائداً من قواده وانصرف راجعاً الى محلته وبقي حينئذ يختلف بالدقيق والعارفات وأنواع الطعام والعدة وما يحتاج اليه وقدم في البلد قواداً وحكاماً وبوابين وما يحتاج اليه من الامور وصار المسلمون يختلفون الى المحلة للبيع والشراء والنصارى كذلك ولما سمع اهل البشارة ان اهل غرناطة دخات تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم الى ملك النصارى ودخلوا في ذمته ولم يبق للمسلمين موضع بالاندياس فانا لله وانا اليه راجعون

ثم إن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتين ومؤمنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين واقبل في جيوشه حين أطمأن فدخل مدينة الحمراء في بعض خواصه وبقي الجند خارج البلد وبقي يتنزه في الحمراء في القصور والمنازه المشيدة الى آخر النهار ثم خرج بجنوده وصار الى محلته فن غد أخذ في بناء الحمراء وتشبيدها وتحصينها واصلاح شأنها وفتح طرقها وهو مع ذلك يتردد الى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته فلم يزل كذلك الى ان اطمأنت نفسه من غدر المسلمين حينئذ دخل البلد ودار فيه في نصر من قومه وحشمه فلما اطمأن في البلد سرح لهم الجواز واتامهم بالمراب الى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يبيع جنانه وارض حرثه وكرمه وفدانه باقل من ثمن الغلة التي كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والامتعة، وأمرهم بالمسير الى الساحل بما معهم فبرفهم النصارى في البحر محترمين مكرمين مؤمنين وكان ملك الروم قد أظهر للمسلمين في هذه المدة العناية والاحترام حتى كان النصارى يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ملكنا عز وأكرم مناء، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيداً ليقهرهم بذلك وليثبطهم عن الجواز، فوقع الطمع الكثير من الناس وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالاً رخيصة وامتعة وعزوا على الجلوس مع النصارى ثم إن ملك الروم أمر الامير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة الى بقرية اندرش من قرى البشيرة فارتحل الامير محمد بعياله وحشمه وأمواله

وابتاعه فنزل قرية اندرش وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ، ثم ان الطاغية ظهر له أن يصرف الامير محمدا الى العدو فامر به بالجواز وبعث للمراكب تأتي لمربي عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الامير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصارى وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة العرب ثم ارتحل الى مدينة فاس حرسها الله ، وكان من قدر الله تعالى لما جاز الامير محمد بن علي وصار بمدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء وجوع وطاعون واشتد الامر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الامر ورجع بعض ناس من الذين جازوا الى الاندلس فاخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الإقامة والدجن ولم يجوز النصارى أحداً بعد ذلك الا بالكراء والمنعم وعشر الممال

فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا ( ١ ) الى ان نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين وادركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم وقطم لهم الاذان من الصوامع وامرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارباض والقرى فخرجوا اذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم الى التنصروا كرههم عليه وذلك سنة اربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ، ( ١ ) وهذه أيضا من الامور التي لها نظائر كثيرة في تاريخ الاستعمار .

وجعلت الزواقيس في صوامعها بعد الاذان، وفي مساجدها الصور والصلبان،  
بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم  
فيها من الضعفاء والمعدورين، لم يقدروا على الهجرة والاحق باخوانهم  
المسلمين، قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون  
اولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للاوثان، وياكلون الخنزير  
والميتات، ويشربون الخمر التي هي آثم الخبائث والمنكرات، فلا يقدر  
على منهم، ولا على نهيم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد  
العقاب، وعذب بأشد العذاب، فيألفها من فجعة ما أمرها، ومصيبة  
ما أعظمها، وطامة ما أكبرها، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجاً  
ومخرجاً انه على كل شيء قدير

وقد كان بعض أهل الاندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن  
يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية ونجر والبشرة وأندرش ربانيق فجمع  
عليهم ملك الروم جموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد  
قتال شديد قتل رجالهم وسبي نساءهم وصبياهم وأموالهم، ونصرهم واستعبدهم،  
الآن ناسا في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا الى جبل وعر  
منيع فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتمحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم  
جموعه وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم  
خيبت الله سمعهم وردده على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقا كثيرا  
من رجال وفرسان وأقناد.

فلما رأى انه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطيهم الامان ويجوزهم  
لعدوة الغرب مؤمنين فانعموا له ذلك الا أنه لا يسرح لهم شيئا من

أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة الغرب كما شرطوا  
عليه ، ولم يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع  
القرى والبلدان ؛ وانظف من الاندلس الاسلام والايمان ، فعلى هذا  
قلبك الباكون وينتحب المنتحبون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، كان ذلك  
في الكتاب مسطوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، لا راد لامره ، ولا  
قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه  
وسلم تسليماً الي يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين

نجز كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة

بني نصر يوم الثلاثاء الرابع

والعشرين من جمادي

الثانية من

عام ٩٤٧



# اثارة تاريخية

في

أربعة مراسيم سلطانية

صادرة

عن أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الاحمر

الى بعض فرسان الاسبانيول وزعمائهم

بين سنتي ١٤٧٠ و ١٤٧٥

طبعت عن نسخة مطبوعة بباريس سنة ١٨٦٣



## المرسوم الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً من عبد الله أمير  
المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الامير  
المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي عبد الله  
ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيده الله  
بنصره، وأمه بيسره، إلى الفارسين المكرمين الزعيمة الحسينيين المشكورين  
الوفيين ذون دياقه هراس المرشكال ومرتين الهنشه ذي منت ميون  
صاحب لقبذيق أكرمهما الله بتقواه، وأسعدهما بهداه، سلام يراجع سلامكم  
كثيراً أثيراً، كتبنا اليكم من حراثنا الملية بفرناطة حرسها الله عن الخير  
والعافية والحمد لله

وإلى هذا فاعلموا أيها الفارسان المكرمان انه وصل كتابكم وفهمنا جميع  
ما ذكرتم فيه فشكرنا تعريفكم وقصدكم وأثنيتم على محبتكم وودتكم وشكرناكم  
على وصولكم للقبيذيق، على إظهار المحبة التي لاشك فيها فأنتم - علم الله - عندنا  
من أحبائنا الأوفياء، وأصدقائنا الأصفياء، وبسبب انه وصلنا التعريف  
ان ذون الهنشه والفارسان جازوا على توجه وزيره قاءنا الجهة وادي آش ولأجل  
انه توجه سريعاً ولم يصح عندنا من الاخبار شيء بصحيح ما عرفكم بشيء  
فتريدكم ان لا تزالوا تعرفونا بما يزيد عندكم وكذلك نحن نعرفكم بما يزيد  
عندنا، وجميع حوائجكم عندنا. قضية والله يعمل كرامتكم بتقواه  
كتب في (الناشم) عشر لربيع الاول عام خمسة وسبعين وثمانى ما (يه) صح هذا

## بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. ليعلم من يقف على هذا  
المكتوب الكريم أو يسمعه أننا عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا  
أمير المسلمين أبي النصر ابن الأمير المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين  
أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن  
أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيدنا الله بنصره... وأمدنا يسره...

كان بيننا وبين الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور الأوفى ذون  
دياقه هرندس ذي قرطبة قندقبره بن قندحصن اشرو صاحب بيانه وقائد القلعة  
والفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور مرتين الهنشه ذي منت ميور  
صاحب القبديق والفارس المكرم الحسيب الزعيم المشكور بينغش بينغش  
صاحب لك والبندين اكرهمم الله بتقواه صالح ثابت، ومحبة صادقة، ومودة  
خالصة، منعقدة لا مدم معلوم، ولا جل أن هذه المحبة التي بين مقامنا وبين  
الفرسان المذكورين هي تزداد في كل يوم وفي كل حين ونحن نريد أن تزيد أكثر  
من ذلك وأنا نجددها الآن، وان ندخل في الصلح والمحبة الفرسان المكرمين  
بينغش بينغش صاحب لك والبندين وذون دياقه هرندس المرشكال بقشالة  
والوزير الكبير بقرطبة وذون مرتين قنددور استبه اول القند ذي قبره  
فلاجل ذلك تعلمون ايها الفرسان المكرمون والاحباب المشكورون ذون  
دياقه هرندس ذي قرطبة قندقبره بن قندحصن اشرو صاحب بيانه وقائد

القلمة ومرتين الهنشه ذي بنت بيور صاحب القبديق ويغش بنيغش صاحب لك والبندين وذون دياقه هر ندىس المرشكال بهشتالة الوزير الكبير بقرطبة وذون مرتين قند دور استبة اكرمكم الله بتقواه ان مة امنا الكريم يعقد ويجدد معكم صلحا صحيحا ر محبة ثابتة خالصة لهذه من عشرة اعوام اعجمية متواليه يكون اولها اول يوم من شهر ينير الاعجمي مفتتح عام اثنين وسبعين واربعمئة والى لتاريخ المسيح ويكون ثامها آخر يوم من شهر ذجنسبر الاعجمي عام احد وثمانين واربعمئة والى لتاريخ المسيح المذكور على ان نكون احباب احبابكم واعداً اعدائكم وان ندينكم في جميع الامور التي تحتاجون اليها في وطنكم بقدر جهدنا على جميع اعدائكم من اى صنف كانوا للامدة التي تريدونها وفي الوقت الذي تعرفونا بحاجتكم في الالة او توجهوا رسواكم في طلب ذلك نعينكم بقدر جهدنا، وكذلك نعرفكم ايها الفرسان المكرمون بجميع ما نلتمه او نتعرفه من سر أو غيره مما لا يكمل لحرمتكم نروكم بذلك سريعا مع رسول صادق معروف لاجل ان تجعلوا خلاصا في ارضكم قبل وقوع الفساد، واذا نيز ضررا لجهتكم نجتهد في تبعيده عنكم، وان ميزنا فائدة أو مصلحة لجهتكم نجتهد في تنزيها لكم، ونحفظ المودة والصحة المنعقدة بيننا وبينكم في الاقول والافعال ، واعلوا ايها الفرسان المكرمون المذكورون ان اولادنا الامراء اسعدهم الله يحفظون لكم هذا الصالح وهذه المحبة والصحة، لئلا نحفظ ان نحن بخاصة مقامنا الكريم فانكم من اجل احبابنا الاوفياء، واصدقائنا الاصفياء، ومن اهل رأينا الكبراء، بخانبيكم عندنا محفوظ ومحبتكم صعبة ثابتة، لا نشك في صدق محبتكم ولا في خلوص مودتكم، ونحن نعهدكم على صحة جميع ما ذكرنا

لكم ونحافظكم بالله الواحد الحق على أن كل ما ذكرنا لكم نوفي به ونحفظه  
ونحرمه بالقدر والوفاء في كل وقت من غير غدر ومن غير خداع .  
ولأنجل أن يكون هذا العقد صحيحا وثابتا ختمناه بعلامتنا السعيدة  
الصادرة من يدينا الكريمة وجعلنا عليها طابعنا العزيز المعروف عن مقامنا  
الكريم . في أوائل رجب الفرد المبارك عام ستة وسبعين وثمانمائة عرف  
الله بحكمته . صح هذا

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . من عبد الله  
أمير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الأمير  
المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي  
عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر ،  
أيده الله بنصره ، وأمدده بإسره ، إلى الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور  
الأوفي دون دياقه هرندس ذي قرطبة قند قبره بن قند حصن أشرف صاحب  
بيانه وقائد البلعة أكرمه الله بتقواه وأسده بهداه

سلام راجع سلامكم كثيرا كثيرا كتبنا اليكم من الجراء العلية بفرناطة  
حرسه الله عن الخير والنافية ولحمد لله وإلى هذا فاعلموا أيها الفارس المكرم  
والقند المرفع . وصلنا كتابكم صحبة القائد جوان يناذه واسنوفينا  
ما ذكرتم فيه وأمرنا وزير مقامنا الكريم أسده الله أن يتحدث معه ويقرر

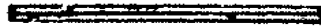
له قصد مقامنا العلي أعلاه الله حسبا يخبركم به وما ذكرتموه عن وجهتكم  
وسفركم لسلطان قشتالة صديقنا أكرمه الله بتقواه فاذا صاحتكم في ذلك  
فتوجهوا ان شاء (الله) بالسلامة واعلموا أيها القند المرفع أن حبيبتنا وولدكم  
المرشكال أكرمهم الله بتقواه وأرضكم تكون منا ببال وما يعاملهم الا ما يرضيهم  
والذي وقع ما وقع الا بأسباب يقررها لكم المذكور ولا نشك ان فرساننا  
اخطأوا في بعض ما نضر ولا كن محبتكم عندنا معلومة فلا تشكوا في ذلك  
ولا تمتدوا خلافة ، ويريد منكم ان توصوا اهل القلعة ان لا يخرجوا  
عن الواجب وكل مالكم من الحوائج نعمل فيها ما يرضيكم ، والله يعمل  
كرامتكم بتقواه

كتب في الرابع والشرين من الربيع الاول عام ثمانين وثمانين ما به ،

صح هذا

Adresse au verso :

الفارس المكرم الزعيم الحسين الاوفي  
نون دياقه هرندس ذى قرطبة قند قبره  
بن قند حصن أشر صاحب بيانه وقائد القلعة  
أكرمهم الله بتقواه



بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من عبد الله  
امير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا امير المسلمين ابي النصر ابن الامير  
المقدس ابي الحسن ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين ابي عبد الله  
ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين ابي الوليد بن نصر ايداه  
الله بنصره وأمداه بيسره الى النارسين المكرمين الزعيمين المشكورين  
الوفيين الاحبين ذوق دياقه هرندس المرشكال بقشتالة ومرتين الهنشه  
ذي منت ميور صاحب القبذيق أكرمهما الله بتقواه، ووفقهما بهداه سلام  
يراجع سلامكم كثيرا أثيرا كتبنا اليكم من الخراء العلية بفرناطة حرسها  
الله عن الخير والعافية والحمد لله والى هذا فاعلموا أيها الفرسان المكرمون  
انه وصلنا كتابكم واستوفينا ما ذكرتم فيه فشكرنا قصدكم ومحبتكم  
والامان الذي طالبتموه بعمالكم كرامة لكم وقد أمرنا وزير مقامنا العلي  
أسعده الله بكتب لكم بالفا حسبما يعملكم فاعلموا هذا وكل ما لكم من  
الحوائج نعمل فيها ما يرضيكم والله يعمل كرامتكم بتقواه وكتب في  
الرابع عشر لجمادى الآخرة عام ثمانين وثمانى مائة، صحح هذا ما

adresse au verso :

الفارسان المكرمان الزعيمان

ذوق دياقه هرندس المرشكال ومرتين الهنشه

ذي منت ميور صاحب القبذيق أكرمهما الله بتقواه

## التعريف بكتاب

أخبار العصر في انتشاء دجلة في نصر

والمراسيم الاربعة التي تليه

بينما نحن في تجديد طبعم هذا الكتاب « آخر بنى سراج » مع ذيله في أخبار  
الانداس لاسيا حادثة سقوط غرناطة اذ ظمنا بنسخة من كتاب « أخبار  
العصر في أخبار دولة بنى نصر » مطبوعاً بمدينة منيخ عاصمة بافاريا سنة ١٨٦٢  
وقد غنى بطبعها وتعليق بعض حواش عليها ونشر ترجمة ألمانية للاصل العربي  
في آخرها مستشرق يقال له « مارك يوس من الر » ولم يرد في هذه النسخة اسم  
مؤلف الكتاب . فأثرنا ضم هذا التأليف أبصاً الى آخر بنى سراج وذلك لما يأتي :  
أولاً لان جل غايتنا من البداية هو التتقيب والاحفاء في قص آثار العرب  
الاخيرة في ديار الانداس

ثانياً لكون الكتب العربية المصنفة في هذا الموضوع نزواً جداً كما أشرف  
اليه في مقدمة الدليل وكما قال المستشرق مولر المار الدار في المقدمة الوجيزة  
الالمانية التي صدر بها طبع « أخبار العصر في انتشاء دجلة بنى نصر » المذكورة  
فانه قال : انه في العربية لا يوجد الا منابم قليلة جداً لاخبار مصيبة مسلمي  
غرناطة وان خلاصة المقرئ ( صاحب نفع الطب ) في هذا الصدد واضحة  
القص والآن عندنا خلاصة اخرى مخطوطة وجدت في قصر الاسكوريال  
( الشهير الواقع على مسافة ٥٠ يلواً متراً من مجريطا أو مدريد ) ولم يرد ذكرها  
في فهرست « كزيري »

ثالثاً لان صاحب هذا التاريخ كان معاصراً لكثيرة الاندلسية الالية فقد  
جاء في آخر الكتاب انه نجم يوم انشرته ٢٤ من جمادى الثانية من عام ١٤٧  
ويظهر من روح الكتابة انها كتابة رحل بمصر ويلوح لي أن المقرئ أخذنا  
وقد أشار المستشرق مولر في صدر نظريته الى انه مع كل ما هو عليه هذا  
المخطوط من الوجازة فلا تخو مطالبته من انفايده لانه نص شاهد عيان كان  
في الحادثة بنفسه وروى أخبار رسالة بنى جلادته وسياسة الخيام والغدر التي  
سار عليها ملوك الاسبان رواية صريحة محترق انفراد

